

قصص إنسانية في خضمّ الصراع بين الحضارات

عبد الواحد براهم





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



قصص إنسانية في خضمّ الصراع بين الحضارات

عبد الواحد براهم

• كاتب من تونس.

في هذه الرحلة المتخيَلة نصيب وافر من رؤى الكاتب وتصوّره للأحداث وإعادة تشكيل للشخصيات الأساسيَة، لكن المنطلق الأساسي تاريخي أصيل، والحدث القادح واقع عاشه أناس حقيقيّون وذاقوا حلوه ومرّه. ففي سنة 1599 فرّ الفقيه والمترجم الأندلسي أحمد بن قاسم الحجري (كُنيتُه الشهاب واشتهر باسم أفوقاي) من مدينته غرناطة هاربا من متابعات ديران التفتيش، ولجأ بعد أن غامر بحياته في البحر والصحراء إلى سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي فوظَفه مترجما بديوانه، واستمرّ يقوم بالمهمّة نفسها مع ابنه زيدان الذي أرسله في سفارة إلى فرنسا لمقاضاة بعض القراصنة الإفرنج.

قضى الحجري سنتين متنقلا بين عدّة مدن بفرنسا وهولندة، ووصف لنا بعد عودته مشاهداته وحواراته بدقّة وبأسلوب طريف. ولما تقدّمت به السنّ وفسدت أحوال الدّولة السّعديّة، استأذن في الذهاب إلى الحج، وفي نيّته الاستقرار عند العودة بتونس، لما بلغه من حسن استقبالها للاجئي الأندلس.

عرف الحجري مدنًا كثيرة، بعضها في موطنه الأصلي مثل الحجر الأحمر مسقط رأسه، وغرناطة وطليطلة وإشبيلية حيث تعلم واشتغل، وبعضها الآخر في العدوة الإفريقيّة مثل مراكش التي خدم سلاطينها وترجم لهم بعض الكتب أهمّها «الرسالة الزّكوطية» في التنجيم والفلك، ومثل تونس مستقرّه الأخير، وبها كتب أهمّ تأليفه: «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»، وهو كتاب مشتهر ولكنّه ضائع إلى اليوم، وإنما وصلنا مختصر منه وضعه الحجري بعنوان آخر هو: «ناصر الدين على القوم الكافرين». ثم ترجم عن الأسبانية وهو بتونس كتابا في الفنون العربية اسمه: «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» لمواطنه الأندلسي إبراهيم غانم.





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com




ثلاثيّة الأندلس

قصص إنسانية في خضمّ الصراع بين الحضارات

تغريبة أحمد الحجري (رواية)

قبّة آخر الزمان (رواية)

إسبانيا حاضنة الأندلس (رحلة)

عبد الواحد براهم



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1091-2

ردمك 978-9938-834-58-1



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 00055
البريد الإلكتروني: arelamane@menara.ma





دار سحنون
للنشر والتوزيع 10 مكرر نهج هولاندا 1000 تونس
الجمهورية التونسية
الهاتف: 0021671253456
الفاكس: 0021671352926
المايل: alouini.aws@planet.tn

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

طبع في لبنان

المحتويات

عبد الواحد براهم

تغريبة أحمد الحجري

(رواية)

مقدّمة

عبد الواحد براهم مؤلّف هذا الكتاب أديب تونسي من مواليد بنــزرت عام 1933، يسهم في حركة بلاده الثقافية منذ خمسين سنة، سواء بالتــدريس أو إدارة الأنشطة الثقافية (وزارة الثقافة، مجلّة الفكر، اتحاد الكتّاب، منظمة الألكســو)، أو بالكتابة الأدبيّة في الصحف والمجلاّت. عمل مستشارا في ميــدان النشــر لعــدّة مؤسّسات (الشركة التونسية للتوزيع، مؤسّسات بن عبد الله، دار سراس للنشــر، عالم الكتاب) ولدى منظمة اليونسكو (1985). أنشأ شركة لتصــدير الكتــب (1990) ووضع أول فهرس نقدي للمنشورات التونسية (1991). تــولى رئاســة اتحاد الناشرين بتونس (1996)، وهو متفرّغ حاليا لإنجاز أعماله الأدبيّة.

صدر له من الكتب: في بلاد كسرى (قصّة رحلة إلى إيران)، ظــلال علــى الأرض، مربّعات بلاستيك (مجموعتا قصص)، حبّ الزّمن المجنون (رواية: جــائزة كومار 2001)، قبّة آخر الزمان (رواية: جائزة المدينة 2002) بحر هادئ... سمــاء زرقاء (رواية صدرت 2004)، بنــزرت تاريخ وذاكرة (بالاشتراك)، علّيسة أميرة قرطاج، أحمد ابن الجزّار طبيب القيروان، توماس أديسون يروى قصّــة حياتــه، غاندي يروي قصّة حياته (كتب سيرة مبسّطة لمطالعات الشباب).

في هذه الرحلة المتخيّلة نصيب وافر من رؤى الكاتب وتصــوّره للأحــداث وإعادة تشكيل للشخصيات الأساسيّة، لكن المنطلق الأساسي تــاريخي أصــيل، والحدث القادح واقع عاشه أناس حقيقيّون وذاقوا حلوه ومرّه. ففي سنة 1599 فرّ الفقيه والمترجم الأندلسي أحمد بن قاسم الحجري (كُنيتُهُ الشهاب واشتهر باســم أفوقاي) من مدينته غرناطة هاربا من متابعات ديوان التفتيش، ولجأ بعد أن غــامر بحياته في البحر والصحراء إلى سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبــي فوظّفــه

مترجما بديوانه، واستمرّ يقوم بالمهمّة نفسها مع ابنه زيدان الذي أرسله في سفارة إلى فرنسا لمقاضاة بعض القراصنة الإفرنج.

قضى الحجري سنتين متنقلا بين عدّة مدن بفرنسا وهولندة، ووصف لنا بعد عودته مشاهداته وحواراته بدقّة وبأسلوب طريف. ولما تقدّمت به السنّ وفسدت أحوال الدّولة السّعديّة، استأذن في الذهاب إلى الحج، وفي نيّته الاستقرار عند العودة بتونس، لما بلغه من حسن استقبالها للاجئي الأندلس.

عرف الحجري مدنًا كثيرة، بعضها في موطنه الأصلي مثل الحجر الأحمر مسقط رأسه، وغرناطة وطليطلة وإشبيلية حيث تعلم واشتغل، وبعضها الآخر في العدوة الإفريقيّة مثل مراكش التي خدم سلاطينها وترجم لهم بعض الكتب أهمّها «الرسالة الزّركوطية» في التنجيم والفلك، ومثل تونس مستقرّه الأخير، وبها كتب أهمّ تأليفه: «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»، وهو كتاب مشتهر ولكنّه ضائع إلى اليوم، وإنما وصلنا مختصر منه وضعه الحجري بعنوان آخر هو: «ناصر الدين على القوم الكافرين». ثم ترجم عن الأسبانية وهو بتونس كتابا في الفنون العربية اسمه: «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» لمواطنه الأندلسي إبراهيم غانم.

لكن أطرف ما يؤثر عن الحجري أخبار سيرته ومغامراته، لأنّها رجع وفيّ لصدى الأحداث الكبرى في عصره. فمقامه في غرناطة كان عقب إخماد ثورتها وتشريد سكانها العرب مباشرة، أي في أوج نشاط ديوان التفتيش وتخطيطه لحملة الطرّد النهائي. ثمّ ترافق وصوله إلى مراكش مع أزهى عهود الدولة السعدية، كما ترافق خروجه منها مع أظلم تلك العهود. وفي فرنسا زار باريس وبوردو، وروان، وتولوز، وأولون، وجرت له فيها وقائع ودارت بينه وبين شخصياتها المهمّة نقاشات علميّة ودينيّة. ثم عاد من رحلته عن طريق هولندة، فزار أمستردام ولاهاي ولايدن، حيث تقابل مع النواة الأولى لمدرسة الاستشراق بهذه المدينة، مثل العالم أربنيوس وتلاميذه، وحيث استشاره الأمير موريس حاكم البلاد في تدبير خطّة لخلع ملك إسبانيا. وآخرة المراحل كانت وصوله إلى تونس، وفيها شاهد ما يلقاه بنُو وطنه اللاّجئون من تشجيع الدايات الأتراك على الاستقرار وإنشاء المدن، مما أحدث حركة عمرانية واقتصادية هامّة.

لذا يكون أحمد الحجري، بثقافته المزدوجة ومناظراته الجريئة، وتحوّلــه بــين الأفكار وتحوّله في الأمصار، شاهدا على القرن السابع عشر، عصر الصراع الشرقي الغربــي، والغليان الديني والعقدي، وتصبح حياته مرآة لحقبة تاريخيّة تعتبر مرجعا هامًّا بل وأساسيًّا للتاريخ المعاصر.

وقد صاغ الكاتب عبد الواحد براهم حياة الرجل وما تقلّب فيه من أحداث بأسلوب روائي يمتع بقدر ما يجعل التاريخ «ديوان عبر» بالمفهوم الخلدوني.

باب الأندلس

ذكر أيام الحجر الأحمر

توقّدت الشمس كجمرة كبيرة، شواظها الحارق يفلق الحجر. خافت السلاحف والزواحف من حرّها فاختفت، واحتمى العمال والرعاة بخرفاهم تحت شجر الخرّوب. ظلّت الأبقار النافرة تجري وحدها في كل اتجاه، يطاردها البعوض وصغار الطير، وظللت أنا وأخي نلهث وراء أتان وجحشها، نريد ملاعبتهما فيهربان ويركضان بين الشجر، والأمّ غاضبة مسبلة أذنيها إلى الخلف، وصغيرها يركل الهواء برجليه، وينط كالجرادة.

متنا تعبا وعطشا. تواصل اللهاث. تفصّد العرق من كلّ مكان. لا نأبه لذلك ولا ننثني عن مطاردة الحمارة وابنها. لم نفكّر أيضا أنّ أمّنا روزاليا قد تقلق وتطلبنا فلا تجدنا، لكن هذا حصل بالفعل، بل إنّها أمرت بإحضارنا بين يديها على جناح السرعة. ثم استقبلتنا بكلّ الغضب الذي استوجبه تهوّرنا. ألم نتعرّض لضربة شمس قد تكون مميتة؟

حبست أخي بين ركبتيها بيد صارمة. سكبت ماء زهر الليمون على شعره، مسحت وجهه المحتقن وهي تدمدم وتهدّد، متمنّية أن يعود الأب في التوّ من المدينة ليرى ما حدث، ويعطي عليه الجزاء الأوفى. وقفتُ خائفا قرب دفّة الباب، أهذي بكلام غير مرتّب ولا يعني شيئا، وإنّما هي أصوات انطلقت حرّة من فمي دون أن أشعر:

«لم نكن نجري وراء الأتان يا روزا العزيزة. هي الأتان كانت مجنونة لا تدري ما تفعل، لا هي ولا ابنها، ذلك الصغير الطائش، انطلقا يجريان في الشمس، لا أدري لماذا؟... أمّا أنا وأخي فكنّا نجري في الظلّ، ولا نريدهما بسوء، كنّا نريد اللّعب معهما فقط... قلت لأخي تعال نلمس شعر ذلك الحمار الصغير ونعود إلى

البيت. هذا كلّ ما أردنا. لم يتعبنا الحرّ وإنّما حماقة تلك الأتان التي لم تفهم قصدنا وطيش ابنها».

وجّهت روزاليا نحوي نظرة ناريّة زادتني ارتباكا، لم تكن راضية أبدا عمّا فعلنا، ، سننال بالتأكيد عقابًا صارمًا. عُدتُ إلى الإلحاح في الاعتذار:

«اشتهيت العثور على سومبريرو يغطي رأسي لكن لم أجد. ما الفائدة، فحتّى لو وجدته لما أراد البقاء على رأسي، لأنّه يسقط على الأرض كلّما شرعت في الجري. أحلف أنّني لم أضيّع شيئا من ثيابي، ولكن أشيائي لا تريد البقاء حيث أضعها. إنّه ليس ذنبي يا روزا كما ترين... هناك من يغيّر الأدباش من مكانها. لستُ مسؤولا عن كلّ ما يحدث في البيت أقسم لك مرّة أخرى يا روزا».

كشفت روزاليا هذه المرّة عن أسنانها البيضاء. تحفّزت وهرت كقطّة متوحّشة ثمّ صرخت بأعلى صوتها:

«اسمع أنت يا ثرثار... إمّا أن تكفّ عن الكلام وإلاّ والله... والله». بقي نصف العبارة في فمها. توقّفت فجأة. تحوّلت نظرتها الغاضبة إلى اندهاش ثمّ إلى فزع. ارتفعت يدها المرتعشة إلى شفتيها فضمّتهما في قبضتها. رأيناها من خلال وجومنا وحيرتنا تسبل جفنيها وتركّز النظر على موقع قدميها، كأنّما هبط عليها الحزن فجأة. ماذا جرى لروزا؟

لم نفهم سبب هذا التحوّل، كما لم نفهم عبارة التهديد ذاتها، لأنّها نطقتها بلغة لا نعرفها. أطلقت تهديدها باللغة العربية دون أن تشعر... وها نحن نسمع كلاما عربيًّا لأوّل مرّة في حياتنا.

لم يكن ما حدث أمرا عاديًّا. كان زلزالا هزّ حياتي وفصمها منذ ذلك اليوم إلى شطرين: أحدهما جهري ظاهر معلن، والآخر مكتوم مستور مُغطى. صار لي اسمان، ودينان، ولغتان، ومن عجب أنّ هذا هو حال أفراد الأسرة جميعا دون أن أدري. هكذا كانت الأمور تسير، وأنا لا أعلم. واليوم عرفتُ أنّ اسم روزاليا المنزلي هو وريده، وأنّ النطق به خارج البيت أو أمام الأغراب ممنوع.

كانت روزا، كما يحلو لي أن أناديها، مواظبة على كنيسة الأحد، وعلى الصلوات الخمس في بقيّة الأسبوع. صليبها الذهبي يلمع على صدرها كلّما

ظهرت للناس، ثم يختفي حين تخلعه وتمسح مكانه بماء الورد عند دخول البيت. أبواي مسيحيّان في النهار، ومن تقاة المسلمين في الليل. بهذه الطريقة ربّياني، وفي هذه السبيل دفعاني بتوجيه خفيّ أوّل الأمر، ثم بوضوح لما كبرت.

قالت لي روزا فيما بعد:

«كُنّا في غمّ كبير ونحن نراك أنت وأخوك تتعلّمان على يد الراهب طقوس المسيحيّة، وترتّلان في البيت ما يلقّنكما من أناشيد. ولكن المحاكمات الظالمة كمّمت الأفواه وكتمت الأنفاس. وكان أبوكما يواسيني كُلّما رآني حزينة من عجزي على تربيتكما كما أريد وأشتهي: ماذا عساك تلقّنين طفلا سرّه في طرف لسانه..؟ إنّه قد ينزلق ويحكي عفويًّا ما جرى في بيت أهله مقابل قطعة حلوى».

وقالت لي في مناسبة أخرى:

«كُنّا مُجبَرين على تعميدك في الكنيسة وإلاّ عوقبنا بالسّجن، أو ربّما أخذك منّا القساوسة ليُربّوك على دينهم.

- فهم الذين أعطوني اسم فليكس الذي أُدعى به في المدرسة؟
- نعم يا أحمد... ذلك هو الاسم الذي عُدنا به من حفل الكنيسة والقلب منقبض والروح حزينة، فسارعت جدتك بنزع ثوب التعميد الأبيض، وغسلتك بالماء الساخن، وفركت رأسك بلباب الخبز لتزول رائحة الزيت المقدس. ثم أمسك جدّك أذنك اليسرى وقرأ فيها آية الكرسي، ثم أذنك اليمنى ونادى فيها بالأذان. ألبسناك بعد ذلك جلبابا مطرّزًا، وحلّينا جيدك بقلادة عنبر وأصابعك الصغيرة بخواتم الفضّة حتى صرت كالعريس».

أضاف والدي متلذّذًا بالذكرى:

«يومها سمّيناك أحمد بحضور العائلة كلّها، وذبحنا عجلا ليكون قربانا إلى الله وأطعمنا فقراء الناس».

ابتسمت روزا: «ذبحنا أسمن عجولنا ووزعنا نصفه صدقات. ترأس المأدُبة يومها فقيه مشهور وختمها بدعاء بليغ ما زلتُ أتذكّر بعض كلماته اليوم فيقفز الدمع إلى عينيّ».

منذ عرفتُ أنّ اسمي هو أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم شرع والداي في تلقيني أصول نسبتي وانتمائي إلى الديانة المحمّديّة، وعلّماني قواعد اللّغة العربية في زمن ضاع فيه أثرها وأثر الإسلام بالأندلس، حتى لم يعد عامّة أهله يعرفون منهما اليسير أو الكثير. فدواوين التفتيش أحرقت ما عثرت عليه من كتب بعد سقوط غرناطة، ثم طاردت بعد الثورة كلّ من ورث مخطوطا عن أهله، أو وَرَدَ عليه من الخارج.

من ذلك ما حكته أمّي أنّ جارنا دياقو هارون عوقب بغرامة هي عبارة عن ثروة صغيرة، لا لأنّه لم يسلّم كتبه، بل لأنّه لم يسلّمها في الوقت القانوني المحدّد. احتجّ بأنّها كتب زراعية فقيل له في المحكمة: يكفي أنّها مكتوبة بالعربية. أضاف والدي أنّ القاضي قال له: لكتابك وللسلاح نفس القيمة والخطر في نظر المحكمة.

لذا فنحن لا نتناول كتبنا العائليّة إلاّ بعد غلق الأبواب والنوافذ والنظر فوق السطوح، ثم نعيدها بعد التلاوة والمراجعة إلى تجاويف صنعناها في أخشاب السقف. بعض هذه المخطوطات ورثناها عن جدّنا الفقيه قاسم، وأخرى بقيت لأمّي من تركة أبيها، وكان بدوره فقيها وفلاّحا ماهرا في نفس الوقت.

أدركت جدّي للأمّ هذا، ولعبتُ بجواره على مفارش الزيتون في موسم الجني، كما جلستُ مرّات في حلَقَة العُمّال وهو يعظهم واقفا خارج الدائرة بقامته الطويلة، وقد يقرفص ماسكا بالإبريق ليعلّم أولئك الفلاحين البسطاء طريقة الوضوء. أمّا في ليالي الشتاء فيجمع صغار العائلة وكبارها في قبو المنزل، أو في غرفة موصدة، فيتلو سورا من القرآن بصوت رخيم، ثم يدعونا إلى ترديد قصيدة البردة وراءه:

أمِنْ تذكّرُ جيران بذي سَلَمٍ مَزَجْتَ دمعًا جرى من مُقلة بِدَمِ

فنتمايل شمالا ويمينًا، ونعيد بصوت منغّم بعد كلّ مقطع يقوله:

مولاي صلّ وسلّم دائما أبدا على حبيبك خيرِ الخلقِ كلّهم

ويذهب إلى المقطع الموالي ونحن نُردّد منتشين ولا نتعب إلى أن ينقضي شطر من الليل، فنقوم جميعا لصلاة العشاء، ثم ننام.

ولدتُ في قرية الحجر الأحمر الواقعة غرب غرناطة قدر مسير يوم أو بعض يوم، لذا كنا على علم دائم بمجريات أمورها، وتأثر متواصل بما تقلب فيه مصيرها.

ولدت عام انهزمت ثورة غرناطة ووضعت السلاح، وأخرج المسلمون منفيّين إلى قشتالة وغيرها، مسلوبين مصادرة أموالهم وأملاكهم. وصار عمري عاما عندما انهزم الأتراك العثمانيون في معركة ليبانتي، وبلغتُ العامين عند افتكاك الإسبان لتونس من العثمانيين.

وانتظرت مع بني قومي نجدة وعد بها الأسطول العثماني، لكنّها لم تظهر في صيف 1577 ولا في شتاء 1578 ولا في ربيع 1579. تأجّلت كلّ الانتفاضات المرتقبة، ولم تأت الاستغاثة بالجزائر والقسطنطينيّة بنتيجة، بل ظلّت الحال على ما هي عليه من خوف وترقّب، وشكوك وتوجّس، إلى أن تأكّدت السلطات الإسبانية أنّ الشوكة المخيفة انكسرت، وأنّ أيّ انتفاضة بمساعدة الأتراك لم تعد ممكنة. عندها أخرجت كلاّباتها الكبيرة وبدأت القمع بصورة منظّمة لا تعرف الرحمة.

وإذ تزامن مولدي مع فترة الهزائم المتواترة، فقد تدرّبت على مسالك الحيطة والحذر، وهيّأتني تربيتي العائلية. بالقدوة الحسنة والرياضة الروحيّة المتستّرة. على مواجهة صعوبة الوضع بصلابة داخليّة وليونة خارجيّة تستجيب بالأفعال وردود الأفعال لما تتطلّبه حياة كل يوم.

قدم والدي قاسم بن أحمد من مدينة بيجار الشمالية، لذلك ظلّ أهل قرية الحجر الأحمر يدعونه البيجارانو لفترة طويلة، حتى بعد أن تزوّج روزاليا وشارك أباها في فلاحته التي ازدهرت بفضل الرجلين فترة طويلة من الوقت.

وصف لي قاسم البيجارانو موطنه الأصلي، بعد أن كبرت، وكُنّا نتجوّل في حقل العنب:

«لاتوجد في بيجار أرض خصبة كهذه تمتدّ فيها الحقول مستريحة في السهل البسيط أو متكئة على الهضاب الخفيفة المكتنزة، وإنّما هي جبال وعرة وغابات كثيفة الشجر، كثيرة الصيد والحيوان الوحشي، فعيشنا أغلبه من الاحتطاب وبيع الخشب، أومن تربية المواشي والخيل».

أسأله ببراءة الطفل:

«ولماذا لم تأت ببعض الخيل إلى هنا؟ إني بدأت أغرم بركوبها».

ولا يفهم عقلي الصغير آنذاك لماذا حجزت له الحكومة خيله ومنعته من حقّ امتلاكها والاتجار فيها، وإنّما أدركت، بعد أن تقدّم بي العمر، أنّ والدي اتُّهم، كما أبوه من قبله، بمساعدة ثوّار الجبال، وتزويدهم بالخيل والبغال أثناء حملاتهم على السلطة وقطع الطرق.

ضاقت سبل العيش بقاسم بيحارانو فهاجر جنوبا ليعمل أجيرا عند أحد الفلاّحين الكبار بالحجر الأحمر قرب غرناطة، ثم ليصير له صهرا وشريكا، ثم ليكون هو وروزاليا المالكين لمزرعة ذلك الجدّ الطيّب المليئة عنبا وزيتونا تمتدّ أغراسه من حدود القرية إلى نهر شنّيل. وفي مرابع تلك المزرعة قضيتُ طفولتي لاهيا في أوقات الفراغ، ساعيا إلى مدرسة الكنيسة في الصباح، محنيّ الظهر في المساء على قنديل الزيت والكتب الصفراء تسحبها أمّي من أخشاب السقف، وتهجّيني الحروف والكلمات بصبر جميل. ولا نجد حرّيتنا كاملة إلاّ عندما نخرج مع جيراننا العرب إلى مزارع بعيدة للاحتفال بعصر غلال الصيف وتجفيف البقول، وطبخ المربّيات بأنواعها، استعدادا لفصل الشتاء. ويسبق هذا عادة خروج النصارى في أوائل الخريف للاحتفال بعصر الخمور، حيث ينحرون الخنازير ويسكرون ويرقصون. أمّا نحن فنصنع قصاع الكسكسي، ونغنّي ما بقي في ذاكرة البعض من موشحات عربية موروثة عن غرناطة، ونرقص ونمرح ونتنادى بأسمائنا البيتيّة دون رقيب، لأنّ المكان يحاط عادة بالحراسة المشدّدة كي لا يأتيه جاسوس أو متطفّل، في عهد كثرت فيه الوشايات واستشرت نارها، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

في موسم جني الزيتون يتكاثر العمّال في حقلنا، ويجلبون معهم بغالا وحميرا لنقل المحصول إلى المعصرة، فأتقرّب إلى بعضهم بهدايا الحلوى والطعام لأركب دابّته بعض الوقت وأطوف بها بين الزياتين. كان أغلبهم يبيت في طرف الحقل، فيشعلون نارا عظيمة ويجلسون حولها للسمر والدفء، فأسترق الخطو أحيانا

وأخرج من البيت خفية عن أبـي لأجلس غير بعيد عنهم، أو لأتسـلّق جـذع زيتونة قريبة من حلقتهم. ذات ليلة، وأنا أرصدهم، لم يتّضح لي من لغطهم شـيء في أوّل الأمر، ثم عندما أشار عليهم رجل طويل القامة أبيض اللحية بالسـكوت انتبهوا له، فبلغني كلامه بوضوح. قال:

«تبعث السماء من حين إلى حين رجالا صلحاء طيّبين لتخفيف البؤس عـن البائسين، وما يمارسه الظلاّم من عباده على بعض عباده الآخرين، ولا تدري أحيانا من أيّة طائفة يأتون، حتى أنني رأيت في المشركين من هم أرحم بالمسـلمين مـن بعض إخوانهم».

أراد أحد المستمعين مقاطعته فأشار إليه بيده، وطلب منه بهدوء أن يستمع إلى بقيّة الحديث:

«... إنّي أحببت إسماعكم ما فعله سانشو دي كردونا مع أتباعه وعمّاله من المسلمين. فرغم أنّه مسيحي قدم إلاّ أنّه زار مزرعة له متّصـلة بقريـة آثانيتـا، وسكّانها كلّهم مسلمون، فرأى بناية متهدّمة كان أهل القرية يتخذونها مسـجدا، فوجّه اللوم للسكان على إهمالهم وتركهم البناية على تلك الحالة. ولما قال أحـد مرافقيه: إنّها مسجد وإنّ أهل القرية لا يجرؤون على ترميمـه حـتى لا يخـالفوا القوانين الملكية... أجاب سانشو: إنّه يسمح بذلك، بل يأمرهم بـه ويسـاهم في نفقاته. والنتيجة كانت إعادة بناء المسجد وإحاطته بالأروقـة المريحـة وأمـاكن الوضوء».

وكان أهل الجهات المجاورة لآثانيتا يزعمون احتواء المكان على رفات قدّيس مسلم تعوّدوا على زيارته بحرّية منذ القدم، فيأتونه حفاة كما يحـجّ النصـارى إلى قدّيسيهم. وحدث أن زار المنطقة أحد مفوّضي أسقف بلنسية، وشـاهد بنفسـه إقامة الشعائر الإسلامية في المكان، لكن سلطته لا تقوى علـى عصـيان أوامـر سانشو، وبالتالي لا يستطيع الأمر بهدم المسجد، فاكتفى بدهن علامة الصليب على أركانه لكي يفهم أتباع سانشو أنّه يجب الكفّ عن إقامة شعائر الإسلام في ذلـك المكان. وفي النهاية تدخّل الملك فيليبـي وأمر بهدم المسجد. ومع ذلك استمرّ أهل القرية يقيمون شعائرهم كالعادة ويحتفلون بأعيادهم غير خـائفين، لأنّ سانشـو

حثّهم على عصيان من يمنعهم، لأنهم عمّدوا قسرا دون رضى. ويقال إنّه أرسل شخصيات مهمّة إلى روما لإعلام البابا بأنّ الناس يجبرون على تغيير دينهم، كما كاتب سلطان تركيا يدعوه إلى مخاطبة البابا وملك إسبانيا لاستنكار الأسلوب المتّبع مع مسلمي بلنسية فيما يتعلّق بأمور الدين».

قام ذلك الذي أراد التكلّم في البداية:

«إذا كانت أفعال ذلك الرجل الطيّب سانشو دي كاردونا قادته في النهاية أمام محاكم التفتيش... فما فائدة مسعاه الطيّب، وما الموعظة التي يتركها لغيره؟».

قال لوبّي الذي روى قصّة سانشو:

«أعرف أنّها شفقة مرهونة بالمصلحة، فقد يكون الرجل خائفا من هجرة العمّال وإقفار مزارعه... ومع ذلك نحن بحاجة إلى كلّ القلوب الرحيمة في وقت تكاثر فيه الأعداء وقلّ النصير».

قام أحد الموجودين في الحلقة واتّجه نحو أدباشه المكوّمة قرب سرج بغلته، فأخرج بحرص شديد من ثناياها لفافة قماش جلبت أنظار الجماعة وشدّت انتباههم. قال لوبّي:

«ما مفاجأتك هذه المرّة يا هارون؟».

لم يهتمّ به الرجل وواصل نزع قطعة القماش بحذر، وبعد الانتهاء رفع يده بكتاب اهترأت أطرافه وقال:

«هذا ما أمكن لزوجة ديقو أفيلا أن تنقذه من كتب زوجها قبل أن يأخذه المفتّشون إلى السجن ويحرقوا مخطوطاته الموروثة عن أبيه وأجداده من مائة عام أو أكثر».

هلّل أحد العمّال وصاح:

«جزاك الله بشفاعة محمد يوم القيامة يوم شفعت في هذا الكتاب وأنقذته من الحرق. هات اقرأ لنا شيئا منه».

قال هارون:

«لوبّي هو العارف بالقراءة، وسأسلّمه النسخة ليفيدنا بما فيها».

قام لوبّي لاستلام المخطوط، فأمسكه بيديه ورفعه إلى فمه فقبّله ثم جبهته، كأنّه يعلم مسبقا قدسيّة محتواه وأنّه واجب الاحترام. ثم عاد إلى مكانه وفتح الصفحات بحذر وأعناق الجماعة مشرئبّة نحوه تنتظر ما يقول.

«سأقرأ لكم باب الصلاة، قال لوبّي، فلا تقاطعوني ولا تسألوا عن أمر لم تفهموه حتى أتمّ القراءة. هذا باب الصلاة. إنّ آدم هو أوّل من صلّى، وقد أدّى صلاة الفجر، وإنّ الله قد أوحى إلى داوود صلاة الظهر، وإلى سليمان صلاة العصر التي يجب أداؤها في الثلث الأخير من النهار، وإلى يعقوب صلاة المغرب المؤلّفة من أربع ركعات. ويقال في هذا الصدد أنّ يعقوب وهو يؤدّي صلاة المغرب، كان قد أتمّ ثلاث ركعات منها عندما قدّم إليه قميص ابنه يوسف، فلم يستطع تأدية الركعة الرابعة وسلّم. وكان يونس هو أوّل من أدّى صلاة العشاء. وقد شرع الله الصلاة لمحمد عليه الصلاة والسلام ولأمّته بعد المعراج، وكلّف جبريل ليعلّمه كيف يؤدّيها، فظهر له جبريل في ساعة الظهر وقال له: أذّن يا محمّد، فأذّن وتقدّم جبريل وصلّى صلاة الظهر. ثم نزل جبريل في أوقات الصلوات الأخرى، وهكذا تعلّم نبيُّنا محمّد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام طريقة أداء الصلوات الخمس. وهي صلوات تمكن مقارنتها ببستان فيه خمس شجرات، ثلاث منها لا تصل إليها الشمس طوال اليوم، والاثنتان تصلهما الشمس طوال اليوم، الثلاث الأولى هي صلوات الصبح والمغرب والعشاء، والاثنتان الباقيتان هما الظهر والعصر»..

واستمرّ لوبّي يقرأ وسط صمت خاشع لايقطعه إلا طقطقة الحطب في النار، وقد هدهدني صوته الرتيب فأغفيت زمنا لا أدري كم هو، إلى أن أنهضني فجأة نشيد عذب جأرت به حناجر السامرين، حتى وإن كانت كلماته محرّفة منطوقة باللّكنة القشتالية الخشنة، إلاّ أنّها رسخت في ذهني فعادت تطفو على الذاكرة حينا بعد حين، رغم ابتعاد السنين:

كيف ترقى رُقيَّكَ الأنبياء   يا سماء ما طاولتها سماء

وكأنّما استفاق والدي على صوت الإنشاد فجاء يبحث عنّي، وإذا يده تُلامس كتفي، واذا صوته يدعوني إلى الالتحاق بفراشي، فالليل تقدّم واشتدّت رطوبته على جسمي النحيل.

رويت لأبي يوم الغد ما سمعته في السهرة، فتعجّب كيف يتجوّل هارون بمخطوط عربي على ظهر دابّته دونما خوف من المفتّشين وعقابهم الصّارم، فقلت:

«ومن عساه يتفطّن منهم ليبحث في أدباش ذلك الفلاّح الفقير عن مخطوط قديم، مهما يكن مقداره؟».

ضحك منّي وقال:

«الوشايات يا ابني، وقد تكون من الأصحاب أو الأقارب أو الخدم. نحن في زمن الرّيبة والشكّ، وقد يغدر المرء من زلاّت لسانه. فذاك المسكين ردريقو الروبيو من قرية ألبيتا وشى به ابن عمّه، وتلك خادمة من سيوداد ريال أعلمت ديوان التفتيش أنّ مخدوميها يحتفظون في بيتهم الريفي بغرفة سرّية مغلقة، ولما صدر الإذن بالمداهمة اكتشف فيها أربعة عشر كتابا بعضها بالعربية وبعضها بالأعجمية. وقد تطول القائمة إذا استرسلت في العدّ. بل إنّ لويس نونان من مولينا اتّهم والديه، وبالأخصّ والدته، بأنّهما مسلمان وكان سببا في موتهما».

مهما شدّدت الحراسة ظلّت الكتب العربية تتنقّل بواسطة التجّار. وقد علمت فيما بعد أنّ أهالي دازا مثلا كانوا يتحوّلون لقضاء شؤونهم إلى كتالونيا، شاحنين على دوابّهم أحمال الصّوف، ولدى رجوعهم ينقلون عليها الغلال واللّوز والبندق يشترونه من فلسات. إنّ هذه الرحلة الطويلة بين دازا وبرشلونة تستغرق عادة عشرين يوما وتتخلّلها محطات توقّف أراغونية، فتُنظم في الأماسي سهرات دينيّة لدى أحد الأندلسيّين، أو ينضمّ أحد الأراغونيّين إلى القافلة ليعلم أفرادها شوون الدين أثناء الطريق. وهذا ما تمّ في إحدى الرحلات التي كان يقودها بدرو زامورانو، وقد اجتهد هذا الأراغوني لإقناع الرجل الوحيد الذي رفض الصّوم، إذ كانت الرحلة في رمضان، بوجوب الصيام إذا كان مسلما حقيقيًّا، وقد أيّده جميع مرافقيه. وهناك رجل في سستريكا اسمه موسى سانشو لا بُدّ للتجّار المارّين بتلك

المدينة من المبيت عنده، وأخذ شيء من المواعظ وتعاليم الإسلام على يديه مقابل صدقات يقدّمونها وهبات. لكن أخبار هؤلاء جميعا كانت تصل بواسطة الوشاة والجواسيس إلى مسامع ديوان التفتيش.

لكلّ ما كان يدور حولنا من قصص مرعبة حرص أهلي على اتّقاء الشبهة وتحاشي المكاشفات العابرة، وتكرّر تنبيهي إلى عدم الانزلاق في الحديث مع أطفال المدرسة حول دروسي البيتيّة، بل إنّ أمّي كانت تختلي بزائرة عجوز طوال ساعات ولا تتركني أقترب من حجرتها أثناء ذلك، وإنّما علمت فيما بعد أنّها كانت تحفّظها القرآن وأحاديث الرسول، وهذا ما لقّنتني إيّاه بعد سن العاشرة، وهي نفس السنّ التي عرفت فيها اسمي الحقيقي بعد أن أخفي عنّي سنوات خشية أن أبوح به في ساعة غفلة، فتصير العائلة كلّها محلّ وشاية وتتبّع.

كان للجميع اسمان، وهم يردّون بدون تمييز عندما تناديهم بالاسم المسيحي الذي تسمّوا به يوم التعميد، أو بالاسم الإسلامي الذي أطلقته عليهم العائلة يوم الختان. وكثيرا ما كنت أمزح مع أحد حرّاس المزرعة فأفاجئه على حين غرّة وهو منهمك في إصلاح عربة أو محراث:

«أيّها الحارس فالنتين قل ما هو اسمك في الكنيسة... وما هو اسمك في البيت؟».

فيتوقّف عن العمل ويردّ بعد أن يمسح عرقه:

«في الكنيسة يسمّونني خوان، وفي البيت خوانيتو.

– لا... لا، اعترف وإلاّ ذهبت إلى النّار، فلك في العائلة اسم آخر». يفرك جبهته عندئذ كمن يتذكّر أمرا منسيًّا ويقول:

«آه... تذكّرته الآن فقط. دعني أقوله في أذنك همسا حتى لا أذهب إلى النّار اليوم قبل يوم القيامة».

ثم يقترب من أذني ويقول هامسا:

«في البيت اسمي حامد. وأنت ما اسمك في البيت؟».

فأضحك منه وأفرّ بعيدا حتى لا يلحّ في طلبه.

سمعت من أمّي أيضا قصصا عجيبة، قد يشكّ المرء أنّها حدثت فعـلا، من ذلك قصّة فكتوريا فيلومينا، الجارية المجلوبة من تونس، والتي عاشت أحد عشر عاما في بيت دون هرنندو أبنعامر قبل أن تتمكّن منها محاكم التفتيش على كرّتين، وتكيل لها التّهم بلا حساب.

كانت امرأة مسلمة قبل أن تؤسر، تعرف أنّ لها أبا يُدعى قاسم، وأختا أسرت مثلها وأخذت إلى صقلّية، ولا تعرف مكان بقيّة أهلها. اختطفت فكتوريا من طرف جندي أخذها إلى ترابانِي حيث تنصّرت وعاشت عنده أربع سنوات ثم باعها، وتنقّلت فيما بعد بين أربعة مالكين، أحدهم في بالرمو، والثاني في بلنسية، والثالث في أريفالو، والرابع في إشبيلية، وأخيرا حملت إلى مدينا دلكامبو حيث اشتراها تاجر يدعى دون هرنندو أبنعامر، وعنده استقرّت لمدّة أحد عشر عاما، وحسنت معاشرتها له فأثمرت ولدا وبنتين، ومات لها صبيّ رابع. لكنّها أنكرت عند المحاكمة أن تكون زوجة لهرنندو لأنّ للرجل زوجة قانونيّة، لذا وصفت بأنّها رفيقته أو جاريته، لكن مظهرها الأنيق وحليّها الثمين يثبتان بأنّها زوجة الرجل وليست مملوكة فحسب، وهي بالفعل قد تزوّجته بواسطة الفقيه لأنّ الإسلام يبيح تعدّد الزوجات، أمّا الكنيسة فتعاقب عليه.

لقد شهدت على فكتوريا متّهمة أخرى خدمت قرابة العشر سنوات في بيت دون هرنندو، وأقرّت برؤيتها كامل الأسرة تصلّي وتصوم رمضان، ويتصرّف أفرادها كالمسلمين تماما. وهناك شهادة ثانية من أحد الأجوار روى للمحكمة أنّ الناس يتحدّثون عن جارية تسكن بيت دون هرنندو، وأنّها قبل مجيئها إلى البلدة، أي عندما كانت في أريفالو تذهب إلى الكنيسة وتحضرالقداس بانتظام، وتعترف مرّة أو مرّتين في السنة كمسيحيّة مؤمنة، لكنّها تغيّرت منذ تسع سنوات و لم تعترف ولو مرّة واحدة، وهو يستنتج من ذلك أنّها عادت تعيش عيشة مسلمي البلدة. ثم جاءت شهادة ثالثة شبيهة بما سبق، فثبت لدى القضاة أن فكتوريا ارتدّت عن المسيحيّة بتأثير من عائلة أبنعامر التي احتضنتها.

دحضت المرأة كلّ التهم، واستنكرت أن يقبض عليها لمجرّد السهو عن أداء بعض الواجبات الدينيّة، لكن القضاة ضيّقوا عليها الخناق بأسئلتهم وباختبار

حذقها للطقوس والشعائر المسيحيّة، وبإجبارها على الاعتراف باعتناقها الإسلام وممارسة فرائضه عن عقيدة وإيمان، لكنّها دافعت عن نفسها بأنّ إبليس أغراها وزيّن لها تبديل دينها، فوقعت بين براثنه ضحيّة بريئة.

انتهت هذه المحاكمة الأولى بحجز أملاك فكتوريا وبتغريمها، مع إمكانية العفو عنها إذا التزمت باتّباع وصايا المحكمة، من ذلك قطع جميع صلاتها بدون هرنندو، وبالابتعاد في سكناها عن كلّ المورسكيّين، وعدم اتّباع عاداتهم وتقاليدهم، وأن تحفظ صلوات القداس في ظرف ستّة أشهر، وأن تحضر للاعتراف لدى القسّيس مرّة في السنة على الأقلّ. وقد وعدت المتهمة بتنفيذ كلّ الشروط، وبالتصرّف مستقبلا كمسيحيّة مخلصة.

بعد أربع سنوات أعيدت فكتوريا أمام المحكمة ثانية لتواجه تهمة إهمال ما تعهّدت بتنفيذه، فهي لم تنفصل عن دون هرنندو بدليل أنّها حامل منه مرّة أخرى، ولم تبتعد عن المسلمين بدليل أنّها حضرت بكامل زينتها وحليّها زواجا في دار خوان أبنعامر، كان فيه غناء ورقص، وهذا ممنوع عنها. ظهر أيضا أنّها ما زالت تصلّي وتصوم كسابق عهدها.

أنكرت فكتوريا جميع الاتّهامات ناسبة للشهود الحسد والعداوة والإساءة المبيّتة. فزيارتها لدون هرنندو تمت برخصة من المفتّش أقيليرا، أمّا حضورها وسط البلدة فكان لرؤية أولادها الذين ما زالوا صغارا محتاجين إليها، وهي لم تقصد حضور الزفاف إلاّ أنّه صادف حصوله أيّام وجودها في البلدة... وتمسّكت ببراءتها نافية صحّة ما نُسب إليها، حتى لبس الحليّ أنكرت علمها بأنّه محرّم عليها لأنّ أحدا لم يخبرها بذلك.

شعر القضاة بأنّ فكتوريا تخدعهم ولذا قرّروا تعذيبها. في بداية حصّة التعذيب طلبت أن يخرجوها لتعترف، لكنّها بعد أن خرجت أعادت أقوالها السابقة. وكلّما طلب منها القضاة أسماء من يزاولون الشعائر الإسلامية مثلها تقول أنّ جميع سكان البلدة عرب يمارسون شعائرهم كالعادة، وهي تعمّم التهمة عليهم لتنقذهم جميعا، إذ كيف للمحكمة أن تقاضي القرية بكاملها؟ وإذا سألوها هل لاحظت بحكم معاشرتها دون هرنندو أنّه يصوم رمضان مثلها... تظهر جهلها

بالأمر لأنّه يقضي كلّ الشهر في بلنسية بعيدا عن البيت. وكرّروا التعذيب لفكتوريا فلم تبح أبدا أنّها رأت دون هرنندو أو أفراد عائلته يمارسون شعائر الإسلام، بل تؤكّد أنّها قامت بأفعالها طواعية دونما تأثير من أحد، واحتملت التعذيب بصمت وثبات جأش جعلا المحكمة تقرّر في النهاية إعدامها حرقا.

كان القساوسة ينزعون إلى القسوة علينا ونحن أطفال، نخطئ في أداء القداس أو ننسى بعض الطقوس والصلوات، فيعاقبوننا بشراسة لم أجد لها تفسيرا إلاّ بعد اجتياز سنيّ الطفولة. إن من يضحك وقت الدرس يضرب ضربا مبرحا، ومن يغيب عن صلاة الأحد يجبر على جرّ ركبتيه على الحصى حتى تدميان، أمّا الشتائم فتقذف في وجوهنا لأقلّ الأسباب. ومع ذلك كان والدي يدفعني إلى الاحتمال وعدم المجاهرة بالسخط والعداء، حتى أصبحت كظوما صموتا أقرب إلى الانطواء، إذ علّمني أهلي أن السلامة، كلّ السلامة، في صون اللّسان، والحذر من كلّ إنسان.

أغلب الاحتفالات العائليّة كنّا نقوم بها خارج القرية، سواء في مزرعتنا أو مزارع الأصدقاء والأقارب، وما كان يسمح لي بالحضور وأنا صغير إلاّ في المناسبات الفلاحيّة، أمّا الأعراس وما شابهها فيجري التكتّم عليها وأمنع عنها، إذ يتركني أهلي مع بعض الخدم ويغيبون لأيّام، لا أعرف خلالها ما يصنعون. كانوا يعلنون فقط أنّهم ذاهبون إلى ضيعة فلان أوعلاّن دون ذكر المناسبة. ولما كبرت قليلا صرت ألحّ على مصاحبتهم، فتختلق أمّي الأعذار أحيانا بأنّ الطريق طويل وفيه ذئاب كثيرة قد تشتهي نهش الأطفال الصغار، أو أنّ الماء قليل حيث هم ذاهبون وستجد عناء في تنظيف ما أوسخ من ثياب، ولكني اكتشفت بعد تقدّم سنّي أنّ الذئاب لا تشتهي لحم الصغار بصورة خاصّة، وبأنّ المياه في جهتنا لايخلو منها مكان.

ثم هاهي المفاجأة تحصل ذات مرّة بعد بلوغي سنّ العاشرة، إذ ناداني والدي ذات مساء بينما كانت وريده تملأ السّلال بالمؤن والهدايا، ولما جلست بقربه مسح شعري برفق وقال:

«ستذهب معنا يا أحمد هذه المرّة... سنحضرجميعا حفل ختـــان في ضـــيعة كستلانو، فالرجل صديق لأسرتنا ولأبدّ أن نحتفل معه بهذه المناسبة السعيدة».

نظرت في عيني أبـــي و لم أفه بحرف، وكان ينتظر منّي أن أقفز فرحا وأرقص وسط الغرفة، فسكت قليلا ثم أضاف:

«لقد وضّحتُ لك عددا من شعائرنا وتقاليدنا الإسلامية، وهذا الختان هـــو سنّة تجري منذ عهد النبيِّ محمّد صلى الله عليه وسلم على صغار الصبية، إذ يقطـــع ذلك الجزء الزائد من أعضائهم المميّزة لهم كذكور حفاظا على النظافة والصحّة».

لم أرفع عيني عن الأرض وسألت أبـــي على استحياء:

«وهل قطعتم منّي ذلك الجزء دون أن أشعر؟».

ضحك قاسم الحجري وهو يجيب:

«من سابع يوم على مولدك. ولكن كيف لم تشعر بذلك؟... لقد صـــرخت وبكيت كما لم تبك من قبل أو من بعد».

أضافت وريده: «أنا التي تألّمت مكانك يا ولدي وبكيت يوما بطولـــه، لا أدري أمن فرحي بأنّك صرت في كمال الرجال، أم توجعا لوجعـــك وإحساســـا بآلام جرحك؟».

بقيت واجما أنظر إلى موضع قدمي دون أن يصلني ما استرسلت فيه وريـــده وقاسم من استرجاع لذكريات ذلك اليوم البهيج من حياتهما، حيث كان التئـــام العائلة والزغاريد وتوليم الولائم. انشغلت عنهما وخطر ببالي ما حدث يوما بعـــد خروجنا جريا من المدرسة أنا وزميلاي المسيحيّان القديمان: أدريان وكســـبار، إذ درنا خلف الكنيسة وتبوّلنا في ركن مهجور. لم يسمح المعلّم الغاضب يومها لأحد بالخروج حتى كدنا ننفجر من الحصر، بل فينا من تبوّل في سراويله. كُنّا مرتبكين فلم نراع قواعد الاحتشام التي تعوّدنا عليها، وبصورة خاصّة ما نبّهتني إليه وريده بشدّة من عدم التعرّي أمام الغير لأنّ هذا حرام كـــبير، وقـــد يتعـــرّض العضـــو المكشوف للناس إلى الحرق بنار جهنّم يوم الحساب. لقد حرصـــت أن لا يـــرى صاحباي من جهتي شيئا، إذ ملت عنهما قليلا وبقيت أراقبهما بطرف عيني مـــع ذلك، وهكذا أدركت الفرق بين شكل عضوي العاري الرأس المحاط بهالة محمـــرّة

الحواشي كآثار الجرح الملتئم، وشكل عضويهما المغمورين بقلنسوّة تشبه ما يغطي به القسّ مانويل رأسه، لولا أنّ بهما ثقبين يخرج منهما رشاش في كل الاتجاهات. وعندما تشكّلت الصورة الهزلية في ذاكرتي انفجرت ضاحكا كالمجنون، ووقفت أرقص وسط الغرفة صارخا:

«طش.. طش.. طش، طشطش.. طش».

فوجئت أمّي فتوقفت عمّا كانت تصنعه وسألت عمّا بي فأجبتها:

«أليس هذا هو صوت البيض في المقلاة؟

– نعم يا ابني... ما الذي ذكّرك به الآن؟

– ذلك لأنّي جائع واشتهيت بيضا مقليا».

قام أبي ليتفقّد ركائب السّفر، وقال وهو يخرج:

«البيض لايرد للمجنون عقله. ابحثي له عن مهدئ أعصاب يا وريده، فالفرحة بسفر الغد قد ذهبت بلبّه».

لم يعرفا سرّ اكتشافي، ولم أجد سوى تلك الحيلة للتخلّص من أسئلتهما. ولكنني حتى بعد أن أكلت بيضتين بالزبد، بقيت أفكر والنوم يغالبني في الفروق الأخرى الممكن أن تجعلني مختلفا عن أدريان وكسبار، وإلى أيّ حدّ أثّرت لعبة الختان هذه في تصنيف الناس وتحديد انتمائهم. إنّها تبقى علامة جسديّة مميّزة في نهاية الأمر إذا لم تقنع الحجج والأقوال.

سمعت أيّام مقامي بغرناطة حكاية عجيبة عن رجل فرنسي من تولون قدم ليشتغل في إسبانيا فلم يجد عملا، وقد تكون البطالة دفعته إلى السرقة، فحوكم بالسجن والأشغال الشاقّة مدّة سنتين، ثم أطلق سراحه بجبل طارق فقرّر الرجوع إلى وطنه قاطعا إسبانيا من الجنوب إلى الشمال، لكن سوء الحظ الذي لازمه جعله يمرّ من غرناطة وهي تعيش ثورة البشرات. وفي الطريق أسّره ثائر مسلم يدعى جيرونشيلو وأخذه معه إلى الجبل، وهناك أجبره على ترك دينه والإسهام في جيش الثوّار وحملاتهم ضدّ المسيحيّين، لكنّه هرب وواصل رحلة الرجوع إلى وطنه على مراحل استغرقت شهورا. وفي إحدى تلك المراحل اضطرّ للمبيت في قرية سان كليمنتي، واختار فندقا لقضاء ليلته، إلاّ أنّ صاحب الفندق استغرب هيئته ولهجته

فوشي به إلى مأمور القضاء. تم جلب الرجل وتفتيشه، ثم نـزعت ثيابه فاكتشف أنّه مختون. وفي محكمة التفتيش دافع المسكين عن نفسه كثيرا، وأخبر أنّه ارتد عن دينه إرضاء لخاطفيه فقط إلاّ أنّه ما زال يحتفظ بشعلة الإيمان بالمسيح في قلبه، وأنّه نافق العرب وأسلم حتى لا يقتلوه. لم ينفعه دفاعه المستميت و لم يمنحه فرصة أن يرى بلده تولون بعدئذ، بل سيحكم عليه بقضاء ما بقي من حياته متـنقّلا علـى ظهر السفن، جدّافا بدون مقابل.

وصلنا إلى ضيعة كستلانو في عربة بجوادين نصفها مليء بالهـدايا: أكيـاس زبيب ولوز مقشّر وأحمال من غلال الموسم، وجدي عصبيّ المـزاج يمـلأ الـدنيا صراخا كلّما لمسته يد. جاء أصحاب الضيعة وضيوفهم لاقتبالنا عند الباب، وتجمّع الصبية حولي ليكتشفوا ثيابـي الجديدة المرصّعة بتطريز وتزاويق على هيئة الأهلّـة والنجوم وأغصان الشجر مما لا أرى الناس يستعملونه عادة، وقد تكـون وريـدة صنعته خصّيصا لمثل هذه المناسبات المغلقة.

انقضى اليوم كلّه في إعداد وليمة الغد، فذبح جدينا وأجداء أخرى، وقـدم لحمها على قصاع الكسكسي، وصنعت الحلويات بأيدي صبايا لا أدري كم كان عددهنّ. في اليوم الموالي أقيم الفرح منذ الصباح، حيث انتصبت فرقـة موسـيقيّة تحت عريش الكروم، وبدأ عزف ورقص اشترك فيه الجميع كبارا وصغارا.

قدم عند الظهر الحجام، فأتي له بالصبيّ وقد زيّن رأسه بقوفيّة مذهّبة، وغُطّيَ جسمُه العاري برداء من حرير. أحاط به الكهول فلم أشاهد تفاصيل مـا أنجـزه الحجام وما بسببه علت صيحة استغاثة من الصبيّ، وانهمرت دموع أمّه خلف باب الغرفة الموارب، صاحبه تأوّه حارّ من صدر الأب المتظاهر إلى حدّ تلك اللّحظـة بالشجاعة ورباطة الجأش، لكن العبرة خنقته في النهاية وهو يمسك بكتف زوجتـه ويجرّها إلى خارج الغرفة، بينما الدفوف وأصوات الغناء تغطي صـراخ الطفـل واستنجاده.

مدّت الموائد بعد ذلك فأكلت، وعبثت مع الصبية والبنات كما لم أفعل منذ زمن بعيد، حتى إذا جاء وقت العصر سمعت أبـي يناديني بين أشـجار التـوت

فذهبت إليه. أخذني من يدي وقال:

«كفاك لعبًا الآن. حان وقت صلاة العصر فاذهب لتتوضّأ ثم التحق بي في البرطال حيث سيلقي الفقيه علينا درسا هامًّا.

- وهل جاء الفقيه بعد؟
- الفقيه هنا منذ الصباح يا مغفّل... إنّه هو الذي ختن كستلانو الصغير.
- حجام هو أم فقيه؟
- الاثنان معا... ألا يعجبك؟ كفى ثرثرة والتحق بي سريعا».

بعد الصلاة كان جميع الرجال جالسين في البرطال على سجّاد كبير، ومن خلفهم بجنب العريشة جلست النساء، وجميعهم يواجه الفقيه وهو على كرسي مرتفع، أمامه مائدة عليها كتاب مفتوح، وقد لبس ثيابا غير التي رأيته فيها أثناء الختان، فهي هذه المرّة عباءة كبيرة مطرّزة بالذهب والحرير، وعلى الرأس عمامة أنيقة تخرج منها ريشة خضراء اللون.

ظلّ الفقيه يعظ الحاضرين ساعة وهم في صمت وانتباه، حتى إذا انتهى مرّ إلى الأذكار ومدح صفات المؤمنين، وختم بدعاء طويل، أتذكّر أنّه قال في آخره: «يا من تغفر وتحفظ، اغفر لوالدي هذا الطفل المختون ولكلّ الحاضرين. واجعلنا برحمتك من المختارين. فأنت ربّ العالمين. اللّهمّ أسبغ رحمتك على قرّاء القرآن ومن يسمعون قراءته، وهب لهم النعم والجزاء الذي وعدت به المحافظين على تعاليم كتابك الكريم، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم».

وكان الجميع يردّدون كلمة آمين عند كلّ مقطع من الدعاء، يقولونها بقرارة إيمانهم المكبوت في صوت واحد يختلط فيه الجهوري الغليظ بأصوات الأطفال والنساء الرقيقة المنغّمة، فيمتزج جميعها وسط السكون الشامل الذي يسبق ساعة الغروب، ويتغلغل في النفس فترقّ وتشفّ وتلين للإيمان بوحدة الكون وتحاوب الخالق مع مخلوقاته. وفي نهاية الدعاء جأرت الصدور والحناجر بقراءة الفاتحة. وأذكر أنّني قرأتها بحماس خاصّ، وإحساس غامر بالدفء قد ملأ نفسي وسط هذا الجمع المتراصّ المتحاوب، حتى إذا لقيني أبي أثناء مغادرة البرطال ورأى أثر ذلك في وجهي، ابتسم لي بتودّد ومسح شعري ورقبتي بكفّه الخشنة.

كنت مغيّبا عن مثل هذه الاحتفالات نظرًا لعلاقتها بالدين والعقيدة، أو بالعادات والتقاليد، كان يحضرها والداي خُفية عنّي، وأحيانا يتسلّلان كالهاربين حتّى لا أتعلّق بهما وأصرّ على مرافقتهما. كان الخوف من انفلات عبارة أو إشارة بسيطة إلى حدوث مثل تلك الاحتفالات مدعاة إلى المثول أمام المحكمة والتعرّض للغرامات المالية، وأحيانا إلى عقوبات جسدية قد تبلغ الإعدام حرقًا.

صرت أحضر مع أبي مواكب الخطبة أيضا، وقد اصطحبني مرّة إلى بيت أناس يعرفهم لطلب يد ابنتهم إلى شابٍّ من عائلة أمّي، يبدو أنّه أحبّها ولو عن بُعد. سرنا في جماعة لا تقلّ عن العشرين شخصا إلى والد الفتاة، فاقتبلنا في أجمل غرف بيته.

تكفّل أكبر الجماعة سنًّا ليقول لصاحب الدار:

«هذا عثمان بن إبراهيم جاء إلى هُنا ومعه أصدقاؤه وأقاربه ليطلب منكم بكلّ مودّة ورغبة يَدَ ابنتكم زاهية بنت حمدان، لتكون له زوجة ورفيقة شرعا، بالبنود والشروط التي أقرّها الله للعلاقة بين الرجال والنساء، وعلى سنّة نبيِّنا محمد وهي ثلاثمائة سويلدو من الجواهر، وثلاثمائة مثلها صداقا. ويمنحها كلّ شيء تستحقّه شرعا، والحاضرن شهود على ذلك. وليس لدي ما أضيفه سوى أنني أنتظر ردّكم الطيّب».

أجاب والد الفتاة:

«مرحبا بك يا كبير الجماعة وبأصدقائك وأقاربك. بما ذكرتم أو بدونه نتلقى مودّتكم ورغبتكم، ونحن مسروررون لقدومكم. أنا حمدان بن الركواني أقدِّم زاهية بنت حمدان لعثمان بن إبراهيم كزوجة ورفيقة بالبنود والشروط التي أقرّها الله للرجال والنساء في الزواج، وعلى سنّة نبيِّنا محمد وهي ثلاثمائة سويلدو من الجواهر وثلاثمائة صداقا، وأُقدّمها له بكل ما تستحقه شرعا، والملائكة والحاضررن شهود على ذلك، وليس لي ما أضيفه سوى أن يُتمّم الله ذلك بخير».

لم أكن أحضر وأنا صبيّ سوى إكليل الكنيسة الذي يعقد للزوجين ظاهريًّا، أمّا الزواج الحقيقي فيتم سرًّا، و لم أكن أحضره إلاّ بعد أن هيّأني أهلي نفسيًّا

وعوّدوني على التقيّة والكتمان. وما زالت تعود بـــي الذاكرة أحيانًا إلى أوّل حفلة زفاف حضرتها، لأنّي رأيت فيها طقوسًا وأعمالا لم أرها من قبل.

أخرجت العروس يومذاك من بيت أهلها مغمّضة العينين، ومـــا إن وصـــلت الباب حتى عقد أخواها أيديهما مثل كرسي حملاها عليـــه إلى بيـــت عريســـها، فدخلته مقدّمة الرِّجل اليُمنى لتحلّ معها البركة في البيت الجديد. كانت هناك فرقة موسيقيّة، ومكان في الصدارة تزيّنه الطنافس والستائر الحريريّة لجلـــوس العـــروس وحولها الوصيفات يحملن الشموع ويتغنّين بجمالها وزينتها، وفي تلك الأثناء يتوجّه العريس إلى مكان آخر في البيت مع صحبه الرجال.

في ختام الحفل توخذ العروس إلى مخدعها وتتغطّى بملاءة بيضـــاء، وعنـــدها تتقدّم لها النساء بالهدايا يضعنها في حجرها وهي لاتتكلّم ولا تفتح عينيها حشـــمة وحياء. وبعد استعراض هدايا النساء يستدعى الرجال لتقديم هدايا نقدية لاتتناولها العروس عادة، وإنّما تهبها للمداحتين الواقفتين إلى جنبها مقابل مجهودهما في إمتاع المحفل.

بعد هذا الموكب تزيّن المداحتان العروس مرّة أخرى بالثياب القيّمة والطّرحة وتأخذانها إلى مكان العشاء مع النساء، وعادة ما تكون فيه أطباق كثيرة، بعضـــها مطبوخ باللحم والخضر وبعضها حلو محشوّ بالبرقوق والتفاح، ومـــن العـــادة أن توضع وسط المائدة عناقيد الزبيب والتين الجافّ وأواني العسل لكي يسهل هضـــم الطعام الكثير.

لقد كانت حفلة فخمة، أو هكذا خيّل لي لقلّة تجربتي وأنا الخارج توًّا مـــن فترة الصبا، ولكن المواكب التي حضرتها فيما بعد لم تخرج عن هذه الـــوتيرة، وإن تفاوتت في البهرج والزينة تبعا لحال أصحابها.

ذكر زيارة استرامدورا

عندما قرّر والدي زيارة موطنه الأصلي بيحار لنيل نصيبه من ميراث قديم أصررت على مرافقته لأرى ولو مرّة واحدة في حياتي منشأ أسرتنا الأوّل. قال قاسم:

«لعلّك تريد رؤية ما بقي منها... لن يسرّك المنظر كثيرا، فأغلب عائلتنا هاجرت إلى جنوب فرنسا عبر منطقة الثغور العليا.

- ألم يكن أسهل عليهم النزول إلى أرض الأندلس حيث الموانىء البحرية ومراكب التجّار؟
- أيّة مراكب وأيّة موانىء يسهل منها السفر؟ إنّ أمرها أشدّ وأقسى عليهم، فهي محروسة بالكامل، بل ويمنع جنود الملك مجرّد الاقتراب منها.
- فالصعود شمالا أسهل عليهم في رأيك؟
- هم أهل جبال ووعر، فإذا وصلوا حدود فرنسا سالمين سهل عليهم اجتيازها... نصارى فرنسا أرحم علينا من كاثوليك إسبانيا، وملكهم هنري الرابع في خصام دائم معهم، لذا هو مستعدّ لمساعدة كل مناوىء لهم قائم عليهم، وهو لا ينِي يستغلّ سوء سمعة محاكم التفتيش وفرار الناس من مظالمها، مشهّرا بوحشيتها، واصفا نفسه البديل الأروبي الأعدل والأرحم. إنّه تنافس ملوك أقوياء على حساب شعب ضعيف لم يعد له في الدنيا نصير».

تهيّأنا للسفر، واختار لي والدي فرسا هادئا غير مرتفع...

«ولكنّني يا قاسم يا والدي تعلمت ركوب الخيل، وتدرّبت بفضلك على كبح جماح عصيّها ونافرها.

- أعرف ولكن سفرنا طويل».

ولأنّ السفر سيكون طويلا وشاقًا سوّت وريده على سرج الفرس حشيّة صوف لتحمي جلدي. أزحتها وأنا أهمّ بالركوب، فأصرّت عليها فيما كان قاسم بيحارانو يتسم بهدوء وهو يستمع إلى نقاشنا في غبشة ذلك الصباح الذي لم تشرق شمسه بعد.

توجّهنا شمالا مجتازين نهر شنّيل من جهة إلبيرة وقضينا أولى ليالينا في مدينة جيّان، ثم توغّلنا صاعدين نحو ضفاف الوادي الكبير، وبعد اجتيازه بدأت المسافات الطويلة. كان قاسم رفيقا بي يسألني عن حالي فترة بعد أخرى، ويطلب إن كان التعب قد نالني لنتوقّف في أوّل مكان مناسب، فأظهر له من الشجاعة والعزم القدر الذي تسمح به سنواتي الخمس عشرة، ولا أظهر له الإعياء إلاّ إذا رأيت بوادره على محيّاه.

قال لي ذات يوم ونحن نقترب من نهر التَمَع بجراهُ من بعيد كصفيحة معدن مستطيلة:

«ذاك هو نهر التاج الذي يشقّ طليطلة.

- ظننت أنّنا سنشقّ طلبيرة، لا طليطلة، فهي على الحياد من طريقنا كما أعلمتني عند خروجنا.
- غيرت رأيي... فالمرور من طليطلة أفيد وأكثرراحة.
- ليكن ما شئت يا شيخ العرب.
- لا تعد إلى مثل هذا الكلام وإلاّ سمعتك طيور السماء ووشت بنا.
- سمعا وطاعة يا شيخ بيحارانو المحترم».

قضينا ليلتنا الأولى في فندق نظيف، وفي الصباح وقفنا عند الباب لمحاورة صاحبه. ابتسم الزجل واستعدّ لقبض الحساب ظانًّا أنّنا سنغادر في يومنا، لكن أبي تلطّف إليه سائلا:

«إنّنا سنبقى عندكم بضعة أيّام إن سمحتم لنا.

- طبعا، طبعا. مرحبا، إبقيا طول العام إن شئتما.
- ولكن لي رسالة عاجلة أريد إبلاغها إلى أحد شركائي في غرناطة، فهل تعرفون أحدا هنا يهتمّ بالبريد، أو له علاقة بالمتنقّلين بين مدينتكم وغرناطة؟

- بالتأكيد... مدينتنا محور إسبانيا، وستجد الجميع يمرّون منها في وقت من الأوقات. عليك بالكردوليرو الذي في آخر شارعنا هذا على اليمين، إنّه أصيل غرناطة وعنده يجتمع أهل بلده ولديه أخبارهم».

وجدنا الدكّان بسهولة، وسألنا صاحبه إن كان يعرف مسكن ألفارو دي كردوبا، فقال دون أن يرفع رأسه عن حبل كان يفتله بين كفيه:

«ليرفع أحدكما الستارة بآخر الدكّان وينادي باسم الرجل».

أشار عليّ أبـي أن أفعل، وإذا بعملاق ذي لحية كثّة يسدّ فتحة الباب ويضع يديه على العارضتين سائلا عمّن ناداه. قال أبـي:

«أنا بيجارانو تاجر الخيول، دعتني ظروف قاهرة إلى الهجرة من بلدي، ويطيب لي أن أسأل عمّن هم في مثل حالي».

صمت الرجل، وتأمّلنا مليًّا، ثم سأل بصوت غليظ:

«ومن الشابّ؟

- ابني فليكس... طالب علم.

- لا تطيلا المكث بالدكّان، وسيدلّكما الكردوليرو أين نتلاقى بالليل».

ثم أنزل الستار وعاد من حيث أتى.

في الليل قادنا صاحب الدكان عبر أزقة ملتوية إلى بيت مختف عن الأنظار، وقد اجتمع فيه خلق كثير. أجلسنا الدليل قرب ألفارو، فاقتبلنا بأحسن مما فعل في الصباح، وسأل كيف عرفنا أنّه في طليطلة. قال أبـي:

«أنا من نواحي شلمنقة، أتاجر بالخيل ولي حرفاء في جبال وادي الرّملة حدّثوني عنك كثيرا. كنت أبيعهم الدوابّ وأخفي لهم السلاح في كهوف جهتنا، ولذا صرت محلّ شكوك ديوان التفتيش، فراقبوني جيدا وتابعوا حركاتي.

- هل قبضوا عليك؟

- لم أترك لهم فرصة ليحاكموني، ولكنّهم ضيّقوا عليَّ في عيشي.

- ماذا فعلوا لك؟

- أصدروا أمرا يمنعني من تربية الخيول والاتجار فيها، فارتحلت إلى جهة غرناطة، حيث أعيش الآن من العمل في الزراعة، وهناك عرفت أخبارك ونبأ نفيك.
- كان النفي أهون من خشب المحرقة... كتبت لي السلامة ولكن إلى متى؟ لا أحد يدري».

في تمام الجملة دخل رجل مهيب سلّم على الحاضرين وجلس على كرسيٍّ مرتفع أُعِدّ له خصّيصا. همس ألفارو في أذن أبي:

«إنّه خوان دو لوزا عرّاف وعالم بالجفر، يقوم بالمعجزات ويقول إنّه يرى الأصوات ويخاطب الملائكة، ولديه حجر يدّعي أنّه نزل عليه من السماء، وستسمع منه ما تطيب به نفسك».

قام إلى جانب كرسيّ الفقيه شاعر يقال له محمد ربضان، وألقى قصيدة عنوانها «خطاب البصيرة والبصر في النسب الشريف المعتبر لنبيّنا محمد سيّد البشر»، ذكر هذا بالعربية، أمّا نصّ القصيد فكان بالقشتالية، وهذه ترجمة بعض معانيه كما رسخت في ذهني:

لم تزل شمسك المضيئة هديا
ينـزع الوحشة من قلوب المؤمنينا
فقت كلّ الأنبياء رأيا ورؤيا
فلنكن جندك القويّ المتينا
إن يهن دينك هانت النفوس فداه
ماالحياة إن لم يعل شأنك فينا
طالبي حقّ سنبقى إلى أن تراه
عاد يكسو رأسك والجبينا

هذا بعض ما حفظت ذاكرتي من القصيد الطويل الذي نال استحسان الحاضرين على ما رأيت من هتافهم له.

غنّت بعد ذلك فرقة إنشاد قصيدة الهمزية بأصوات حسنة طرب لها الجميع وتمايلوا، ثم عمّ سكون شامل وخاشع لسماع الفقيه خوان دولوزا، وقد بدأ كلامه بصورة هادئة منغمة كما تبدأ مواعظ الكنيسة:

«ارفعوا رؤوسكم أيّها الحاضرون في مجلسي ولا تيأسوا، فالإسلام راجع مرّة ثانية إلى إسبانيا، وسيدخلها من جهاتها الأربع، ويعمّ كامل البلاد. لاتيأسوا بسبب ما نزل بكم، فالحياة بلاء وعذاب إلى يوم الحساب. ولاتظنّوا أنّ نبيّكم محمد لا يعرف ما أصابكم، لقد توقّع حدوثه من قبل موته. فذات يوم بكى، ولما سأله أصحابه عن سبب ألمه ردّ عليهم بأنّه في البداية سيأتي زمان يحتلّ فيه المسلمون أرض المسيحيّين، وبعد ذلك يأتي زمان آخر يسترجعها المسيحيّون من العرب، وأنّ هؤلاء لا يحتفظون إلاّ بغرناطة، وحتى هذه سوف تنتزع منهم، فيتحوّل أهل ملّة محمد إلى مسيحيّين ويسلّط عليهم كلّ أنواع العقاب، بما في ذلك الحرق بالنار».

صاح أحد المستمعين بلوعة: «...آآآه» قالها بالتمطيط وبتوجّع من مسّته النار فعلا، ثم أضاف:

«كل هذا عشناه وعانيناه، فمتى الخلاص يا فقيه؟».

قال الفقيه:

«كلّ التنبّوات تمت. نحن في آخر درجات المحن. وقد رأيت محمدا عليه الصلاة والسلام في المنام ووعدني بإرسال من ينقذني وينقذكم، والأمر يتوقّف علينا للتعرّف على هذا المنقذ. إنّي أعلم فقط أنّ الله سيخلق في هذا الزمان ابنا وفيًّا للجزيرة وأهلها، ومن علاماته أن يكون أبوه رجلا أصمّ، ووالدته زرقاء العينين، وأنّ أحد إخوته سيولد مختونا».

سأل أحد الحاضرين:

«وهل سيكون المنقذ مختونا مثل أخيه؟

- سأجيبك في آخر الحصّة بعد الاستجارة والاستخارة».

هذا ما أجاب به الفقيه السائل، ثم التفت إلى مستمع ثان شدّ انتباهي طرحه الجريء:

«هل بإمكان المؤمنين أن يصلوا بالقشتالية والعربية، وهل ثواب الأمرين متساو عند الله؟».

صاح الشيخ بأعلى صوته:

«يا ملائكة الرحمـــن يسألكم المؤمنون في هذه البلاد هل بإمكانهم الصلاة بالقشتالية والعربية على حدّ السواء؟

وصمت الرجل، وليس حوله إلاّ الناس وكأنّ على رؤوسهم الطير، وشموع مسرجة تتراقص أطيافها على جدران القاعة الفسيحة. وبدا كأنّما يشرئبّ برأسه مثل الطائر، وبعد فترة خاطب سائله:

«عليهم أن يصلوا بالقشتالية لأنهم إن فعلوا ذلك بالعربية الـتي لايفهمونها فسوف لن يحسّوا بالخشوع، ولن يكون في صلاتهم ما يكفي من التقوى والورع، وبالتالي فسوف يفكّرون في أشياء أخرى وتتوزّع قلوبهم بعيدا عن الصلاة».

ثم التفت نحو أحد الجالسين على كرسيٍّ مثله وناداه:

«اقرأ يا ماتيو بيريث قرآنك العربـي ولكن مترجما بالقشتالية ليفهمه إخوانك، فالله لم يفتح قلوبهم كما فتح قلبك. وما الهدى إلاّ هداه، عليه توكّلنا وإليه ننيب».

وبدأ ماتيو يقرأ الآية كما في الأصل ثم يُعيدها مترجمة، فاستهوتني موسيقى اللغة بنغمين، تتراوح بين الضفتين، هذه تأخذني باليمين والأخرى بالشمال، وفي الاثنتين وهما تؤدّيان نفس المعاني تناسق وانسجام منحاني انتشاء لم أعرفه من قبل، ولعلّني قرّرت منذ تلك الليلة تعلّم الترجمة لأمسك كلّ لغة من الاثنتين بيد، وأمشي بهما في الدروب المقدّر لي أن أسلكها، عسى يزول ما ألاقيه من ضباب وغموض عيشي هذا.

سهرنا ليلة أخرى عند ألفارو مع جماعة فيهم من حضروا سهرة خوان دولوزا، وآخرون أراهم لأوّل مرّة، وقد تهيّأ جميعهم للنقاش وتحمّسوا له، حتى أنهم لم يهملوا أيًّا من مواضيع الساعة إلاّ تحاوروا فيه بحرارة واندفاع. مما أتذكره أنّ أحد الشبان علّق على نبوءات خوان بما يشبه السخرية:

«يا هؤلاء الذين ينتظرون الحل في النبوءات وقراءة الجفر، انتبهوا لسخف ما تفعلون.

ماذا يهمني إن كان المنقذ المنتظر مختونا أو غير مختون... وإن كانت أمّه زرقاء العينين أو كثّة الشعر، إن هذه إلاّ أوهام... عقاقير لتقوية الصبر عندكم».

عارضه أحد الحاضرين:

«صرنا نشكك في أقوال علمائنا. فماذا بقي لنا؟»

عاد مخاطبه للردّ:

«ليس خوان سوى منجّم أوعرّاف، ولا أظنّه يعتمد في أقواله على كتب أو مراجع موثوقة فما بالك باستشارة السماء، أو لقاء الأنبياء».

تدخّل أبـي لأوّل مرّة في النقاش وقال:

«حتى وإن كان عالما، فبعض الرؤوس من كثرة ما تحشى بالمعلومات والنظريات تضيق عن مكان صغير للرأي المصيب والتفكير المنطقي».

عاد المخاطب الأوّل:

«ما رأيكم لو حدثتكم أنّ للمسيحيّين نبوءات شبيهة بما قاله خوان... لا تختلف عنها إلاّ في بعض التفاصيل؟».

سأل ألفارو:

«هل تقصد الكتاب الذي أهدي لديوان التفتيش بغرناطة؟

- نعم. هل تعرف تفاصيل ما جاء فيه؟
- سمعت أنّه مخطوط قديم يضم تكهّنات غريبة بعضها حصل بالفعل مثل حرب البشرات.
- هذه وغيرها. فهو يقول أنّ أتباع محمد سوف ينتفضون ويخرجون من مغاراتهم المسمومة ليلحقوا أكبر الضرر وسط المسيحيّين المنتظرين للمنقذ المختفي الذي طال انتظاره. غير أنّه سوف يأتي لامحالة لإنقاذ أهل الصليب والقضاء على أتباع محمد».

قال ألفارو:

«أتذكر أنّهم عدّدوا من سمات المنقذ في هذا الكتاب ما يجعله نسخة من دون خواندوتريش ليتمّ التطابق الكامل ويسهل تصديق النبوّة.

- مثلا جاء في الكتاب المذكور: إنّ المنقذ المختفي من عائلة الهبسبورغ، ويتمتّع بقدّ جميل وسحنة بيضاء، وهو فصيح وصادق فيما يقول. يحبّ العدل ويكره العرب، تُجمّله عينان زرقاوان ومشية رشيقة، وكفّاه

نظيفتان خطوطهما واضحة ملوّنة، وأصابعه ضامرة ذات أظافر قصيرة ولماعة. أعضاء جسمه متناسقة، وأخلاقه نبيلة سامية، وهو يشبه الملك داوود في حياته».

علّق أحد الحاضرين مبتسما:

«ما بالهم يذكرون داوود... أليسوا أعداء لليهود أيضا؟»

عاد قارئ النصّ القديم ليسأل:

«هل لاحظتم الاهتمام بالشكل والعينين ورشاقة القوام والأظافر القصيرة اللمّاعة؟ ألا تذكّركم بالمختون وعيني أمّه الزرقاوين؟».

انقسم الحاضرون إلى فئة تسخر من النبوءات، ولا تؤمن بجدواها في حلّ المشكل الخانق للمسلمين، وفئة أخرى تعترض، وترى أنّه قد يأتي يوم تتحقّق فيه نبوءات المظلومين لأنهم أقرب إلى سمع الله، وهو الذي لا يردّ طلبا لمظلوم.

رفع ألفارو يده ليحسم الأمر:

«إذا لم تنجح حربنا في سييرا نيفادا فمعنى ذلك أن لا أمل يُرتجى من نبوّة نسمعها في أركان البيوت ونحن متخفّون كالفئران. النبوءات عزاء فقط... إكسير ضدّ اليأس والاستسلام، أمّا النهاية فمعروفة واضحة: إمّا أن يذهب ذكرنا وتغبر آثارنا كما غبرت آثار السابقين، وإمّا أن ننتقل إلى أرض إخواننا في الدين واللسان... هذا إن نجونا بجلودنا آخر الأمر».

كم هو مؤلم مثل هذا الكلام من فم ثائر قديم. هل حان الوقت لإلقاء كل الأسلحة في النهر؟ هل آن الأوان للتخلّص من كلّ الخيول كما فعل أبي عند رحيله من بيحار؟ هل دقّت ساعة المنفى القسري لتفرض الخيار المرّ على الأبطال، كما فرضته على غيرهم من الشعب المعذب؟

قال أحد الشبّان متابعا فكرة ألفارو:

«اسمعوا ما كتبه لي صديق هاجر مع أهله إلى عدوة المغرب، يقول: ألسنتنا لا تني عن شكر العناية الربّانية التي أعتقتنا من سلطة الفراعنة ومن القائمين على محاكم التفتيش، أصحاب البدع اللعينة، والأعمال المشينة، وبدون عصا موسى

ودون أن ينشقّ في وجوهنا البحر وجدنا أنفسنا على هذه الأرض الموعودة، حيث يحسن استقبالنا».

وقف أحد الحاضرين وطلب الانتباه لأنّه سينشدهم أغنية سمعها من صديق أراغوني بدأ يحلم بالهجرة:

دعينا إلى الرحيل مرارا
وهجرة هذا الوطن.
لنرحل إذن...
لما صرنا غرباء
إلى أرض هي أيضا طيّبة
جبالها فضّة صافية
وأرضها تبر ثمين.
لنذهب جميعا
إذا هدّدونا أو أطردونا
إلى حيث أهلنا العرب
إلى أرض هي أيضا طيّبة
جبالها فضّة صافية
وأرضها تبر ثمين.

وصفّق الجماعة بحماس وهم يصيحون: هولي.. هولي.

إذا أنا أحسست لَيْلَتَئِذٍ بثقل اليأس الجاثم على أرواح أولئك الناس فلأنني فهمت أن لا نجاة لهم، كما قال ألفارو، إلاّ في الهرب بجلودهم، متسلّلين بهدوء، إذا كانت الفرص ممكنة. لكنّني فيما تعاقب من الأعوام، وأمام كثرة الحديث عن الاستعداد التركي لاسترداد الأندلس، يعاودني الأمل، وأستحضر نبوءات خوان دولوزا وغيرها كثير مما بعضه موغل في الغرابة، ولكنّني أقبله مع ذلك وأميل إلى تصديقه.

نعم، جرت أحداث تبعث الأمل كاستيلاء الأتراك من حين إلى آخر على أحد قلاع ملك إسبانيا، أو كإغارة مهاجرينا بالجزائر على الشواطئ، وكانوا يصنعون

في ميناء شرشال سفنا شراعية يهاجمون بها السواحل الإسبانية التي يعرفونها ويستعملون الحيل الكثيرة لبلوغها... من ذلك الاستعانة بالأقارب والأصدقاء الباقين بإسبانيا، ومن ذلك أنهم يرسون بالليل ويخفون سفنهم تحت الأعشاب وجذوع الشجر، ثم ينزلون مرتدين لباسا مسيحيًا، متكلّمين بالقشتالية، حتى لايتعرّف عليهم أحد، فيفاجئون السكان ويأسرونهم لبيعهم كالعبيد في الجزائر.

كما علمت أنّ هناك مهاجرين آخرين يرجعون إلى إسبانيا بأمل إثارة الفوضى مثلما فعل لوي ألبواسن، أحد موريسكيي المونيكار، فهو بعد هجرته إلى الجزائر قفل راجعا إلى بلنسية صحبة بعض المجاهدين وحاول إثارة الانتفاضة، لكنّه أخفق فقبض عليه وأحرق.

ومن أعجب القصص، وأكثرها إثارة ما حدث لثلاثة من موظّفي الحكومة هم: جابي محاكم التفتيش والمأمور القضائي والعدل الموثّق لما كانوا يجوبون منطقة قادس والمريّة لتنفيذ أوامر الحجز أو لإيقاف بعض المتّهمين. لقد كانوا يقضون ليلتهم في نزل مدينة طبرناس وبرفقتهم موريسكية موقوفة من قرية بنيكانون، وقبيل شروق الشمس استفاقوا على صياح عال وضجيج طبل تركي وأبواق وطلقات مدفع، ثم اقتربت الضوضاء من مسكنهم وسمعوا أحد مواطني القرية يقود الأتراك ويدلّهم على النزل قائلا: «إن أعضاء محاكم ديوان التفتيش موجودون هنا... هل تريدون أن تروهم؟. فلم يسع هؤلاء إلاّ الهروب حفاة عراة عبر السطوح متستّرين بالظلام. أمّا الأتراك فقد غادروا المكان في الصباح حاملين معهم أسلحة وأمتعة ودوابّ، بما فيها خيول المفتّشين، وقد انضمّ إليهم مسلمو القرية وثلاثة وأربعون مسيحيًا أخذوا كأسرى تحت تهديد السلاح.

بقينا أيّاما في طليطلة نزور معالمها القائمة والدّارسة، دليلنا الكردوليرو. أخذنا أوّلا إلى دير سان خوان دلريوس الذي بناه فرديناند وإيزابيل منذ مائة سنة تخليدا لانتصارهما في معركة التّورو، ثم زار بنا الجزء المنتهي من كتدرائية عظيمة تجري الأشغال بها حثيثة من طرف جيش عمال وبنائين لايحصى عددهم ولا يحصى. قال مرافقنا:

«هنا عمال يرفعون الحجارة، وثمة عمال لاتروهم هم الرسامون والنحّاتون وناقشو النحاس والمعدن الذين جلبهم الملك من روما وغيرها، وأشهر هؤلاء جميعا، على ما سمعت، رسام يوناني يدعى إلقريكو، يحترمه رجال الكنيسة كأنّه أسقف كبير لكثرة ما رسم القدّيسين ومشاهد القيامة، وإن شئتم طلبت إذنا لزيارة مرسمه».

أبديت شوقا للاطلاع على أعمال الرسام الشهير، ولكن أبي اعترض متعلّلا بضيق الوقت. زرنا بعد ذلك قلاعا قديمة ما زالت صالحة للدفاع، يعمّرها جند يظهرون بالعشرات على شرفاتها تلتمع خوذاتهم في نور الشمس، فكُنّا نقترب قليلا من أبوابها ثم نتقهقر مسرعين إذا رمقنا أحد الحرّاس بنظرة شكّ وريبة.

قال الكردوليرو:

«أغلب القلاع بناها جماعة ذنّون لما حكموا طليطلة قبل ألفونشو ستة وأكبرها ذلك القصر العتيق بأعلى القمم بحيث يرى من كلّ الجهات، ويقول الناس أنّ بحيرة كانت تتوسطه، فيها قبّة زجاج ملوّن منقوش بالذهب، وقد جلب الماء إلى رأس القبّة بتدبير المهندسين، فكان ينزل من أعلاها على الجوانب المحيطة بها، ويتّصل بعضه ببعض، فكأن قبة الزجاج في غلالة ماء لا يفتر عن الجري من فوق إلى تحت، وتوقد وسط القبّة الشموع فيرى لذلك منظر عجيب. لكنّه الآن صامت بلا بحيرة ولا قبّة ولا ماء يتّصل بعضه ببعض...».

تذكرت هذه الجملة بعد مرور سنوات طويلة، وأنا في المغرب أطالع كتاب نفح الطيب، الذي ذكر قصّة ألفونش السادس مع طليطلة وحكامها. لقد جاءها هاربا من أخيه الذي سجنه في ديرساهاجون، طالبا اللجوء عند ملكها يحيى بن إسماعيل بن ذي النّون، فرحّب به هذا غاية الترحاب وبالغ في إكرامه، حتى أنّه أنزله دارا مجاورة لقصره، وجعل له دارا أخرى خارج المدينة ذات حدائق، يتنزّه فيها هو ومرافقوه. وأرسل إليه مدرّبا يعلّمه الشطرنج، فانكبّ عليه حتى تعلّمه وبرع فيه وصار لا يلاعب أحدا إلاّ غلبه.

قضى ألفونشو في منفاه بطليطلة تسعة أشهر درس فيها أحوال المدينة وحكامها تمهيدا للاستيلاء عليها، جزاء المعاملة الحسنة التي لقيها والمبالغ فيها أحيانا حتى صارت نوعا من الغفلة. وعندما رحل عن المدينة مكرّما كما جاء، لم

يطلب منه يحيى إلاّ الصداقة، فقطع له ألفونشو ما شاء من العهود، لكنّه لم يــف بواحد منها، بل إنّه بعد التغلب على أخيه عاد فحاصر طليطلة سبع ســنين إلى أن تمكّن منها وضمّها إلى مملكة النصارى في الشمال.

آخر المطاف مررنا أثناء عودتنا إلى الفندق بمعبد خرب مهمل على بابه كتابة بالعبرية لاتخطئها العين، فلما حاولت التوقّف للتأمّل في داخل المبنى جرّني الــدليل من يدي محذّرا:

«إنها بيعة اليهود، أهملت منذ طردوا من المدينة وبقيت كما تــرى مســكنا للغربان، إلاّ أنّ النصارى استولوا عليها وسوف يحوّلونها إلى كنيسة في القريــب. هم فقط ينتظرون الانتهاء من بناء الكتدرائية».

قال أبــي متحسّرا:

«نفس المصير الذي لقيته مساجدنا... استحواذ كامل على بيوت الله، وعلى حقّ عبادته».

وعقّب الكردوليرو:

«كأن لم يخلق الله العالم إلاّ من أجل الإسبان، وسماع أصوات تسبيحهم».

نظرت إلى الرجلين الحزينين، ولم أعلّق بشيء.

ونحن نجتاز نهر وادي الرملة، في اتجاه طلبيرة التي جعلــها أبــي مرحلتنــا القادمة، لم أنقطع عن التفكير في طليطلة وما شاهدته من حصــونها ومعمارهــا وحركة ناسها، إنّك تحسّ بجهامة أسوارها عند أوّل مقابلة، لكنّك تستأنس بعبــق التاريخ في أرجائها وفي سحن أهلها وأحاديثهم المختلفة اللّهجات والمواضيع. إنهــا ذات لون مختلف عمّا عرفته واعتدت عليه. وقد حدثت والدي عن إحساسي هذا ونحن نمشي متجاورين على الجسر الخشبــي الطويل، فالتفت ناحيتي سائلا:

«ما قولك في العودة إلى طليطلة مرّة أخرى؟

– لن أملّ من العودة إليها، إنها مدينة... أعني مدينة بكلّ ما تعنيه الكلمــة. ثريّة ومتقشفة، فخمة ومتواضعة، قاسية متجهّمة وحنــون قريبــة مــن القلب. كلّ ذلك في نفس الوقت. فأنت لا تخرج منها مثلما دخلتــها. هذا إحساسي.

- وإذا قيل لك أن تقيم بها سنة أو أكثر؟
- عجبا... وكيف يكون هذا؟
- إذا أتممت دراستك بنجاح في غرناطة أرى أن تعود إلى طليطلة لدراسة الترجمة وعلوم اللغات، ففيها مدرسة مشتهرة بهذا كما علمت من ألفارو. وهذا بالطبع إذا وجدت في نفسك رغبة.
- نعم يا والدي... عندي رغبة منذ الآن.
- لا يا أحمد، نحن لا نتحدّث عن الآن، وإنّما هو مشروع قد يتحقّق إن اجتهدت، وإلاّ فالفلاحة وتجارة الزبيب في انتظارك».

وضحك من علامات أسف بدت على وجهي، ثم همز فرسه ليسبقني ويستحثّني على السير، وهو يحاول مواساتي بأنّ المشاريع الكبيرة لاتتحقّق بسرعة، وأنّ الطريق إليها طويل... مثل هذا الطريق الذي نسلكه إلى طلبيرة.

لم يبق من قرية بيجار شيء كثير مما حدثني عنه قاسم بيجارانو، فأغلب العرب رحلوا عنها إلى الجنوب أو توزّعوا في مناطق أخرى، أمّا الباقون ففي حال من البؤس والفقر لا يوصف، مما آلم أبي كثيرا وجعله يختصر مقامه ويتعجّل إنهاء معاملته مع بني عمّه، رغم إلحاحهم بإطالة ضيافته أياما أخرى.

وفي الحقّ لم يكن جوّ القرية، ولا ما يروج فيها من أخبار المحاكمات والعقوبات ومصادرة الأراضي، مما يبهج النفس ويجعل إقامتنا مريحة. وآخر ما بقي في ذاكرتي ليلة طفنا نودّع الأهل، منظر عجوز عمياء، اشتكت لأبي ودموعها تنفر بغزارة من عينين فارغتين، كيف انتزعت منها محكمة دواوين التفتيش كلّ ما تملك، لأنها تذمّرت يوما من إقفال الحمامات بحيث لم تجد أين تنظّف جلدها المهترئ بمرض الجرب.

«كلمة واحدة قلتها من شدّة غضبي وقهري كلّفتني أرضي ومصوغي وحمارا أتنقل عليه، بل وحتى أواني الطبخ القديمة. لولا بعض أهلنا يا قاسم لوجدتني في الساحة أمدّ يدي للمارّة... حكموا عليّ بدفع مائتي دوكة وإذا لم أدفع أدخل السجن. هل تتصوّر حالي في السجن؟ انظر إلى هيئتي واحكم هل

يسمح دين من الأديان بإدخال عجوز مثلي إلى السجن؟... إنّ مصيرنا هنا أشنع من مصيركم في بلدان الجنوب. نحن هنا صرنا نتقاتل فيما بيننا، ويشي بعضنا ببعض. أما حدّثوك عن قراسيا من عائلة دوجماس التي أخبرت محاكم التفتيش بأنّ أختها تمارس شعائر الإسلام سرا؟... فعلت ذلك لمجرّد خلاف بسيط حدث بين الاثنتين، فقرّرت العائلة إثر هذا التخلّص من قراسيا بدسّ السمّ في أكلها إلى أن ماتت، وقد حكمت المحكمة بحرق أخويها وعمّها المتهمين بذلك. أنا أيضا عوقبت بفعل وشاية دنيئة لا أعرف صاحبها. أرأيت أيّ حضيض بلغناه يا ابن عمي؟».

مسح أبي بكفّه دمعتيها وقبّل رأسها صامتا، وخرجنا. وفي الصباح الباكر غادرنا قريتنا بيحار بخطى أثقل من التي بها دخلنا.

كان علينا في رحلة العودة احتياز الطريق الوعرة ذاتها في جبال وادي الرملة. وقد حرص بنو عمومتنا على تأمين رحلتنا ضمن قافلة بغّالين ذوي دراية بأكثر المسالك يسرا وأمنا، وزوّدونا بطعام كاف، ومع ذلك استوقفنا قوم مسلحون في ثنايا الجبل، لم نعرف هويّتهم بادئ الأمر، ولكن بعد التفتيش الدقيق في أمتعتنا طلبوا أن نتنازل لهم عن نصف مؤونتنا طلبا للثواب. احتجّ أحد التجّار:

«وهل يسلب الناس أرزاقهم طلبا للثواب؟ يكفي ما نعطيه للكنيسة، فهل من مزيد؟

- افقه ما تقول... نحن ثوّار على الكنيسة التي تهبها مالك عن طيب خاطر.
- فهل أنت على دين محمد إذن؟
- نحن نجاهد من أجلك، فكيف تستكثر علينا شيئا من قوتك لنستطيع الصبر والثبات؟».

ثم حشرونا في زاوية، واستلّوا من أحمالنا ما أرادوه من دقيق وثمار مجفّفة وسمن وزيت وغيره. وتوجّه إلينا زعيمهم بلهجة قاسية مزدرية:

«أنتم تنعمون في بيوتكم الأندلسية المرفّهة، تلبسون الحرائر وتأكلون الأطايب كما تعوّدتم، غير مهتمّين بالزلزال الذي يرجّ أرضكم وأرواحكم ويكاد يطرحكم ذات يوم في البحر أو يقذف بكم في الجوّ كالهباء. انتبهوا... فأنتم بين شقّي رحى

تطحنكم حتى لايبقى منكم فتات من كيان. ها نحن ننبّهكم... لاتتركوا أرضكم، وابعثوا أبناءكم إلينا ندرّبهم على السلاح ونعلّمهم المقاومة، فبغيرها ستذهب ريحكم، ولن يبقى لذكركم أثر. حدّثوا كلّ العرب بما شاهدتم، وتحدّوا أساقفة الكنيسة، فلا غالب إلاّ الله. أليس هذا شعار آخر دول الأندلس؟».

أراد أبـي أن يردّ على الزعيم، لكن أحد أقاربنا جذبه من كمّه ليصمت، وهمس في أذنه بأنّ الرجل أهوج عنيد، ولا فائدة تُرجى من مناقشته.

في صباح اليوم الموالي، بعد أن التأمت القافلة، وعاد أفرادها إلى لغطهم وأحاديثهم، تردّد كثيرا لفظ الهرناتشوس.

اقتربت من أبـي وسألته:

«هل كان الرجل الذي هدّدنا من الهرناتشوس الذين يتحدث عنهم الجماعة؟

- نعم، هم أهل بداخوس ومريدا، أصلب الناس في المقاومة كما هم أنشطهم في التجارة والفلاحة، ولعلّهم الوحيدون الماسكون بشعلة المقاومة إلى اليوم. فهم يعيشون شبه مستقلّين، يتعاملون فيما بينهم في إطار حكومة لها مجلس يجتمع في أحد الكهوف الجبليّة، ويشتغلون بالنقل لمعرفتهم الجيّدة بالطرق، حتى أنهم شقّوا طرقا خاصّة بهم يسمونه «المرونة»، وضربوا نقودا مزيّفة خاصّة بهم، وصنعوا أسلحة من معادن استخرجوها من جبال منطقتهم. ولهم اتّصالات ومراسلات مع تركيا ودول المغرب. إنهم عفاريت بشريّة هؤلاء الهرناتشوس. لكن الذي حيّرني هو أخذ ذلك الزعيم لبعض زادنا القليل وأرضهم تعجّ بالحبوب والخضر والفواكه، مما لا يتوفّر في كثير من مناطق إسبانيا الأخرى، كالرمّان والعنب والليمون. يعتنون أيضا بتربية النحل وتسمين القطعان بكثافة... هذا إلى مداخيل التجارة. فما الذي أطمع الرجل فينا؟

لعلّه أراد إثارة اهتمامنا، أو إشراكنا في جهاده ولو ببعض التكلفة المادّية. ألا ترى أنّه يعرّض نفسه للموت فماذا دفعنا نحن مقارنة بما دفع وسيدفع؟».

زال عن أبـي تجهّمه، وربّت على كتفي، وبدأنا نعدو مع القافلة متحاذين

لندرك المرحلة القادمة قبل نـــزول الليل، وكانت المبيت على شاطئ الوادي الكبير.

لما بلغنا مدينة عبيدة. بعد مشقّة اجتياز الاسترامدورا وطبيعتـــها الوحشـــية. اعترضتنا في مدخل المدينة مراقبة أخرى من حرس السنتا هرمنداد، عرفوا أنّنا مـــن الأندلس فزاغت عيونهم وتحلّب ريقهم لما في حمولة التجّار. ادّعوا أنهم مكلّفـــون بالتفتيش عن الأسلحة والكتب المهرّبة، و لم يفد إقناعهم بأنّ القوم تجّـــار غـــلال وحبوب ولا دخل لهم في تهريب الممنوعات، إلاّ عندما تفاوض معهم جماعة علـــى مبلغ مالي تسلّموه نقدا ونظراتهم تتلألأ بين الشراهة والتظاهر بالغضب والحـــزم. وقبل أن يتركوا سبيلنا حشرنا قائدهم في مثلّث كما فعل ثوّار الجبل مـــن قبـــل، وخاطبنا كالواعظ:

«ليس ما دفعتموه فدية أو رشوة، وإنما هو هبة لكنيستنا المقدّسة لتتوسّط في سلامة أرواحكم وضمان دخولكم الجنّة... اذهبوا مباركين الآن، ولا تتحـــدّثوا عمّا تصدّقتم به، فالرّياء والتفاخر يضيّعان قيمة الثواب. انصرفوا ولا تنسوا قدّاس الأحد والاعتراف بذنوبكم، مع كثرة الاستغفار».

استعمل الجميع إشارة التثليث على صدورهم تحت نظرة شزراء من الحـــرس المدجّج بالسلاح، وختموا حديث الضابط بكلمة «آمين»، ثم دبّت القافلة لتدخل المدينة تبيت فيها مرهقة مثبطة. أمسكت يد أبـــي ونحن ندخل الفندق وسألته:

«نحن أتباع من يا أبـــي حتى نعرف من نطيع ومن نعصي»؟

طأطأ رأسه وكمّ فمه بيده، فتبعته إلى مربط الدواب صامتا، وبـــي حـــزن لامزيد عليه.

قضيت صيف ذلك العام مريضا من مشقّة السفر الطويل وثقل الأحاســـيس المتصارعة في نفسي، وفي الخريف انتعشت قليلا وأخذت أهبًا للانتقال إلى غرناطة حيث تنتظرني حقبة جديدة من الدراسة المتطوّرة في معاهدها، فارقت الأهل مزوّدا برسالة من والدي إلى بعض معارفه، وبما يتناسب من المال والمؤونة مع مقام قـــد يطول.

ذكر مقامي في غرناطة

تذكّرت بعد أن أصبحت مقيما في غرناطة كيف ظلم أهلــها وشــرّدوا في المنافي، وتردّد على ذهني مرارا الثائر ألفارو دي كردوبا، وحديثه عن كفاح مدينته وبطولة ثوّارها، وكيف قاتلوا الإسبان في حيّ البيّازين من فوق السطوح وفي ثنايا الأزقّة والمنعطفات، وعلى ضفاف النهر بين النواعير.

سألني ذات مرّة، ونحن نسمر في طليطلة، عن عمري، ولما أجبته قال:

«كنت أيّامها هانئا في بطن أمك، بينما كنّا نرفع السلاح لنهيّئ لك مكانـا تعيش فيه أنت وجيلك، يكون أنظف مما هو عليه الآن. لكنّنا أخفقنـا. حلمنـا بعودة الخلافة الأمويّة وتوّجنا ملكا سميناه محمد بن أميّة، بعد أن كان اسمه فرنندو، ولكنّنا قتلناه بعد أيّام بتناحرنا وخلافاتنا. لم يعد ممكنا أن نعيش كخلق الله بعد أن ضاعت منّا كلّ القيم، واختلّت فينا كلّ الموازين... غدونا تفاحة عفنــة نخرهــا الدود، فما استطاعت ثورتنا أن تفلح، ولا أن يستقيم لنا ظهر».

بعض ما بقي غامضا في ذهني سألت عنه أبــي بعد خروجنا من طليطلــة، فقال:

«كنت بعيدا عن مسرح الأحداث وإنّما سمعت عن زعيم يدعى فرج استعدّ لإشعال الثورة، وبعث رسلا إلى الجزائر والمغرب فجاءته منهما إمدادات وأسلحة، وانضمّ إليه رجال من نواحي غرناطة بلغ عددهم أربعة آلاف أو أكثر.

- وهل صحيح أنهم كانوا ينوون إعادة الخلافة الأموية؟
- كانت ثورة عظيمة على كلّ حال... هدفت إلى رفع الظلم عن المسلمين أوّلا، وإعادة مملكة غرناطة كما كانت قبل استيلاء الإسبان عليها. ولذا أعلنوا الاستقلال عن الملك فيلبــي الثاني من أوّل يوم، وتوّجــوا ملكــا

عليهم أبدلوا اسمه من فرنندو إلى محمد، وهو شابٌ وجيه من حيّ البيازين نسبه من بني أميّة.

- وهل خاف الإسبان حقًا من عودة الملك للمسلمين... وماذا أبقوا فيهم حتى يخافوهم؟

- خافوا أن تمتدّ الثورة إلى خارج غرناطة، وفي هذه الحالة سيصل عدد الثوار إلى مائة ألف رجل أو أكثر، أمّا إذا حاصروا الثورة في غرناطة فهم قادرون عليها... وقد قدروا بالفعل بما جنّدوا من إمكانيات ماديّة ومعنويّة. استعملوا العنف والسلب والنهب والتشريد لِبَث اليأس في نفوس الثوّار، من ذلك أنهم صادروا أملاكهم، ونفوا ثمانين ألف شخص من السكان إلى قشتالة في ظروف قاسية، سبّبت المرض والموت لكثير منهم أثناء الطريق.

- هل كان ألفارو من بينهم؟

أومأ برأسه، ولم يضف شيئا إلى أن وصلنا القرية الموالية.

أمّا التفّاحة العفنة التي لَمّح إليها السيد ألفارو فقد سمعت تفسيرا لها بعد سنتين خلال إقامتي بغرناطة، على لسان الفقيه ميكال دلافونتي مدرّسنا الليلي:

«كان فرج بن فرج يعدّ العدّة لمفاجأة الإسبان بثورته، ولكن العملاء والمنافقين أبلغوا رئيس المجمع الملكي بذلك، فكشفوه. إنهم نفس القوم الذين دبّروا مقتل محمد بن أميّة. انهزمت أمّتنا من الداخل قبل أن يهزمها العدو، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتّى. هاجوا من وطأة العسف فقط، ولم يكونوا مهيّئين لإعادة تكوين الأمّة من جديد. ثم إن هذه الأمّة كانت من قبل متشكّلة قائمة بين أيديهم لكنّهم أضاعوا قيمها واستهانوا بأواصرها فانفرطت كحبّات المسبحة لشدّة ما اختلفوا وانقسموا طوائف وشيعا يضرب بعضها بعضا. نعم يا أبنائي كانت التفّاحة عفنة، أمّا اليوم فهي مجوّفة لاشيء تحت قشرتها... أناس شرّدوا في الجبال والأودية، وأهل السواحل نجوا بأنفسهم إلى أرض إفريقية، متعلّقين بسفن درغوث باشا وحسن فنزيانو».

كان أستاذنا ميكال فقيها متضلّعا في علوم الدين الإسلامي واللغة العربية، ورجل قانون له فتاوى يطلبها منه أغلب من بقي في غرناطة ولم ينلهم التهجير.

كُنّا نجتمع عنده خفية مرّتين أسبوعيًّا، أنا وطائفة من التلاميذ، فنأكل ونبيت عنده كيلا نخرج ليلا فنثير انتباه الحر اس أو رغبة الوشاية لدى الجيران.

في إحدى المرّات قدم والدي من الحجر الأحمر ومعه زادي السنوي وهدايا كثيرة للشيخ، أحمال دقيق وصرر زبيب وبرقوق وتين مجفّف ولوز، مما جادت به بساتين قريتنا الطيّبة. ذهبنا معًا لزيارة الفقيه، وشاركنا أبي الاستماع لما يلقيه، وقد فهم بعضه وترجمت له ما لم يفهمه، والأستاذ يشجّعني بنظرة حانية. بعد الدرس أبدى والدي رغبة في الاستماع إلى فتوى الشيخ المغراوي مفتي وهران التي أرسلها إلى مسلمي الأندلس، وهي فتوى شهيرة سمع عنها، وعرف أجزاء من مضمونها لكنّه لم يطّلع عليها كاملة. قال الشيخ ميكال:

«من حسن الحظّ أنني أملك نسخة منها مترجمة إلى العجمية، وسأقرأها عليكم، ولا حاجة إلى ترجمتها لأبيك يا أحمد».

قام إلى مضربة ففتق أحد جوانبها وأزاح الصوف برفق إلى نصفين، ثم سحب كتيبا صغيرا فرده على حجره وبدأ يقرأ بملامح قاسية كمن يؤدي صلاة الجنازة:

«إلى إخواننا من أهل الأندلس القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، اعلموا أنّ الأصنام خشب منحور وحجر جامد لايضرّ ولا ينفع. وأنّ الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إلــه، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رباء، لأنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم. الغسل من الجنابة ولو عوما في البحور، وإن مُنِعتُم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة لعدم الماء والصعيد. إلاّ أنّه يمكنكم الإشارة بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أوحجر أو شجر مما يتيمّم به، فاقصدره بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة، لقوله عليه الصلاة والسلام: فأفتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنّية وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا إلى ما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة فتسقط في حقكم، كصلاة الخوف عند الالتحام.

وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنيّة استعماله. وإن كلفوا عليكم خنـــزيرا فكلوه ناكرين إيّاه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم علـــى محرّم. وإن زوّجوكم بناهم فجائز لكونهم أهل كتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنّكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولـــو وجدتم قوّة لغيّرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حـــرام فـــافعلوا منكـــرين بقلوبكم. ثم ليس لكم إلاّ رؤوس أموالكم وتتصدّقون بالبـــاقي إن أنبـــتم إلى الله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلاّ فكونوا مطمئنّي القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك. وإن قـــالوا اشْـــتِمُوا محمدا فإنهم يقولون له: ممد، فاشتموا «ممد» ناوين أنّه الشيطان، أو ممـــد اليهـــود فكثير فيهم اسمه. وإن قالوا عيسى ابن الله فقولوها إن أكرهوكم وانووا إســـقاط المضاف...».

واستمرّ الفقيه ميكال يقرأ الفتوى وأبـــي ينصت مطرقا لايرفع رأسه، حـــتى إذا انتهت القراءة نهض فسلّم على الفقيه ودعاني إلى الخروج، وهو يداري وجهـــه إلى الناحية الأخرى حتى لا أرى احمرار عينيه.

ذكّرتني هذه الوثيقة بحوار كان يدور أحيانا إثر الدروس الليليّة للفقيه أبـــي العاصي، وهو رجل متين العلم، حاذق للعربية والفقه الإسلامي، رغـــم مواظبتـــه على زيارة الكنيسة وحضور قدّاس الأحد. وكان يحثّنا، أنا وابنه، أن نحذو حذوه ونكفّ عن انتقاد الكنيسة اجتنابا للشبهة والوشاية:

«لا بأس أيّها الشابّان المتعلّمان من ممارسة التقيّة، فهي لا تشوّه الإيمـــان، ولا تمسّ عمق العقيدة...

- ولكنّها تشوّه إحساسنا الأخلاقي وتجعل منا منافقين مرائين».

هكذا كان يردّ عليه ابنه، وينفتح عندئذ باب النقاش لساعات دون الوصول إلى فكرة واضحة أو رأي حاسم في المسألة، رغم استشهاد الشيخ برأي كثير مـــن الفقهاء وعلماء الدين. وعندما أريد إنهاء الحوار أعيد عليهم قصّة شهيرة جـــرت لأهل قرية دوماريا... لقد ضغط على أولئك الفلاحين البُسطاء راهب كنيســـتهم ليقوموا بالتعميد، تنفيذا للأوامر الملكيّة الصارمة، لكنّهم رغم إلحاحـــه الشـــديد

رفضوا وهدّدوا بالهجرة وإخلاء القرية. حاورهم بالشدّة أوّلا ثم التجأ إلى اللّين، ذاكرا أنهم. دون التنكّر لمبادئ القرآن. يستطيعون اتّباع تعليمات الكنيسة في نفس الوقت مع بقاء ضمائرهم مخلصة للإسلام متعلّقة بمحمد.

كلّما ذكرت هذه الحادثة رائيا لحال أولئك القرويّين، متسائلا كيف يجمعون تعاليم الكنيسة في النهار وتبيت ضمائرهم مخلصة للإسلام في الليل يبتسم الشيخ أبو العاصي، ويضجّ ابنه بالضحك.

تعرّفت في حلقات ميكال على صديقي عبد الرحمان، وهو غرناطي أصيل يتعلّم الزراعة في الضواحي القريبة نهارا، ويحضر معنا الدروس ليلا، فصرنا نخرج معا للنزهة، ونتبادل الزيارات، وأشهد أنّ صحبته أنستني فراق الأهل حتى مضى عليّ عامان في غرناطة كأيسر ما يكون، بل كأجمل ما يكون.

وعن طريق عبد الرحمان عرفت أصدقاء آخرين، ودخلت بيوت أعرق الأسر الغرناطية، وبهذا اكتسبت ثقافة اجتماعية وعادات الرقّة في السلوك والحديث، حتى صرت أنادي صديقي عبد الرحمين وأخاه حيمد مثلما يترقّق ويتأنّق أهل غرناطة في كلامهم. هذا إلى جانب ثقافتي العلميّة، سواء بالعجمية في مدارس الدولة، أو في مجالس شيوخ حفظت عنهم قواعد العربية ونصيبا من عيون الشعر، حتى وإن لم يبق من يحفظه في الأندلس بعد الازدهار الطويل إلاّ بعض الناس. كنا نسمع من شيوخنا المتأدّبين أشعار ابن زيدون أو ابن هانئ، فننبهر ونطرب متعجّبين سائلين: أصحيح أنها نظمت في هذه البلاد التي لم يعد فيها من يركّب جملة واحدة بالعربية، وحتى إن استطاع فممنوع عليه التجاهر بنطقها...؟ كيف نبت هذا الشعر هنا ونحن لانسمع حولنا إلاّ عجمة ورطانة؟

واكتفيت من بقيّة الأ نشطة الثقافية بالمطالعة متردّدا على المكتبة العامّة، دون أن يسمح لي بالدخول ولو مرّة واحدة إلى خزائن الكتب العربية، مع أنّ هذا مسموح به للأساقفة، أراهم يدخلونها تحت نظراتي النهمة الغاضبة.

وقد انتبهنا ذات يوم إلى ذكرى مائة عام مضت على خروج غرناطة من أيدي المسلمين فاقترح عبد الرحمان أن نزور قصر الحمراء للتذكّر والاعتبار. صعدنا الربوة المتدثّرة بشجر فارع يوحي بالجمال والرهبة معًا، وظللنا نمشي إلى

أن برزت الحمراء الخالدة كلؤلؤة وسط صدفة خضراء... هل هي القصر الرائع المنتهي الرقّة... أم الحصن المنيع الموحي بالعظمة والقوّة. إنها الاثنان مجتمعان كما لم يجتمعا في مكان، ويعبّران عن الليونة والخشونة في نفس الوقت والأوان.

تنهّد عبد الرحمان وقال همسا:

«عليكما الرحمة يا فردينانا وإيزابيل...

- هل هما عزيزان على قلبك إلى هذه الدرجة؟
- ألا تراهما أبقيا على هذا الأثر الجميل وهما في أوج القوّة وقدرة الفاتح المنتصر فلم يهدماه و لم يشوّها زينته؟
- ولكنّهما بنيا الكنيسة الملكيّة في حظيرته، فهي كالتشويه في الوجه الجميل.
- ما دامت لم تمس الأثر ذاته، فلا ضرر، بل كأني بالزوجين الملكيين، وقد طلبا أن يدفنا هنا لم يجدا تمثلا للجنّة أقرب من الحمراء، فتفاءلا بها، وطلبا أن يأخذا فيه راحتهما الأبديّة.
- فإذا أضفنا إلى الكنيسة هذا القصر الضخم المتجهّم ألا يكون التشويه أكبر؟
- هذا القصر بناه كارلوس الخامس الناقم، كانت لديه خطّة شاملة لتعويض المنشآت الإسلامية بأخرى، فأخذ يهدم جزءا ويبني مكانه آخر من تصميم بدروماشوكو وهو مهندس جلبه من ايطاليا خصّيصا لهذه المهمّة، لكن الأقدار حالت بينه وبين غرضه الدنيء فلم ينجز سوى هذا القصر الذي تراه.
- وما يدريك أن لا ينبت من فليبّات عصرنا كارلوس آخر؟ ادع الله معي أن يحفظ هذه الدرّة حتى يراها أحفادنا، فهي كلّ ما سيذكّرهم بأنّنا كُنّا هنا.
- وأن ندعوه أيضا أن لا يستقدموا ماشوكو آخر لإتمام ما بدأه كارلوس.
- هل تظنّ ماشوكو هو الوحيد الذي استعان به ملوك إسبانيا على تنفيذ خططهم؟

- أعرف أنهم استعانوا بكريستوف كولمب الايطالي وماجلاّن البرتغالي من أجل الاكتشافات البحرية.
- جاءوا من أوروبا بكلٍّ من توسّموا فيه القدرة على تنفيذ سياستهم، البرتغالي خوان دياز ديساليس، الفلورنسي أمريكو فسبوتشيو، الانقليزي سبستيان كابوت، الألماني كبمربر وإخوته، الايطالي سيكولو والأخوة جيرالديني، هل أزيدك؟
- فعلوا هذا مع دعوتهم لتوحيد الأمّة ونقاء العرق الإسباني، ومع طردهم لذوي الأصل العربي باعتبارهم أجانب... أليس من ذكرتهم أجانب أيضا؟
- أجانب نعم، ولكن أوروبيون، وهنا يكمن الفرق.
- أوروبيون هذا هو الشرط، حتى ولو كانوا منافسين أو أعداء؟
- نعم... والدليل على هذا وجود العالم بربوزا البرتغالي في سلمنقة جالسا يلقي دروسه بهدوء في عزّ أيّام الحرب مع بلاده، وفي نفس السنة التي أطرد من غرناطة علماؤها ومهندسوها. ماذا تسمي هذا؟
- سيجد له المؤرّخون اسما... التاريخ لا يرحم وسينصف كلّ أمّة بما فعلت.

يتمتع عبد الرحمان بروح فكهة ودعابة خفيفة، فلايفوته التعليق على أيّ خلل يلاحظه في سلوك الناس وعلاقاتهم، فيضحك منه ويضحكنا معه. وكان له أصدقاء كثار من أبناء البيازين حيث دار أبيه وجدّه منذ أجيال. وكُنّا يوما في بيته بعد ساعة الغداء، وقد رحل أبي في الصباح الباكر عائدا إلى القرية، فتجاذبنا أطراف الحديث عن سهرة البارحة ورسالة مفتي وهران عن التقيّة والوضوء بالإيماء إلى شجر أوتراب... قلت:

«هذه لاتماثلها إلاّ فتوى القسّ الأراغوني الذي حثّ أهل قريته على التعميد وحضور القدّاس مع بقاء ضمائرهم متعلّقة بمحمد.

سأروي لك تجسيدا حيًّا لما قاله ذلك القس، وقد حدث لرجل عجوز عُيِّن خادما بكنيسة سنتياغو دون أن يكون مسيحيًّا مقتنعا، فحاول أن يواري ويداور

كلّما تعلّق الأمر بواجباته الدينيّة، لكن نفسه ضاقت بالازدواجية الـتي يعيشـها، وظهر عليه الكدر. فإذا طلب منه جمع التبرعات فإنّه يؤدّيه في غير أوانه المقنّن من طرف الكنيسة، كأن يجمعها يوم الأحد أثناء القدّاس مارًّا بين صـفوف المقاعـد مبدّدا لحظات الخشوع على المصلّين، وكأنّه يتلذّذ بعصيان الأوامر وعدم احتـرام القواعد، بل كان يضيق بملاحظات القساوسة إلى درجة التهديد بـالتوقّف عـن جمع التبرّعات. إلى جانب هذا كان لايحضر المـواعظ، وإذا حضـرها لا يركـع على ركبتيه ولايحني رأسه. وفي بعض الأيّام تدفعه دعابتـه إلى تحريـف لفظـة التقديس أثناء جمع التبرّعات لصيانة القنديل المقدّس، فإذا عاتبه القساوسة على فعله يجيب فاتحا فاه على وسعه: «انظروا إلى أسناني... أين هي؟ كيف أضـبط زلاّت اللّسان وأنا بلا أسنان؟ اطلبوا معي من الربّ أن يعيدها لي سالمة كـيلا أخطـئ ثانية. ارحموا شيخوختي واتركوني أعبد الله كما أسـتطيع». فيغفـرون زلاّتـه ويتركونه».

ضحكنا من حيلة العجوز، وفي نفس الوقت أدركنا وطأة النفاق على نفـس رجل مسكين لم يكن يرغب، حسب رأيي، إلاّ أن يترك في سلام مع إيمان اختاره وارتضاه لنفسه. قلت لعبد الرحمان:

«إنّ مشاهد كنت أراها في كنيستنا لا تقلّ هزليّة عن قصّـة ذاك العجـوز. كانت النساء يذهبن إلى الكنيسة محجّبات، ولكنّهنّ يقلبن اللقاء إلى مناسبة لتبادل الأخبار والضحك بصوت عال، فلا ينتبهن للأدعية والصلوات عندما يرفع القربان المقدّس، وربّما كان بعضهنّ يدير له الظهر دون مبالاة، أويقرصن أطفالهن الرضّع ليزيدوا القاعة بكاء وضوضاء، إلى أن ينتهي القسّ من صـلاته فيـأمر خادمـه بطردهنّ لاعنا شاتما».

ضحك عبد الرحمان، وطلب منّي إعادة ما كُنّا نفعله للراهب الأصم ليسمعه زملاؤنا، قلت:

«كان في دير قريب منّا راهب أصمّ نذهب إليه كلّما مررنا بالناحية لنتسلى بمسرحيّة الرغبة في الاعتراف نمثّلها عليه كلّ مرّة، ونشبع ضحكا. كُنّـا نتركـه يدخل كرسي الاعتراف ونتوارى عن نظره، ويقترب المتطوّع منّا ليعتـرف عـبر

الكوّة بكلام لا يبين، كلّه تأتأة وفأفأة يكسوها مظهر الحديث الجدّي بتعابير الوجه وحركة اليدين، بينما نحن في ضحك صاخب لايسمع الراهب الأصمّ منه ولا من كلام صاحبنا شيئا».

ذكر مقامي في طليطلة

ها أنا في طليطلة مرّة ثانية، يتلوّى نهر التاج أمامي تحت جسوره العتيقة، وينتظرني الانكباب على حذق الترجمة في مدرسة المدينة وفي مكتبتها العامرة بالمخطوطات، والمزدحمة بأفواج الطلاّب القادمين من بلدان أوروبا المختلفة، يتعلّمون ويتعارفون، ويطلع بعضهم على عادات البعض الآخر ولغاته ومشاربه.

عرفت أنّ هذه حال طليطلة منذ القدم، كما عرفت خلال مقامي بها أنها أنجبت رجالا عظاما نشأوا بين رياضها وكرعوا من حياضها. أذكر منهم صاعد الطليطلي صاحب طبقات الأمم وهو موجز لتاريخ الفكر والعلم عند العرب والأمم القديمة، وأذكر الزرقالي الفلكي مخترع الصفيحة المعروفة في علم الفلك باسم الاسطرلاب الزرقالي، وأذكر أيضا ابن الخيّاط الطبيب الفلكي، وابن الوقشي الجامع بين عدّة علوم ومعارف.

تعلّمت في هذه المدينة قواعد الترجمة، ساعدني على ذلك أساتذة عُمَدٌ تتلمذت عليهم، وفضول شديد لاكتشاف أسرار اللغات والتعمّق في مدلولاتها المضمونية، فحذقت القشتالية والبرتغالية والعبرية، كما حصّلت معارف قليلة باللغتين الفرنسية والإيطالية.

أمّا الفرنسية فعلى يد رجل يُدعى جوليان اشتغل مترجما لدى ملك نافار بفرنسا، وأقام هناك زمنا. وبما أنّه مسلم متنصّر عن غير اقتناع، فإنّه أعجب خلال سفراته المتكرّرة بمذهب لوثر المنتشر في فرنسا، وحدّثني مطوّلا عن مبادئه خلال اجتماعاتنا السرّية.

قال لي مرّة:

«أنا لا أذهب إلى القدّاس... ولا أحضر المسرحيّات السمجة.

- وماذا تكره في القداس؟
- إنّه مزاح ثقيل، أسود، لم يُجعل إلاّ لبثّ الرّعب والخوف في نفوس الناس بواسطة تماثيل وأشياء اصطناعيّة لا يصح أن نعبدها، متناسين وجود الله، وهو أولى بأن نقصده دونما واسطة، وأن نسلّم النفس إليه.
- فأنت لوثري إذن؟
- أنا عربي لوثري، أصلّي وأصوم رمضان، وأتّبع في نفس الوقت تعاليم لوثر وأحفظ أناشيده الدينية، لأنّها تدعو إلى التسامح والإصلاح والنظافة الأخلاقية، بخلاف كاثوليك بلدك المتزمتين».

لكن المسكين وقع في القبضة الحديديّة للتفتيش، إذ أمسكه ذات يوم أولئك المتزمّتون، واتّهموه بسبب كنيستهم، ثم أحرقوه. ومن حسن حظّي أنّه أثناء المحاكمة لم يذكر اسمي ضمن من كان يتّصل بهم، ولا ذكر الدروس التي أخذتها عنه.

إلى جانب الدروس ساعدتني المكتبات العامرة في هذه المدينة وحركيّتها الثقافية على تنمية معارفي وإثرائها، من ذلك بداية ولعي بشعر لوبّي دي بيقا وكتابات ميقال دي ثربنتس الذي نشر روايته دون كيخوتي فتخاطفتها الأيدي وصارت حديث النوادي. وقد وقعت بين يديّ مطبوعة، كما صار الشأن في إخراج الكتب، إذ لم تعد تستنسخ باليد، بل بآلات وحروف مسبوكة من المعدن أومنحوتة من الخشب، وكلّها عجميّة اللغة، ويا ليت الدهر يسمح بعمل الشيء نفسه للحروف العربية، لكن هذا لن يحدث في رأيي ما دامت الحال كما نرى ونشاهد من تضييق إلى تضييق أشدّ منه.

لم يثقل عليّ عامان من الدراسة والبعد عن الأهل، بل فيهما اكتسبت تجارب وخبرات فتحت بصري وبصيرتي على شؤون الحياة، وعقدت صداقات ثريّة مع طلبة من أصقاع مختلفة، واشتركت في عدّة أعمال أدبيّة وفنيّة، من بينها مسرحيّات كنّا نقدّمها للطلبة في قاعات نكتريها للغرض.

أعجبت كثيرا بفنّ التمثيل، وحضرت أغلب المسرحيّات المقدّمة في طليطلة، وخاصّة ما كتبه لوبّي دي بيقا، مثل: جمال أنجليكا، تقلّبات الدهر، والأركاديا، كما شاركت بهمّة في الفرق المدرسيّة، حتى أنني كتبت نصوصا ذات مضامين

تقرّب بين الطوائف المتناحرة، وتزيل الأحقاد بين المسلمين والكاثوليك أو أتباع لوثر...

لكن أعوان ديوان التفتيش لم يكونوا راضين عمّا نفعل، وبعد أن راقبونا عن بعد جاءوا لزيارة مسرحنا ومراقبة ما نُقدّمه، وبعد أن شاهدوا الفصل الثاني وأحد محاوره معجزات الرسول محمد أمروا بإيقاف التمثيل فورا. وعبثا حاولنا إقناعهم بأنّ الفصل الأوّل كان فيه ذكر معجزات المسيح الذي أنطق الأكمه وأحيى الموتى، وأنّ الفصل الثالث سيعود إلى الحديث عن مريم الطاهرة، لكنّهم أوقفوا المسرحيّة بعناد، وسأل كبير المفتّشين عن مؤلّفها ومن يكون، فتقدّمت واجف القلب:

«قد أكون أنا قداستك... وقد لا أكون.

- ما معنى هذا الكلام؟
- الأوراق بين أيديكم ومعها الموافقة التي حصلنا عليها.
- ليس هذا جوابا عن سؤالي.
- أعرف... ولكن قصدي أنّ الأوراق تشرح كيف اقتبست النصّ من كتاب تاريخي.
- أي كتاب هذا؟
- اسمه عند قداستك، وهو موجود في المكتبة بمعهدنا ومرخّص في استعماله. فنحن لم نقترف ذنبا، ثم إنّ موافقتكم على المسرحيّة سبقت تمثيلها، فهل غيّرتم رأيكم؟
- سيكون لنا حديث مع إدارة المعهد. أمّا المسرحية فيجب إيقاف تمثيلها ابتداء من اليوم.
- لكن القاعة التي اكتريناها قداستك كلّفتنا ما لا يقل عن...

قاطعني مزمجرا مهدّدا:

«صَلِّ الليلة طويلا قبل أن تنام لأنّنا لم نأخذك إلى السجن».

واستدار على عقبيه خارجا ومعه كلّ أوراق المسرحيّة، مبدّدا في طريقه كلّ آمالنا في مزاولة عمل جديد أحببناه وأردنا من خلاله الإصلاح، ولا شيء غيره.

اجتمع أفراد الفرقة بعد الحادثة عدّة مرّات للتفكير فيما يجب عمله، لكنّنا لم نصل إلى رأي صالح للتنفيذ في ظلّ الرقابة الكابوسيّة الجاثمة على الأفكار والعقول.
قال أحد الشبان بيأس:

«هل نحن في تناقض مع الكنيسة؟

- نعم، قلت له، لأنها تفرض رداء واحدا يلبسه الجميع.
- ولكن أكثر اهتمام الناس مركّز على خلاص أرواحهم وعلى النجاة الأبديّة، وهذا مطلب لايهتمّ كثيرا بلون الرّداء، وإنّما بما تحت الرداء... بما تخفيه القلوب والضمائر.
- جهود التوحيد الديني تموّه على الناس وتغطّي مقاصد التوحيد السياسي... منذ الأزل عاش الناس في هذا البلد بثلاثة أديان.
- جائز جدا... لكن أقوى العوامل يبقى العامل الديني. هو الغالب وهو القاهر، ولا شيء يرى في الحياة إلاّ من زاويته.
- حتى الفن... حتى العلوم الصحيحة؟
- الكلّ تحت المنظار الديني، ولن يتغيّر شيء في عصرنا هذا على الأقلّ. انظروا ما حدث لغاليليو من مضايقات رجال الدين حتى أعلن توبته عن أفكاره، وأنكر ما استفاده من تعاليم كوبرنيك عن نظام الكون وحركة الكواكب.
- وأنا علمت من صاحب لي يسافر إلى فرنسا بأنّ جرّاحا وباحثا في جسم الإنسان يُدعى أندري فيزال جرّمته محاكم الكنيسة من أجل بحوثه، وألزمته التكفير بالحجّ إلى بيت المقدس. والنتيجة أنّه بعد عودته انزوى في ركن بيته و لم يعد يهتمّ بأمور العلم، وهكذا خسر العلم موهبة فذّة.

ضحك صاحبي معقّبا:

«رجل محظوظ لأنهم لم يبعثوه إلى الحجّ الأبدي.

- في النهاية لا مكان في عصرنا للأفكار الفنّية أو العلميّة، وليس سوى اللاّهوت.

- ومع اللاّهوت بعض الأفكار الحربيّة... كيف نغزو، كيف نقمع، كيف نطوّع العنيد ونعذّب العاصي».

سقطت هذه الجملة على رؤوسنا كالحجر، فبقي الجميع واجمين.

أعدت الصّلة خلال إقامتي بطليطلة بألفارو دي كردوبا ورفاقه، وحضرت حلقات نقاشهم في مقصورة الكردوليرو، إنّها معين لاينضب من المعلومات عمّا يدور في دهاليز الحكومة والكنيسة وفي أوساط المبعدين عن غرناطة، أو الفارّين إلى عدوة المغرب، يتمّ تسريبها بسرّية وتحفّظ. والأحاديث تختلف شكلا ومضمونا حسب الضيف المشرف على الاجتماع، فإن كان فقيها متضلّعا نحا بالكلام إلى تفسير التعاليم الدينيّة، وتوجيه الحاضرين إلى الحفاظ على عقيدتهم، وقد يستفتونه في أمور حياتهم وما يعرض لهم من مشاكل، فينصح ويرشد.

وقد يكون الضيف عرّافا أو منجّما فيأتي ببعض الكتب القديمة يقرأ فيها علامات المنقذ المنتظر، وأحيانا يأتي بدلائل عن قرب بناء جسر على مضيق طارق ليربط بين العدوتين، كي يتدفّق العرب منه نحو الأندلس ليفتحوه ثانية ويعيدوا أمجاده الآفلة. أو عن اقتراب قدوم السلطان التركي الأعظم الذي سيخضع الشرق والغرب لأمره، وما تأخّر قدومه إلاّ لانشغاله بحروب أرض الرّوم لتخليصها قبل الاهتمام باستعادة الأندلس. فليصبر أهلها، وليعضّوا على دينهم بالنواجذ، فالنصر قادم حتى وإن تأخّر زمانه.

ولكن اعتقادي الجازم، وقد مضى يتأكّد يوما بعد يوم، هو أنّ النجدة غير آتية، لا عن قريب ولا عن بعيد، بعد أن فاتتها الفرصة السانحة عند احتلال سليمان القانوني للجزائر وافتكاكها من قبضة كارلوس الخامس. كان ذلك نصرا مبينا قوّى أمل أهل الأندلس في وصول نجدة فاصلة قاطعة تخلّصهم من بطش ذلك الامبراطور، أو ربما تردعه بعمليّة تأديب تهدّده في عقر داره، وتفرض عليه شروط معاملة رحيمة لمن بقي في مملكته من العرب والمسلمين. ولذا تحرّك هؤلاء إثر ذلك النصر، وكاتبوا السلطان سليمان طالبين إعادة تعيين خير الدين باشا واليا على الجزائر ليردع الإسبان ويحمي المسلمين من عدوانهم. وقد أتيح لي الاطلاع على

مسودّة تلك الرسالة مخفيّة عند أحد فقهاء غرناطة، وفيها بعد الديباجة ما يلي:

«... وبعد فإنّ عبيدك الفقراء الغرباء المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس، وجملة عددهم ثلاثمائة وأربعة وستون ألفا، منهم من رياسهم بغرناطة وغيرها خمسون ألفا والباقي من عامّة المسلمين، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرّعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام الله عزّه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفّار ومقاساة التضييق والأضرار، وجور أهل الشّرك آناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم بالنار. قد تكالب العدوّ علينا ومدّ يد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كلّ جانب ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب. وطالت بنا الأيّام، وعاثت فينا النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان. وقد كان بجوارنا الوزير المكرّم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبّته بالخواطر والضمائر، وانتظم العدل والشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمرّدين، ونقلهم إلى أرض الإسلام سالمين».

وبعد تعداد مظالم الإسبان ومطاردتهم لكلّ من خالف أوامرهم تمر الرسالة إلى مقصدها الأساسي:

«... يا مولانا سلطان البرّين والبعرين نصركم الله، امدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعيّة المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجلّ خير الدين، الممتثل لأوامر مولانا، ونتاج عزّ الدنيا والدين، فإنّه أحيا هذا الوطن وجميع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرّب ديار المردة والفجّار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية، وأحكام مولانا نصره الله حتى تزيّنت بها الديار والأمصار، فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا

الوطن إن رأى مولانا صلاح ذلك، فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهالي الإسلام وقهرا ونكاية لحزب الشيطان. وقد اتّفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام، لا زال بالعزّ موصوفا، وبالبهاء والنصر محفوفا، بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشا إلى الجزائر، فإنّه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير، والسلام التام على المقام الشريف العالي».

قلت للرجل العجوز صاحب الوثيقة:

«إنّه مطلب متواضع في رأيي، فحتى لو استجاب السلطان التركي لهذا المطلب البسيط، فمن يعلم إن كان خير الدين سيفرض هيبته حقا على الإسبان أم سيتلهّى عنهم بأهداف جديدة؟ ومن يعلم إن كان الإسبان لن يعقدوا أحلافا أوروبّية جديدة لصدّ خير الدين ومحاصرته في الجزائر؟ ولذا لم أكتشف في رسالة الاستغاثة هذه رؤية سياسيّة واضحة، وقد أكّدت الأيّام هذا، وحسب المرء أن ينظر في نتائجها بعد مضيّ أربعين سنة، وبعد أن انتقل السلطان سليمان وخير الدين كلاهما إلى رحمة الله».

أجابني الرجل بصوت متهدّج نالت منه الأيّام والأحزان:

«كلّ ما فعل خير الدين هو المساعدة على نقل أهل السواحل إلى الجزائر، وبذلك أفرغها من أهلها. في أحد الأعوام جاءت ست وثلاثون سفينة فنقلت سبعين ألف نفر من بينهم أبنائي الثلاثة، وقد أبيت إلاّ الموت في أرض أجدادي مهما كان الثمن».

قال عبد الرحمان:

«كان خير الدين هو الحل الوحيد في تلك السنين، سواء للاقتتال أو للارتحال، أمّا فيما بعد فمشاكل الدولة العثمانية صارت أكبر من أن تترك لها فرصة لمساعدة غيرها... فثورات ولاياتها الأروبية وحربها مع الفرس، وهزيمتها أمام النمسا لم تترك لها قوّة تواجه بها الإسبان، أو تهدّدهم. بل إنّ البحريّة العثمانية ذات الشأن والعنفوان في البحر الأبيض صارت غير مرهوبة ولا محسوبة الجانب. بل إنّي سمعت بعض الإسبان يضحكون عند مقارنة الأميرال العثماني خليل باشا ومناوراته

البحرية التي بلا هدف ولامعنى، ولاتخيف أحدا، بتحركات سلفه خير الدين الذي ترتعد لذكره الفرائص».

أنهيت دراستي بطليطلة وعدت إلى الحجر الأحمر فرحا بشهادتي الجديدة وبالأمل في قضاء عطلة سعيدة بين أهلي وأقاربي راتعا في الحقول على جواد، أو سابحا في النهر مع أقران الصبا والشباب، لكنّني قبل التخلّص من أتعاب السفر، وقبل أن أبدأ في تحقيق أحلامي، نكبت بموت والدي الذي سقط من فرسه فأصيب عنقه باعوجاج قد يكون أثّر في المخّ، فامتنع عن الكلام فترة، ثم توفّي وسط أحزاننا التي لم يتّسع لها مكان.

و لم أكد أفيق من هذه الصدمة حتى جوبهت بعناد قسّ كنيستنا، فقد أصرّ على تنظيم جنازة دينيّة وقدّاس، ودفن والدي في مقبرة الكنيسة، معارضا دفنه في مزرعة العائلة. تناقشنا طويلا في الأمر، وكان بعض حوارنا مسموعا من الأهل والأجوار، وحاول إقناعي بلطف، ولكنّني بسبب ضيقي وحزني أكثرت من التعنّت والصلابة. وفي نهاية الأمر شحذ سلاحه الأخير عندما أخذني جانبا وتكلّم قرب أذني بما يشبه الهمس:

«أنت تتصلّب أكثر من اللاّزم، وتحب مصادمتي رغم أنّني لم أفعل ذلك مع أبيك أبدا، بل كنت أتكتّم على أفكاره وتصرّفاته، وأعفيه من مقابلة المفتشين كلما زاروا القرية وسألوا عن سلوكه. نعم لقد أخفيت عنهم أنّه رفض خنزيرا أهديته إيّاه وأرجعه لي معتذرا، فلم أقل شيئا، واقترحت عليه زراعة شيء من عنب الخمر فتعلّل بملوحة تربته وبأنّ القرى المجاورة تصنع خمرا أطيب. هل تظنّ أنّ هذه الأعذار والتعليلات مرّت هكذا و لم تثر شكوكي؟ هل أنا أبله في رأيك؟... وتريد اليوم إعطائي دليلا آخر على ابتعادكم عن الكنيسة... وأمام الناس جميعا أيضا. اِهدأ يا ابني ولاتثر الشكوك حولك وأنت في بداية حياتك، ودعني أزاول عملي وأطمئنّ على روح والدك المسكين حتى تدخل عالم الملكوت بسلام».

غادرت قريتي بعد هذه الحادثة نهائيًّا، واستقررت بغرناطة حيث عملت أمين صندوق لبعض التجّار، ومترجم وثائق أحيانا إذا طلب منّي ذلك، مع الاستعانة في

البداية بمن سبقوني في الميدان وهم قلّة نادرة. وعدت إلى ربط الصلة بأصحابي السابقين من أمثال محمد بن أبي العاصي، وعبد الرحمان خمنيث الذي غدا خبيرا زراعيًّا مشهورا. وارتبطنا ثلاثتنا بصداقة خالصة دامت سنوات.

ذكر ما وقع مع أسقف غرناطة

في عام 1588 أمر أسقف مدينة غرناطة دي سلفاتييرا بهدم صومعة قديمة تحاذي الجامع الكبير، كانت قبل الإسلام تدعى برج تربيانه، لأنّ صومعة بنيت بقربها أجدّ وأعلى. وعند هدم القديمة عثر في أحد جدرالها على مربع حجري بداخله صندوق رصاص فيه رقّ كبير مكتوب بالعربية والعجمية المتداولة في الأندلس، ونصف خمار الصالحة مريم أم سيدنا عيسى عليهما السلام، وعظما من جسد القديس إستيفان.

فأمّا ما كان من الرقّ بالعجمية فقرئ وفهم، وأمّا المكتوب بالعربية فدفع به إلى الأكيحل الأندلسي، وكان ترجمانا مجازا، وإلى الشيخ صالح الجبّيس، وغيرهما من الأندلس كبار السنّ العارفين بقراءة العربية، وأمرهم الأسقف بترجمته، كلّ واحد وحده، وتارة يجمع بينهم، فلم يحيطوا بحقيقة معناه، والأسقف يراقبهم ويتتبّع عملهم لأنّه يعرف العربية.

وبعد تاريخ العثور على الرقّ بسبع سنين ادّعى رجل من مدينة جيّان أنّ أسيرا نصرانيًّا ببلاد المغرب أرسل له خطابا فيه ذكر كنوز مدفونة ببعض المواضع، وسمّى له موضعا بقرب غرناطة يقال له «خندق الجنة». ولما حفر هناك وجد غارا، وفي بعض أركانه وجد رمادا وألواح رصاص كتب فيها باللاتين: «هذا الموضع أحرق فيه القسّيس سيسليوس كاتب هذا الرقّ». وفي كتب النصارى خبر بموت ذلك القدّيس، وهو من حواريّي عيسى عليه السلام، وأنّه قتل أيّام الرومان شهيدا من أجل دينه، ولكن لا أحد يعلم مكان دفنه. ومن عادة النصارى أنّ كلّ من يقتل على دينه من القساوسة يثبتون اسمه مع الصالحين، ويذكرون موضع استشهاده ليغدو مزارا. فأمر الأسقف بتفتيش الغار أملا في العثور على كتب ذلك

الرجل المذكورة عند البابا في رومة، والتي تذكر أنّ لديه أخبارا وأسرارا ربّانية من زمان سيّدنا عيسى عليه السلام، أو قريبا منه، وأنّه أودعها مكتوبة في جبل يُسمّى: «أبوليطانو»، وبحث أحد البابوات عن هذا الجبل عندما قيل له أنّه في إيطاليا، فأمر بحفره كلّه وغربلة ترابه في طلب الكتب فلم يعثر عليها. وسمعت هذا الكلام في غرناطة من الناس فأردت التأكّد منه بسؤال القسّيس ملدونادو، بعد أن رسخ التعارف بيننا، فأثبت لي ما سمعت.

أثناء تفتيش الغار عثر الحفّارون على حجرات معقودة بالكلس فكسروها ووجدوا في قلب كلّ حجر كتابا بالعربية ورقه من رصاص في حجم كفّ اليد أو أقلّ قليلا، فأمر الأسقف المترجمين الذين ذكرتهم بنقلها إلى العجمية، فوجدوا في أحدها ذكر الرقّ الموجود بأيديهم من أيّام هدم التوربيانه، قبل ذلك العهد بسبع سنين، فاشتدّ حرصهم على فهم محتواه.

واتّفق أنّ راهبا من المقرّبين للأسقف كان يتعلّم العربية على يد الحكيم محمد بن أبي العاصي - وهو صديقي وله إذن بالترجمة - فيأخذ عنه ويترجم له الكتب. وقد حضرت معهما قراءة كتاب الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» دون أن أظهر للنصراني حذقي للّغة العربية، لما كانت تجري به الأحكام فيمن ظهر عليه ذلك. وخلال القراءة كانا يتوقّفان في بعض الكلمات وفهم معناها، فكنت أقول لهما: «لعلّه كذا..». فيجدانه كذلك.

رمقني الراهب بعد فترة متفحّصا وقال:

«إن كنت تعرف العربية فلا تخف، لأنّ القسّيس الأعظم يطلب كلّ من يعرفها لعلّه يبيّن شيئا مما ظهر مكتوبا بذلك اللسان». واصطحبني الرجل ذات مرّة إلى داره ليريني كتبا عنده في كلّ فنّ ولسان، ومنها كتب بالعربية، فقرأت وترجمت له بعض ما كان يتوقّف فيه. ثم لقيني يوما آخر وقال لي:

«إنّ الأسقف دون بدرو دي كسترو أمر أن تمشي معي إلى حضرته».

قلت في نفسي: «كيف الخلاص من هذه الورطة والنصارى تقتل وتحرق كلّ من يجدون عنده كتابا عربيًّا، أو يعرفون حذقه للعربية؟ وماذا أقول إذا سألني عمّن علّمني؟».

وأمّا ما ذكرنا من وجود مترجمين أندلس فكانوا شيوخا، وعذرهم أنّهم تعلّموا العربية صغارا لقرب عهد الإسلام. وأمّا الحكيم أبو العاصي فكان يقرأ لأجل جدّه، وهو مترجم كما قلنا.

ولما دخلنا على الأسقف بادرني قائلا:

«ذكر لي القسّ ملدونادو أنّك تحسن القراءة بالعربية.

- لست من البالغين فيها شأنا كبيرا.
- أين تعلّمتها؟
- ذلك أنني أندلسي من الحجر الأحمر، وكلامنا فيه بالعربية وبالعجمية، ثم درست الترجمة في طليطلة ووجدت فيها طبيبا أندلسيا من بلنسية علمني القراءة بالعربية وكان الأمر سهلا لكوني عربيًّا في الأصل.
- أين معلّمك الطبيب، فقد نحتاجه.
- مات رحمه الله قبل هذا العهد بنحو السنتين.

وكلّ ما قلته عن الطبيب وأصله البلنسي كذب، ولكن لأنّ القراءة بالعربية مباحة لأهل بلنسية وممنوعة عن سائر بلاد الأندلس تستّرت بالكذب دفعا لشرهم، وقد ذكر الغزالي في كتاب الإحياء: «إن جاز عليك إنسان من أهل الخير، ثم جاء في طلبه رجل ظالم سائلا عنه ليضرّه، فقل له: مشى من تلك الناحية بعكس اتجاهه لينحو المطلوب من ظلم طالبه. وإنّ الكذب في مثل هذا جائز بل مندوب إليه».

ثم أمر القسيس بإحضار الرّقّ، وكانت في طرّته كتابة بالعربية غير منقوطة: «يا طالب اللغز أقرن، وإن لم تقرن لم تحط بفهم الجفر».

فسألني عن المعنى بالعجمية فذكرته.

ثم دعاني يوما آخر، ولما جئت أعطاني الرقّ وقدّم لي قسّيسا عالما اسمه لويس دي رايا قائلا له:

«اقعد معه واكتب ما يقوله لك».

كان مكتوبا في أعلى الرقّ: «جفر المنحيل يوحنّا في خراب الوجود»، ثم في صدر المكتوب: «بسم الذات الكريمة الملتبيبة...». فاحتجت كتابا في اللغة لفهم معنى هذه الكلمة، وأعطاني القسيس كتاب الصّحاح للجوهري في سفرين،

وفهمت من الملتبيبة أنّه مأخوذ من لبّ الشيء، ومعناه: الذات الساذجة الخالصة، لا مركّبة ولا ممزوجة.

ثم بعد أن ذكر سيدنا عيسى عليه السلام، قال القسّيس سسليوس كاتبه عن نفسه أنّه مشى في طلب العلم إلى مدينة أثينا ببلاد اليونان حيث يقرأ العلم بكلّ لسان، وأنّه بعد زمن مشى إلى زيارة بيت المقدس، وأنّه في الطريق أصيب في عينيه حتى غشي البصر بالبياض، وأنّ الموكل ببيت المقدس أخرج إليه جفر الحوري يوحنّا الذي كتب ربع الإنجيل، وقال له: إنّ فيه سرا عظيما ونصف خمار الصالحة مريم، وقد استشفى به إلى أن ارتدّ إليه بصره. ثم أخذ منه نسخة باليوناني وترجمه باللسان العجمي المتصرّف في إسبانيا، وأدخله في جدول من تسعة وأربعين بيتا، ووضع في كلّ بيت حرفا من العجمي، وتحت الجدول شرحا بالعربية.

وعند ترجمتي ذلك الشرح كنت آخذ من العجمي الذي هو المتن إلى حد علامة الوقف، ثم آخذ من العربي، وهو الشرح، ما يناسبه، فجاء الكلام متطابقا ومفهوما، وهو كما ذكر في الطرّة: «يا طالب اللّغز أقرن»، والإقران يكون لشيئين متباينين فيجمعهما. وأمّا كلّ من سبقنا - وبعضهم أعلم منّي - فترجم الشرح وحده لذا لم يفهم معناه. وذكر لي أنّه كان فيهم من قرأ «الملتبيبة» بأن قال: «باسم الذات الكريمة المثلّثة» وذلك كذب، لأنّ حروف الثانية خمسة وحروف الأولى سبعة. ففرح القسيس فرحا عظيما بما ترجمت، وعلم أنّه الحقّ، وأعطاني ثلاثمائة ريال وترخيصا للترجمة من العربي إلى العجمي وبالعكس.

وامتدّ الخبر عند النصارى حتى اشتهرت عندهم بأنّني الرجل الذي فكّ رموز الرقّ بعد عشر سنين من اكتشافه، فأمرني الأسقف الكبير أن أكتب نسخة من الرقّ، وبعثها إلى رومة ليطلع عليها البابا. جاء في الجفر العجمي المكتوب في الرقّ شيء مما سيحدث بعد كمال ستّة قرون من ميلاد عيسى عليه السلام. وقال في الشرح العربي:

«من غمرات الشرقين أتى ملك جان بالانشرار
على الوجود قائم بتمام القدر والانتصار

يا مالكا دائما من هذا الأمر أين الفرار
وملك يتحكّم على الوجود كلّه إلى الغروب
ودين يتقدّم على من قد أملاه من العيوب
والسرّ يتفهّم بما القدر أعطاه على الذنوب».

فترجمت معنى هذه الأبيات، والمفهوم منها عندهم أنّ الملك هو النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم يقولون إنّه ولد لإحدى وعشرين سنة وستمائة من ميلاد عيسى عليه السلام. وعندي أنّه ولد قبل ذلك، أي في المائة الخامسة واشتهر دينه في السادسة. وقد رأيت نصبة ولادته معدّلة في كتاب علي بن أبي الرجال بتاريخ ولادته محقّقة.

وفي معنى «الجاني» وقع خلاف بين المترجمين، لأنّ الاسم له معنيان، فأمّا عند الشيخ صالح الجبيس وما ترجمت أنا فهو اسم فاعل من جنى، وهو ظاهر في القرآن العزيز.

ولما ترجمت أن «دينه يتقدّم على من قد أملاه من العيوب»، قال القسّيس: «كيف هذه الترجمة؟

- أنت تعرف القراءة وتفهم ما أترجم لك، كلّ كلمة وحدها».

فصمت مكرها، لأنّ الكفّار هم من أملاه من العيوب، وتقدّم دين النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، وهو موافق لآية في القرآن العزيز تقول: ﴿أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وكان في أسفل الرقّ مكتوب بالعربية: «أوّل ما صدر يوحنّا في الإنجيل، كتبه بتريزيو، قسيس خدم سيسليوس»، وقال إنّه أمره أن يضعه في موضع خفيّ حتّى يريد الله أن يظهره، وأنّه وضع الصندوق في حائط الصومعة خوفا من طاغية الرومان نيرون.

ولما ترجمت ابتداء الإنجيل وما ذكر فيما كتب، قال لي القسيس: «انظرهذه الكلمة... هل لها معنى غير هذا؟

- ليس لها إلاّ هذا المعنى.

- فاترك موضع الكلمة أبيض لأنّه مخالف للإنجيل الذي بأيدينا.

قلت في نفسي: «أهذا الذي كتب في زمن سيدنا عيسى أو باثره أصحّ، أم الذي عندهم الآن؟».

وأيضا كان في الجفر: «من أقصى المغرب على ماء البحر يأتي سريعا أقوام إلى بلاد النصارى وتصل الحملة إلى رومة..». وذكر مما ينـزل بالنصارى من الشرّ والخسران شيئا كثيرا، وأنّ من علامات ذلك: «إذا يأتي الوقت بالانفصال، مدينة البحر يملكها الشرقي بلا محال»، ولم يشكّ أحد ممن سمع ذلك أنّ الشرقي هو سلطان المشرق، وأنّه سلطان الترك نصره الله.

وقال لي القسّيس:

«أي مدينة تسمى بالعربية: مدينة البحر؟

– لا أدري... قد تكون البندقيّة لأنها في البحر مبنية».

فأعطاني كتاب الجغرافية بالعربية مطبوعا بالقالب طباعة حسنة واسمه «نـزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وقال لي:

«انظر هل تجد هذا الاسم فيه؟»

فقرأته كلّه، فلم أجده.

ومدينة البحر المذكورة رجوت الله أن تكون البندقيّة أو مالطة، لأنها في البحر وليس على المسلمين أضرّ منها. وقد أخبرني الحاج يوسف الحكيم الأندلسي أنّ بها خمسة آلاف وخمسمائة أسير مسلم، منهم خمسون أندلسيًّا والباقون عرب وأتراك.

وبينما كنت أطالع الكتاب إذ جاء بعض المسافرين من بلادي إلى مدينة غرناطة، وعلمت في أيّ فندق كانوا فمشيت إليهم والكتاب عندي. وبعد السلام والكلام فتحت الكتاب، فلما راوه مكتوبا بالعربية دخلهم الخوف العظيم من النصارى، فقلت لهم:

«لا تخافوا، لأنّ النصارى يكرّمونني ويعظّمرنني لأجل معرفتي للعربية».

وقد ظنّ أهل بلدي جميعا أنّني من أعوان النصارى الذين يحكمون بالحرق على كلّ من ظهر عليه الإسلام أو قراءته لكتب المسلمين، لذا أصابهم ذلك الخوف العظيم، ولا ذنب لهم في ذلك، فالناس قد صاروا مرتابين من بعضهم البعض، ولا يتكلّمون في أمور الدين إلاّ مع من أمنوا جانبه. وكان فيهم من يحبّ

تعلّم شيء من الدين ولايجدون من يعلّمهم. ولما كنت عازما على الانتقال إلى بلاد المسلمين غامرت وصرت أعلم جميع من أراد التعلّم، سواء في بلدي أو غيرها من البلاد التي دخلتها.

ولما رأى الناس ذلك منّي كانوا يقولون فيما بينهم: «لابُدّ لهذا من الوقوع في أيدي الحرّاقين»، وبلغ بي الحال حتى إذا وقفت مع جماعة للكلام ينسلّ الواحد منهم بعد الآخر حتى أبقى منفردا. ومن أجل ذلك قصدت أبناء بلدتي وفتحت الكتاب أمامهم لأريهم ما أنعم الله به عليّ، إذ بدّل الخوف بأمن، والعقوبة والإهانة والذلّ بعزّة وكرامة.

وأمّا ما ذكره الرقّ: «إنّ علامة النحس الذي ينزل على النصارى يكون إذا أخذ المشرقي مدينة البحر»، فقد أظهرت نسخة من الرقّ المذكور لمولاي أحمد المنصور سلطان مراكش عند قدومي عليه، فقال أحد قواده:

«لو كنت تبدل القاف بفاء، ليأتي الكلام: أنّ مدينة البحر يملكها الشريف فيفرح بذلك السلطان.

- لايصحّ أن أبدّل شيئا. هل نسيت أنّه نصّ مقدّس؟».

هذا الرقّ القديم كان من زمان سيدنا عيسى عليه السلام، أوقريبا منه جدّا، لأنّ سيسليوس كتبه ووضعه في الصومعة خوفا من سطوة نيرون وبطشه بالنصارى سنة عشرين بعد سيدنا عيسى عليه السلام. وأيضا كان سيسليوس هو وأخوه قد كتبا الكتب التي ظهرت تحت الأرض بالحروف العربية المستعملة في ذلك الزمان حسبما شاهدتها في الرقّ، فحرف القاف كان بنقطتين وهذا برهان أنّ المشارقة في ذلك هم على العهد القديم، بخلاف المغاربة وهم يجعلون القاف بنقطة واحدة.

وقال في الرقّ أيضا: «من القبلة يخرج الحاكم العدل ولايعود». انظر هل يدلّ على النبي ﷺ؟ لأنّه بعد فتح مكّة المكرّمة، وهي قبلة المسلمين، وبعد حجّة الوداع خرج ولم يعد إليها.

وأمّا الكتب التي وجدت في مغارة خندق الجنّة فهي اثنان وعشرون كتابا من رصاص، طلب الأسقف الصيّاغ والمذوّبين لعلّهم يصنعون مثلها فلم يقدروا، وعلموا بذلك أنّ الرصاص مزج معه معدن آخر غير معروف. أحد هذه الكتب

عنوانه: «كتاب الحكم للصالحة مريم» كما في نسخة الفقيه الأكيحل، المترجم الأندلسي، وأيضا ذكر الكلام نفسه قائد بمدينة مرّاكش اسمه فارس ابن العلج، وكان من أهل الدين، قال:

«كنت أسيرا بغرناطة ونادوني إلى حضرة القسّيس الكبير وأعطوني كتابا في ورق رصاص من الكتب التي وجدت تحت الأرض وقرأته».

والذي قاله كان مثل ما كان مكتوبا في كتاب الأكيحل.

وقد قيل أنّ في الكتاب مائة حكمة وواحدة، وهذه الحكمة الثالثة منها:

«يأتي في الوجود من بعد روح الله يصوع نور من الله اسمه الماحي المنوّر، وبالمعجم البارقليطس، خاتم المرسلين تأييدا، وخاتم الدين ونور الأنبياء، لانور لهم دونه، ولا لأحد من العالمين، فالذين آمنوا به من بعد يسعدون حقّ السعادة، وينوّرون حقّ التنوير بالتنوير المبين من الله، ومن كفر به لا حظّ له في الجنّة ولكن أكثر الناس كافرون».

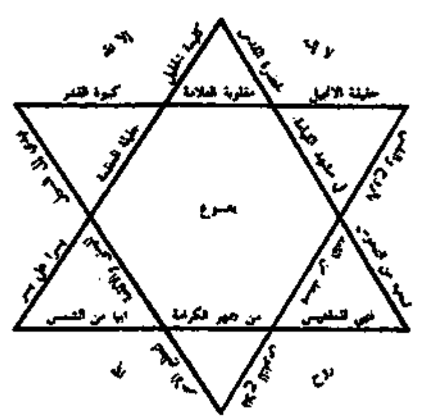
وقد قال لي بتونس، حرسها الله، الإمام الفقيه محمد بن عبد الرفيع الأندلسي، أنّ في الحكمة المذكورة سبعة من أسماء النبي ﷺ، وهي: نور من الله، الماحي، المنوّر، البارقليطس، خاتم المرسلين، خادم الدين، نور الأنبياء.

وفي كتاب آخر حكمة ذكرها لي الأكيحل، رحمه الله، تدلّ على يوم القيامة كأنّه برهان عقليٌّ، وهي هذه: «إن مات الظالمون من غير حكم وعاش الصالحون من دون أجر فذلك دليل على يوم القيامة، لأنّ الله حاكم عادل ولا يظلم في حكمه أحدا».

وأمّا الكتاب الذي يرجى فيه الخير حسبما قال فهو كتاب: «مواهب الثواب للصالحة مريم»، حيث قالت: «تكون الناس على دين واحد».

وأمّا كتاب: «حقيقة الإنجيل» فهو في سبع ورقات رصاص بحروف لم تعرف في زماننا، وأحضر القسّيس جميع حروف الهجاء المعروفة في الدنيا فوجد حروف الكتاب مختلفة عنها، فسمّاه المترجمون الكتاب الأبكم لاستحالة قراءته. وكان في أوّله خاتم سليمان عليه السلام مكتوبا بالعربية، وما عدا الخاتم فمكتوب بالحروف التي لم يعرفها أحد.

رسم الخاتم



1) حقيقة الإنجيل مقلوبة العلامة كبيرة القدر
2) كلمة الجليل جليلة العظمة يسرا على يسر
3) تهدي إلى السبيل لليمن والإقامة لتعظيم الأجر
4) فهي للمقتبس من جمهور الكرامة أبهى من الشمس
5) فلاح للنفوس يسعد من أقامها بالروح والنفس
6) تنجيه من النحوس في مشهد القيامة لحضرة القدس.

ومن عجائب هذا الجدول أنّه يقرأ على أربعة أنواع، مثل أن يبدأ بالسطر الأوّل ثم بالخامس ثم بالثالث ثم بالرابع ثم بالثاني ثم بالسادس.

وجه آخر في القراءة: يقرأ الأوّل ثم الثاني من الأسطر ثم الثالث ثم السادس ثم الخامس ثم الرابع.

وجه ثالث: يقرأ السطر الأوّل ثم الثالث ثم الخامس ثم الثاني ثم الرابع ثم السادس.

ثم وجه رابع: يقرأ الأوّل ثم الثالث ثم الخامس ثم الثاني ثم الرابع ثم السادس.

وقد قلت للقسّيس:

«أودّ مطالعة الكتاب الذي لم يقرأ، المسمى «حقيقة الإنجيل» لعلي أستخرج منه شيئا.

– لا... لم نبلغ الزمن الذي يقرأ فيه ذلك الكتاب».

لعلّه علم ذلك من كتاب «مواهب الثواب»، ولكنّني وجـدت في تـونس، حرسها الله، نسخة منه بالعربية وأخرى بالعجمية، أتى بالنسختين واحد من تراجمة الأندلس، ووجدت في العجمية من الباطل والكذب ما لايوجد مثله في النسـخة العربية. وهذه عقيدة توحيد الله تعالى من أحد تلك الكتب، وهي مـن كتـاب تصفيون ابن العطار في الذات الكريمة، قال: «الدوام لا يزال هـو الله، أوّل كـلّ شيء، الذي ليس لبدايته ابتداء ولا لفضيلته انقضاء، لايبلغ كنه صفاته الواصـفون ولا يتفكّرون في ماهية ذاته المتنكّرون، ليس أحد من العالمين رآه عين النظر. ملكه لا يزال لأنّه إن زال ملكه ما كان الله، وله صفات لا تتبدّل لأنها إن تبـدلت مـا كان الله، له جلالة لاتدرك لأنها إن أدركت كان نقصانا به، له عظمة لا تنفـكّ لأنّها إن انفكّت عظمته أتاه النُقصان وليس ذلك واسع فيه أبدا. هو ذو علم دون جهل، علم كلّ شيء قبل كونه. وهو ذو قوّة دون نقصان. وهو ذو رحمة وفضل دون امتنان. هو ذو علم قسط لا يفنى أبدا. ليس له احتياج لأحد مـن العـالمين ليزداد سلطانه، وليس دونهم له نقصان في ذاته ولا في ملكه. وكلّ ما خلق خلقـه من رحمته دون احتياج. الموجودات كون وهو المكوّن، لو أمر الدنيا بالغرق بمـن عليها لدامت في غرق ما دام ملكه ولا يزال ولا تصيب مستقرا لها في موضع. هو خلق كل شيء وليس بمخلوق. هو مؤانس ولا مؤانس لـه. هـو ذو علـم دون احتياج لغيره. هو ذو رحمة دون نقصان. هو أوّل كلّ شيء، ليس قبلـه شـيء وبعد كلّ شيء ليس بعده شيء. إلاه ليس شيء مثله. ليس هو كمّ ولا عـدد ولا فصل ولا فوق ولا تحت ولا وهم ولا خيال ولا كلام ولا لغة ولا صـنع مثـل خيالنا. هو فوق العقول ليس يوصف، له الجـلال والكمـال، وذلـك هـو في وحدانيته لايفهم الله إلاّ الله. له العظمة والعبادة والشكر على كل شيء، والإيمـان دون ذلك خسران».

وكان في الكتاب أيضا حروف مبهمة وتنقيط وخواتم.

وتصفيون ابن العطار هذا كان من أصحاب سيسليوس، وممن ساروا على أثر سيّدنا عيسى عليه السلام، ويظهر من كلامه فيما تقدم أنّه بريءٌ من الشرك الذي يعتقده النصارى في هذا الزمان، لأنهم يصدرون ذكر الألوهية بالتثليـث، وأمّـا

سيسليوس فما ابتدأ كتابه إلاّ باسم الذات الكريمة الملتبية. والآن يقولون: باسم الأب والابن والروح القدس، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

يوم أردت القدوم إلى مدينة إشبيلية في طريق هجرتي إلى بلاد المسلمين مشيت إلى الأسقف بدرو دي كسترو، وقلت له:

«إنّي اعتزمت الذهاب إلى بلدي لأزور أمّي المريضة التي دعتني إليها، وإنّ طاعة الوالدين واجبة.

- في بعض المسائل هي واجبة، وفي بعضها لا تجب.
- لابُدّ لي من زيارتها، وعندي إليك رجاء قبل سفري، وهوأن تكون سندا للأندلس لأنهم أذلاّء مظلومون من النصارى القدماء.
- اعلم أنني من جانبهم في كلّ زمن، وحين قاموا على السلطان في حرب البشرات كنت أنا قاضي القضاة بهذه المدينة، وجاء أخو السلطان خوان دي أوستريا، وقبض من أعيان الأندلس بهذه المدينة على مائة وأربعين رجلا وقتلهم، كل ذلك ليأخذ أموالهم، وكان الحقّ أن يتركهم لأنهم ما كانوا من القوّام. وأصحاب المال والنعمة لايسعون عادة إلاّ في أمور العافية ليتنعّموا بما عندهم، بخلاف غيرهم. ولكن أنتم أهل الأندلس فيكم عادة غير محمودة.
- ما هي؟
- هي أنكم لا تعاشرون ولا تتمازجون إلاّ مع بعضكم البعض، ولا تزوّجون بناتكم للنصارى، ولاتتزوّجون من النصرانيات.
- وهل من السهل في رأيك التزوّج من النصرانيات؟ لقد كان بمدينة أنتقيرة رجل من قريتي عشق بنتا نصرانية، ففي يوم ذهابهم إلى الكنيسة ليتمّ النكاح احتاج أن يلبس العروس زردا مهنّدا من تحت ثيابها، وأخذ معه سيفا، لأنّ قرابتها حلفوا أن يقتلوها في الطريق. وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل إليها أحد من قرابتها، بل تمنّوا موتها وموته. والنكاح لايكون ليتخذ به المرء أعداء بل أحبابا وقرابة.
- والله إنّك قلت الحقّ.

ذكر الرّحيل إل إشبيلية

وقفت بدابّتي في المدخل العريض لمحلّ حمنيث تاجر القطن. لمحني الرجل بسرعة فقام من مجلسه، وأشار إلى أحد أعوانه ليمسك الفرس، وأقبل عليّ مرحّبا مشتاقا لمعرفة أخباري ونتائج رحلتي.

كنت بادي التعب، فلم يسترسل في الكلام وسحبني إلى داخل مغازته، حيث الرطوبة ومسرى نسيم خفيف يبعثه الفناء المشجّر، يدعو الجسم إلى الدعة والاسترخاء.

ناولني إبريق ماء مثلّج وسألني باهتمام:

«هل تريد أن ترتاح عندي قليلا إلى أن يحين الغروب، أم ترى الإخلاد إلى بيتك للتخلّص من أثقالك ووعثائك؟

- اخترت المرور بك أوّلا لأعلمك بوصولي وبأنني أنهيت على خير حال ما اتّفقنا عليه.

اتسعت ابتسامة حمنيث ووضع يده على كتفي:

- بعت الحقل والبيت إذن؟
- بعت كل شيء وبثمن طيّب، لأن دوالي العنب كانت ولودا هذا العام مما أطمع المشترين وقوّى جشعهم.
- أنت خفيف الآن؟
- خفيف إلاّ من صرّة الذهب هذه... وكم خفت عليها طول الطريق.
- ألم تسافر في قافلة؟
- بلى، كنت وسط تجار محروسين، ولكن الطرق غير مأمونة مهما شدّدت الرقابة والحراسة.

- ها أنت سويّت أمورك، بقي أمري أنا.
- أمرك سهل أيضا. ألم تقل منذ شهرين أنّ تاجرا من مالقة عرض عليك شراء كلّ القطن ليشحنه إلى الخارج؟
- صحيح، لكن نشاط القرصنة البحريّة خفّف حركة التجارة وزاد من خوف التجّار. لقد وعد الرجل بالعودة ثانية عندما يرى الوقت مناسبا، وها أنا أنتظره.
- ابحث عنه إن أبطأ.
- وهذا ما سأفعل».

وقفت مستأذنا فمشى صاحبي خلفي حتى ركبت الدابّة ثانية وقال وهو يودّعني:

«ربما زرتك صباح الغد، فلا تخرج قبل أن آتيك».

اغتسلت وتمدّدت على الفراش طلبا للراحة بعد يوم شاقّ. لم يغلبني النعاس وإنّما تعاورتني الأفكار والهواجس فيما يجب عليّ أداؤه في مقبل الأيام. أمّا أملاك الأسرة في بلدتنا فقد بيعت ولم تعد سوى ذكرى: الدار بمطاميرها المملوءة زبيبا ولوزا وبقولا جافة وزيتا، حقل العنب الفسيح الممتدّ إلى حافة النهر. كم لعبت بين دواليه وتعلّقت بأغصان زياتينه أنا وأخي محمد، سلمه الله حيثما كان في هذه الساعة، لقد أعطاني توكيلا بالبيع والتصرّف في تركة والدينا وهاجر إلى عدوة المغرب أيام حملات التهجير الأولى. كان مريضا وضعيف البصر فخاف أيام الفتنة على نفسه وعياله، وخرج مع أوّل الخارجين آخذا معه روزا الغالية.

غداة وصولي بلدتنا الحجر الأحمر كان يوم أحد، فاغتنمته فرصة لمقابلة الأهالي والأجوار في الكنيسة، كان حضوري ووجودي بين أولئك الفلاّحين حدثا غير عادي، إذ أقبلوا للسلام عليّ بمجرّد أن انتهى القدّاس، حتى القسّيس بان في وجهه البشر واتّسعت ابتسامته بمجرّد أن رآني، ثم رحّب بي ودعاني إلى مقصورته وهو يعلن التبجيل والاحترام، متناسيا حادثة دفن والدي:

«كُنّا نأمل تكرار مثل هذه الزيارة يا ابني». هكذا فتح القس باب الحوار، ثم أضاف:

«أنت من علماء هذه البلدة، وهي فخورة بك، إذ يعلم الجميع قربك من المجلس الكهنوتي الأعلى وصلتك الوطيدة بالأسقف الكبير دون بدرو ديكسترو.

- إنني أخدمهما بما أستطيع، ولن يوصلني علمي مهما كان إلى ربط علاقة وطيدة بالأسقف الكبير، وإنّما هي أعمال ترجمة عادية، أمّا باقي الوقت فأقضيه باحثا في المكتبات عن نصوص قديمة مهملة لأظهرها للناس وأنبّه إلى فائدتها.
- جازاك الربّ عمّا تفعل خير جزاء. كم ستقيم بيننا هذه المرة؟
- أصدقك القول يا أبت... لن أبقى هنا أكثر من شهرين أنهي فيهما بيع بيتنا العتيق وحقل العنب، ثم أعود إلى غرناطة.
- ولم تبيعهما؟ ألا يقوم خوان ناظر الضّيعة بواجبه كاملا؟ أعرفه طيّبا ومستقيما ولا يغيب عن الكنيسة، فماذا جرى؟
- لم يحدث شيء أيّها المحترم، لا تقلق، ليس هذا سبب القرار.
- قل ما يزعجك إذن وسأساعدك بمعونة الربّ كما أقدر.
- أنا لا أصلح للفلاحة كما تعلم، وكلّ حقل في الدنيا لأبدّ له من راع يرعاه وإلاّ تلف وضاع النفع منه.
- صحيح.
- وكان أخي ربّ العائلة بعد وفاة الوالد، لكنّه اختار الهجرة ومغادرة الوطن، رغم إلحاحي ونصحي.
- لنقل أن طريقيكما اختلفا.
- هذا ماحدث على كل حال... لذا رأيت بعد طول إقامتي بغرناطة أن أشتري لي بيتا فيها بثمن حقل العنب والبيت المهجور قبل أن ينخر القدم حجارته... إنّي أراه في كلّ زيارة على حال أسوأ من سابقتها».

اقتنع الراهب بصواب رأيي، وساعدني بما استطاع على بيع إرث العائلة كلّه بثمن طيّب، أهديت قسطا منه إلى الكنيسة، وجمعت الباقي في كيس ذهب هو زادي ومعيني في سفري المقبل.

رويت في الصباح لخمنيث - لما زارني في البيت - مدى تأثري بتلك الزيارة القصيرة إلى مربع صباي ومنشإ أسرتي:

«مرقت من حجرة إلى أخرى وأفراد العائلة يلاحقونني أطيافا وأشباحا وتتراءى لي كأنها شهود على هذه الزيارة الأخيرة، أوكأنما يعاتبون ازدرائي بذكراهم وذكرى أيّام سعيدة قضّيناها معا.

هذه غرفة أمّي، وهذه دكّة المخدع حيث لفظ والدي نفسه الأخير، يعلوه صليب خشبي كانت تغطيه روزا بقطعة قماش قبل نومها كلّ ليلة، وهذه غرفة المؤونة يعلوها المسترق بجراره وأكياسه حيث كنا نختبيء عند حفظ القرآن، وحيث ندسّ الألواح والمصاحف.

وهذا الفناء الواسع. الذي شاهد لعبنا وجرينا أنا وأخي محمد. تملوه الأعشاب الطفيليّة، ولا تتردّد في جنباته غير صيحات العصافير العابرة أو هديل الحمام الجالي المعشّش في البرطال.

أدلف من الباب الخلفي إلى حقل العنب فأتخيّل أطياف البنات يجنين العناقيد المذهّبة ويضعنها في سلال وراء الظهر تحت رقابة أخي وعينه الساهرة، حتى إذا حان وقت الغداء خرجت لهم روزاليا بقصعة الرشتة أو البرغل تفوح منها رائعة فوّاحة ويتصاعد بخار شفاف في خيوط رقيقة.

ونزلت إلى مرشّيل حيث الغسّالات منحنيات على الألواح كعهدي بهنّ، فتذكّرت أيّام نغافل الأهل صيفا ونتجمّع هناك صبية من كل الأعمار، فنتقاذف بالماء والطين المبلّل ونغطس خلف الضفادع أو نتبارى سباحة مع السبط، فيفرّ صائحا متظاهرا بالخوف، مع يقينه أنّنا لانستطيع إمساكه بأيدينا الصغيرة.

- أظنّك تزوّدت من الأحزان بما يكفي.

- إي والله... كانت المدينة محزنة شبه خالية، و لم يمتلىء يوم الأحد من مقاعد الكنيسة إلاّ الثلث. نصف دكاكين السوق مقفل والخمول يعمّ المكان، وعهدي به يعجّ بالحيويّة والنشاط. تصوّر أنّه أبطل العمل بيوم السوق الأسبوعي، وهو النظام الاقتصادي الذي نعيش على وقعه ونؤرخ به مجريات أيام الأسبوع: سأراك يوم السوق، تعال بعد السوق بيومين،

انتهى اللحم وما زال يوم السوق بعيدا... هكذا كانت عائلتنا ترتّب أيامها، فكيف صارت الأمور وكيف ستصير؟ ربّك أعلم بهذا. وأنت كيف تهيّأت يا عبد الرحمان؟

- طفت أتفقّد مزارع الأرز، ونبّهت الشباب الذين درّبتهم على تنظيم الريّ وتسيير النواعير والسواقي إلى أنني سوف أتوقّف عن زيارتهم كما تعودت، إلاّ إذا حدث مشكل كبير أو أنشىء مشروع جديد، عندها يمكنهم دعوتي لزيارة موقع بعينه ولفترة محدّدة، فعليهم الاتكال على أنفسهم لأنني قرّرت التفرّغ لتجارة القطن بغرناطة، فربحها أضمن ومشقتها أقل.
- حسنا فعلت. وهل استخلصت ديونك كلّها؟
- لاشيء لي عند الناس، ولا شيء للناس عندي».

قبّل عبد الرحمان يده قلبا وظهرا دليل الحمد والشكر على براءة ذمّته، ومن جهتي سحبت أوراقا فوق أحد الرفوف وبسطتها أمام ضيفي:

«انظر إلى هذه الوثيقة، إنها بإمضاء الأسقف الكبير يسمح لي فيها بالتنقّل بين مدن الأندلس، ولكن لا إشارة فيها إلى أنّه يمكّنني اجتياز الحدود أو ركوب البحر.

- بل قل إنّ ذلك ممنوع عليك منعا باتا. هل نسيت العيون الراصدة المنبثّة في كلّ مكان؟
- وعلى الحدود بصورة خاصّة على ما أظنّ.
- بل تأكّد عوض أن تظنّ. فيما يخصّني أملك رخصة التنقل والتجارة، وسأستعملها إذا اتّفقنا على مكان إبحارنا.
- المكان الأنسب هو قادس، تأخذ إليها قطنك وتبيعه لتجّار الميناء، وأتظاهر أنا بالبحث عن بعض المخطوطات القديمة في أديرتها، ونترصد في نفس الوقت فرصة اتفاق مع أحد المراكب الراحلة.
- وماذا نقول لعساكر الشانتاهرمنداد إذا سألونا عمّ نصنع في الميناء؟
- وهل هم متشدّدون في الحراسة كما على شواطئ المريّة ومالقة ومربلّة في الشرق؟

- تماما مثلها. إنهم رأوا البعض حوّلوا وجهتهم إلى قادس فشدّدوا عليها الحراسة أيضا.

- وكيف العمل إذن؟».

صمتنا نفكّر مهمومين، ثم تناولت كوبا لأشرب. قبل إيصاله إلى فمي خطرت ببالي فكرة، توقّفت فجأة، وضعت الكوب وشرعت أشرح لصديقي خطتي الجديدة:

«لماذا لانبدّل وجهتنا إلى إشبيلية عوض قادس؟... يمكنك بيع بضاعتك في مينائها النهري ثم نتظاهر بالعودة إلى غرناطة، وعوضا عن ذلك نتّجه غربا.

- نتجه نحو ولبه وطبيرة، وماذا نفعل فيهما؟

- لاحاجة لنا بهما، وإنما وجهتنا ستكون الشانتا ماريا».

رفع عبد الرحمان يده بصورة عفوية يرسم علامة الصليب على صدره فأضحكني فعله:

«صرت تؤدّي التقديس دونما شعور، ويحك من جهنّم. افهمني أولا. شنتا ماريا الغرب هو ميناء ألفارو الواقع على مسيرة يوم من طبيرة، وأنت تعرف أنّ الحراسة في الغرب أضعف منها على شواطئ البحر الأبيض، فلا تتوقّع حدوث مفاجآت هناك. الطريق إليها غير عامر، ولا خوف إلاّ من اللصوص.

- سأحمل كلّ أسلحتي، وقدرا كافيًا من البارود، وسنذكر الله كثيرا على طول المسافة.

- ستتاح لنا فرصة تغيير الدواب في إشبيلية، ومن هناك على بركة الله.

- رأيك مصيب، ولكن هل سنجد مركبا إسبانيا يقبلنا بسهولة؟

- دعك من الإسبان، سنجد من أهل البرتغال تفاهما أكثر، خاصّة إذا علموا أنّنا منشقان ونريد النجاة إلى بلادهم أو إلى مقاطعة تتبعهم. لاتنس أنهم حاقدون على الإسبان بعد هزيمة ملكهم سبستيان ووقوعه في الأسر.

- هذا لايمنع من أخذ الحيطة والتستّر.

- علينا ارتداء لبوس التجّار الإسبان والتصرّف مثلهم... ألديك ما يلزم لهذا؟

– هل نسيت أنني تاجر فعلا؟ أمّا الذي عليه تغيير قيافته فهو الفقيه العالم والمترجم الذي يخاطبني الآن».

انشغلت في إشبيلية بزيارة معالمها ومكتباتها، وبصورة خاصّة مبنى الحجرة التجارية، ذلك الحارس الأمين الذي نصّبته إيزابيل قبل موتها ليكون جابي الأموال والعين الساهرة على شحنات المراكب القادمة من جزر الهند الغربية، فتأخذ ضريبة الخمس من قيمتها، وهذا أصل ازدهار المدينة وكثرة ما اجتمع فيها من ذهب وبضائع ثمينة وغريبة، وهذا سبب تحوّلها من مدينة فلاحيّة تكثر فيها البساتين ومعاصر الزيتون إلى مركز تجاري، قطبه وعصب حياته ما بين برج الذهب وميناء الوادي الكبير العامر بالسفن القادمة والرائحة في المحيط.

كما زرت بيت شابّ عرفته في حلقة جوليان مدرّس الفرنسية، وهو من عائلة خوان قنزالس القسّ ذي الأصل العربي الذي تحوّل من الكاثوليكيّة إلى اللوثريّة، وتزعّم حركة إصلاح ناجحة بإشبيلية صحبة أختيه، ولكن محاكم التفتيش حاكمتهم وأحرقتهم منذ ثلاثين سنة. لقد أعلمني ذلك الشابّ سابقا أنّ قريبه هرب لدى والده قبل أن تحجز عليه المحكمة ومعه كتب لوثريّة هامّة وممنوعة، فوجدت خلال إقامتي بإشبيلية الفرصة مؤاتية لزيارته وشراء تلك الكتب، كما أمكنني الحصول على نسخة مطبوعة من كتاب سبريانو الإشبيلي اللّوثري «بحوث مختصرة في العقيدة». أنا عاجز اليوم عن وصف ذلك المزيج من الفرح والخوف الذي اعتراني وأنا أحث الخطو بكنزي الثمين قاصدا فندق إقامتنا.

أمّا عبد الرحمان فقد لازم الميناء لا يبرحه أيّاما حتى عثر على مشتر لقطنه، وأخيرا جاء ليبشرني بصفقته، وبأنّنا سنذهب معا إلى الرصيف لقبض الثمن وتسليم الأحمال. اختلطنا بالنوتية يحملون أكياس الزاد واللباس استعدادا لسفر قد يطول، يتناثر بينهم الحمالون يدفعون دنانا كبيرة نحو المراكب، أو يرفعون إليها بالحبال أحمال البضائع، وحينا بعد حين صناديق وحقائب مختلفة الأحجام تخصّ المسافرين، فتتناول الأيدي الممتدّة من المراكب ما يرفع إليها وتدفعها إلى العنابر السفلى. لكن البضائع والأحمال لا تنفك تملأ أرض الرصيف رغم جهود الفعلة والعمال... ألف

صوت ونداء يتردّد بين جنبات المكان، يختلط فيه أصوات الرجال بصهيل الخيول وقوقأة الدجاج ترتفع من بطون المراكب الضخمة، إنها البضاعة المصدّرة، والله وحده يعلم أين يكون مرساها.

نبهني عبد الرحمان إلى أحمال بيضاء ترفعها الحبال عاليا:

«انظر يا أحمد كيف دفع التاجر الحاذق بقطني إلى المركب ولم يمض على شرائه مني غير يوم واحد.

- ومن أدراك أنّه لم يبعه قبل أن يشتريه منك. أكد لي أوّلا: هل قبضت نقودك؟
- قبضتها منذ ساعة، وإلا كنت تعلقت بالحبال والتحقت بقطني على ظهر السفينة.
- إذا وصلت إلى ظهر السفينة سالما فلن تجد من يجيرك أو يغيثك بعد ذلك.
- بدا لي من حركة الميناء أنّ أهل إشبيلية من أبرع التجار، وخاصّة في التعامل مع ما وراء البحر.
- بل قل ما وراء المحيط. إنّ واديهم الكبير هو سبب رخائهم الزراعي قديما، وهوسبب رخائهم التجاري حديثا. يا ليت المعتمد بن عباد يعود ليرى مدينته كيف صارت مدينة الذهب بعد أن كانت مدينة بساتين الورد.
- رجل شاعر ومتلاف... فكيف يفهم قيمة الذهب؟ لقد أتلف إمارة كاملة وأفلت زمامها من يديه وهو يرعى جنائن الورد وينشد الشعر لحبيبته اعتماد.
- لقد مضى، ومضى معه زمانه. ما علينا. الآن وقد انتهينا من أمر بضاعتك، هل تريد أن نسافر أم تنوي التمهّل قليلا؟
- ماذا علينا إن تمهّلنا يوما أو اثنين تتّضح لنا فيهما الرؤية أكثر؟ إنني أنوي التحدّث إلى بعض قواد السفن من أهل الغرب العابرين من هنا لعلّهم يدلوننا على أفضل من نتوجه إليه من قباطنة شنتا ماريا، فلعلنا بذلك نقتصد الوقت ونؤمّن رحلتنا بطريقة أفضل».

كنا متنكّرين بزيّ التجّار الإسبان، نتكلّم لغتهم ونتصرّف مثلهم في كلّ شيء، فلا نخشى سوى مفتّشي الكنيسة المدسوسين في كلّ المناحي، يتحسّسون ويدقّقون هويات الأشخاص، ويرصدون في الناس حركة لا إراديّة أو لهجة خاصّة، أو دعاء غريبا عما يستعمله النصارى عادة، حتى أن عدم رفع اليد بإشارة الصليب عند ذكر اسم مقدّس اعتبر من الأخطاء العظمى، تستوجب السجن أو المحاكمة أو الرمي في حطب المحرقة. هؤلاء هم أخطر الناس، لذا وجب توقّيهم ودرء شرّهم بكلّ الوسائل.

اكتفيت بمصاحبة عبد الرحمان وتركت له المبادرة، فهو أدرى بطرق المعاملات وعقد الصفقات، لذا يحسن الاهتداء برأيه والعمل بإشارته في مقام كهذا. وبدأنا جولاتنا في الرصيف كأيّ تاجرين باحثين عن صفقة جديدة واردة من الخارج، إلى أن لمحنا ربّانا يشبه لباسه أهل الغرب، وقف في أعلى سلّم سفينة فارعة الطول، جميلة الشكل، يحلّي شققها رسوم ونقوش زادتها بهاء. شدّ انتباهنا الربان وسفينته فوقفنا نتأمّلهما بإعجاب لم يخف عن حدّة بصر البحّار، فنزل السلّم وأتانا مبتسما كمن اشتمّ رائحة صفقة في الأفق.

«أعجبتكما السفينة، أليس كذلك؟ إنها جميلة حقا».

قالها بلغة قشتالية فيها لكنة أهل الغرب. رفعنا غطاء رأسينا، أنا وعبد الرحمان، كما يقتضيه أدب التقيّة وأجبته بلغة البرتغال:

«إنها لاتقل أناقة عن ربانها. اسمي بيجارانو واسم صاحبي حمنيث، تاجران من غرناطة.

ها.. ها.. غرناطيان يتكلّمان البرتغالية، هذا أمر نادر يستحق التقدير».

قال ذلك مندهشا، وسارع برفع قبّعته البحرية، ذاكرا اسمه ورتبته بالكامل. وابتداء من تلك اللحظة المتوهّجة إنسانيًّا شعرنا أنّ الرجلَ استعدّ ليخدمنا ويرشدنا إلى ما نطلب... وقد فعل، إذ أعطانا اسم صديقه أرمندو دا سيلفا، وهو صاحب مركب دفاعي سريع يصاحب السفن التجارية ليحميها من القراصنة، ويمكنه في نفس الوقت نقل مسافرين بلا بضاعة، ويوفّر لهم مقاما مريحا في غرف نظيفة خاصّة مع مؤونة حسب الطلب والرغبة. وختم كلامه ضاحكا:

«ما دامت لديكم نقود كافية سيكون أرمندو معكم أطيب مخلوق على وجه الأرض.

- وخاصّة فوق أمواج البحر أيضا. لا تقلــق ســنوفيه حقّــه إذا خــدمنا بإخلاص».

ضحك الربّان بصوت عال وشرع يشرح كلّ التفاصيل عن ميناء شنتا ماريا، وظروف الانطلاق منه وأحسن المواعيد. ثم فاجأنا في نهاية حديثه بسؤال:

«ولماذا تريدان الذهاب حتى شنتا ماريا؟ اركبا من هنا، فهذا أيســر لكمــا وأخصر للطريق. أحلف بالأم المقدّسة لو ركبتما معي لدللتكما مثل إخوة الملــك فيلبــي».

رسم عبد الرحمان علامة الصليب على صدره بسرعة وأجاب:

«كم أنت طيّب يا كابيتانو، واذا شئت أن تتم معروفك علينا فادفع لي قيمة الدين الذي أنا ذاهب لاستخلاصه من تاجر متلدّد هناك، لأستطيع بدوري دفــع أجرة الرحلة في مركبك الرائع والتمتّع بضيافتك الملكية».

قهقه البحار دافعا رأسه إلى الخلف. وبعد أن شبع ضحكا قــال: «فأنتمــا مفلسان الآن... ولايكون معكما المال إلاّ بعد الذهاب إلى الغرب؟ إذن ســلما لي على صاحبــي أرمندو وعلى الشنتا ماريا».

ولما رآنا نرفع أيدينا لنرسم علامة الصليب أشار بوقف حركتنا: «لاتتظاهرا بعدم الفهم... كم هم طيّبون أهل غرناطة أنا أقصد ميناء الشــنتا ماريــا لا الأمّ المقدّسة».

وعاد إلى الضحك ثانية، وهو يدفع رأسه إلى الخلف، كما تفعل طيور البحر.

باب مراكش

في ما اتفق لنا
عند خروجنا من النصارى

بحثنا عند وصولنا إلى ميناء شنتا ماريا عن الربّان أرمندو دا سيلفا، وأبلغناه فورا رغبتنا في السفر معه، وتوصية صاحبه قبطان إشبيلية.

رحّب بنا الرجل، ودعانا إلى النزول مباشرة في غرفة على ظهر السفينة بجنب غرفة القيادة، إذ لا داعي للبحث عن فندق والإقلاع سيتمّ في الغد. ودلّنا على ما يجب إجراؤه مع سلطات الميناء، ثم أعاننا على التخلّص من فرسينا بالبيع، ولعلّه خدمنا جيّدا طمعا في أجر طيّب... لكنّني استبعدت هذه الفكرة لما رأيت حسن أخلاق الرجل طيلة رحلتنا ليومين في مياه المحيط.

نزلنا في بلد يُسمّى البريجة هو لنصارى البرتغال، افتكّوه من أهل المغرب، وليس بينه وبين مدينة مراكش إلاّ نحو الثلاثة أيام للماشي المتوسّط. أوّل ما تعجّبنا منه سورها ومناعته وأساسه المقدود من حجر صلد لايبالي بكور المدافع، وهوغليظ وفي سعة تبلغ ثلاثة عشر ذراعا، حتى إنّنا شاهدنا ثلاثة فرسان بخيلهم يمشون فوقه متحاورين، ولا يخشون الوقوع.

سألنا قبطان القلعة عند دخولنا عليه:

«ما سبب قدومكم؟

- وقعت لنا خصومة مع أناس ببلاد الأندلس فجئنا إلى حرمتكم ومنعتكم، فهل تقبلون أن نعيش ببلدكم؟
- مرحبا بكما... تستطيعان العيش بيننا بأمان.
- وإذا أردنا يوما الرجوع إلى بلادنا، وحصل الصلح بيننا وبين مخاصمينا، هل تأذنون لنا؟

- أذنت لكما عندها بالرجوع، ولا مانع».

اكترينا منـــزلا، واشترينا اثنين من أحسن الخيل، وصرنا من فرسان البريجة، وهي ليست سوى لسان من الأرض يحيط به البحر من الجانبين، ولا يخرج أحـــد من البلد إلاّ إذا انفصل الحرّاس إلى فئتين على جانبـــي البحر وأفسحوا له المـــرور إلى الجانب الآخر حيث السكّان وبساتينهم، وليس لأحد من النصارى أن يجـــوز الحدّ الذي يقف فيه فرسان الحراسة. ولما رأينا ذلك قال صاحبـــي:

«لاسبيل للهرب إلاّ أن نخرج من البريجة ونختفي بين زرع البساتين إلى هبوط الليل، وعندها نذهب إلى أزمور وهي للمسلمين، ولا تبعد سوى ثلاثة فراسخ عن البريجة.

- لكن إذا قدّر الله ووصل النصارى إلينا قبل الليل، فلابُدّ لأحدنا أن يتظاهر بأنّه ممسوس، وأن الجنّ أصرعه، ويجرح لسانه ليخرج من فمه بعض الدم، لعلّنا ننجو إن شاء الله بذلك الكيد».

خرجنا إلى البساتين واختفينا هناك، غير أنّ صاحبـــي مـــلّ القعـــود بـــين الأعشاب وقرص البعوض، فتركني ومشى إلى بستان غير بعيد، وغاب فيه إلى مـــا قبل غروب الشمس بقليل، وأنا في أشدّ الحيرة، لأنّي أرى فرسان البريجة أكثـــروا من التردّد على تلك الناحية.

ثم جاء صاحبـــي فسألته:

«ما سبب قعودك إلى هذه الساعة؟

- شغلني صاحب البستان بالحديث فبقيت أتكلّم معه حـــتى عـــزم علـــى الخروج فجئت من عنده».

فبينما كنا نتناقش، وأنا في غيظ أتدبّر حيلة تمكّننا من الابتعاد عن المكان، إذ سمعت بوّاب الحصن يزمّر مناديا الناس قبل سدّ الباب، وتلك عادتهم عند مجـــيء الليل، فانشغلت بقراءة سورة ياسين والقرآن الحكيم، والبوّاب يزمّر ويكرّر. قلت لصاحبـــي:

«هذا البوّاب ينادينا، لاشكّ في ذلك، لأنّه لم يتخلّف غيرنا.

- اعمل حيلة الإصراع كما اتّفقنا... إنّي أرى الناس جاءت إلينا». كنـــت

في أشدّ حالات الغضب من صاحبـــي فقلت له:

«لا أعمل... لأنّك السبب فيما حدث.

– أنا أعمل... لاتغضب.

– افعل إن شئت، وأنا أتولّى الكلام مع الرجال».

أخرج عبد الرحمان بعض الدم من فمه ورمى بنفسه على الأرض، فخرجت ناحية الرجال أناديهم وأشير إليهم أن يأتوا. فلمّا وصلوا قال لي أحدهم:

«ما سبب جلوسكم خارج السور إلى هذه الساعة والبوّاب ينادي وأنـــتم لا تسمعون، أما تخافون من المسلمين أن يأخذوكم أسارى؟»

قلت في نفسي: «ليت هذا حدث. كيف نخافهم ونحن لا نفتّش إلاّ عنهم؟» وأجبت الرجال:

«كنت بعثت صاحبـــي يشتري خيارا، ولما أبطأ جئت في طلبه. ولما وجدته في هذه الحالة ما استطعت حمله وحدي لأنّه يضطرب في الأرض».

رأوا الدم في وجه عبد الرحمان وعنقه وهو يتخبّط فقـــالوا: «هـــذا فعـــلا مصاب.

– لا... بل هذا يحتضر».

وكان القبطان عندما علم أنّنا غائبون، وربّما هربنا إلى المســـلمين، أمـــر أن ينظر الحرّاس في دوابّنا وحوايجنا هل هي في الدار. ولما علم بوجودها اطمأنّ وقال:

«لو نويا الهرب لما تركا شيئا... لابُدّ أن أمرا نـــزل بهما».

وعاد الرجال الذين كانوا عندنا ليخبروا القبطان بأنّ عبد الرحمـــان يمـــوت، واتّفقوا معه على مناداة القسّيس ليثبّته ويستقرره من الذنوب ليمشي مغفورا منها إلى الجنّة. جاء القسّيس ووقف على بعد من المصروع، فقلت له:

«اقرأ عليه أوّل ما ذكر يوحنّا في الإنجيل ليذهب عنه الجن». نظر إليّ الرجل مستحسنا كلامي، وقرأ بعض الإنجيل فذهب الجنّ والشيطان، وظهرت للقـــراءة بركة وبرهان. واشتهرت من يومها ولاية القسيس، وضحك منه الجنّ مع إبليس.

قام المريض في الحين، وأخذه من تحت إبطه رجلان، وصار يمشـــي طارحـــا نفسه عليهما، حتى كاد في موضع منحدر أن يوقعهما.

دخلنا البلد فأحاط الناس بالقبطان يحكون له أنّ المريض بعد أن كاد يموت برئ ببركة ما قرأ عليه القسّيس، فقال:

«انصحوا صاحبه أن لا يتركه يركب الحصان أو يطلع على السور لئلاّ يصرعه الجنّ، وابعثوا إليه الطبيب».

ثم جاء الطبيب، وكانت له صنايع غير الطبّ كثيرة، فكان يصقل السكاكين ويركّب الرّماح، وأظنّه بيطارا للخيل، وحلاّقا أيضا. سأل الحكيم عمّا أصاب الرجل، فحكينا له، وبقي متحيّرا في ما يأمر به للعليل، وأخيرا قال:

«اجعلوا عليه ثيابا كثيرة لعلّه يعرق فيشفى..».

شكرته على حكمته ودثّرنا المريض كما نصح. فلمّا انفضّ الجمع و لم يعد المريض يسمع أحدا أخرج رأسه من تحت الأغطية وسأل زافرا بصوت قويّ:

«أوف... أكاد أختنق. وأنت كيف حالك يا أحمد؟

- غطّ رأسك حتى تعرق كما أشار الطبيب... ما عندنا إلاّ الخير إن شاء الله».

ضحكنا كثيرا، وذهب عنّا النوم في الليلة كلّها.

ومرّ يوم آخر، بعد أن لطف الله بنا وسلّم المريض من علّته، ونحن نتدبّر أمر خروجنا من البريجة بحيلة أخرى لاتنكشف. قال صاحبي:

«لو كان الواحد منّا بمفرده لأمكنه الخروج بسهولة والهرب.

- كيف يكون ذلك؟

- بأن يختفي مدّة خارج الأسوار إلى أن يهدأ البحث ثم يهرب.

- ولكنّنا اثنان، والحال للاثنين صعب كما قلت».

وكانت في الميناء سفينة عازمة على الرجوع إلى بلاد الأندلس، ففكّرنا أن نرمي القرعة لنرى من يرجع منّا في هذه السفينة، ما دام هروب الاثنين صعبا، وربّما مستحيلا. رمينا القرعة فجاءت عليّ. وكان الناس في الأثناء قد تكلّموا عنّا وقالوا إننا خدعناهم بحيلة الصرع والرجل المريض، وإنّنا في الحقّ نريد الهروب إلى بلاد المسلمين. فمشيت إلى القبطان وقلت له:

«أحبّ الرجوع إلى الأندلس في هذه السفينة الراسية بالميناء، واذا استغرضت شيئا من تلك البلاد فأعطني قائمة به أبعثه إليك.

- وصاحبك... ألا يمشي معك؟
- أراد القعود هنا، صحّته لاتسمح له بالسفر، فأرجوك العناية بـه لأنّـه غريب».

استعددت بكلّ ما يحتاجه المسافر من زاد ولباس، ثم خرجت مع صاحبـي ناحية البحر قرب باب البلد، فوجدنا قاربا صغيرا. قلت:

«لعلّ هذا القارب ينتظر خروج التاجر ليوصلنا إلى السفينة الراسية بعيدا عن الشاطئ.

- ضع فيه زادك وأشياءك واركب إن شئت.
- دعني أجلس معك إلى أن يأتي التاجر وجماعته.
- ادع معي الله أن يتعطّل فلا يأتي إلى أن ينسدّ الباب.
- اللهمّ اسمع منه، آمين يا رب العالمين».

ونادى من فوق السور أحد الحرّاس طالبا من عبد الرحمان الدخول قبل غلق الباب، فرجوته:

«دعه معي يؤنسني حتى يخرج التاجر».

فرضي وانصرف.

حين أظلم الليل وحانت صلاة العشاء أدّيناها في ركن مُنـزوٍ عن الحـرّاس، وسألنا الله الإرشاد والحماية. قال صاحبـي وقد ركبته روح المغامرة:

«هذا وقت الخير، ألا ترى كل شيء هادئا حولنا... ألا ترى أنّ التـاجر لم يخرج... فلم لا نحزم أمرنا ونذهب إلى أزمور؟

- كيف نذهب... تقصد نهرب؟
- نجري... نقفز... نفعل ما تريد، ولكن نتحرّك من هنا.
- الطريق الأقرب إلى أزمور هو من هنا. ولكن إذا شرعنا فيه قـد يخـرج التاجر ولا يجدنا فننكشف، وربما يطلبنا الحرّاس فلا يعثرون علينا... وقد يتعقّبوننا كما هي عادقم ويدركوننا بالخيل.

- كيف العمل إذن؟
- هل ترى هذا الطريق الشمالي على حاشية البحر؟
- نعم... أراه.
- إذا مشينا فيه على حاشية البحر اليمنى إلى يوم غد نصل إن شاء الله تعالى إلى أزمور.
- على بركة الله... هيّا.

مشينا ساعة أو أقلّ، سمعنا بعدها صوت مكحلة، لعل القصد منه أن نفيق إن كُنّا نائمين. لكنّنا لم نأبه بما سمعنا، ومشينا الليل كلّه إلى انشقاق الفجر في براري عامرة بالوحوش.

ثم سمعنا صوت المدفع الكبير، وهي علامة عندهم ليخرج جميع من في القلعة، ولا يتخلّف أحد. وما هذا إلاّ دليل على أنهم خرجوا في طلبنا. اتّفقنا عندئذ على الاختفاء وسط شجرة عظيمة والمكث بها إلى نـزول الليل. وكُنّا نسمع من مخبئنا حسّ البارود الكثير، إلى أن يئس الباحثون وولّوا خائبين.

وسبب رجوعهم أنّ قائد أزمور لما سمع حسّ المدفع الكبير عند الصبح علم أنّ أحدا قد هرب من لدى النصارى، فأمر الفكّاك بالذهاب فورا إلى البريجة ليتكلّم مع القبطان في شأن أسير كان عنده ويأتيه بالخبر. فلما مشى التقى بالنصارى في الفحص، وسأله ترجمان القبطان عن نصرانيين خرجا ولم يعودا... فهل رآهما؟

قال له الرجل: «نعم... هما عندنا من الصبح».

سمع القبطان الخبر، وهو مع جنده، فكان، حسب رواية الفكّاك، يقبض بيده شعر لحيته وينتفها ويرمي في الأرض. وإنّما قال لهم الفكّاك ذلك ليقنطوا ويرجعوا، وهذا ما حصل لهم، ونحن قابعان بين أغصان الشجرة الكبيرة إلى أن جنّ الليل.

سرنا في الغد، وقد بلغ الحرّ الغاية وأصابنا منه عطش شديد، ولم نعثر على عين ماء إلاّ في نهاية الليل، فشربنا ونمنا بنفس المكان إلى الصباح. بعد أن أفقنا تنعّمنا بالماء ثانية وصلّينا الصبح ثم مشينا في طلب أزمور، وبسبب السحب لم نر

الشمس حتى توسّطت السماء. عطشنا ثانية فما وجدنا غير آبار يابسة، وسمعنا صوت البحر فولّينا ناحيته لعلّنا نجد في حاشيته ماء للشرب، لكنّنا لم نعثر على شيء.

ثم مشينا في طريق ظنناه يوصل إلى أزمور، لكنّنا بعد منتصف الليل وجدنا أنفسنا وسط بساتين البريجة، كأنّما عدنا إليها دون أن نشعر، فأسرعنا نجتازها جريا على حاشية البحر، إلى أن طلع الصباح وقد تركناها وراءنا وصرنا في أمان.

صعدنا جبلا، واذا بنا نفاجأ برؤية فلاّحي المسلمين يقصدون الزرع. واقتربنا منهم فنفروا نحونا مهدّدين بالخيل والسلاح. فلمّا وصلوا ناحيتنا قلنا لهم: «لاتؤذونا... نحن مسلمان». فأمسكوا عن محاربتنا وفرحوا بنا فرحا عظيما، وقدّموا لنا الطعام الذي لم نذقه من يوم الجمعة إلى يوم الإثنين.

أخذنا الناس إلى مدينة أزمور ليقدّمونا إلى قائدها محمد بن إبراهيم السفياني، وهو نائب سلطان مراكش في تلك المنطقة، فأقبل علينا الرجل بينما كنّا ننتظر في ساحة داره الممتلئة بالجند والأعوان.

فحصنا بعينيه الذكيّتين وطلب منّا الجلوس أمامه، ثم أخذ يسأل عن المرسى الذي أبحرنا منه والسفينة التي ركبناها، ويدقّق في تفاصيل هربنا من قلعة البريجة، حتى كدنا نظنّه متشكّكا في صحّة أقوالنا. سأل أيضا عن مذهبنا إن كنّا من أتباع مالك، أم أتباع أبي حنيفة مثل الأتراك، وسأل بلهجة ماكرة، وعلى شفتيه طيف ابتسامة:

«هل أنتم ممن يكيسون أوممن يطلقون؟»

وأضاف أحد الشيوخ الملتحين في الحلقة:

«أو لعلهم من طائفة الأندلس المحمدية»...

رددت بصوت واضح حازم:

«نحن من أتباع مالك، نطلق الأيدي ونسبل الأكفّ عند الصلاة، ولا معرفة لنا بالأندلس المقيمين عندكم ولا بطوائفهم».

ابتسم القائد في وجهينا وخاطب الشيخ:

«قدم الرجلان حديثا من الأندلس، ولم يعرفا محمد الأندلسي ولا أتباعه، فكيف يكونان على مذهبه؟».

خاطبت القائد:

«إننا لا نكاد نجد الوقت المناسب والفرصة المواتية لأداد الفروض الواجبة، فمن أين لنا الوقت وسعة البال لنبحث في فروع المسائل واختلافات الأئمة. بعض إخواننا لا يعرف من الإسلام غير الشهادتين ينطقهما في السر دون العلن... هذه حالنا إن كنتم لاتعرفونها».

- وأين تصلون إذن؟
- نخرج إلى الفلوات متصنّعين التنزّه، أو نجتمع في الطواحين القديمة، وخرابات المساجد المهملة، خوف أن يقبض القساوسة على أحدنا متلبّسا فيقاد إلى المحكمة، وقد يُحرق حيًّا».

ضجّ كل من في المجلس مستنكرا ما سمع. وقال القائد:

«إذا أنت تحسن العربية فاكتب شيئا مما تعرف على هذا».

وناولني قلما ودواة وقرطاسا أبيض، فكتبت عليه ما خطر لي، شاكرا القائد لمساعدته لنا على قضاء الحاجة وخلاصنا من الكفّار، ودفعت به إليه، فنظر فيه مستحسنا الخطّ، متعجّبا أنه بقي في الأندلس من يقدر على الإتيان بمثل ذلك. ثم أنزلنا بيتا قريبا من قلعته منتظرا أن يأذن لنا السلطان أحمد المنصور في قدومنا إلى حضرته.

ويوم كنّا نسير في قافلة القائد السفياني نحو مرّاكش قال لنا أحد المرافقين:

«احذروا أن تقولوا للسلطان أنّكم تعرفون بعض اللاّجئين القُدامى من الأندلس.

- ولماذا الحذر، هل فعل بعضهم ما لا يرضي الله أو السلطان؟
- حسبي أن أنبّهكم. لقد تسبّب بعض من سبقوكم في فتن وحروب لا داعي لذكرها بالتفصيل.. من واجبكم الاحتياط، وعلى الله السلامة.
- حسبنا الله ونعم الوكيل، وهل جئنا نطلب غير الأمان؟
- فاطلبوا من السلطان حمايته... وفي هذا كفاية».

نظر عبد الرحمان ناحيتي بطرف خفيٍّ، ففهمت قصده، والتزمنا الحذر في كلّ أقوالنا وأفعالنا، إلى أن وصلنا محلّة المنصور في طرف من بادية مــراكش، اتخــذها مقاما له مدّة تقارب العام، هربا من وباء انتشر في مراكش على تلك الأيام.

ذكر قدومنا إلى بلاد المسلمين

حضرنا احتفالات عيد الأضحى غداة وصولنا، وشهدنا استعراض الجند السلطاني، وهو جند أكثر نظاما وأبهى أحزمة وسلاحا مما شاهدناه عند الإسبان أو البرتغال، يضمّ فرقا من أقوام مختلفة، فهذه فرقة من الأندلس، وثانية من الأسرى النصارى، وثالثة من السودانيّين، ورابعة من المرتزقة الأتراك، وأخيرا فرقة صغيرة من أهل البلد، ومهما تعدّدت الفرق فزيّها موحّد، وصفوفها منتظمة، ولجميعهم أسلحة نارية جديدة ونظيفة.

اقتربت من عبد الرحمان وهمست في أذنه:

«لا ينتصر الملوك في معاركهم بالأحجبة والدعوات، ولا يصونون ملكهم إلاّ بمثل هذا. انظر إلى نخوة أولئك الرجال وإلى انتظام صفوفهم».

عند تقديم التهنئة مع القائد السفياني رحّب بنا السلطان، ووعد باقتبالنا في قصر البديع بعد العودة إلى مراكش، وأوصى السفياني أن يعتني بي بصفة خاصّة، فلربّما أخبره أنّني من العلماء.

استقرّ بنا المقام في مراكش بعد أن ضمّني السلطان إلى ديوانه أترجم مكاتيبه، وأعلّم أحفاده الصغار اللغة الإسبانية. أمّا عبد الرحمان فقد اشتغل بالتجارة في رياض الزيتون، حيث يقيم أكثر الجالية الأندلسيّة والإسبان الداخلون حديثا في الإسلام، وكذا الأسرى من أمم مختلفة، الباقون على دينهم والمشتغلون بشتّى المهن والصنايع.

انقطعت عنّي أخبار عبد الرحمان مدّة إلى أن اشتقت إليها وإليه، فكتبت بطاقة بختم الديوان السلطاني، وأرسلتها إليه بواسطة حارس زنجي دللته على مكانه، وفيها:

«أسأل عن أحوالك، وكيف تسير أعمالك، أيّها الحبيب ورفيق الدرب الصعيب. سأزورك بلا ريب بعد أن تنتهي مصاعب التأسيس ويتوفّر عندك وقت للقاء الأحباب والإخوان. أمّا أنا فبحاشية مولانا السلطان ما زلت مرتبطا، وفي الضيافة ما زلت مقيما. وقد كلّفني نصره الله بترجمة ما يرد على ديوانه الشريف من مكاتبات ومراسيل الدول النصرانية، لما عرف من حذقي للغاتها، والاطلاع على أسرار بيانها. ومن مهمّاتي أيضا تمحيص شروط معاهداته مع تلك الدول واتفاقاته مع بعض قناصلها، وأنا قائم بالمهمة قدر جهدي ومستطاعي، وما توفيقي إلاّ بالله. سأحاول إذا أسعفني الحظ الاستئذان من المولى الأكبر في استئجار بيت أستقل فيه بنفسي، وأشتغل فيه بالذكر والمذاكرة، وربّما عمّرته بمن يؤنس وحشتي، فقد بدأت الغربة تثقل على نفسي، واختلاف الديار وبعد المزار يملأ القلب بالحزن والأسى. لا أظنّك يا عبد الرحمان إلاّ في مثل حالي، فاطلب معي من الله أن يلطف بنا ويرزقنا من لدنه صبرا جميلا».

جاءني الحارس بعد عودته بجواب كتب فيه صاحبي:

«انشغلت عنك يا أخي أحمد طوال الشهور التي مرّت مكرها، فتهيئة المخازن وتأثيثها بالبضاعة أخذا منّي الجهد والوقت، ولولا عثوري على مساعد من أسرى النصارى، استخدمته باليوميّة، لما قدرت على إنهاء المهمّة في وقت قصير، فهو رجل ذكيٌّ عارف بالمدينة وطبائع أهلها، وطرق التعامل بين تجّارها، وسأحدثك عنه لما أزورك يوم الجمعة القادم»...

لما كان يوم الجمعة أعددت لعبد الرحمان وليمة، وجلسنا بعد الغداء نستريح ونتذكّر أحداث رحلتنا العجيبة. وأخيرا سألته عن تفاصيل بداياته في السوق، فحدّثني عن صعوبات اعترضته لكونه غريبا عن البلد، غير عارف بطرق معاملاته، خاصّة ومدينة مرّاكش قد بلغت يومئذ أوج الحركة والازدهار، ونشط فيها تردّد القوافل على بلاد السودان، وإرساء السفن الأروبية بموانئ أراضي سوس على البحر المحيط.

قال إنّه لم يجد صعوبة مع أمناء السوق، فقد دلّوه على الطرق المتّبعة والأسعار المعمول بها في تجارة الصوف والقطن، ولكنّه بقي فترة بلا مساعد، وهذا أرهقه وأضاع منه وقتا ثمينا:

«... جاءني منهم ستّة يوم فتحت المتجر يعرضون خدماتهم، لكن بعضهم كان في أرثّ ثياب وأسوإ حال، وبعضهم الآخر معتلّ واهن لا يكاد يقف مستقيما من مرض أو قلّة غذاء، فصرفتهم جميعا مع صدقة، إلى أن تنبّهت لفصاحة رجل سمى نفسه خيرونيمو، وتحدّث إليّ بكثير من اللّطف والأدب، مما دلّ على كرم أرومة وحسن تربية، فاستبقيته ليروي لي قصّة مجيئه إلى مراكش.

حدثني بلغة قشتالية صافية أنّه رجل متعلّم ينحدر من عائلة إقطاعية معروفة بسرقسطة، ولكن حبّه للعلم دفعه إلى السفر والتنقّل بين عدد من بلاد الله، إلى أن أُسِر يوم وقعت سفينة كانت تنقله إلى مالطة بين أيدي القراصنة، فأُخِذ وبيع في فاس إلى وجيه من مراكش، عامله بإحسان وترك له حرّية التنقّل والعمل، عساه يستطيع بكدّ يمينه جمع مال يفتدي به نفسه. قلت له:

«لكنني أراك لم تجد شغلا يأتيك بما يكفي للفدية.

ليست لي مهارات صناعية، ولم أتعلّم حرفة في حياتي، بل توجهت نحو التعلّم وبذلت فيه قصارى جهدي ومعظم وقتي.

- وما حصل لك من العلم؟
- أجيد القراءة والكتابة والحساب، وأفهم في عقد الصفقات ومسك الدفاتر التجارية، وبهذا أقدر على إفادتك إن نويت ترتيب تجارتك وتنظيم حساباتك.
- وأراك تتحدّث بالعربية أيضا.
- لي في هذا البلد أكثر من ثلاث سنوات، وقد اضطرّتني أحوال المعيشة وكسب الرزق إلى تعلّمها، فأحيانا أحتاج إلى مدّ اليد للسؤال إذا جعت. حفظك الله أيّها السيّد مما رأيته وعانيته أيّام وجودي هنا.
- ولكنّي لا أعرف صِلاتك في هذا البلد، ولا اسم مولاك. وحتى لو ذكرته فلن أعرفه لأنّني حديث عهد بمراكش، ولم أهتمّ منذ وصولي

بسوى شؤوني الخاصّة، وترتيب أمور المخزن الذي تراه.

- كلانا غريب إذن... فأعطني ثقتك أيّها الشريف وسأعرّفك بأطيب الناس وبكبار القوم هنا.
- لا حاجة لي بكبار القوم... حسبي تُجّار ثقاة أطمئنّ إلى التعامل معهم، ولا أزيد من ذلك.
- أنا أفيدك بما أعلم، وأنت تتصرّف كما تريد يا مولاي.
- صلني بمولاك... أحبّ مقابلته قبل أي اتفاق».

وضرب لي موعدا مع مالكه، وهو يسكن قصرا صغيرا قرب السور.

وجدناه جالسا في الحديقة عليه برنس أبيض نظيف، وعلى رأسه عمامة كبيرة كما يلبس الفقهاء. رحّب بي وأجلسني بقربه، وفي نفس الوقت توجّه خيرونيمو ناحية المطبخ ليأتي بأواني الشاي.

فاتحت الرجل بموضوع زيارتي، فابتسم أولا ثم أجابني متمهّلا عند كلّ كلمة، كأنّه حدس أنّني لن أفهم قوله إن عجّل النطق وازدحمت الكلمات في فمه على عادة أهل مراكش:

«لو سمع خيرونيمو نصيحتي ودخل في ديننا لنسبته إلي وأعطيته اسم عائلتي. نحن ندعره خيرو، أحيانا أبو الخير، لأنّه فاضل وكريم الأخلاق. لم أتذكّر أنّه أخطأ في عمل، أو خان أمانة عهدت بها إليه.

- إذا هو بهذه الصفات، أليس الأولى أن تحتفظ بخدماته لنفسك، فيقضي شؤونك ويسهر على فلاحتك أو تجارتك، إن كنت من أهل هذه أو تلك؟
- هيهات يا ابني أن تكون لي تجارة أوفلاحة... لقد ذهبت أعوام الجفاف والوباء بالنزر اليسير الباقي منهما، ولم يبق لي مورد سوى كراء بعض محلاّت السكن، أو ما ادّخرته من أيّام القوافل التي كنت أبعثها إلى السودان.
- البركة في الصّحة والنظر يا سيدي، وفي طول العمر.
- كان عندي من أمثال خيرو عشرة رجال اشتريتهم بدراهم الذهب واشتغلوا معي أعواما، واكتشفت فيهم الطيّب والخبيث. وقد عاملتهم

جميعا بما يأمر الله إلى أن افتدوا أنفسهم، أو افتداهم أهلهم، ولم يبق معي سوى خيرو».

جاء المملوك بآنية الشاي فوضعها بيننا بأدب وانصرف، فسأل الشيخ:

«لكنّك أندلسي على ما أرى، ومن سبقوك لم يشتغلوا إلاّ بالفلاحة أو بحمل السلاح في جيش السلطان، فما بالك تهتمّ بالتجارة؟

- أما الفلاحة فلم أرها شبيهة بما اعتدنا عليه في الأندلس... المناخ مختلف والتربة كذلك. وأنا تعوّدت على زراعة الأرز وما تتطلّبه من كثرة ماء ووفرة غدران وجوّ فيه لين ورطوبة، ولا أظنّ هذا متوفّرا بمراكش. وأمّا جيش السلطان فقد سبقني فيه من لديهم أمل في العودة إلى أرضهم وإلى غرناطة، فانساقوا وراءه يتأهّبون طول الوقت ويناوشون النصارى في البرّ والبحر مجاهدين آملين، ولكن هذا الأمل الذي عاش في القلوب مائة سنة أو أكثر ضاع الآن وتبخّر، وبخروجنا نحن الفئة الباقية من قدامى المسلمين جفّت آخر قطراته.

- قلت إنّك كنت تزرع الأرز وتتاجر به، ولم لاتواصل في نفس الطريق؟

- ومن أين الأرز؟ هذه التربة لا تنبته، وقوافل الصحراء لا تأتي بغير الملح والتوابل، وجزر الكنارية بأيدي النصارى وبحرها مقطوع بسفنهم، أما الأندلس فالله يلطف بنا وبمن بقي فيها».

انتهت زيارتي لهذا الوجيه المراكشي قبيل المغرب بتبادل التحايا والدعوات بالأمان والتوفيق، فصاحبني خيرونيمو وعلى ملامحه تبدو الطمأنينة وشيء من الزهو لما حدسه من ثناء وليّ أمره على خصاله وأمانته، حتى أنني شعرت كأنّه يقول لي في سره: «ألم أقل إنني أهل ثقة، وإنّه يمكنك الاطمئنان إلي؟» لكنّني كنت منشغلا باكتشاف تلك الأحياء الجميلة بدورها ذات الهندسة العجيبة وقد تراكب الطوب الأحمر وتصالب وتداخل في أشكال تدهش من يراها أوّل مرّة».

من تمام الحظّ أن يقترن مقامي بمراكش بانتشار واسع للعلم والأدب، قد سار جنبا إلى جنب مع انتشار نفوذ الملوك السعديّين المشتهرين بثقافتهم، فمحمد القائم بأمر الله فقيه اشتغل بالتدريس في مسقط رأسه بدرعة قبل أن يُختار للإمارة، وابنه محمد المهدي الشيخ أديب يحفظ ديوان المتنبّي عن ظهر قلب، وابناه محمد المتوكّل وأحمد المنصور، وأحفاده محمد بن عبد القادر وزيدان، كلّهم علماء أو أدباء وشعراء.

وقد ساعد على نمو هذه الحركة تعدّد المراكز الثقافية في الحواضر والبوادي، وبعامّة في مراكش التي استرجعت نشاطها العلمي القديم بما أنشئ فيها أو جدّد من معاهد التعليم، كمسجد الشرفاء بالمواسين، ومسجد باب دكالة، ومسجد أبي العباس السبتي، والمكتبات الغنيّة الملحقة بها، ومدرسة ابن يوسف التي ضاهت كبريات مدارس فاس.

هناك أيضا ظاهرة انتشار الكتب وتعدّد خطوطها، من مغربيّة وأندلسيّة ومشرقيّة يشتغل بها نسّاخون محترفون، عاشرت بعضهم حتى صاروا من أصدقائي، ولاحظت أنّ من بينهم علماء لا يُقبلون إلاّ على انتساخ الأمّهات في مادّة تخصّصهم، فالمقرئ ينسخ المصاحف الشريفة، والمحدّث ينسخ كتب الصحاح، والفقيه كتب مختصرات ابن الحاجب وخليل، والطبيب كتب الطبّ، والنحوي شروح ألفية ابن مالك وما إليها. هذا الحصر أضاف للمنتسخات قيمة خاصّة، وجعل الناس يتنافسون على اقتنائها.

وقد رأيت في خزانة مولاي أحمد المنصور مائة كتاب جاءته مهداة من أصحابها، وبعضها الآخر كتبه نسّاخون هواة ومحترفون من مراكش وغيرها، أو من القاهرة ومكّة والمدينة والقسطنطينية، وحملها إلى المغرب رجال من البلاط، كانوا يذهبون بانتظام إلى المشرق وفي رواحلهم صناديق مملوءة ذهبا ليعودوا بها مملوءة كتبا.

عرفت من علماء ذلك العهد أحمد بابا التكروري التمبكتي، وهو رجل ذو خلقة غريبة وسواد فاحم، لكن مع فضل وعلم. حُمل إلى مراكش سجينا إثر حملة المنصور على بلده، فأكبّ على التعلّم مدّة تنيف عن عشر سنوات، ثم انتصب

للتدريس، فوقع إقبال شديد على دروسه، بسبب تمكّنه من مادّة الفقه ومعرفته بتراجم الرجال. ورغم لهجته السودانية المعقّدة كان عدد العلماء والقضاة وكبار رجال الدولة في مجلسه لا يقلّ عن عدد الطلبة.

عند ما صرت قريبا منه حدّثني عن موطنه البعيد، ولم أكن أعرفه، وعن الصّلات الوثيقة التي تربطه بالمغرب منذ عهد المرابطين، أيام تدفّق سيل الإسلام على حوض النيجر وسائر غرب إفريقيا. وذكر لي أنّ العلماء المغاربة لا ينقطعون عن ممالك السودان، فبعضهم يستوطنها نهائيا، وبعضهم الآخر يقيم بها سنوات ثم يعود إلى وطنه، وهؤلاء هم أصحاب الأثر الفعّال في نشر الإسلام بين الوثنيّين من أهل تلك المناطق.

قلت للشيخ أحمد بابا ذات مرة:

«لما وجدت السودان تابعا للمغرب ظننته هكذا منذ القدم.

- أبدا... للسودان ممالكه القديمة ودوله المستقلّة بنفسها من قبل الإسلام، وحتى من بعده، ولم يصر تابعا للمغرب إلاّ بعد حملة أحمد المنصور وضمّه له، بدعوى الاستكثار من الأسطول والأحلاب لغزو عدوّ الدين، ويقصد نصارى الإسبان والبرتغال... ولم يكن القصد الحقيقي إلاّ تحميل المزيد من الخراج والثروات.

- ألا ترى يا شيخ أنّ أغلب ذلك صرف في سبيل الغزو والجهاد؟

ابتسم الشيخ كاشفا عن أسنان في بياض العاج وقال:

«طبعا أغلبه صرف في الغزو، لكن كثيرا منه ذهب إلى جيوب القادة والعسكر، ومن بينهم بعض الأندلس بني قومك المشاركين في الحملة، أمثال محمد بن زرقون وأحمد العروسي وقاسم وردوي.

- هل تراهم ذهبوا تطوّعا للحرب أم أرسلوا إقصاء وإبعادا؟».

ابتسم الشيخ ثانية وقال:

«دعني أحدّثك عن العلماء، فهذا أسلم لي وأنفع لك. ألا ترى أنّه أُتِيَ بي من تمبكتو إلى مراكش لأترك الحديث والتعاليق عن الحملات العسكرية، والحروب المتسبّبة في خراب بلدي وقيام الفتن بين أهله..؟ المهمّ أنّ جماعة من علماء تلك

البلاد تمّ نفيهم إلى مراكش، وخرج غيرهم تلقائيًا إلى بلاد سوس، فتعلّموا وعلّموا غيرهم، وألّفوا كتبا في النحو والتصوّف والحديث، غير أنّ أهمّ مادّة امتاز بها السودانيّون بالمغرب هي التراجم، لأنهم عثروا على مصادر تراجم أعلام الإسلام عبر العصور مما لاعهد لهم به في بلادهم، فاندفع أكثرهم يؤلّف كتبا في تراجم فقهاء المالكية في بلاد المغرب والأندلس والسودان والمشرق، حتى اجتمع لديهم منها كمّ كثير.

- فإنتاج أهل العلم في بلدهم غزير على ما أرى؟
- وكيف لا تعلم ذلك أيّها الأندلسي المبعد مثلي؟
- السبب هو انقطاع السبل وشحّ الأخبار رغم قرب الديار. فعل النصارى بنا ما لا أراك الله بعضه ولا كلّه.
- لأهلي في تمبكتو مكتبات غنيّة بالمؤلّفات القديمة في الحديث والفقه، اقتنوا معظمها أثناء رحلاتهم إلى المغرب والمشرق، واستنسخوا أخرى في مواطنهم بالخط السوداني. من أعظم تلك المكتبات مكتبة والدي أحمد أقيت، وقد أصابها أيّام الفتنة والحريق الشهير ما أصابها، فأنا الآن أقلّ أهل عشيرتي كتبا، ولعلّي آخذ عند عودتي من هنا ما أعوّض به ما ضاع، والله خير الوارثين.

لم تزد خدمتي لمولاي أحمد المنصور عن خمس سنوات، عرفته فيها عن كثب، وأدركت مدى ولَعِه بالدّرس والتثقف، حتى صحّت فيه صفة من قال عنه: «خليفة العلماء، وعالم الخلفاء». ينظّم أعماله اليوميّة بدقّة، فيخصّص وقتا لمجالسة العلماء في القصر أو المسجد، تارة يتدارسون التفسير والحديث في مجالس موسّعة، وتارة يقرأون البلاغة والمنطق والحساب وغيرها من العلوم العقليّة، في مجالس لا يحضرها إلاّ بعض المتخصّصين، من أمثال أحمد ابن القاضي والحسن المسفيوي، فيقرأ هذا الأخير بين يدي السلطان كتاب إقليدس، بينما يقوم الأوّل بالشرح والتحليل.

وكان مولاي أحمد يُتقن الخط المشرقي يكاتب به علماء الشرق كأحسن ما يكتبون، واخترع لذلك خطًّا سرّيا ذا أشكال بعدد الحروف سمّاه «الزّمام»،

وحذقه جماعة من أوثق رجال الدولة، فتراسلوا به مع المنصور في مهمّات الأمور من مختلف الأقاليم.

بل إنّ الملك المنصور وضع كتبا ضاهى بها ما يكتبه علماء عصره، من بينها مخطوط جميل عنوانه «العود أحمد»، جمع فيه أورادا وأحزابا صوفية اختارها بنفسه ورتّبها على ثمانية أبواب، استعرض في أوّلها الوظائف اليوميّة والليليّة من وقت الانتباه من النوم إلى وقت الاضطجاع، وأتى في الأبواب التالية بالأذكار الخاصّة بالصلاة والزكاة والصيام إلى آخر ما يتعلّق بالفرائض وبفضائل القرآن والصلاة على النبيّ.

وله كتاب آخر وقفت عليه عنوانه «المعارف في كل ما تحتاج إليه الخلائف» ويعرف أيضا بكتاب السياسة، وقد أعارني نسخة منه للاطلاع، كتبه من إملاء السلطان الشاعر والمؤرخ عبد العزيز الفشتالي، وكانت بيننا صِلات وزيارات.

حدّثني عنه وهو يسحب السفر المجلّد من دُرجه:

«سترى أيّها الشيخ أن ما دعا السلطان إلى هذا الكتاب مقصدان: أوّلهما العمل على حياطة البلاد، وحفظ مصالح العباد، لما يفيد ذلك في تحصين الحصون واختطاطها، والتعبئة للحروب، ومعرفة أنواع مدافع القذف والرجم وما إليها. والثاني فيه خروج عن مألوف كتب السياسة، وأغلبها يقتصر على ذكر مصطلحات الوزير والنديم والمشير، وتنمية الخراج، والعدل في الرعيّة وتقاليد المملكة في الموكب والمركب والملبس.

- لعلّك تقصد ما فعله السلطان أبو حمّو الزيّاني ملك تلمسان في كتابه «واسطة الملوك» وغيره ممن اقتصروا على مرحلة النظر والأقوال، و لم يبيّنوا ما يجب من أفعال.
- هو ذاك، فأحمد المنصور انتقل بكتابه من القول إلى التطبيق. انظر ما قاله في فاتحة الكتاب وسترى».

وأفتح الغلاف المذهّب، وأقرأ في خطبة الكتاب تأكيد ما قاله صديقي عبد العزيز: «وبعد فبنا حاجة إلى تكميل نفوسنا في قواها البشريّة باستعمالها في حقائق المعلومات العلميّة والنظريّة. وعلوم الحكمة أولى بنا فيما نحن فيه، وأعون على ما

نجليه لهذا الأمر العلوي الفاطمي أو ننفيه، فلنصرف أوّلا عنان القول إليها، ولنوجف بالخيل والرّجل في ميادين هذه الطروس عليها».

وأقول للفشتالي:

«بمناسبة ما نراه من عزم مولانا المنصور على معرفة أنواع المدافع وأسلحة النار فإنّي قد أتيت من الأندلس بكتاب يبسّط وسائل العمل بهذه الأسلحة، صنّفه أحد إخواننا هناك هو إبراهيم بن نافع.

- وماذا تنتظر؟... سيفرح السلطان بهديّتك أيّما فرح، ويجزيك عنها الجزاء الأوفى.
- لكنّه مكتوب بالقشتالية ولأبدّ من ترجمته إذا أريد تعميم النفع به لدى القوّاد والعساكر. فعسى الله يعينني على ترجمته في القريب.
- هذا أمر عظيم. ابدأ الترجمة وسأحدّث مولاي المنصور حتى يعينك عليها.
- أرجو أن لا تتحدّث عن الأمر يا أخي إلاّ بعد أن أشرع فيه، وسأستخير الله أوّلا، ثم نختار الوقت المناسب لإعلام المولى المعظّم.

لم أقابل الفشتالي فيما بعد إلاّ أثناء الجلسات الديوانية أو الأعياد، إلى أن مرض السلطان وانتقل إلى رحمة الله، وعزمي لم يتأكّد بعد على ترجمة كتاب العزّ والمنافع للمجاهدين بالمدافع. أليس لكلّ أجل كتاب... ولكلّ كتاب أجل؟

قضينا شهر رمضان لهذا العام هانئين، أحضر المجالس الحديثية بالنهار، وأشفاع التراويح بالليل، حيث يؤمّ الصلاة بالسلطان وحاشيته علماء أجلّة. ولما حلّ العيد زرت عبد الرحمان، وجلسنا في فناء بيت جميل اكتراه بحيّ الزياتين، وعمره بالخدم بعد أن ازدادت مداخيل تجارته بتقادم وجوده في السوق. سألته وهو يبالغ في إكرامي:

«كم مضى عليك في السوق؟ إنّ الأيام تمضي سراعا.

- ألا تتذكّر متى وصلنا؟ إنّنا هنا منذ ثلاث سنوات.
- لأبدّ أنّ الأحوال باتت أحسن من ذي قبل... وأنّ تجارتك نمت وازدهرت؟

- أحمد الله وأشكره».

ولم أكن في الحقيقة محتاجا إلى تأكيد صديقي عبد الرحمان، فحال اقتصاد المغرب بلغ شأوا بعيدا لم يبلغه من قبل، على ما سمعته من رجال الحاشية، إذ وفّرت الغنائم العظيمة المجتلبة من خزائن الدولة البرتغالية وقصورها كسبا تعمّم به الرخاء على جميع الناس، كما أنّ عبور القوافل من المراكز الصحراوية إلى السودان صار مأمونا، وبذا اعتاد عمال المنصور في تمبكتو على تزويد مراكش بأحمال الذهب في قوافل منتظمة، فتدفّقت الثروة بكمّيات ضخمة، وعمّت الحيويّة الأسواق بصورة لم يسبق لها نظير.

سألت عبد الرحمان:

«أليس من فضل الله علينا أنّنا قدمنا إلى المغرب في عهد كهذا سمّي سلطانه المنصور الذّهبي لكثرة مايتدفّق عليه من الذهب؟

- فضل من الله ونعمة.
- وما أخبار مساعدك خيرونيمو... هل أنت راض عنه؟
- كلّ الرضا، إنّه يخدمني بإخلاص، وأنا أمنحه أجرا يكفيه وزيادة.
- بل لعلّه يدّخر أغلبه للفدية.
- اعتاد أن لا يأخذ مما أنقده إلاّ القليل لقضاء حاجات صغيرة، كالملبس أو الغطاء في فصل الشتاء، أمّا الأكل فيتناوله عندي بالمخزن أثناء العمل، أو في بيت مولاه عند المرور به صباحا. ويدّخر بقيّة أجره عندي لوقت الحاجة.
- ووقت الحاجة هو اجتماع النصيب الكافي لافتداء نفسه من الأسر، وشراء ذمّته من مالكه، وعندها ستنشأ عندك معضلة تعويضه.
- إنّني لا أفكّر في هذه المعضلة الآن، وأكتفي بمشاركته الفرح عندما يسألني وأجيبه بأن مدّخراته في نموّ وازدياد، ببركة حزمه واستقامته.
- وكيف يؤدّي عمله اليومي بينك وبين مالكه؟
- يقسّم أوقاته بنظام دقيق لا يخرج عنه إلاّ في حال المرض. ينهض مع ساعات الفجر الأولى فيقصد بيت سيّده يملأ له جرار الماء ويقدّم العلف للبغلة، ثم يأتي إلى السوق فيفتح المخزن وينتظر قدومي ليعود إلى بيت

مولاه بطلبات المؤونة. فإذا فرغ من ذلك جاء فاستلم عمله بالمخزن من ساعة الضحى إلى أذان المغرب.

نسيت أن أذكر أنّه يدفع كلّ شهر أجر فراش ينام فيه بفندق النصارى، فيتألّم كلّما اقتطعه من مدّخراته رغم زهادته، ولا يرى أن أصحاب الفندق أهل له لسوء خدماتهم وعدم عنايتهم بالمبنى المهدّد بالسقوط على رؤوس من فيه. وقد سألته عن تفاصيل العيش بذلك الفندق الخرب فقال:

«مهما وصفته فلن أجد كلمات مناسبة لنعت المكان ونوع الحياة فيه، بل قد يكون الوباء العظيم الذي أصاب البلاد من سنوات نبت فيه وانتشر منه.

- وكيف عشت فيه كلّ الأعوام الماضية؟

- كنت أدخل الفراش وأغمض عيني، فإذا شقشقت العصافير قفزت منه وخرجت هاربا، ما عدا يوم الأحد أبقى من أجل القدّاس وملاقاة بعض القساوسة القادمين من بلدي أو الرائحين إليه، علّني أتنسّم خبرا عن أهلي أو أرسل لهم ما يجدّ من أحوالي».

سألت عبد الرحمان:

«ألم تر هذه الموبأة بعينك... ألم تزرها؟

- بلى، سنحت فرصة لزيارة فندق النصارى حين مرض خيرو وغاب عن العمل يومين. حيّرني غيابه، لكن نزيلا من جيرانه جاءني بخبر إصابته بحمّى شديدة. طلبت من الرجل، وهو أسير أيضا، أن يدلّني على المكان، وسرت معه إلى أن وجدت نفسي أمام ما يشبه بوابة إصطبل، دخلتها فوجدت ساحة واسعة ملأى بأقوام من أعراق شتى، لهم أثواب وقيافات متنوّعة.

وقفت أتأمّل ما أرى: على الجانبين دكاكين صغيرة تعرض كل ما يخطر على البال من بضائع ومؤن، ينادي عليها أصحابها بلغات العالم المعروفة، وفوق الدكاكين غرف معلّقة يصعد إليها بسلالم حجريّة، تطل منها رؤوس بعض القساوسة، وفي الواجهة مبنيان كبيران يقفلان بأبواب خشبيّة غليظة، لكن أحدهما زُيّن بمسامير صدئت بفعل الزمن، والثاني ما زال محتفظا ببعض روائه، ونحت فيه صليب كبير الحجم.

قال مرافقي وهو يراني توقّفت أتفرّج على المكان:

«سوف تجد خيرونيمو خلف باب المسامير، فذلك هو المبيت، أما باب الصليب فيؤدّي إلى الكنيسة.

- والغرف العلويّة... هي لمن؟

- تلك غرف القساوسة الفكّاكين، يكتريها لهم قناصل دولهم ليقعدوا فيها طول إقامتهم وينظروا في شؤون رعاياهم الأسرى وفي طرق فكاكهم ومقايضة فديتهم».

ولكنّ الأمر الأكثر إزعاجا في ذلك الفندق هو الأقذار المتناثرة في كلّ النواحي، وانتشار السكارى يعربدون ويتهارشون في أرجاء الساحة، أو يجلسون للشرب على موائد طويلة تملأ وسطها، يطوف عليهم سقاة من عمّال الدكاكين، وهي تشتغل خمارات أيضا تعمل في وضح النهار.

لما لاحظ المرافق اشمئزازي مما أرى ابتسم قائلا:

«إنّه فندق للنصارى، وقد سمح لهم السلطان بالعيش فيه على طريقتهم. أمّا الأوساخ فهي دليل على فقر السكان وشدّة حاجتهم».

وجدت خيرو في الفراش قد نهكته الحمّى وجففته. سألت إن كان في القساوسة القاطنين بالغرف العلوية من يعرف الطبّ ويخلط الأدوية، وأبديت استعدادا لدفع متطلّبات العلاج.

جاءنا بعد قليل قسّ أعرج يخبّ في قفلدينه الأسود الخشن، ومدّ يده إلى جبين المريض. التفت بعد ذلك إلى مرافقي ليسأله بالإسبانية عمن يدفع ثمن العلاج. ولما أشار الرجل بنظره ناحيتي سأل القسيس بالإسبانية دائما:

«وهل هذا المغفّل هو مولاه؟»

فرددت عليه بهدوء:

«لو استقامت الدنيا لكان هذا المغفّل مولاك أنت أيضا».

لم يكن ينتظر ردّي، ولا أن أكلّمه بقشتالية أصفى من لهجته، فتعطّلت كلّ حركات المسكين وبقي مفتوح الفم، لا يعرف ما يفعل ولا ما يقول، أمّا خيرو فاشرأبّ بعنقه معتمدا على مرفقيه، واحتجّ بصوت مبحوح:

«من نصحكم باستدعاء هذا الأحمق؟ دعوه يخرج، لا حاجة لي بعلاجه».

ضحكت مهوّنا عليه الأمر:

«ابق مكانك ياخيرونيمو ودع الأب يعالجك بما يراه، إنّني لا أعتبره قد أساء إلي، لأنّه لايعرفني ولا خصومة بيني وبينه، ولعلّه إذا عرفني يبدل رأيه».

وكأنّما كان المسكين ينتظر مخرجا من ورطته، فما كاد يسمع قولي حتى اعتذر إلي بحرارة، ثم شبّك أصابع يديه وقرّهما من فمه مرتّلا صلاة ابتدع كلماها من وحي الحادثة:

«أبت الرحيم، احفظني من شرّ نفسي، ومن سوء أفعالي وأقوالي، واجعلني أستظلّ برحمتك ومغفرتك، فقلبي الطيّب ما زال كما خلقته لايحمل ضغينة لأحد. لك المجد في السموات، فاغفر لي يا أبت إذا أخطأت».

وفي الحين أردفت على صلاته: «آمين».

نظر إليّ الرجل مرتبكا، وخيّل لي كأنّ دمعة التمعت في إحدى عينيه. ابتسمت غافرا تهوّره، وأشرت عليه ببدء العلاج.

أضحكتني طريقة عبد الرحمان في رواية ما جرى بينه وبين القسّ الأعرج، فشكرته على أنّه سارّني بكلّ أحواله، وروّح عني بطيب الضيافة ولطيف المسامرة.

جاء خادم بأكواب عصير اللوز المثلّج ففرحت بها من عطشي لكنّه كان شديد الحلاوة، فسألت مضيّفي:

«أراكم تستعملون السكر بكثرة، هل هذا لرخص ثمنه...؟

- لا... وإنّما لأنّ خدمي مبذّرون.
- هل لديك فكرة عن صناعة السكر في هذا البلد؟
- لا، وإنّما أراه يُباع في أشكال مخروطية وبأثمان زهيدة، فاستقرّ عندي أنّه صناعة محلّية. لكنّني استغربت مع ذلك أن لا يوجد في المزارع المحيطة بمراكش أيّ منتوج فلاحي يؤخذ منه السكر، وأنت تعرف أننا في الأندلس نأخذه في جهات من الشمندر، وفي جهات أخرى من القصب.

- لقد رأيت في كتاب الإدريسي «نـزهة المشتاق» وأنا أترجم منه للقس ملدونادو في الأندلس، أنّ صناعة السكّر معروفة هنا منذ أيام المـرابطين، لكن السعديّين توسّعوا فيها كثيرا، وخصّصوا الحقول المخزنيّة الشاسعة في سوس لزراعة القصب، وبالأخصّ حول عاصمتيهم القديمتين: تيدسـي وترودانت، وأنشأوا في نفس المنطقة مصافي ضخمة، جلبوا إليهـا لإدارة الأرحية مياه الأودية، في قنوات عظيمة تحملها الحنايا لمسافات طويلة، ثم ترفع المياه في المصافي إلى أعلى بطرق هندسيّة، لتتساقط علـى النـواعير المولّدة للقوّة المحرّكة. وفي كلّ معمل عدد كبير من الـدّنان النحاسـيّة الضخمة لجمع عصير القصب وتحتها أفران من طين. بعد التصفية يوضع السكر في قوالب هرميّة ليتبلور ويأخذ شكل المخروط الـذي تـراه في السوق.
- هذه صناعة ضخمة تتطلّب جهودا ونفقات كبيرة، ولأبدّ أنّ مداخيلـها كبيرة أيضا.
- هي كذلك، ولذا استأثرت العكومة بصناعتها وتسويقها، فهي تبيعهـا محلّيا وخارجيًّا لإفريقيا السوداء وأوروبا، وبذلك صار السكّر يمثّل نسبة الثلث من مداخيل الدولة.
- لم أتصوّر أنّ في المغرب من يحسن تصريف المياه واسـتعمالها بالحكمـة والهندسة كما عندنا بالأندلس، ولا أنّ للسـكّر كـلّ هـذه الأهمّيـة التجاريّة.
- ... لأنّه لم يتح لك زيارة مثل تلك المواقع.
- تقول مواقع... هل هي كثيرة؟
- لقد شجّع السلطان على تكاثرها لما رأى من مردودها وفوائدها. بل إنّه أنشأ مصانع جديدة بناحية شيشاوة غير بعيد عن مرّاكش، زارها صديقي عبد العزيز الفشتالي ووصفها لي وصفا عجيبا شوّقني إلى زيارتها، ولكـن الفرصة لم تتح إلى يومنا هذا.
- خذني معك إن يسّر الله لك ذلك يوما».

ودّعت عبد الرحمان وأنا أعده بصحبتي لزيارة معاصر السكر، مدركا مقدار حنينه إلى رؤية سواقي المياه ومصبّات النواعير التي أمضى بينها أغلب أيّام شبابه. لكن شاءت الأقدار أن نتلاقى ثانية قبل أن تتاح لنا فرصة لتنفيذ تلك الزيارة كما تواعدنا، إذ حلّ المولد النبوي وهو أكبر احتفال رسمي للدولة والأمّة، يفتح السلطان فيه بلاطه وبلاط أبنائه في الأقاليم، طيلة شهر ربيع الأوّل، للعلماء والأدباء من جميع الجهات، ليشاركوا في الاحتفالات الفخمة، حيث تزيّن أكبر قاعات قصر البديع بالشموع الضخمة المزخرفة، وترتفع في جنباتها موسيقى الأجواق وترانيم المسمعين بأشعار وموشحات الصوفيّة، وإنشاد القصائد المولديّة، مما ينظمه الشعراء في مدح الرسول الكريم، والإشادة بمآثر الشرفاء السعديّين.

وقد أردت أن يشاركني عبد الرحمان الحضور في بعض حصص الإنشاد والسماع، فدعوته ليقضي معي يوم المولد.

قضينا الصباح في ساحة قصر البديع، وتناولنا العصائد في الزاوية القريبة منه، وبعد صلاة العصر قصدنا منزلي، فجلسنا في فنائه نستروح نسيم الأصيل. سألت عبد الرحمان وقد ورد بخاطري حديث الراهب المتطبّب:

«هل رأيت صاحبك الراهب مرّة أخرى؟

- نعم... جاءني صبيحة أحد الأيّام. اعذرني فقد نسيت أن أخبرك ببقيّة حكايته. فوجئت به داخلا من باب المخزن، خُطاه متردّدة وعيناه إلى الأرض. سبقني خيرو للترحيب به، وقدّم له مقعدا خشبيًّا، ولكن الرجل فضّل الوقوف، وبدا حائرا لايجد مبتدأ للكلام، فحاولت طمأنته:

«ادخل أيّها القسيس واجلس، ثم اذكر ما حاجتك.

- لا حاجة لي سوى أن أسمع كلمة الصفح منك عما أخطأت فيه بحقّك، وأنت رجل لم تؤذني، ولا سبقت لي علاقة بك».

ابتسمت متعجّبا من شدّة تقوى الرجل وخوفه من الذنوب، وطلبت منه الجلوس قائلا:

«اطمئن... فلم أحمل في قلبي ضغينة عليك، خاصّة وقد رأيت عنايتك بخيرونيمو ومتابعة مرضه إلى أن شفي تماما. ثم إنّك لم تتقاض أجرا، وهذا في عرف التجار يغفر كل الذنوب».

انطلقت أساريره، ولكن ظلّ على انكماشه لايرفع عينيه لينظر في وجهي. قال بعد سكوت قصير:

«عرفت أنّك حديث العهد بهذا البلد.

- جئته منذ خمس سنوات.
- قادما من إشبيلية على ما أظنّ؟
- مرورا بها فقط.
- أرجو أن لاتكون وجدت من أهلها إلاّ الخير... إنني منهم وإن كنت لم أقض بينهم إلاّ وقتا قليلا.
- مثلي تماما، فأنا أقمت عابرا، و لم أر من أهلها خيرا أو شرّا، حتى وإن صار المرء لا يعرف في إسبانية هذه الأيام أين يوجد الخير وأين يوجد الشرّ.
- هما في كلّ مكان يا مولاي وفي كلّ زمان وفي كلّ ملّة.
- لو بقيت ذرّة من خير في إسبانية لما خرجت منها.
- إنّك تشتم وطني يا مولاي.
- إنّه وطني أنا أيضا، ولي فيه نفس ما تدّعي من حقوق».

قطع خيرو علينا الحديث طالبا من القسيس إن كان يريد ماء أو بعض الفاكهة مما اشتراه في الصباح. اكتفى الضيف بطلب الماء. وبعد أن شرب وتمتم ببعض الأ دعية همّ بالوقوف فسألته:

«لكنّك لم تذكر الغرض من زيارتك.

وقف، وبقي ينظر إلى موضع قدميه:

«لنقل إنها زيارة شكر ومودّة، وسأترك حاجتي إلى زيارة قادمة إذا أذنت لي. وقد أطمع في التعرّف على رفيق سفرك السنيور بيخارانو، لعلمي بقربه من ديوان السلطان المنصور.

- هل تقصد الشيخ أفوقاي أحمد الحجري؟
- هو بعينه. علمت أنّه مترجم السلطان، فياليته يُعينني على إجراءات فكّ الأسرى. إنها طويلة ومملّة وشديدة التعقيد، وقد تأخذ القضيّة الواحدة عاما أو أكثر، حتى وإن دفع المال واستوفيت كلّ الشروط.
- ربما يقبل مساعدتك... إذا وعدته أنت أيضا بالمساعدة على فكاك أسرى المسلمين بإسبانية.
- الربّ هو الذي يساعد، وما أنا إلاّ عبده المأمور. مع السلامة سنيور حمنيث.
- سنيور عبد الرحمان.
- عفوا سنيور عبد الرحمان».

تسلّيت بحكاية صديقي عن هذا الراهب الغريب الأطوار، وسألته:
«ألم تجد شبها بينه وبين أضرابه ممن تركنا في الأندلس؟
- كلّما شكوت له أفعالهم وأذاهم للمسلمين... كان يردّد: إن الخير والشرّ في كلّ مكان وفي كلّ ملّة.
- كان عليه أن يقول في أهل كلّ ملّة، لأن الأديان لا تنبني إلاّ على مقصد الخير، وما يفسدها إلاّ معتنقوها ومفسّروها، بحسب ما يعنّ لهم من مقاصد وأغراض».
هكذا قضينا يوما مليئا بالمسرّة، ولكنّه انتهى بنكد عظيم، إذ دقّت الطبول قبيل ساعة الغروب، ونادى المؤذّنون فوق الصوامع أن السلطان أحمد المنصور لبّى داعي ربّه.

فيما حصل أثناء مقامنا بمراكش

كان مولاي أحمد المنصور قسم ولايات المملكة منذ عام 1584 بين أولاده الأربعة، فكانت تادلا من نصيب ابنه زيدان، وكان دارسا محبّا لمجالسة العلماء، راجح الرّأي حكيما. ولذا انتصب بنصيحة من العلماء المحيطين به لخلافة والده المنصور. لكنّ أخاه محمد المأمون، وكان واليا على فاس، اعتبر نفسه أولى منه، وأعلن العصيان والخروج عن طاعته.

اشتهر المأمون بالنّزق والظلم ومخالطة حثالة الأقوام، منهم شعراء متملّقون، وساحر يهودي يسلّيه بالألاعيب الغريبة، ومنها فتح الأقفال بدون مفتاح لسرقة أموال الناس، ورغم شكاوى المتضرّرين من هذا الساحر لم يأبه المأمون ووجد في الأمر تسلية.

وأفظع ما ارتكب هذا الأمير هو خيانته لبلده وعشيرته، فبعد الاقتتال مع إخوته مدّة ست سنوات توالت عليه فيها الهزائم، ركب البحر مع أهله إلى إسبانيا مستنجدا بملكها فليبي الثالث ليمدّه بقوّة تناصره، مقدّما له الوشايات ضدّ أخيه، زاعما أنّه يتجهّز لنجدة الأندلس بتجنيد المهاجرين وتسليحهم لغزو شواطئ إسبانيا.

بسبب ارتمائه في أحضان الإسبان سلّمهم مدينة العرائش سنة 1610 مقابل مائتي ألف دوكا، فحرم مجاهدي الأندلس من مرفإ بحري، وحرم آخرين من ملجإ استقرّوا به وبدأوا يحرثون ويزرعون. ولقد استعمل ذلك الأمير الخبيث كلّ وسائل الضغط والإكراه على العلماء والقضاة ليبرّروا عمليّة التنازل تلك، فلم يرضخ له جلّهم وهربوا من وجهه إلى الأرياف وزوايا المتصوّفة. بل إنّ بعضهم بعث إليه رسائل نقد فيها إقدام وجرأة، وبعضهم الآخر ترك قلم الكتابة وخرج ثائرا، أشهر

هؤلاء أحمد بن أبي محلى الذي أنشد في الناس قصيدة حماسيّة، تناقلوها واستنهضوا بها الهمم، ومنها:

لئن صحّ ما قد قيل، ما عيش عائش   إذا أخذ الكفّار ثغر العرائش
فيا معشر الإسلام، من بعد عزّكم   عليكم لكفّ الظلمِ لا من مناوش
فأين ملوك الغرب من كل ضارب   بسيف ورام في جيوش الأبارش
ومن أهل الجبال والوطا ومدائن   وعرب ضوار باللّقا والتناوش
وكلّ كريم بربريّ مبربر   كليث الشّرى عند اشتباه الهوائش
عريض، طويل رمحه ونجاده   ومسدل شعر خلفه كالمفارش

هكذا استنفر ابن أبي محلى جميع عناصر السكّان من أهل الجبال والسهول والحضر والبدو، والعرب والبربر والصحراويّين أصحاب الشعور المسدلة، وتمكّن بالفعل أن يجمع حوله عددا وافرا من تلك العناصر في ثورته العارمة على أولاد أحمد المنصور، فيستولي على جنوب المغرب كلّه، ثم يدخل مراكش ويطرد منها زيدان. لكنّه قتل بعد نحو الثلاث سنوات دون أن يتمكّن من متابعة زحفه لمناجزة الإسبان في العرائش.

لم يهدأ حالي و لم يذهب قلقي منذ وفاة مولاي المنصور، رغم أنّ المولى زيدان قد ثبتني على نفس خطة الترجمة بديوانه. ذلك لأنّ القلاقل والفتن التي أشعلها أخوه في الشمال، وابن أبي محلى في الجنوب كدّرتني وجعلتني مهموما طول الوقت. وقد ظهر حالي جليًّا لعيني صديقي عبد الرحمان لما زرته عصر يوم جمعة، بعد أن مضى عام و لم نتلاق.

وفّر لي مجلسا مريحا بمخزنه، وحدّثني عن تجارته وأعوانه إلى أن جاء ذكر خيرو فقال:

«حدّثني خيرو أن أكثر الأسرى في فندقه فرّوا.

– ما معنى فرّوا... ألم يعد في البلد حراسة؟

– تبخّروا في الهواء، ولعلّ بعضهم التحق بالعرائش أو البريجة، أو غيرهما من قلاع النصارى... عن أيّة حراسة تسأل يا شيخ، وعن أي بلد؟

- ذكّرتني بالبريجة ومغامرة هروبنا منها إلى أزمور.
- وبالعطش، وأصوات الوحوش، وتسلّقنا الشجر هربا من الضواري.
- لم يبق من ذلك كلّه غير الذكرى.
- من يصدّق أن قد مرّ على ذلك عشر سنوات؟
- صحيح إنها عشر... يا للزّمن ما أسرعه. ذكرت خيرو منذ قليل، ما باله لم يغتنم الفرصة ويهرب كغيره؟
- وأين سيهرب إذا لم يعد ثمّة من ينتظره.
- ماذا جرى... ألم يكن يدّخر الدرهم والفلس عندك لجمع الفدية؟ ألم تحدّثني بذلك؟
- جرت له قصّة أرويها لك إن وعدتني بالعشاء معي في البيت».

لبّيت دعوة صاحبي. ثم ونحن نرفع أيدينا من طشت التغسّل قال عبد الرحمان:

«جاءني خيرو ذات صباح وهو كسير الخاطرحزين، لا يكاد النطق يبين عن قصده لغصّة تمكّنت من حلقه فيكاد يشرق أوينفجر بالبكاء، لولا أنّه يتماسك بشجاعة عند الحديث. وبسؤاله عمّا جرى قال إن أحد الفكّاكين أتاه برسالة من موطنه تخبر بوفاة زوجته التي كان متيّما بها، متلهّفا إلى يوم لقائها، وإذا بخيط الأمل ينقطع، وإذا بالحبّ يخلّف الحسرة والقنوط.

دأبت على تسليته أيّاما، ولم أتركه لوحدته وأحزانه. قرّبه منّي الألم فكأنّه أخ شقيق، حتى شعرت أنّه أكثر الأحاسيس تقريبا للضمائر والمشاعر. ومع ذلك اشتدّ به الانطواء على نفسه، وهمدت حركته حتى أوشك أن يمرض. لاحظت ذلك من شدّة شحوبه وقلّة إقباله على الطعام، وتحاشيه الحديث مع الناس. نبّهته إلى سوء فعله ذاك، وشدّة تأثيره على النفس والمزاج، وقلت له ذات يوم، وقد بقينا وحيدين بالمخزن عقب انصراف الحرفاء والعمّال:

«أنت تعرف أنّ الموت قدر على الناس جميعا.
- نعم أعرف، لكنّه على الغريب أشدّ وقعا، لكأنّما يضاعف البعد من وقع المصيبة... يرفع وزنها ويوسع دائرتها.

- وهل كان حضورك سيمنع وقوع الكارثة أويقلّل من وقعها؟... إنّه الموت وتأثيره هو هو، لايتغيّر بالحضور أو الغياب.
- في داخلي حريق لا أظنّه سينطفئ يوما يا مولاي. فما الذي سيسلّيني؟
- أن تتزوّج ثانية».

نظر إليّ بعتاب وفي نفسه حديث مكتوم، فواصلت:

«هل ستتوقّف الحياة بموت زوجتك؟ هل تنوي أن تموت أنت أيضا ورجلاك قائمتان؟ لقد فقدنا أعزاء بلا حصر ولا عدّ... وها هي الحياة ترحمنا بالنسيان. مهما كانت مشاعرك لا يمكنك الاستمرار في العيش وأنت لست من أهله، أو في حال الذين بين بين.

- وهل سيرضى مولاي على زواجي؟
- اترك أمره لي، وسأقنعه.
- وبمن سأتزوج؟ من سترضى بزوج أسير... أو تقبل العودة معي يوم يُفكّ أسري؟
- العودة... العودة، أليس لك حديث غير هذا؟ ولمن عودتك و لم يبق هناك من ينتظرك؟ افتح قلبك للإيمان بدين محمد وبذا تصيب عصفورين بحجر واحد: يعتقك مولاك ويزوّجك بامرأة شريفة من أهل البلد. أمّا الشغل فهو مضمون عندي بصورة قارّة، وربّما جعلت منك شريكا، ووسعنا أعمالنا بدخول أرض السودان. ألم تسمع بأكوام الذهب هناك؟»

بقدر ما كنت أمضي في الحديث ظلّ خيرو يفتح حدقتيه حتى اتسعتا إلى الأقصى الممكن، ولا أدري هل هي الدهشة مما قلته، أم الانتظار والتشوّق لما سأقول. ودخل أحد الحرفاء فانشغلت بأمره ورافقته إلى داخل المخزن... غبت زمنا عدت بعده فوجدت خيرو جامدا في الوضع الذي تركته عليه، غائبا في تفكير عميق.

حظيت بعد أسبوع بزيارة القسّ الأعرج. وجدته بجانبي في الصباح الباكر وأنا أفتح المخزن. كانت مفاجأة غير منتظرة، خاصّة وأن خيرو لايصل إلاّ بعد ساعتين إثر قضائه شؤون مولاه. رحّبت به وأدخلته، وفي نفسي يقين أنّه لم يأت

إلا خصّيصا لمحادثتي، فبقيت أنتظر مبادرته متشاغلا بأشياء بسيطة، لكنّه لم ينطق بحرف إلاّ بعد أن جلست مواجها له وسألت:

«إنّك لا تنتظر خيرونيمو فقد كان عندك في الليلة الماضية بالفندق، ويمكنك لقاؤه قبل أن ينام أو بعد أن يصحو».

أجاب وهو يفرك يديه كالمحتار من أين يبدأ الكلام: «صحيح كان هناك. ولكنّي جئت لمحادثتك في غيابه.

- هات ما عندك... وأرجو أن يكون خيرا.
- هو خير... كلّ الخير بإرادة الربّ.

صمت قليلا، ولما لاحظ انتظاري أضاف:

«أنت تعلم ما أصاب خيرونيمو بوفاة زوجته، ورأيت مقدار حزنه عليها.

- علمت، وتألّمت كثيرا لألمه، لكنّي نصحته بتجاوز محنته وتجديد حياته، وإلاّ قضى نحبه حزنا.
- هذا هو موضوع حديثي معك. أنت تعلم استحالة عثوره هنا على مسيحيّة صالحة للزواج، فكلّهنّ على ملك رجال آخرين للخدمة أو المتعة. أمّا المسلمة فلا تحلّ له في دينكم.
- ولهذا طلبت منه الدخول في الإسلام.
- وقال لي إنك تيسيرا عليه فكّرت في إدخاله شريكا في تجارتك.
- صحيح... إني أحبّ خيرو وأعتبره مثل أخي أو ابني، فعشرتنا طيّبة وطبائعنا متّفقة.
- حدثني عن هذا كثيرا. وما دام الأمر كذلك فلم لا نقلّب المسألة على وجهين وننظر فيها من احتمالين، لنعرف الأصلح فيهما بالنسبة إليك وبالنسبة إليه أيضا.
- وما هما الوجهان؟
- لقد رأيت ما حدث في هذا البلد بمجرد وفاة السلطان أحمد المنصور من فتن وفوضى، وشاهدت الأوبئة التي كانت موجودة منذ حياته والتي لا شكّ أنها ستزيد بعد مماته، وليس أسوأ تأثيرا من هذين الأمرين على حال

التجارة ومقتضيات العيش... وباستمرار الحال كما هو لا يمكن أن يكون لهذا البلد مستقبل جيّد. إضافة إلى ما رأيت من حال الزراعة وقلّة الماء، وأين منها عند المقارنة ما تركته وراءك في إسبانية من خصب أرض وكثرة ماء وتنوّع زراعة، مما أعجز عن وصفه لك، وأنت صاحب الخبرة والدراية في هذا المجال.

- لم يتّضح لي القصد من كلامك، فحبذا لو قرّبتني منه أكثر.
- أقصد أن مستقبل خيرونيمو يكون أفضل في بلده، وحبذا لو تستمع بدورك إلى نصحي يا سيد حمنيث، فيكون مستقبلك أفضل أيضا في بلدك الذي غامرت بالخروج منه».

فتحت فمي لأردّ على هذا الصّفيق الذي اقتحم عليّ هدوء الصباح، وعكّر مزاجي بنقاش لم أتخيّل أن يحدث يوما بيني وبين هذا الرجل. لكنّه لم يتمهّل، بل ازداد حماسة:

«فكرة الشراكة بينك وبين خيرونيمو من أفضل الأفكار وأكثرها نبلا، ولكن على أن لا تكون هنا بل هناك، حيث يتكاثر الخير والرزق هذه الأيام بانفتاح الأسواق على جزر الهند الغربية، وتهاطل السفن المثقلة بالذهب على ميناء إشبيلية. المستقبل هناك، والثراء هناك، وهناك العيش لن يكون إلاّ في ظلّ مليكنا فيليبي المعظّم وكنيستنا المقدّسة. ماذا تفعل هنا يا رامون حمنيث وبلادك العامرة تنتظرك... بها ولدت، وفيها تدفن إذا شملتك رعاية الكنيسة.

- مهلا، مهلا. عن أيّ بلد، وعن أيّة كنيسة تتحدّث أيّها القسّ؟ هل أنت تجهل كلّ ما حدث أم أنت تتجاهل؟
- أعلم كل شيء، ولكنّني أحدّثك عن صفحة بيضاء تدخل بها وطنك من جديد كما ولدتك أمّك. ارجع إلى دين بلادك وأجدادك الأوائل، ودعني أعمّدك سرّا في كنيسة الفندق.
- ماذا تقول أيّها الأخرق؟
- أنا مسافر بعد أيّام إلى إسبانية وعائد بعد شهر، فإن استمعت إلى نصحي سأستخرج لك عفوا ملكيًّا وشهادة من الكنيسة بهما تعود إلى إسبانية

عزيزا مكرّما، خاصّة إن ساعدت أخاك خيرونيمو على افتداء نفسه. ألم تقل إنّه أخي؟ ألا يفتدي الأخ أخاه؟».

تذكّرت مشهد خيرو وهو يحملق في وجهي يوم عرضت عليه اعتناق الإسلام والتزوّج ثانية، وكيف بقي واجما مبهوتا لم يستوعب كلامي. كنت في مثل موقفه واجما مندهشا، كأنّما خطف الموقف الغريب من فمي الكلام».

مضى من الليل نصفه وأنا أستمع إلى قصّة عبد الرحمان مع الراهب، دون أن أعقّب أو أبدي رأيا. فلما أنهى كلامه نظر في وجهي ليرى علائم الحيرة وسأل:

«ألا تعلّق بشيء على ما سمعت؟

- والله إنّي من عجبي لا أجد ما أقول. إلى أين سيقود الصلف والاستقواء هؤلاء الناس؟ لم يبق إلاّ أن يفتنونا في ديننا حتى بعد فرارنا بالجلد وحده.
- إنّك غير متّصل بالناس في الشوارع والأسواق لتشاهد أوتسمع بنفسك أفاعيل هؤلاء القساوسة، المبشّرين بدينهم تحت مظهر العمل الخيري أو فكّ الأسارى.
- هل انقلب الأمر في هذا البلد من أسلمة النصارى إلى تنصير المسلمين؟ اجلب معك في مناسبة قادمة معينك خيرو ومعه راهبكما الأعرج لعلّني أهديهما بمثل ما اهتدى به رمضان رحمه الله.
- سأزورك أنا وخيرو، أمّا الراهب فقد تنبّهت خيرو إلى محاولته معي، وطلبت منه أن يحول بينه وبين زيارتي ثانية. وقد علمت أنّه سافر مع فوج من المفكوكين، وأرجو الله أن لايعود. ولكن ما حكاية رمضان الذي ذكرته منذ حين؟
- ذكر لي رجل من علماء النصارى، تعرّفت عليه بعد قدومنا إلى مراكش، وكان راهبا قد أسلم وسمي رمضان، ثم مشى إلى بلاد السودان ومات بها، أنّ السلطان أحمد رحمه الله أمر بإحضاره بين يديه لما علم بكثرة علمه، وسأله: «ماذا تقولون في سيدنا عيسى عليه السلام؟». قال: «إنّه أحد ثلاثة في الألوهية، وانه مات ليخلّص العالم من الذّنب الأوّل الذي

عمله أبونا آدم». قال له السلطان: «أنا أضرب لك مثلا حتى ترى الغلط الذي أنتم عليه. فقدّر أنني أمرت أنّ من يدخل في هذا البستان الذي بدارنا السعيدة نقتله. واتّفق أن واحدا ممن علم بالمنع دخل البستان وعصاني، فلما صحّ ذلك عندي أمرت الخدّام أن يأتوني ببابي. فلما أحضروه قلت لهم: اقتلوه لأجل دخول فلان في الجنان الذي نهيت الناس عن دخوله. وهذا مثل على زعمكم أن عيسى هو ابن الله وقتل، وهل يقول عاقل بمثل هذا الاعتقاد؟». فخرس الراهب، ولم يجد ما به يجيب. هذه قصّة إسلام رمضان كما سمعتها منه».

حملة سلطان النصارى لإخراج الأندلس من بلاده

قرأت في كتب التاريخ، وأنا بمراكش، ما وقع من حروب بين الأندلس وسلاطين النصارى، وكثير منهم يدعى ألفنش، حتى أني عددتهم اثني عشر بهذا الاسم، يذكرونهم با لحساب كأن يقولوا: ألفنش الرابع أو الثامن أو العاشر وفيهم من يُدعى فليبّي ولهم ترتيب يخصّهم أيضا.

وفي عهد فليبي الثاني صدر منه أمر بتعداد جميع الأندلس صغارا وكبارا، وحتى الجنين في بطن أمه، دون أن يعلم الناس سرّ هذا العمل. كان هذا قبل خروجي من إسبانية، ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة علمت، وأنا بمراكش، أنّه تمّ تعداد ثان دون أن يكشف الغرض منه أيضا، ولكن لسان الحال أفصح عنه، وهو أنهم أرادوا معرفة ما إذا كان عدد الأندلس يزداد أم لا؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة قرّروا طردهم.

وقد كتب فليبي الثالث لنائبه بمدينة بلنسية أمرا بالشروع في إخراج الأندلس، فوصلت إلى ديوان السلطان زيدان نسخة منه بطريقة سرّية، وجاءني تكليف منه بترجمتها، وفيها:

«مَرْكِش دي كارازينا، قريبنا وخليفتنا في سلطنة بلنسية، سلام عليكم.

قد علمت صنيعنا مع المتنصّرين الجدد من الأندلس وأهل قشتالة طوال السنين الماضية، إذ حرّضناهم وأرشدناهم لتثبيتهم في إيماننا وديننا المجيد، لكن لم ينفع معهم ذلك قليلا أو كثيرا، حتى إنّنا لا نجد بينهم اليوم من هو نصراني حقيقة. وقد حدث غرر وشرّ بسبب ما تعامينا عنه ونبّهنا إليه رجال علماء وصلحاء. وإنّه قد

لزم إرضاء الله واجتنابا لغضبه إصلاح الأمر بإصدار فتوى بمعاقبة أولئك المتعنّتين في أنفسهم وأموالهم، لأنّ استمرارهم في غيّهم ختم وحكم عليهم بأنّهم منافقون معادون للمقام الإلهي والإنساني.

ومع أنّنا كُنّا قادرين على معاقبتهم ومجازاتهم على سوء فعلهم بالمثل، إلاّ أنّنا اخترنا معاملتهم بطرق الحلم واللّين وترك المؤاخذة. لهذا أمرنا باجتماع محفل العلماء والأكابر لعلّنا نجد سبيلا إلى حلّ المشكل دون إخراج الأندلس من مملكتنا، لكن المحفل أكّد على ذلك لما ثبت بالأدلّة من أنّهم بعثوا للسلطان التركي ومولاي زيدان بمراكش طالبين النجدة، خاصّة وأنّه تجمّع من مهاجريهم ببلاد المغرب وإفريقية مائة وخمسون ألف رجل. كما بعثوا لأعدائنا ببحر الشمال، فوعدوهم بالعون بواسطة السفن. فأمّا سلطان إسطنبول فقد اصطلح مع سلطان الفرس الذي كان يشغله، وأمّا سلطان مراكش فهو مشتغل بتسكين ثورات بلاده، أمّا إذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء فسنجد أنفسنا في الأمر الذي لا يخفى.

وللقيام بواجبنا في حفظ مملكتنا، ودفع ما يهدّدها اتّفق نظرنا بعد أن دعوت الله وأمرت بالدعاء له متوكّلا طامعا في تأييده ونصره لما يجب لمجده وفضله - على إخراج جميع الأندلس من سلطنتنا لأنّهم أقرب للغرر. وتطبيقا لذلك أمرنا أن يشهر هذا الأمر وينادى به في الساحات العامّة.

فأوّلا يعرف منه أنّ على جميع الأندلس في مملكتنا، رجالا ونساء بأولادهم، أن يخرجوا في ثلاثة أيام من إشهار هذا الأمر ببلاد سكناهم، وأن يمشوا ليركبوا البحر في الموضع الذي يؤمرون به، وأن يحملوا من الأثاث ما يستطيعون. وقد خصّصت سفن وأغربة لحملهم إلى بلاد المغرب، ينزلون بها من غير مضرّة لأحد في النفوس والأموال، ويعطون أثناء السفر ما يحتاجونه من الطعام والماء. ومن أراد أن يحمل لنفسه ما يقدر عليه فليفعل، ومن يتعدّى ذلك فليقتل في الحين.

وإنّ كلّ من يوجد - بعد ثلاثة أيّام من المناداة بالأمر - خارجا عن بلده يجوز لكلّ من لقيه أن ينهب ما عنده ويسلّمه لمحاكم التفتيش، وإن امتنع يجوز له قتله.

وإنّ على كلّ من يسمع النداء ملازمة بلده لايخرج إلى غيره حتى يمشي مع من يقوده إلى ركوب البحر. وإنّ كلّ من يدفن متاعا لم يستطع حمله معه، أويحرق شيئا من زرع أوشجر، أن يقتل على ذلك، وأمرنا جيرانه بتنفيذ الحكم فيه.

وحفاظا على مصالح البلاد في معاصر السكر ومزارع الرز وسواقي الرّيّ، ليعلم السكان الجدد أنّنا أمرنا بقعود ستّة أنفار من الأندلس بأولادهم غير المتزوّجين في كلّ بلد به مائة دار، على شرط كونهم من قدماء الفلاحين، وفيهم قرب وميل لديننا، ويرجى فيهم الثبات عليه.

وعلى الرماة والنصارى القدامى أن لا يمسّوا أموال المطرودين أو يقربوا نساءهم وأولادهم، ومن يفعل ذلك يحكم عليه بالتحديف ستّ سنين، ويزاد على ذلك مما يظهر لنا من أمره.

وليعلموا أن مراد السلطان لايريد سوى إخراجهم من بلاده إلى بلاد المغرب، فلا يضرهم أحد بوجه من الوجوه، وأنّه ينفق عليهم ويحملهم في سفنه. وإذا بلغوا فليرجع عشرة منهم ليعلموا غيرهم. وكبراء الأغربة والسفن مسؤولون عن ذلك.

وإنّ الصبيان والأيتام دون الأربع سنوات إذا أرادوا القعود برضى وكلائهم وأوصيائهم فليقعدوا، أمّا الأولاد من نسل النصارى فلا يخرجون ولا تخرج أمّهاتهم وإن كانت أندلسيّة. أمّا الذين من أب أندلسي وأمّ نصرانيّة فيذهب الأب وتقعد الأمّ بأولادها الذين لم يبلغوا الستّ سنوات.

وشهر هذا الأمر ونودي به في الثاني والعشرين من شهر شتنبر من عام تسع وستمائة وألف على ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام».

بعد أن خرج أهل بلنسية جاء أمر بخروج من في غيرها من بلاد الأندلس، فاكترى بعضهم السفن في وادي إشبيلية، إلاّ أنّ فليبّي بعث يقول: إنّ كلّ من اكترى سفينة ليمشي إلى بلاد المسلمين لا يأخذ معه الأولاد والبنات الأقلّ من سبع سنين، وأخرج الجند بقيّة الناس في عشرين سفينة. وقد علمت أنهم أخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف طفل، وكذلك قبضوا في طنجة وسبتة على من أفلتوا بأولادهم، فأخذوهم منهم مثل الآخرين، والله أقدر على كل ظالم غشوم.

عدت في تلك الليلة إلى بيتي مهموما مكدّر الخاطر، فترجمة ذلك الخطاب أهاجت شوقي إلى بلد غادرته مختارا ومجبرا في نفس الوقت... فهل أحسنت عملا، أم كان عليّ الانتظار إلى أن يضرب الجند مؤخّرتي بالبنادق ثم يلقوا بي في قاع سفينة عفنة؟

خطر ببالي أن أبحث في كتاب دون كيخوتي لثربنتس عن عبارة تمجّد حبّ الوطن كنت قرأتها قبل هجرتي، وانتبهت يومها إلى أنّه انتحلها من الإمام الرّقوطي المرسي صاحب ألفونش العاشر، وفيها يقول على لسان الأمير سانشو الشجاع:

«أينما نكون سوف نبكي إسبانيا لأنها الموطن الأصلي ومسقط الرأس. لا أرض بمكنها احتضان حظّنا المنكود حتى ولوكانت أرض البربر، ولا أيّ مكان من إفريقيا قد يستقرّ فيه قرارنا أو يتمّ فيه استقبالنا. مهما كان المكان فإنّنا سنرفض ونُهان. إنّنا لم نعرف طعم السعادة إلاّ حين افتقدناها، ولن نحيا إلاّ بأمل العودة إلى إسبانيا، حيث ينتظرنا كلّ شيء: اللغة والماء والهواء، وحيث نستقرّ جميعا بالأزواج والأولاد. كم هو كبير حبّنا لهذا الوطن، فهل تتّسع له الأفئدة والصدور؟... نعم كم هو لذيذ حبّ الوطن».

أغلقت الكتاب وأعدته حيث كان، وقصدت فراشي محاولا النوم، لكن دون جدوى، فقد حضرت الوساوس كلّها.

ذكر ما حدث
بعد عودتي من أوروبا

في أيّام مولاي زيدان أمر ملك إسبانية فليبـي الثالث بإخراج جميع المسلمين من بلاده كما ذكرنا سابقا، فبعضهم خرج في سفن اكتراها لهم وآخرون قطعوا البحر في سفن اكتروها من بعض الفرنج، إلاّ أنّهم نهبوهم في البحر.

وجاء إلى مراكش جماعة ضاعت أموالهم وأدباشهم في أربع سفن إفرنجية، فاستنجدوا بمولاي زيدان لعلاقته الحسنة بملك الفرنجة، واقترحوا عليه إيفاد خمسة من المتضرّرين بصحبة سفير يختاره من بين الأندلس الذين سبقوهم بالخروج. فأشار أحد أعوان السلطان بأن يقودهم القائد إبراهيم القلعي، وهو أحد أعيان الأندلس، ولكن القاضي الرّجراجي لم يوافق على الرأي، ناصحا مولاي زيدان بتكليفي أنا بالسفارة، نظرا لإجادتي لغات عديدة، ولأنّني، حسب رأيه، أحمل زادا من العلم يساعد في التفاوض مع الأجانب ومناقشتهم.

وهكذا وافق السلطان أن أقود الوفد حاملا خطابا رسميًّا بذلك، وركبنا سفينة بمدينة آسفي الواقعة على البحر المحيط، قاصدين أوروبا حيث بقينا سنتين في مقاضاة أصحاب السفن.

على نفس الميناء أرسينا بعد العودة من أوروبا، وصلناه ساعة الغروب فلم يأذن الربّان بالاقتراب من البرّ إلاّ في الصباح الموالي لوجود ضباب كثيف، لكنّه أرسل فلكا صغيرا لجلب الماء، وإعلام سلطة الميناء بحال السفينة وجنسيتها.

عاد النّوتية وقد تقدّم الليل، وخاضوا مع الربّان حال وصولهم في لغط ونقاش حيّرني دون أن أفهم معناه. لما سألت عن الأمر أخذني الربّان على حدة، وأعلمني

بوجود قوّات مناوئة للسلطان في آسفي، وأنّ السلطان زيدان نفسه قد فـرّ مـن مراكش ولجأ إلى قرى سوس:

«لا سبيل إلى دخول الميناء إلاّ بالتفاهم مع السلطات الجديدة المتحكّمة فيه. ما العمل إذا عرفوا أنّك من حاشية السلطان وطلبوا تسليمك إليهم... هل تـأمن على نفسك؟ هل لك معرفة بالثوّار أو بقائدهم؟».

بان الارتباك على القبطان و لم يعرف ماذا يقرّر، فأجبته:

«لا أعرف أحدا منهم. ومن هم أوّلا؟ إنني لم أعلم بما حـدث إلاّ عنـدما أخبرتني الآن.

- بم تشير إذن؟
- إذا قاوموا السلطان زيدان وأخرجوه من عاصمته فمن الطبيعي أن يتعقّبوا حاشيته وأعوانه. إنّ الاقتراب منهم خطر محقّق ولابُدّ لنا من مهرب».

اخترت أن يبعثنا القبطان تحت جنح الظلام في قارب يرسي بعيدا عن الميناء، ومن هناك نتدبّر أمر انتقالنا إلى مراكش بقيافة تخفي هويتنا، فوافق على الاقتـراح موصيا بشدّة الاحتراس والحذر، لما تجرّه هذه المغامرة من ضرر علينا وعليه.

وقفت على عبد الرحمان في مخزنه ونصف وجهي مخفي في طربوشة البرنس، فسألني عن مطلبـي دون أن يتعرّف عليّ فقلت بصوت خفيض:

«أن تأويني عندك بعض الوقت حتى تتضح لي الأمور».

ظلّ صامتا يحدّق في وجهي، ولما أدركت حيرته أزحت البرنس إلى الخلـف. عندها قفز من مجلسه ليعانقني مرحّبا. أشرت عليه بالصمت والهدوء رافعا كفّي إلى فمي، فأشار بكفّه أيضا أن أدخل إلى الفناء الخلفيّ بسرعة.

بقيت مختبئا عند صديقي قرابة الأربعة شهور، أستطلع أحوال بيتي وأولادي من بعيد دون إعلامهم بقدومي كيلا يكشفني الحكام الجدد، وحتى أفهـم جليّـة الموقف. وفي الأثناء قصّ عليّ عبد الرحمان تفاصيل ما جرى.

إنّها حركة تمرّد وعصيان بدأت بغليان الأرياف البعيـدة فاسـتغلّها الأدعيـاء والطامعون لافتكاك السلطة، متستّرين بفكرة الأمر بالمعروف والنـهي عـن المنكـر الجاري بها العمل عند علماء المغرب وصلحائه وهي في الأصـل فكـرة إصـلاحيّة

أخلاقيّة، لمراقبة عادات المجتمع وتقلّبات السياسة، وقد اختلفت وسائلها وصيغها، بين الشدّة واللّين، باختلاف المقصود إصلاحهم وشخصية المصلحين، فكان منها ما وجّه إلى ملوك وولاّة وشيوخ، أو جمهور معيّن في قرية أو إقليم بذاته، ومنها ما صرف إلى تكتّلات سياسيّة أوفرق مذهبيّة، ترشدهم إلى طريق سويّ زاغوا عنه، أو تحذّرهم من شبهات وأضاليل وقعوا فيها. ومن أشهر الذين رفعوا أصواقم أو سيوفهم الشيخ محمد الأنصاري وكان من أكبر دعاة السعديّين وأنصارهم، فلما قرّر المأمون أيّام حكمه بفاس تسليم مدينة العرائش إلى الإسبان انقلب ضدّه منتقدا، بل ودعا إلى عزله.

ومن الدعاة والعلماء من خلطوا حركاقم بادّعاد المهدويّة، للاستحواذ على السلطة، فلم ينجحوا، من بينهم أحمد بن أبي محلّي الذي اختلطت في ذهنه المهدويّة بالتصوّف، منذ بدأ سلوك الطريق على يدي الشيخ محمد بن مبارك الزعري في تستاوت، فكانت تعتريه حالات غريبة بين يدي الشيخ ويصيح: «أنا سلطان... أنا سلطان» دون أن يثنيه عن ذلك تعنيف الشيخ ومريديه.

قضى مدّة في جهته يدعو إلى الإصلاح، وبعد وفاة المنصور واختلاف بنيه... دفع هواه في البداية نحو زيدان، يدعو لنصرته ويرجوه القضاء على البدع والمبتدعين، بل أرسل إليه قصائد ورسائل استحثاث بهذا المعنى، فلما لم يجد منه استجابة لمطالبه الظاهرة والخفيّة قلب له ظهر المجنّ، وأخذ يشتمه ويعرّض به في جملة ولدان المنصور السالكين سبل الشيطان، وغالى في الأمر حتى لم تبق بينه وبين إعلان العصيان إلاّ خطوة واحدة، قطعها عندما أعلن الثورة في قرى بني عبّاس، انتقل بعدها إلى لكتاوة، فتزوّد بالذهب وضرب السكّة باسمه قبل أن يزحف على مراكش، ويستحوذ على قصر البديع ويطرد منه زيدان.

ضربت كفّا بكفّ وقلت لعبد الرحمان:

«لكأنّه لم يتقرّب إلى مولاي زيدان ولم يطلب وده في قصيدة يعرفها الخاصّ والعامّ، وفيها يقول:

فيا ربّ زد لزيدان مالك وقته	ومولى الضعيف والشريف وأيّد
هدى وصلاحا وانبساطا لملكه	وعزًّا وفخرًا وارتفاعا وخلّد

- ماذا ترك لزيدان من العزّ الذي تمنّاه له بعد أن شـرّده وأخرجـه مـن عاصمته هاربا؟
- حدّثني الآن عن نفسك وعن مشاريعك. أرى تجارتك ازدهرت ما شـاء الله، وأراك فتحت مصنعا للنسيج به خمسون عاملا أو أزيد...
- شغلني أمرك وأمر السلطان فلم أخبرك بما حصل من أحوالي بعد سفرك. وبالمناسبة أسأل: لماذا طال سفرك، وامتدّت غيبتك؟
- أحمد الله أنّه طال وإلاّ لوقعت بين سنابك الخيل أو لقطعـتني سـيوف الثوّار. حفظتني العناية الإلـهيّة فجئت بعد انقشاع الغبار.
- أتتذكّر أنّك تركتني عند سفرك أتحاور مع خيرو عساني أستبقيه معي بعد أن ماتت زوجته و لم يعد ثمة من ينتظره؟... لقد هداه الله في نهاية الأمر.
- ... لكي يبقى معك؟
- قرّر أن يبقى وأن يدخل الإسلام، فكافأته وقبلتـه شـريكا في معمـل النسيج.
- جازاك الله خيرا، هذا خبر سعيد.
- ثم إنّنا تزوّجنا من أختين ألهمنا الله إليهما إلهاما.
- نعمة وخير، بالبركة والسعد.
- وهما أسلمتا على يدي أيضا.
- أهما أسيرتان مثل خيرو؟
- لا... هما بنتان لجارنا اليهودي.
- ماذا تقول؟ أبوهما يهودي؟ ألم ينتحرعند سماعه الخبر؟
- إنّه في حكم المنتحر... اسمع أولا ما جرى».

حكى لي أنّ جاره صائغ يهودي مفتون بتجارة الذهب، حتى أنّه لم يكتـف باشترائه من قوافل السودان، فكلّف نفسه السفر إلى الممالك الإفريقية للبحث عنه في مناجمه وشرائه بأخفض الأثمان. لكنما غيبة الرجل طالت و لم يعـد، ومـرّت سنوات نفدت فيها مدّخرات البنتين اليتيمتين ولا عائل لهما، فحاولتا التكسّـب بنسج الزرابـي والأكلمة لحساب عبد الرحمان، والواسـطة في حمـل الصـوف

واستلام الأنسجة هو خيرو. لكن تردّده على البنتين لم يمرّ عليه بسلام، إذ تمكّن منه حبّ صغراهما إلى أن تدلّه بهواها.

استمرّ عبد الرحمان في رواية ما حدث:

«فاتحني في الأمر متردّدا متلعثما، فخفت من زواج كهذا، وارتبت أن ينجح بسبب نتائجه ومشاكله، وبعد أن فكّرت مليًّا قلت لنفسي: ولِمَ لا؟ البنتان جميلتان ومستقيمتان، والإحسان إليهما معروف يثاب عليه. فشجّعته على البوح بعواطفه للفتاة، وأن يخطبها من نفسها، بل وأن يخطب لي أختها إذا هما رضيتا بالدخول في الإسلام.

سألني: وإذا لم ترضيا؟

قلت: حاول إقناعهما. أعرف فصاحتك وإجادتك الحوار، كما أعرف أنّ البنتين ذكيّتان وتعرفان أين توجد مصلحتهما... لابُدّ أن أباهما أورثهما شيئا من هذا الإحساس. ثم إنّ هذا الأب مفقود منذ سنوات وهما بلا عائل ولا طائل.

قال: أتظنّ حديثي يقنعهما؟

أضفت: إن أعوزتك الحيلة فاذكر لهما أنّنا جميعا من الأندلس، أي من أصل واحد وبلد واحد، حتى وإن اختلفت عقائدنا. فإذا تجاوزنا هذه العقبة ماذا يبقى؟

هتف فرحا: صحيح. إن تجاوزنا هذه العقبة لاشيء يبقى.

كاد خيرو يرقص طربا. وبعد غياب يوم كامل عاد ووجهه يطفح بشرا. هكذا تزوّجنا ودفعنا بمشروعنا خطى عريضة... الزوجان في السوق، والزوجتان في المنسج، والحال على خير ما نريد».

استنجد مولاي زيدان، وهو في منفاه، برجل من فقهاء سوس يدعى أبو زكرياء الحاحي، من عائلة مشهورة بالعلم والولاية، ولها زاوية بمنطقة زداغة. كان الرجل يراسل السلطان وينصحه، فلما حدث له ما حدث طلب مساعدته، فقام إلى جانبه إلى أن انتصر على أبـي محلّي وقتله، وأعاد زيدان إلى مراكش بعد أربع سنوات مريرة.

إلاّ أنّ الحاحي فرض على زيدان شروطا عديدة، وكتب عليه معاهدة بذلك، ظلّ زمنا يذكّره بها وبالشروط، والمولى زيدان يتحمّل منه صابرا. وقد رأيته يقول له في بعض الرسائل: «إنّ الأكابر يحكمون على الورى، وعلى الأكابر يحكم العلماء». فيردّ عليه زيدان: «اعلم أنّ السلطنة لها أشراط لابُدّ منها، وسياسة يكره ظاهرها».. مذكّرا إيّاه أنّه هو صاحب المملكة، عائبا عليه جهله بسياسة الدولة. ورغم استقلال الحاحي بإمارة سوس فإنّه بقي ينافس ويصارع حليفه السابق، كالطامع في مكانه، إلاّ أنّ الموت عاجله عاما واحدا قبل وفاة السلطان زيدان.

دخلت قصر البديع، ذات صباح شتويّ، وأنا أملأ رئتيّ بروائح جنائنه، وأتشوّق إلى معرفة أحوال مولاي زيدان العائد للتوّ من منفاه. فعلت ذلك دون انتظار الإذن، كما هي العادة، طلبت فقط من كبير الحجّاب تعيين موعد لاحق للمهمّة الرسميّة، وأن يدخلني اليوم بصورة خاصّة للسلام والتهنئة بالعودة.

تم ذلك كما أردت، فابتهج مولاي زيدان من زيارتي، وهنّأني بسلامة العودة هو بدوره، وأذن لي بثلاثة أيّام أتفرّغ فيها لأهلي وشؤوني يقابلني بعدها للبحث في نتائج سفري.

في الزيارة الثانية قدّمت تقريرا عن رحلتي، ومفاوضاتي للقضاة والموظّفين في فرنسا، شارحًا له تلاعبهم في قضيّة التعويضات حتى أنّنا لم ننل سوى بعضها، إذ فعلت الرشوة فعلها أحيانا، حتى وصلت إلى صاحب الطابع الذي أطمعنا بحسن الضيافة وجودة الاستقبال ليتفصّى من وعده بالقبض على أحد الرياس الغادرين بمدينة أولونه، فبعد أن حدّد مكانه وعرف عنه كلّ شيء ذهب للقبض عليه، ثم عاد مدّعيًا أنّه لم يعثر له على أثر.

لقد نشأت في مدن الجنوب مثل آغد وأولونه وبايون وسان جان دولوز ومرسيليا عصابات وجمعيات سرّية تنهب فقراء الأندلس وضعفاءهم جهارا لعجزهم عن الشكوى والتظلّم، وتتآمرعلى أثريائهم بالحيلة واستدرار الرشاوى والضرائب المشطة غير القانونية. فمن وجد منهم مدافعا رحيما من أهل البلد فقد

نجا هو وما يملك، ومن لم يجد نصيرا عومل معاملة البهائم. وقد وصل الأمر أحيانا إلى القتل والرمي في البحر.

- وأين قضاتهم وحكّامهم، ألا يتحرّكون ويقفون في وجه أعمال كهذه؟
- يقفون يا مولاي عندما تصلهم الشكاوى ويكون وراءها من يقاضي ويتابع ويجمع الحجج، وقد حدثت محاكمات قليلة اشتهر أمرها بين الناس لبعض من نهب الأندلس وفرّ بأموالهم، لكن الأكثرية الكاثرة هم أولئك المساكين المكدّسون بالمئات في موانئ لا يعرفون قوانينها ولا لغة أهلها، المنتظرون لسفن النجاة أولئك، من لهم، ومن سيحميهم من تلاعب السماسرة والمتاجرين بآلام الناس ودموعهم؟

سألني السلطان:

«هل هكذا فعل معكم جميع أهل فرنسا؟

- أغلبهم يا مولاي. إنهم أهل كياسة في الظاهر وأهل مداورة وتعصّب في الباطن، إلاّ فيما قلّ من أهل العلم والذكاء. إني رأيت في بعضهم من الصلف والمكابرة ما جعل أحدهم يذكر أمامي، جهارا ومفاخرة، أنّه قعد في بلاط مولاي أحمد المنصور سنة كاملة يتجسّس ويرسل الأخبار إلى مليكه في فرنسا.
- إنّك لم تعلم بعد قبح ما صنعوا معي عندما اضطرّني الحال إلى الخروج من مراكش والعبور برًّا إلى بلاد سوس. لقد أغاثتني السفن الهولندية الراسية في ميناء آسفي وأخذتني أنا والحريم والأطفال، لكنّها لم تكف لنقل الأدباش، وبصفة خاصّة الأموال والكتب، فتطوّع القبطان الفرنسي دوكستيلان الراسي هناك لنقلنا في سفينته، لكن بنيّة الغدر، فعوض الالتحاق بي في سوس هرب بالحمولة إلى فرنسا.
- هذا غدر واضح يا مولاي.
- غدر مشفوع بالنذالة، فهذا القبطان مرسل من الملك لويس الثالث عشر في مهمّة رسميّة تتعلّق بإطلاق سراح أسرى إفرنج... وقد حقّقنا رغبته وأطلقنا الأسرى، فانظر كيف جازانا. لكنّه لم ينج بحمولته إذ هاجمه

الإسبان وافتكّوا منه المال والكتب وهي قرابة الخمسة آلاف كتـاب. إن خسارة الكتب كارثة لم أتحمّلها إلا بالصبر الجميل والاحتساب إلى الله. ولكنّني ظللت أطالب ملك الإفرنج بمعاقبة الربّان الغـادر، وبتعـويض الخسارة.

- وأيّ تعويض يساوي قيمة الكتب التي ذهبت إلى فليبـي الغادر كمائدة أنـزلت عليه من السماء؟
- مهما كان الأمر فلن أسكت عما حدث، وسأستعين على الملك لـويس بمن أعرف من ملوك أوروبا، حتى وإن لم أقض سوى التنديد به وتشويه سمعته فهذا يكفي. إنّ السفير إسحاق بلاّش هنا هذه الأيـام، وسـأوجّه بواسطته رسالة إلى أمير هولندة، ليعزّزه في المهمّة المتوجّه بها إلى بـلاط فرنسا، بالمكاتيب وبالوسـائل الدبلوماسـيّة، ولا أظنّـه إلاّ مسـتجيبا لطلبـي.

سيفعل يا مولاي... لا شكّ عندي في ذلك، فهو رجل ذو أخـلاق عاليـة على ما رأيت فيه مشاهدة ومشافهة».

وجاءت الفرصة لأبلّغ السلطان فحوى اقتراح الأمير موريس مع ملاحظـاتي حوله. واستمعت في نفس الوقت إلى تحليله للموقف، وتعليقه الأوّلي على الفكرة، على أن يبتّ في الأمر بعد التفكير والاستشارة، ثم يكتب إلى أمير هولندة برأيه.

انتهت مهمّتي الرسميّة، لكنّني خرجت من القصر منشغل البال، تراودني أفكار عديدة وتحثّني الرغبة في استغلال الفرصة المتاحة بسفر إسحاق بلاّش، لقضاء شأن بقي يثقل ضميري ويثير همّ نفسي منذ عودتي من أوروبا، ولا أجد الآن أفضل من إسحاق لأدائه.

ذهبت من توّي إلى بيت السفير بلاّش الذي نصف أسرته بمراكش ونصـفها الثاني بلاهاي، فاقتبلني بالترحاب، إذ بيننا صداقة قديمة وتبادل خدمات. قال وهو يجلسني بجانبه:

«علمت أنّك في أوروبا ولم أتصوّر أن ألقاك قبل عودتي، خاصّة والسـلطان يستعجل رحيلي لأداء مهمّة عاجلة ما زلت أجهل تفاصيلها.

- أنا أعرف تفاصيلها، وسأحدّثك عنها إن انتبهت إليّ جيّدًا.
- كيف عرفت تفاصيل مهمّتي قبل أن أُبلّغ بها؟
- بمحض الصدفة يا سنيور بلاّش... بمحض الصدفة».

أخبرته بلقائي الصباحي مع السلطان، وبنيّته تكليفه إيصال رسالة إلى ملك فرنسا بتعزيز وتوصيّة من أمير هولندة، ثم انتقلت إلى موضوع زيارتي، وهو شأن خاصّ لكنّه مرتبط بالمهمّة الرسمية، محتاج إلى سند وغطاء منها لكي ينجح.

ذكرت له مطلبي، فاندهش واحتجّ بأنّ مهمّته رسميّة جدًّا، لا يمكنه تحويلها إلى قضاء شؤون خاصّة، وبدأ يجادل ويضع العراقيل وأنا أزيحها، وأخيرا حسمت الأمر بتصميم:

«اسمع يا إسحاق... سأعطيك ذهبا يكفيك لجميع النفقات وزيادة، وسأقضي لك ولأفراد عائلتك جميع مصالحهم المعلّقة في الديوان السلطاني، وسأبقى إلى يوم مماتي مدينا لك، دون الوفاء بحقّك».

سكت برهة يفكّر، ثم قال:

«ما تطلبه منّي مخالف للقانون ومتعارض مع صفتي كسفير. إنّه تهريب أسرى.

- إنّك صديق قبل كونك سفيرًا... ثم لاتنس أن الإفرنج هربوا بأموال السلطان وخزانة كتبه، وهربوا قبل ذلك بأموال اللاّجئين وأثاثهم، فأين ما ستفعله أنت من كلّ ما فعلوا؟
- إنّها الصداقة القديمة تدفعني إلى مساعدتك وليس المال. كما إنّ مشاعرك الإنسانية هذه لابُدّ أن تستثير كلّ ذي قلب طيّب».

بقيت في عملي بالديوان السلطاني لم يغيّرني منه وفاة مولاي زيدان وتولي مولاي عبد الملك الأمر بعده. إلاّ أنّ أحوال البلاد تغيّرت، وأخذت السلطنة في التأخّر والتفكّك سنة بعد أخرى، لذا تجرّأ عليها كلّ مدّع أومنحرف، فهذا اتخذ الموعظة الحسنة لقضاء أمور سيّئة، وآخر شهر سيف البدع ليقتطع لنفسه إمارة أو ولاية يستثمر خراجها لنفسه. وكم دعوة حقّ أريد بها باطل، ومع ذلك استقوت،

لانفساح المجال أمامها، بلا رادع ولا سيف قاطع. وأشهر من عرفت من أصحاب هذه الدعوات ابن أبـي محلّى مدّعي المهدويّة، ومثله محمـد التـامرتي ومحمـد الكواري، وإن كانا أقلّ منه سطوة وبأسا. ثم اكتملت الـدّائرة بنشـأة الفـرق المنحرفة، وإن ادّعت الإصلاح والتصوّف في الظاهر.

اشتهر من بين هؤلاء فرقة منحرفة تدعى «العكّازية» شرعت لأتباعها مـن القبائل الجبليّة ما يصادم قواعد الإسلام ومبادىء الأخلاق العامّة، من ذلك إنكار نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام والتصريح ببغضه، وادّعاؤهم أنّ لهم كتابا بـديلا عن القرآن، تركهم الصلاة والصيام إلاّ عند الضرورة للتسـتر مـن المسـلمين، اعتقادهم أنّ أكل الميتة والخنـزير حلال، أمّا أضحية العيد فهي حرام، وقـولهم: «إنّ الميتة ذبيحة الله وهي خير من ذبيحة الآدمي»، واعتقادهم بأن الزنى حـلال وأنّ نساءهم شركة بينهم، ويقولون: «نحن نأكل من حبّة، ونشرب من جعبـة، ونرقد في جبة». ويعتقدون أنّ دماء المسلمين وأموالهم حلال، وبذلك أصبحوا في فترة الاضطراب الطويلة التي أعقبت وفاة المنصور، قوّة فوضويّة خطـيرة تقطـع السبل وتسفك الدماء وتنتهك الحرمات.

أمّا العلماء والفقهاء فقد انشغلوا بمناقشات جانبيّة، عوض الاهتمام بإصلاح الأحوال ومقاومة احتلال النصارى للثغور. من ذلك اهتمامهم بظاهرة التـدخين هل هو حلال أم حرام. ذلك لأنّ الظاهرة انتشرت وعمّت بين مختلف الطبقـات، غير أنّ الحظ الأوفركان للرعاع وسفلة الناس يتعاطونه في مجالس اللهو والقيـان، فزاد ذلك من تنفير أهل الورع، وغدوا يرون فيه بدعة تجب محاربتها.

دخلت عادة تدخين التبغ إلى إفريقيا السوداء عن طريق الأوروبّين، فوصـلت إلى تمبكتو أوّلا، ومن هناك حملها السودانيّون الذين رافقوا الفيلة إلى مـراكش، ثم دخلوا بها فاس عام 1599، أي عام وصولي إلى المغرب.

أصبحت للتبغ أسواق رائجة في بضع سنوات، تحمله إليهـا القوافـل مـن السودان، كما تجلبه السفن الإنكليزية والهولندية. لذا ضجّ المصلحون بالشـكوى على أيّام المنصور، فاستفتى العلماء فأفتوه بتحريم التبغ ووجوب إتلافه، حينئذ أمر المنصور بانتزاعه من باعته وأحرقه على رؤوس الملإ.

لكن الفتن الناشبة بعد وفاة المنصور جدّدت رواج التبغ بأكثر مما كان، حتى أدمن عليه الشيوخ أنفسهم، وتناحروا في النقاش حول تحليله أو تحريمه. وممن حلّلوه وأكثروا من استهلاكه أحمد بن أبي محلّي، حتى أنّه حمله إلى مصر في رحلته الحجازية الثانية، فدخل التبغ بذلك، على ما يقال، إلى بلاد النيل لأوّل مرّة، ومنها انتشر في الشام والجزيرة العربية.

قامت أيضا، عند ضعف الدولة السعديّة، دعوات كثيرة لمقاومة اليهود وهدم معابدهم، واختصّت مدينة فاس بظاهرة التعصّب ضدّهم، حتى وان دخلوا الإسلام، فكانوا يسمونهم «المهاجرين» على سبيل اللّمز والتعيير. فحتى العلماء الذين عرف أصلهم اليهودي، ولو تعدّد أجدادهم المسلمون، لا يولّون المناصب الشرعية السامية كالقضاء والفتيا والإمامة والخطابة، مهما علا كعبهم واشتهر صلاحهم، ومن أمثلة ذلك الأئمة الثلاثة: رضوان الجنوي وأحمد المنجور ومحمد ميّارة.

وآخر أحداث تلك الفترة المضطربة تفاقم أمر ألواح سوس التي اتخذها كلّ قبيلة دستورا تحفظ به مالها وكيانها، وقانونا تحتكم إليه احتماء من قطع الطرق والنهب المتفشّي في الأرياف والجبال. لم يستشر الفقهاء دائما عند تحرير هذه الألواح فامتلأت بآراء العوام، وابتعدت عن روح الشريعة، مما أكثر الجدل والانتقاد حولها وشغل الناس.

ضاقت النفس بما يجري، ولم أعد أحتمل ما يعتمل في البلاد من فتن وتخريب وتقاتل أبناء الوطن الواحد. إني دخلت المغرب وهو في أوج العزّ والعمران أيام المنصور الذهبي طيّب الله ثراه، كما عشت في كنف ابنه زيدان الرجل العالم والشاعر المرهف الحس... أمّا اليوم وقد فارق الوجود بدوره وتناهب البدو أطراف السلطنة، وقام أهل الزوايا والبدع ليجدّدوا عهد أمراء الطوائف بالأندلس، فإنّ طاقتي على الاحتمال قد نفدت، وآمالي في الهناء والاستقرار تبخّرت.

شكوت ضيقي إلى عبد الرحمان:

«... وها أنت ترى كيف انقلب حال هذا البلد الذي اخترنا العيش فيه، كيف بدأ يتمزّق كجلد الفريسة، وكيف أصيب أهله بجنون التصوّف، وهوس الثورة على كل شيء.

- إنّه قدر علينا أن نعيش في عصر الكوارث. هل تطلب منى أن نهرب ثانية؟
- تراودني فكرة الذهاب إلى الحج.
- فكرة طيّبة، وستريحك وتبدّل حالك.
- ولكنني بعد الحجّ لن أعود.
- ماذا تقول يا رجل؟
- سوف أستوطن تونس، فهي الآن على ما فحصت من الأحوال أفضل مكان لشعبنا... لم يعد لي مقام هنا».

استوحش عبد الرحمان الفكرة، وصعب عليه افتراقنا بعد طول عشرة وطيب صحبة، ولكنّه وجد لي عذرا بعد أن فكّر مليًّا، ضامًّا في صمت كفّيه أمام وجهه:

«أنت موظّف في الديوان السلطاني ومصيرك معلّق به، وقد عشت حادثة إبعاد السلطان مرّة فلا طاقة لك على احتمال حادثة ثانية. لذا أعذرك... الظّرف متقلّب وسيتقلّب أكثر إذا قويت شوكة أصحاب الزوايا والطرق الصوفيّة، ممن أعمى بصيرتهم التعصّب والجهل، فخلطوا بين أمور الدنيا والدين.

- هذا هو رأيي في حالي وما سيكون عليه مآلي. لكنّني أرجوك إبقاء الأمر سرًّا بيني وبينك فلا تظهره لأحد.
- أعدك بالكتمان، وأرجو أنّك بنيت عزمك بعد عميق تفكير.
- لا أخفيك أنني سمعت وأنا في فرنسا أخبارا كثيرة عن إنجازات ولاّة السلطان العثماني وسياستهم الجيّدة في إدارة تونس، إذ عمروها وأعادوا إليها الحياة، وخاصّة منهم يوسف داي صاحب المآثر العظيمة، وسابقه في الولاية عثمان داي الذي اقتبل الأندلس المهاجرين، فأقطعهم الأراضي حتى صارت لهم مدن عظيمة ومزارع وبساتين، ورأوا من العزّ ما لم يروه في أوطانهم.

رتّب عبد الرحمان أمره لمرافقتي في قافلة صاعدة إلى مدينة سلا في الشمال، ومنها يكون الإبحار إلى تونس في سفينة لأحد إخواننا الأندلس، وساعدني قبل ذلك على بيع ما زاد عن حاجتي من العقار والأثاث بسرّية مطلقة حتى لا تنكشف

نيتي في السفر النهائي. ورغم محاولاتي لإثنائه عن تجشم متاعب الانتقال، فإنه توسّل إلى إقناعي بأنّه سيغتنم الفرصة لتسويق منسوجاته من أغطية وسجاد، قائلا:

«نشاط التجارة يتناقص في آسفي وأكادير بفعل الفتن وهياج القبائل، وبعكس ذلك ازدهرت المبادلات في موانئ سلا وأبي رقراق شمالا، لانتقال المراكب بين العدوتين ناقلة البضائع المختلفة. لقد حدثني أحد التجّار أنّ ثلاثين سفينة تجارية أجنبيّة دخلت ميناء بو رقراق في شهر ونصف، ولك أن تتصوّر ما جلبته وما ارتحلت به من بضائع.

- لكنّني أعلم أنّ المنطقة غير آمنة بفعل الأعمال الجهادية في البحر.
- ومع ذلك... وربما بفضل ذلك ازدهرت المعاملات.
- كيف يكون ازدهار التجارة بفضل ذلك؟
- إنّ الحروب أكبر عون على تبادل السلع... أفلا يحتاج المجاهدون إلى المؤن والسلاح لمواصلة الغزو؟
- بلى يحتاجون كثيرا.
- فيوفّرها لهم التجّار. وقد علمت أنّ اليهودي هارون كبريدو أغرق سلا بالبنادق والبارود والكبريت الهولندي، كما أغرقها الإنكليزي جون هاريسون بالمدافع والقذائف.
- ومن أين تأتي أثمان هذه السلع، وهي مرتفعة؟
- من غنائم البحر... وهي عديدة لاتحصى.
- سمعت عنها وعن نعمها.
- هم يبيعونها لدول الجنوب الإيطالي مثل بيزا وليفورنة، ويكسبون منها الربح الوفير، وبه يشترون المؤونة والسلاح.

لم أكن متابعا جيّدا لأمور التجارة مثل صديقي الذي تدفعه ظروف عمله لمعرفة ما يحدث بشأنها في أطراف البلاد. أضاف عبد الرحمان:

- «هل يخطر ببالك أنّ فليبي الرابع نفسه أباح للإسبان بصفة استثنائيّة منذ سنتين أن يتعاملوا مع الأندلس؟
- طبعا ما دام في هذا مصلحة... يبيع أمّه من أجل المال.

- المال قوام الأعمال كما تعرف أوّلا، وثانيا المصلحة صارت في جانب الأندلسيّين، إذ عظمت قوّتهم التجاريّة، وصار مدخول سنة واحدة من الجهاد البحري يعطي لديوان سلا أكثر مما يعطيه مدخول الضرائب في عهد أحمد المنصور الذهبي من مجموع السلطنة.
- المهمّ أن لا يبدّدوا ذلك المدخول في الحروب وإخماد الفتن، كما فعل أبناء المنصور بكلّ الذهب الذي جناه أبوهم في حياته.
- الفتن والحروب صارت كالملح للطعام على مائدة كلّ أمير. لاَ بُدّ أنّك تعلم بعض ما جرى بين السلطان زيدان وجماعتنا المستقرّة في دويلة بو رقراق... لا شكّ أنّ أصداء قد وصلتك من حاشية السلطان».

قرّبت فرسي من عبد الرحمان ليصير صوتي قريبا من أذنه وأجبته:

«في البداية استقام أمرهم وأصلحوا القصبة بعد خرابها وانهدام مساكنها، حتى أصبحت مدينة صغيرة، وعزّزوا صفوفهم باستدعاء الأندلس المنبثّين هنا وهناك، وحتى الذين لجأوا إلى تلمسان وجيجل، بل وسدّدوا مصاريف نقل بعضهم، وجعلوهم يستقرّون بالقرب من القصبة. وهكذا انبعثت مدينة الرباط الأندلسية داخل السور القديم. ألم يرسلوا إليك دعوة للانتقال إليهم؟

- لا... لم يخاطبني أحد في هذا الشأن.
- ولا أنا.
- الأمر بالنسبة إليك واضح ومفهوم بالنظر لقربك من السلطان واشتغالك في ديوانه، أمّا بالنسبة لي فيبقى السبب مجهولا.
- لعلّهم تحاشوك لعلمهم بصحبتنا. ومهما يكن الأمر فقد أحسنوا صنعا، لأنني ما كنت لأستجيب لطلبهم مخافة أن يغضب السلطان مني، خاصّة وقد أظهروا عدم الولاء له، ونافروا الولاّة والقوّاد الذين أرسلهم إليهم.

لاقينا في سلا كثيرا من معارفنا القدامى، ممن هاجروا بعدنا، فرحّبوا كثيرا بوجودنا، ونزلنا ضيوفا مكرّمين بينهم أيام انتظارنا تجهيز السفينة. وفي الأثناء كُنّا نكتشف أنّ شقاقا قد دبّ بين الإخوة المتكاتفين سابقا في مواجهة العدوّ الإسباني، وأصبحوا اليوم في منفاهم متناحرين على السلطة والظفر بأكثر الغنائم.

قلت لعبد الرحمان وقد خلا المكان من غيرنا:

«ماذا جرى لشعبنا حتى انحطّ إلى هذا الدّرك الأسفل؟

- هل نسيت جحيم ديوان التفتيش وما تركه من تشويهات في النفوس والأرواح؟ ثم ما هذه غير فلول وذيول من شعبنا، غابت عنها الرؤوس المفكّرة والعقول المدبّرة.
- بل اختفت منها القيم الرابطة والقواعد الضابطة، فهم، وإن سكنوا مدينة اسمها الرّباط، فهم حزمة بلا رباط.
- من رأيي أنّ أسباب الشقاق عند جماعة الهرناتشوس.
- أوافقك في انتظار التأكّد من الأمر، فالجماعة كما عرفتهم في الأندلس أشداء على أنفسهم وعلى الناس، وقلنا أيّام المقاومة حسنا يفعلون بتلك الشدّة، لكن أن يفرضوا أنفسهم سادة على جميع إخوانهم النازحين... منهم أعضاء الديوان، ومن بينهم القائد، وبأيديهم محصول الضرائب وغنائم جهاد البحر... فهذا ظلم للآخرين، واضح وبيّن للعيان.
- لم يسكت من سمّيتهم الآخرين، وهم الأكثر عددا، بل طالبوا باقتسام السلطة والمداخيل، فيرد عليهم الهرناتشوس في كلّ مرّة بطلقات المدافع، ولا أستبعد قيام حرب بين الطائفتين في الأمد القريب.
- فهم الآن طائفتان تستقوي إحداهما على الأخرى، بعد ما جمعتهم طائفة واحدة مستضعفة مطرودة مشرّدة مهانة... قتل الإنسان ما أكفره.
- لو سمعت قوّادهم يتناقشون لقلت هذا منتهى التوتّر والهياج... فلا منطق ولا تدبير.
- أبهذا تتحقّق النبوءات ويصدق الجفر؟ أبهذه السواعد سيبنى الجسر الموعود على مضيق طارق ليعود منه الأندلس إلى بلادهم؟
- ليدخلوها من أبوابها الأربعة... أليس هذا ما يقوله الجفر؟
- أنصحك أن لاتبقى هنا طويلا في انتظار ذلك اليوم. عد إلى بيتك في مراكش واقنع من الدنيا بسلامة روحك وجسدك، وسأفعل مثل هذا إن وصلت سالما إلى تونس، فالتاريخ بدأ يطوي اليوم دفترا قديما ضاعت أغلب حروفه.

- بما في ذلك حروف الجفر المنقوشة على الرصاص؟
- نعم. إن سادت أفعال العباد وتوقّفت عقولهم عن النموّ لن تنفع حروف الجفر حتى وإن نقشت في الرخام.

خرجت بنا السفينة في يوم ربيعي ريحه رخاء، فبقيت شواطئ المغرب قيد النظر فترة يومين كاملين، ثم ابتعدنا حتى لم يعد لنظري مجال غير مياه البحر المتموّجة وخط الأفق المستقيم. استندت إلى حافة السفينة ضيّق النفس بما تركه فراق عبد الرحمان فيّ من أثر، متسائلا إن كانت الأيام ستسمح بلقائه ثانية.

لقد ساعدني على قضاء جميع حاجاتي قبل السفر، حتى لا ينقصني شيء، وفي آخر المطاف دسّ في حجري كيس نقود، لم ينفع أيّ اعتذار في ردّه. وجاءني يوم الرحيل إلى مربط السفينة ومعه فرقة صوفيّة، تنشد ما بقي في محفوظاتها من أذكار ومدائح كان يعزفها أهل الأندلس قبل رحيلهم. أخرجت من جرابي كتاب الشفاء للقاضي عياض، وكنت أعددت نسخة منه مهداة بخطي وملفوفة في حرير مطرّز، وقدّمتها له هديّة:

«أرجو أن يعينك هذا الكتاب على سلامة الروح وشفاء الأشواق».

كادت تدمع عيناه لولا أنّه تشجّع وتماسك. عانقني مودّعا وهو يقول:

«لن تشفى أشواقي إليك أبدا... كما لم تشف أشواقي إلى هناك».

نظرت ناحية «هناك» حيث العدوة الأخرى، أرض الماء والزعفران، حيث قرية الحجر الأحمر وحقول جدّتي تبرّد قدميها في مياه شنّيل، وحيث كان الطفل أحمد وأخوه يلهثان وراء أتان وجحشها الصّغير في حرّ الهاجرة، فتخرج إليهما روزاليا مؤنّبة وتفلت منها أولى الكلمات العربية.

أين أنت يا روزا الغالية؟... أين أحضانك الدافئة تضمّ هذا المهاجر الهائم بين رياح العالم الأربع؟

كدت أرفع صوتي بالنداء لكثرة ما في النفس من حرقة. ولكن لمن النداء... ومن عساه سيسمع؟

نظرت... فلا وجود لغير الأفق المقفرّ قد انفتح فيه جرح صغير ليبتلع قرص الشمس الغاربة.

باب أوروبا

ما كان عند قدومنا إلى بلاد الفرنج

ذكرت سابقا ما كان من موافقة السلطان زيدان أن أقود وفد الأندلس إلى بلاد الإفرنج، وكان فيهم البحّارة الذين نهبوهم عند هجرتهم وسرقوا مالهم وأدباشهم. وقد كلّفني بمقاضاة اللّصوص واسترداد المال المنهوب أو ما يعوّض عنه ويجبر الضّرر.

وقد انتقلنا إلى ميناء آسفي على البحر المحيط لركوب سفينة قاصدة أوروبا حيث بلد الإفرنج وبعد أن أبحرنا مدّة ثلاثين يوما متّجهين ناحية القطب الشمالي تاركين بلاد المغرب، وبلاد الأندلس، عن يميننا، وصلنا مرسى «هافر دي قراس» ومعناه مرسى البركة. بتنا ليلتنا بالسفينة وكانت طويلة قضّيتها أتلو سورة الإخلاص. فلما نزلنا إلى البرّ صباح الغد شعرت أنّ قراءة الليل كانت هدوءا لنفسي وتثبيتا على التوحيد، إذ كنا نازلين ببلاد الشرك.

ثم مشينا إلى مدينة روان، وفيها لاقينا تاجرًا كنت عرفته في مراكش اسمه جاك جنكارت، ولطول مكثه هناك صار يحذق العربية. خلال لقائنا تكلّم عن الفرق بين الديانات السماوية، وجعلها مرتّبة، وفي الأعلى رتّب دينه فوق سائر الأديان:

«المسلمون يتساهلون، ويبيحون أمورا كالزنى والسرقة.

- هذا باطل.

- بل صحيح... لأني سمعت من علمائكم أنّ بعضا سأل نبيّكم:

هل المؤمن يزنى؟ قال له: يزنى. قال: هل المؤمن يسرق؟ قال: يسرق. قال أيضا: هل المؤمن يكذب؟ قال له: المؤمن لا يكذب.

– إذا كان المؤمن لا يكذب فأولى به أن لايسرق ولا يزني. وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق ما يساوي ربع دينار تقطع يده شرعا، واذا زنى المحصن يرجم إلى الموت؟».

ثم زاد في مدح دينه إلى أن قال:

«سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله وابن إنسان، وإنّه مات ليخلّص الذنب الأوّل عن سيدنا آدم عليه السلام.

– أجيبك بشعر نسبه البعض إلى القاضي عياض، وهو هذا:

عجبا للنصارى في نبيهمو	إلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنّهم بعد صلبه قتلوه
فإن كان ما يقولون حقًّا	فاسألوهم أين كان أبوه
فإن كان راضيا لأذاهم	فاشكروهم لأجل ما عذبوه
وان كان ساخطا لأذاهم	فاعبدوهم لأنهم غلبوه

فبهت التاجر جاك جنكارت وبقي صامتا لايعرف ما يقول. خضت حوارا آخر في مدينة روان مع قاضي القضاة حين زرته. كان يحسن اللسان العجمي الأندلسي، فسألني عن مسألة في ديننا اختلف فيها هو وأصحابه من أتباع البابا مع جماعة من أتباع لوثر: «إذا مات المرء هل تصل إليه حسنة من عند غيره؟

فكان جوابي: قال نبيُّنا ﷺ إذا مات المرء انقطع عمله إلاّ من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به الناس، أو ولد صالح يدعو له».

فرح القاضي وانشرح لأنّ هذا موافق لاعتقادهم، وأمّا جماعة لوثر وهم نصارى يكفرون بالبابا فيقولون أنّه لايصل للميّت بعد موته دعاء ولا صدقة ولا شيء من الدنيا، وأعرب عن سروره بلقائنا ونقاشنا، وأظهر لي المودّة، ونفعني نفعا جيّدًا في القضيّة وما استلزمته من أحكام.

ثم سافرنا إلى باريس وهي دار سلطنة الفرنج، بينها وبين روان ثلاثة أيّام. مدينة طويلة عريضة، بيوتها عالية أكثرها من أربع طبقات، وكلّها عامرة بالسكان،

وديار الأكابر من حجر منحور قد اسودّ لونه لطول الزمن. يقــول النصــارى أنّ أعظم مدن الدنيا القسطنطينيّة ثم مدينة باريس ثم مدينة لشبونة.

رفعنا قضيّتنا إلى الديوان الملكي، فأعطونا خطابات رسميّة إلى القضاة، وبخاصّة إلى قاضي شؤون الأندلس، وذلك أنّ في ديوانهم قاضيا نصرانيًّا يقضي بينهم، ويأخذ خمس المال من الأغنياء الواردين على بلاد الفرنج، ليقضي به شؤون فقرائهم.

من ترجمة الخطابات فهمت أنّه بعد التصدير يقول الملك للقضاة:

«نأمركم أن تقفوا مع حامل خطابنا الذي جاء يبحث في شؤون الأنــدلس، لأنّ السيد الكبير كتب إلينا في شأنهم».

وقد علمت أن «السيد الكبير» لايسمّون به أحدا من ملــوك الــدنيا غــير سلطان إسطنبول، وكان، عندما صحّ عنده خروج الأندلس، كتــب إلى ملــك الفرنج يوصيه بهم. وقد نفع ذلك المهاجرين نفعا عظيما، تقبّل الله ذلك منه.

التقيت في تلك المدينة برجل من علمائها كان يقرأ بالعربية ويعلّمها لــبعض النصارى، واسمه إتيان هوبرت. وقد قال لي:

«أنا أخدمك فيما تحتاجني، وأتوسّط لك عند كبراء الناس، إنّما أطلب منك تبيين أشياء غير واضحة في الكتب التي عندي.

– ائتني بها، وسأحاول ما استطعت.

ولما جاءني بالكتب رأيت من بينها القرآن الكريم، وقانون ابن سينا في الطبّ، وكتاب إقليدس في الهندسة، وكتبًا في النحو مثل الآجرومية والكافيــة، وكتابــا بالعربية فيه مناظرات بين مسلم ونصراني، فسألته:

«من أين جاءتك كلّ هذه الكتب؟

– كنت بمدينة مراكش عام 1598... أوفدني إليها الملك لأخدم الســلطان أحمد المنصور بما أعلمه من علم الفيزياء، وأتعلّم في نفس الوقــت اللغــة العربية، مع الاطلاع على ما يقع في البلد وفي ديوان السلطان».

وكنا نبتدئ، أنا وهوبرت بالكلام في العلم، ثم تقع المنازعــة بيننــا عنــدما تتطرّق إلى الأديان. وقرأت يوما في طرّة مصحفه مكتوبا بالفرنجية: «ومن هنا أخذ المسلمون إباحة اللواط». قلت له محتجًّا: «من قال لك أنّه مباح عندنا؟

- ظاهر من آية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.
- اللواط عندنا أشدّ ذنبا من الزنى، لأنّه إذا زنى محصن يرجم إلى أن يموت، وإذا كان غير محصن يجلد مائة جلدة ويغرّب عن بلده، ويسجن فيه عاما، أمّا إذا اتّبع قوم لوط فيرجم حتى الموت، محصنا كان أو غير محصن. ولكن بيّن لي كيف تفسر القرآن وحدك والمفسّرون له يحتاجون علوما شتّى، وأنت لا تعلم من اللغة العربية ولا من نحوها إلاّ القليل فضلا عن ذلك. امح من فضلك ما كتبت، فهو خطأ فادح».

لكنّه أبى أن يقبل نصحي ويمحو ما في الطُرّة.

وقد ذكر لي أنّ في كنيسة كذا كتبًا عربية فأحببت مطالعتها. ولما مشينا وجدنا قبّة كبيرة والكتب صفوفا على ألواح أمامها كراسي، وأسفل كلّ كتاب حلقتان تشدانه إلى سلسلة حديد تجوز على كلّ الكتب، لئلاّ تتلف أوتسرق.

كانت الكتب في كلّ لغة، ففتّشنا حتى وجدنا كتابا عربيًّا، وفتحناه لنقرأ ما فيه، فصادف أن كان الموضع تفسير الآية التي ذكرت أنّه كتب في طرّتها شيئا من عنده، وهي نساؤكم حرث لكم، و لم أكن أقصد البحث عنها ولكنّها هداية من الله.

ومن جملة ما كتب في تفسير الآية أبيات شعر، فأخذت القلم وكتبتها بحضور هوبرت، و لم يسعفني الحال لقراءة معنى ما بقي. تقول الأبيات:

حبّذا من وهب النساء الصالحات
هن للنّسل، وهنّ للدّين ثبات
يهب الله لمن شاء النساء الخيّرات
إنما الأرحام لنا محترثات
فعلينا الزرع بها، وعلى الله النبات

سألني هوبرت عما كتبت، فأجبته:

«شيء من تفسير الآية التي علّقت في الطرّة أنها إباحة النكاح في الدبر. وسأشرح معنى الأبيات الشعرية. ألم يقل الله تبارك وتعالى: نساؤكم حرث لكم؟

- نعم... قال.

- معنى الشعر أن الأرحام موضع الحرث وعلى الله النبات، فهل رأيت أو سمعت أن أحدا يحرث في حجر؟
- لا... لايوجد.
- فإذن، لايحرث أحد إلاّ في موضع النبات أو الزرع، والنساء هنّ حرث الرجال في موضع الإنبات، سواء كانت مقبلة بوجهها أو مدبرة بظهرها. وقد سئل الإمام مالك عن جواز النكاح في الدبر فقال: «هل يكون الحرث في غير موضع الزرع؟». أمّا اشتهار هذا الفعل القبيح عند المسلمين فلأنهم لم يعاقبوا فاعله حتى توهّم النصارى أنّه مباح عندهم. ويظهر أنّ من يجامع الذكران يعمل له ذنب من أربعة وجوه هي: تضييع حق النساء اللاّتي في عصمته، ومعصية الله الذي حرّم ذلك، وإفساد الذكر المفعول به لأنّه ينقص من ذكورته ويقلّل من همّته، وأيضا وضع منيّه في محلّ لا يرجى منه نسل. أمّا الناكح في الموضع الحلال فله حسنة على الفعل، وحسنة على تفريح نسائه، وحسنة عظيمة على قصده أن يرزقه الله من يذكره ويعبده».

وقد وعدني هوبرت بعد أن سمع قولي أن يعود إلى كتابه فيمحو ما كتبه في الطرّة من معنى الآية.

وقد رأيت، في مناظرة النصارى، أنني إذا قويت نفسي في الردّ عليهم كان يزداد احترامهم لي، فأعظم في أعينهم، ويتطوّعون لقضاء شؤوني، أمّا إذا قصّرت من خوف أو جزع فكان ينزل عليّ الذلّ وأضعف أمامهم، ففهمت أنّ الله سبحانه أراد منّي تقوية إيماني وتسديد حجّتي، فكنت أقول لهم ما لا سمعوه من مسلم قطّ، وينصرني الله عليهم بالحكمة والموعظة الحسنة، إنّه العليم الحكيم.

وقد سألت هوبرت يوما، ونحن نتدارس، أن يريَني موضعا علمت أنّ فيه حيلا لجذب الماء من تحت الأرض تُسمى عندهم «بونبه»، فقال هي في دير رهبان، وأخذني إليها.

وجدنا الباب مُغلقا وبقربه يد خشبيّة معلّقة بحبل، فجذبه صاحبي وحرّك به ناقوسا في الداخل. جاء الراهب المكلّف بالباب وتكلّم معنا من طاقة أزاح عنها لوحا صغيرا. ولما دخلنا رأينا البونبه الغريبة والرهبان يجذبون بها الماء.

كل الرهبان هنا بلحيٍّ مرسلة على غير العادة فسألت هوبرت: «هل هـؤلاء الرهبان أولاد؟

- كيف تسأل عن هذا... أما علمت أنّ الرهبان لايتزوّجون؟
- أعلم ذلك. ولكنّي رأيتهم أطالوا اللّحى فقلت ربّما يكون لهم أولاد بما أنهم خالفوا القواعد.
- خالفوا في البعض فقط... الدراويش أنواع».

وسأله الراهب عنّي، فقال له:

«مسلم من مراكش.

- آه من مراكش؟ هي شبيهة بإسطنبول. لي أخ شقيق في إسطنبول ودخل في دين التركيّين، ونفسي تحدّثني أن أمشي إلى هناك لألتقي بـه وأفهـم حقيقة ما فعل.
- هو أدرى بما فعل. لاداعي أن تذهب».

وسألت الراهب:

«هل هو أفضل عند الله وعندكم ترك الزواج؟

- الكثير يتزوّجون لكن الأفضل عدم الزواج.
- قدّر مثلا أنّ السلطان نادى رجلين وأنعم عليهما، فأحدهما قبـل نعمـة السلطان وشكره عليها شكرا دائما، والثاني لم يقبلها. ذلك أنّ الله زيّـن العالم من أجل بني آدم، فمن عمل قدر جهده ليكون له أولاد يشـكرون الله تعالى بعده على النعم فهو شاكر، ومن لم يقصدهم و لم يردهم فليس بشاكر.
- كثير منّا يتزوّج كما قلت لك.
- الزواج سبب في الأولاد لعمارة العالم وعبادة الله لأنّ الإنسان فانٍ. هـل في دينكم أنّ المرء إذا سئل يوم الحساب عن عمل صالح تركه و لم يعمله، هل ينجو بقوله: أنا ما عملته ولكن عمله غيري؟».

توقّف الراهب عن الجواب، وقام يدعونا إلى دخول البستان.

وبينما كنّا سائرين بين الأشجار رأيت شجرة لم تثمر. قلت للراهب:

«لماذا غرستم هذه الشّجرة؟

- لتثمر وتعطي فاكهة.

- واذا لم تعط فاكهة ما يصنع بها؟»

فتبسّم وعلم أنّ المثال كان عليه.

ثم جزنا بين أشجار غلاظ وطوال جدًّا من مثلها يصنع صواري السفن، وكنّا الثلاثة وحدنا فقالا لي:

«تعجّبنا منك. تحفظ الألسن، وتقرأ الكتب، وسرت في المدن وأقطار الدّنيا، ومع ذلك تكون مسلما.

- العجب كلّ العجب منكما، تقرءان الكتب والعلوم، وأنتما من أهل هذه المدينة الكبرى، ومع ذلك تقولون على الله الذي خلق كل شيء، وهو واحد قبل كلّ شيء وبعده، أنّه ثالث ثلاثة، وهذا يُنقصه حقّه، ولا يقبله العقل أبدا».

قال هوبرت:

«التثليث في الألوهية لايعرفه ولا يفهمه إلاّ من قرأ علم المنطق.

- وهل قرأته؟

- نعم قرأته.

- بيّن لي كيف هم ثلاثة وواحد؟ لأنّ أهل ديننا لايعرفون إلاّ إلاها واحدا، وفي الحساب إمّا واحد أو ثلاثة، أمّا واحد وهم ثلاثة فضدّان لايجتمعان».

قال الراهب: «جاءني في أحد الأيّام إلهام وبرهان ربّاني يدلّ على أنّ سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله حقيقة، وكان هو أيضا إلاها، وكتبت هذا، فإن أردت أتيتك به لتسمعه».

قال له هوبرت: «ائتني به».

مشى سريعا وأتى به، وقرأه هوبرت بالفرنجي وقال: «هذا شيء عجيب».

سألت الراهب عما قال في ورقته، فأجاب بما أعرف أنّه أخذه من الباب الأوّل في التوراة:

«خلق الله تبارك وتعالى الدنيا، وأمر كل شيء من مخلوقاته أن يخرج وينبت ويلد على طبعه ونوعه ومثله، ورأى أنّ في ذلك صلاح الدنيا. ماذا تقول، أفعل ذلك صلاح أم لا؟

- نعم، كلّ ما أمر الله تعالى به هو صلاح.
- حين رأى الله تبارك وتعالى أنّ من الصلاح أنّ كل شيء يخرج ويلد على طبعه ومثله أراد هو أن يكون له ولد مثله. فماذا تقول؟
- على هذا القياس كان سيدنا عيسى يحتاج أن يكون له ولد مثله، وابنه يكون له ابن آخر، فتكثر الآلهة إلى ما لانهاية... فماذا تقول؟».

بهت الراهب، وبقي بورقته الباطلة وكذّبه الظاهر. قال تعالى في كتابه: ﴿وَيُنْذِرُ الذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾.

في قدومنا إلى قاضي الأندلس

خرجنا من باريس إلى مدينة بوردو وفيها قاض خاصّ بالأندلس، لأنّها أقرب المدن إلى مكان اعتاد الأندلس الخروج منه إلى بلد الإفرنج، ويدعى سان جان دولوز، وهو أوّل ما يصادفهم على الحدود.

لاقيت ذلك القاضي وشرحت ما جئنا لأجله، إلاّ أنّنا اعتدنا على التناقش بعد إنهاء العمل في قضايا مختلفة، وبأسف لاحظت أنّه يغالي في امتداح دينه، فحاولت الحدّ من غلوائه، ومع ذلك كرّر على سمعي مرارا:

«إنّك رجل مثقّف ويليق بك أن ترجع نصرانيًّا.

- على أيّ مذهب من مذاهب النصارى؟
- ليس لنا إلاّ مذهب واحد.
- لو أحيى الله نصرانيًّا من زمن سيدنا عيسى عليه السلام، ثم أحيى نصرانيًّا من كلّ قرن من الستّة عشر قرنا التي تلته لقال كلّ واحد منهم للآخر: «أنت كافر» لما يرى عند غيره من الزيادة والنقصان في الدين. والحكم السليم يقطع بأن دين الله لا يقبل أن يزاد عليه أو ينقص منه، كما هو أمر ديننا.
- ديننا كذلك.
- بالعكس، دينكم مفتوح، وكلّ بابّا يزيد فيه وينقص كما يريد.
- هذا سيدنا عيسى عليه السلام ذكره الأنبياء الأوائل وقالوا إنّه لايكون قبر أحد من الأنبياء معروفا سوى قبره.
- المشهور والمعروف هو قبر نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم.
- كيف ذلك؟

- لأنّه مدفون في الأرض في مدينته وبينها وبين مكّة عشرة أيام، وليس هوكما تقولون في حلقة حديد معلّقة في الهواء وسط قبّة مبنيّة بحجر المغناطيس ينجذب إليها الحديد.
- من ناحية أخرى انظر هذه العافية التي تنعم بها بلادنا على خلاف بلادكم، وهذا لأنّ الأحكام تدلّ على صحّة ديننا.
- لا أحكامكم، ولاشريعتكم مأخوذة من الإنجيل، وإنّما هي مترجمة من كتب المجوس الذين كانوا برومة، مثل الكتاب الكبير المسمى بلدو، وغيره.
- صدقت، هذا حق».

وللبرهنة على ما قلته للقاضي عن الزيادة والنقصان أذكر أن الكتب المطبوعة مراقبة، ولا يمكن لواحد من أصحاب القالب أن يطبع كتابا إلاّ بأمر من أعضاء الديوان المقدّس وبإجازة منهم لصاحب التأليف. وقد قال مارتن كورتش المنجّم، وأيضا سيبريانو الإشبيلي، وقد عرفتهما في إشبيلية اسما وعينا، وأيضا الشيخ الجبّيس، ذكر كل منهم في كتابه ما زاد كلّ واحد من البابوات وما أنقص في أمور الدين.

أمّا البابّا ليون فإنّه أمر النساء بتغطية الرؤوس عند دخول الكنائس.

البابّا البرتو أوناني أوجب عقد النكاح بحضرة قسيس، فإن لم يكن كذلك فهو زنى.

البابّا إسكندر أمر أن لا يؤدّي القسّيس إلاّ صلاة واحدة في اليوم، وزاد في فرائض الصلاة، كما أمر أن يضاف الماء إلى الخمرة التي يشربها القساوسة أثناء الصلاة، وأن توضع أحواض الماء المبارك عند أبواب الكنائس.

البابّا طلش أوناني فرض الصيام، ولم يكن فرضا قبل ذلك، فجاء بابّا آخر ليقول بعدم الصوم فرضا ولا سنّة يوم الأحد أو الخميس، ثم فسخ هذا بعده. وبابّا آخر سنّ صياما غير الفرض.

وبابّا آخر فرض على القساوسة قصّ اللحية، وآخرحكم بإطالتها. وأكبرهم خطأ هو البابّا فيجلّي الرّومي الذي أمر أن تسمى الصالحة مريم بأمّ كذا، وألاّ

تُسمى بغيره، فدرج الناس على ذلك إلى يوم الناس هذا. كان ذلك بقرب نصف المائة الخامسة من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام. ولما اشتهر هذا الادّعاء الشنيع بعث الله سيدنا ومولانا محمدا بالقرآن العظيم ودين الحق ليُكذّب المفترين فيما قالوا.

وإذ كانت ولادة محمد صلى الله عليه وسلم لإحدى وعشرين سنة وستمائة على حساب سمران، فإني نظرت الحساب الذي أمكنني ووجدت أنها كانت في نحو الخمسمائة وثمانين بتقريب أو أقلّ، وذلك في القرن الذي أشهر فيه فيحلي اللّعين تسمية الصالحة مريم بأم كذا، وليس بين فعله هذا وولادة النبي صلى الله عليه وسلم إلا نحو الأربعين سنة.

أمّا تسمية سيدنا عيسى عليه السلام بابن الله، فلا يفهم منها في الإنجيل أنه ابن الله حقيقة، إنّما يفهم أنّه نبيٌّ مقبول عند الله تعالى. وقد قرأت في الإنجيل أنّ أحد الحواريّين قال لسيدنا عيسى: «أأنت ابن الله حقيقة؟» فاجابه: «أنت قلت»، و لم يقبل منه ذلك. وقد حذف هذا من الإنجيل الذي كتبت منه هذه النصوص.

وقد ذكرت سابقا، عند ترجمة الإنجيل من الرقّ، ما قاله لي القسّيس: «هذه الكلمة مختلفة عما عندنا اليوم»، وهذا دليل على وقوع الزيادة والنقص في إنجيلهم وكتب دينهم، وأنّ سيدنا عيسى دعي ابن الله كما يدعى عباد الله الصالحين.

جاء في الباب الثامن من إنجيل متى: «قال سيدنا عيسى عليه السلام للحواريّين: فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السموات».

وقال في الفصل التاسع: «أحسنوا إلى من أبغضكم وصِلُوا من يطردكم ويغتصبكم لكيما تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات». وقال أيضا: «كونوا أنتم مثل أبيكم السمائي، فهو كامل».

وقال في دعاء عندهم، كالفاتحة عندنا: «أبونا الذي في السماء».

كل هذا يظهر أنه سمى الصلحاء، بل جميع الناس أبناء الله تعالى، ويتضح أنّ سيدنا عيسى عليه السلام، كان هو ومن معه يعتقدون أنّه مخلوق نبي، وهو بنفسه يعتقد أنّ من كان صالحا كان ابن الله.

أمّا البابّا الذي أمر أن لاتسمى الصالحة مريم إلاّ أمّ كذا فقد خالف الإنجيـــل، وأقدم على ما لم يتجاسر عليه أحد قبله. وبهذا يثبت ما قلته للقاضي عن الزيـــادة والنقصان في دين النصارى حين دعاني لدينه، وما زال الباب مفتوحا لمن ســـيأتي من البابوات فيما بعد.

قال متّى في الإنجيل: «قال عيسى: انظروا ألاّ يضلكم أحـــد، لأنّ كـــثيرين يأتون باسمي يقولون أنا هو عيسى، ويضلّون ويخدعون كثيرا».

رجوعنا إلى مدينة باريس
وما اتّفق لنا فيها

لم نقض شؤوننا في بوردو، فقرّرنا العودة إلى باريس، ومعنا قاضي الأندلس. وقد زرت يوما داره قبيل غروب الشمس لطلب بعض الوثائق، فاستبقاني للعشاء معه، قلت:

«لايجوز لي بعض طعامكم.

- لانعطيك إلاّ ما يجوز في دينكم. عندنا ضيف من أكابرا لمملكة أودّ أن تلاقيه».

كُنّا في ليلة المولد النبوي الشريف من عام إحدى وعشرين وألف، وفهمت من دعوته أنّه أحبّ الكلام في الأديان إكراما للضيف، لأنّ كبراء الفرنج يفرحون بالمسائل الغريبة عنهم وعن ثقافتهم.

دخلت معه، وأعطوني كرسيًّا مثل كراسيهم المحيطة بالمائدة. كانت حماة القاضي حاضرة، وهي امرأة ثريّة ابنها قاض وأخوها قاض أيضا وكانا حاضرين، أمّا الضيف الكبير فيتصدّر المجلس. قالوا له: «زائرنا هذا رجل تركي».

هكذا يصفون كلّ مسلم. ثم ذكروا له سبب قدومي إلى بلادهم، والمرأة تأخذ الطعام وتضعه قدّامي، وكذا فعل أخوها وابنها.

ابتدأ صاحب البيت الكلام، فسألني عن صوم رمضان وأحكامه، وقارن بينه وبين صيام النصارى، فقلت له:

«أتعرفون ما السرّ في الصوم، وما المراد به؟... إنّه فرض علينا لنردّ النفس عن الشهوات، وننقص قوّتها بالصوم.

- نحن كذلك.
- بل أنتم تزيدون في قوّتكم بهذا الصيام.
- كيف ذلك؟
- قال بقراط وجالينوس وابن سينا، وجميع الأطبّاء متّفقون معهم، أنّه ينبغي لحفظ الصحّة تناول الإنسان طعاما في نصف النهار أكثر مما يتناوله في الليل، وصيامكم على مقتضى هذه القاعدة لا يزيل عن الصائم شيئا من قوّة الجسد، بل يزيد فيه قوّة، لأنّ من حفظ الصحّة تزداد القوّة».

كان القاضي يترجم كلامي لبقيّة الضيوف، لأنّه يعرف اللّسان العجمي الأندلسي، وينقل إليّ أسئلتهم. ثم قال:

«لكنّنا لانأكل اللّحم في أيّام الصيام لما له من قوّة، أمّا في سائر الأيام فنأكل لحم الدجاج، لاسيما الخصيّ منها فهو أقوى.

- نعم لحم الدجاج له قوّة ونفع، وقليل منه يكفي الإنسان، وإذا لم يكن اللحم ووجدت أطعمة كثيرة مثل ما بين أيدينا هنا، فإنّ الإنسان إذا أكل من كلّ نوع وصل إلى قوّة اللحم في الغذاء».

صادف اجتماعنا ذاك أيّام صيامهم، فتبادلوا الكلام فيما بينهم، لعلّهم يجدون ما يردّون به، لكنّهم لم يتّفقوا على شيء يقوّي حجّتهم. وانتقل مضيّفي إلى مسألة أخرى، فقال:

«ما السبب حتى منع عنكم نبيّكم شرب الخمر؟
- منعه الله تعالى، لأنّ أفضل ما تكرّم به على بني آدم هو العقل، والخمر تزيله وتغيّبه.
- الممنوع عندنا هو أن يشرب الإنسان منه حتّى يسكر.
- يظهر أنّه ممنوع عنكم في الإنجيل وما انتبهتم لذلك.
- في أيّ موضع رأيت المنع؟
- في الدعاء الذي أوّله: أبانا الذي في السماء، إلى أن تقولوا: ولا تدعنا نقع فريسة فتنة النفس. وآخرون يقولون: ولا تدخلنا في التّجريب، وهم الأكثر، لكن الأوّل هو الصحيح عندي.

- عندنا هذا.
- هل يجوز أن تذهب إلى الفتنة برجلك، وتطلب من الله أن لايدعك تقع فيها؟ لأنّك إذا زدت من الخمر قليلا عن العادة يذهب بالعقل، وإذا ذهب العقل وقعت في الفتن مع طلبك من الله أن يعصمك منها.
- نحن نتحفّظ في شربنا حتى لايذهب العقل.
- أعرف أنّكم قضاة وعلماء، ومن الأكابر، ولذا فأنتم أبعد الناس عن الكذب والباطل، ولذا هل تحلفون بدينكم أنّكم ما زدتم قطّ من شرب الخمر حتى ذهب بالعقل؟».

وتكلّموا بينهم وضحكوا جميعا، وبضحكهم اعترفوا بأنّه حدث لهم مرارا الوقوع في الفتنة. وأخذت المرأة كأسا ووضعت فيه نقطة خمر مع ماء كثير، وقالت لصهرها:

«اسأله أيّ قوّة تبقى للخمرمع هذا الماء؟
- أمّا هذا الكأس فأمره ظاهر، ولكن في بعض المرات ألا يحدث أن لاتضعي من الماء إلاّ قليلا؟».

ضحكت المرأة، وأنا أضيف:

«طالعت كتابا من كتبكم بالعجميّة فيه أنّ مدينة كبيرة، أظنّها بإيطالية، يعين فيها الناس الحاكم لسنة كاملة، واذا انصرمت يجعلون غيره في المنصب لسنة أخرى، وعندهم قاعدة تلزم من يحكم بين الناس أن لايشرب خمرا ما دام في سنته.
- هذا حقّ، ولكن هو مباح إذا لم يتعدّ الشّارب حدودا معيّنة».

قالت المرأة لصهرها:

«قل له كيف أباح لكم نبيّكم أن تنكحوا أربع نساء ومنعكم من الخمر؟».

هذا اتّضح لي اعتقادها أنّ الخمر يزيد قوّة للجماع. فقلت لها:

«الخمر يزيد لشاربه أمراضا ونعاسا. وقد قرأت في الإنجيل إنّ النبي زكرياء عليه السلام جاءه ملك من عند الله وقال له: قد قبل الله دعاءك، وامرأتك أليصابات تلد ابنا لك يدعى يوحنا، تسعد كثيرا بمولده، ويكون عظيما عند الربّ، لايشرب خمرا ولا مسكرا. أليس هذا مذكورا عندكم في الإنجيل؟

- نعم... موجود.
- هذا الذي وصفه الملك من عند الله تعالى أنّه لا يشرب خمرا ولا مسكرا، أهو كمال في حقّ الولد أم نقصان؟
- إنما هو كمال فيه.
- كذلك هو كمال في ديننا أن لا نشرب خمرا ولا مسكرا».

تحاوروا فيما بينهم ثم قالوا لي:

«نحن رأينا رجالا من أهل دينكم، وتكلّمنا معهم، ولم نر قط من قال لنا مثل هذا الكلام.

- إنّني ترجمان سلطان مراكش، ومن كان في تلك الدرجة عليه دراسة العلوم والأديان ليعرف ما يقول وما يترجم بحضرة السلطان».

قالت المرأة:

«كيف أباح لكم نبيّكم نكاح أربع نساء والله تبارك وتعالى لم يعط الحقّ لأبينا آدم عليه السلام إلاّ في امرأة واحدة؟».

وعاضدها القضاة الحاضرون في طرح المسألة، وتقوّوا عليّ بهذه الحجّة. قلت لهم:

«أمّنا حواء ولدت أكثر من مرّة ذكورا وإناثا، أمّا نساء زماننا فتجد فيهنّ المريضة والعاقر، وتعتريهنّ أعراض مما لم تعرفه أمّنا حواء.

- سيدنا عيسى عليه السلام أمر أن لا يتزوّج الرجل إلاّ امرأة واحدة، فكيف تتزوّجون أربعا؟
- الأنبياء الأوائل عليهم السلام مثل سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب وغيرهم، في أيّ مقام هم عندهم؟
- في مقام محمود ومرضيّين عند الله تعالى.
- كانت لهم نساء كثيرات وجوار، كما هو عندنا، وكان لسيدنا سليمان عليه السلام سبعمائة امرأة بالنكاح، وثلاثمائة جارية، كما هو مذكور في التوراة.
- نعم أبيح ذلك في القديم ليكثر النسل، أمّا الآن فالدنيا عامرة.

- قرأت في التوراة وفي كتب التاريخ أنّ بعض سلاطين الزمان الأول كانوا يحرّكون جيوشا بثمانمائة ألف رجل، والآن ليس في الدنيا سلطان يجمع للحرب ذلك العدد، وهذا برهان أنّ الدنيا كانت في القدم عامرة أيضا».

ثم سأل القاضي:

«ولحم الخنزير... لماذا هو ممنوع عندكم؟

- لأنّه نجس، لايأكل إلاّ النجاسات، وحتى في الإنجيل هو ممنوع.
- ليس بممنوع، وأين المنع في الإنجيل؟
- قرأت فيه أنّ مجنونَيْن كانا يسكنان المقابر، وفي حال من القذارة وسوء الهيئة حتّى أن أحدا لم يقدر أن يجوز من تلك الطريق، فصاحا قائلين: مالنا ولك يا يسوع ابن الله، أجئت هاهنا لتعذّبنا؟ أخرجنا من هنا واجعلنا في قطيع خنازير فذلك أولى. فقال لهم: اذهبوا. وكان هناك قطيع خنازير ترعى بعيدا عنهم يضمّ نحو الألفي دابّة، فمضوا إليه ودخلوا في الخنازير، واذا بالقطيع كلّه قد وثب على جرف وتواقع في البحر، ومات جميعه في الماء وهرب الرّعاة. فهل يجوز للأنبياء عليهم السلام أن يخسّروا الناس أموالهم؟
- لا... لايجوز.
- فكيف دفع سيدنا عيسى عليه السلام الألفي خنزير إلى التلف وهي تساوي دراهم كثيرة وسيخسر أربابها قيمتها، لو لم تكن الخنازير عنده حراما؟ إنّها لوكانت مواشي مباحة لما أذن سيدنا عيسى عليه السلام للمجنون بالدّخول فيها لإفسادها وإهلاكها».

بقي القضاة يتحاورون ويتدبّرون الجواب، ثم قالوا: «لم تبلغ الخنازير هذا الحدّ الذي ذكرته.

- هذا ما قرأته. ولكم أن تتثبّتوا».

فأحضر الإنجيل فوجدوا ما قلته صحيحا، وقد ذكرت المسألة في موضعين: في الفصل الخامس عشر لمرقش، وهو الذي قال: كانوا نحو ألفين. ثم إنّهم تحاوروا،

ولم يجدوا لكلامي ردًّا، وكان قد مضى من الليل نحو نصفه، فانصرفت وبعثوا معي خدّامهم، وهم فرحرن بالنّقاش الذي دار بيننا، شاكرون إفادتي، حتى وإن كانت ضدّ ما يعتقدون.

وقد زرتهم يوما آخر لأخذ الوثائق من القاضي، فأعطاني ما أردت، وما أخذ منّي درهما، ثم أبصرتني المرأة التي حضرت في السهرة، وراعت أن لا يراها أحد، وأعطتني دراهم ذهبا غير قليلة.

تحصّلت في باريس على ما جئت من أجله، وهو استصدار خطاب بطابع الملك وختمه، يأمر حكام كافّة الدواوين ببلاد الفرنج أن يعيدوا إليّ ما نهب من الأندلس. وذكر قائد طابع السلطان أنّ في بلده بأولونه واحدا وعشرين ربانا، كلّ واحد بسفينته نهب الأندلس الذين اكتروها، وكان فيهم واحد ممن نهبوا إحدى السفن الموكل إليّ أمرها. واتّفقنا أن نمشي معًا إلى أولونه للبحث عن الرجل.

في قدومنا إلى أولونه

أظهر لنا قائد الطابع كثيرا من النّصح، وأنــزلنا داره في أولونه، وهي واقعة خارج العمران قرب نهر، بناؤها بالحجر المنحور، تحرسه بعض المــدافع، وحولهــا أراض واسعة للزرع، وبستان وغابات.

أقبلت علينا زوجة الرجل وخدّامها من البنات والرجال، وضيفة من الأقارب كانت عندهم، علمت فيما بعد أنّها فتاة ذات مال عظيم ورثته عــن والــديها. عمرها أربع وعشرون سنة، ولها من الحسن ما جعل أكابر البلاد يطلبونها للزواج، لكنّها لم ترض بأحد منهم.

وقد استأنست البنت بوجودي، فاعتادت مجالستي ومحــادثتي في مواضــيع مختلفة... كأن تسألني عن هيئة النساء عندنا وزينتهنّ ولباسهنّ، فأذكر لها ذلــك بشيء من التفصيل، وقد أنشدها شعرا بالعجمية أو العربية مما تغزّل به الرجال في حسن النساء وملاحتهنّ، فتعجبها المعاني، وتطرب بصفة خاصّــة إذا ورد علــى لساني وصف الشعر الأسود وكحل العين وسواد الحواجب والجفون. ذلك أنها - رغم بياض بشرتها المشرب بحمرة - فاحمة الشعر والحواجب والأهــداب. وقــد تنهّدت مرة بعد سماعها شعري، وقالت:

«الرجال عندنا يصفون سوداء الشعر بأنّها سمراء. يقولون ذلك استنقاصــا، ولولا بعض الأدب والحياء لقالوا: سوداء.

- لابُدّ أنّهم مصابون بعمى الألوان. هل تعرفين هذه العلّة البصرية؟

أومأت برأسها أنّ نعم، وضحكت. أضفت إلى كلامي:

- شعراؤنا وصفوا الحواجب بأقواس النبال، والأهداب بالسهام التي تصيب العشّاق فتجعل منهم موتى أو أسرى هل رأيت أفتك من هذا الســلاح؟

أنت مثلا لو واجهت جيشا بهذين العينين لطلب الأمان وتوّجك أميرة عليه».

وعدت أقرأ الشعر من لوبّي دي بيقا، وابن زيدون، كالغائب عن المكان الذي أنا فيه. فأراها كأنّما تغيب هي أيضا. وحين أنهي القراءة تتأمّلني بنظر شارد، وقد تورّدت وجنتاها، وتلاحقت أنفاسها. أسألها: «هل أعجبك الشعر؟. كأنّه لم يعجبك، أو... هل أنت بخير؟

– لست بخير. إحساسي مرتبك. أنا مريضة بك أيّها التركي».

أصابني دوار وارتبك إحساسي أنا أيضا. أهذا أنا الذي كنت أذكر لأصحابي بعض ما وقع للرجال الصّلحاء، من فتنة النساء، وغواية النفس والشيطان؟

أهذا أنا الذي طالما ادّعيت أمام أصحابي أنني أغضّهم بصرا وأكثرهم صبرا وتعفّفا؟

نعم، هذا أنا بذاتي وصفاتي، ولكن... عندما تأتيني الفتاة في زينتها أنكر نفسي وتبتعد عنّي يقظتي. أتجلّد وأظهر الجدّ والصرامة ثم تنفلت عواطفي منّي وأسلّم لها القياد. لقد ابتليت بمحبّتها بليّة عظيمة، فكيف الخلاص؟

اقترحت تعليمي اللغة الإفرنجية، فصرت تلميذا طيّعا بين يديها، وسمحت لها بتلقيني ما تشاء، ساعة تشاء. لما سألتها عن مقابل دروسها رمقتني بنفس العينين المندهشتين وقالت:

«أن تلقّني بدورك ما تريد – قالت هذا وأمسكت يدي ضاحكة لنبدأ الدرس الأوّل.

– قبل أن نبدأ، أريد إطراء معلّمتي ببعض الشعر كي لا تخفي عنّي من العلم شيئا.

– على أن تفهمني جميع معانيه.

– أظنّك معلّمة بارعة، وتفهمين بلا مساعد.

– أنا معلّمة حروف ومفردات، أمّا أنت فعندك مفاتيح المعاني.

– لنبدأ درسنا بداية شعريّة. اسمعي ما توحي به هذه الخصلة المهلّلة التي أفلتت من شعرك، وافهمي مقام شعرك الأسود عند شعرائنا. إنّ ذلك

الجزء النازل على خدك لم يأخذ مكانه وحده، وإنما امتدّت يد الحسن لترسمه هناك بمداد له من المسك فوحه ولونه، فانكتب حرف لام أسود على صفحة خدّك الأبيض الصّقيل... هكذا قال الشاعر».

مدّت أصابعها إلى الخصلة بحركة عفويّة لترجعها إلى فوق، فأمسكت بالأصابع راجيا:

«لا. اتركيها مكانها، واسمعي.

خطّت يد الحسن على خدّه	لامًا من المسك شديد السواد
حتى إذا جاء إلى نصفه	وهمّ أن يزداد جفّ المداد

قضيت ساعات أشرح المعاني وأتوسّع فيها عن قصد مضيفا إليها حرارة مشاعري، وأحيانا أمسك يد الفتاة لترسم حرف اللام الذي لم يكتمل لجفاف المداد في يد الحسن. فتفتكّ منّي الريشة لتعلّمني رسم حرف اللام في لغتها، وتضحك جَذَلاً عندما تكتشف أنّ الحرفين متشابهان. وتقول:

- انظر... كم هما متشابهان ومتّفقان، وكيف يواجه أحدهما الآخر، كأنّما يريد احتضانه.

يغمرني إحساس بالسعادة والارتواء وأشعر كأن لا وجود لشيء حولنا... كأنّنا وحدنا ولا شيء سوانا.

وكان أصحابي قد نالهم بسببي الكثير من عناية الفتاة واهتمامها، ولاحظوا ما أصابني من حبّها رغم محاولاتي لإخفاء ضعفي وانجذابي إليها. إلى أن جاءني أحدهم يوما وصارحني:

«يا سيدي أصابني الأسف بسبب تصرّفك مع البنت.

- اذكر لي ما رأيت منّي لعلك تنفعني.

- هذه البنت قد اتضح حالها، وهي تعمل الخير الكثير معنا بسبب محبّتها لك، وتظهر ذلك ولا تخفيه، وأنت تعرف عادة المجاملات في هذه البلاد، ومنها أن الرجل يمدّ يده للبنت ويلاعبها إذا رأى منها ميلا ومحبّة، وليس

هذا بعيب عند أحد، وقد رأيناها تقف أمامك مرارا أو قريبا منك تنتظر أن تلاعبها، وأنت لا تفرحها ولا تجبر خاطرها.

ها أنت أقوى من الشيطان يا صاحبي. - وسألته - هل هي زوجتي حتى ألاعبها؟ إنني خائف من نفسي، فالحب ملك ذاتي كلّها، و لم أعد أعرف أين يمكنني التوقّف.

- لا أقول لك إلاّ أن تلاعبها فقط.
- قال صاحب البردة: إنّ الطعام يقوّي شهوة النّهم.
- ما معنى هذا؟
- لا تحسب أنّك إذا أعطيت للنفس قليلا مما تشتهي من الحرام إنّها تقنع بذلك، بل تزداد شهوتها وتتقوّى عليك وتغلبك حتى تفعل من الحرام أكثر مما قصدت».

لم ينفع مع صاحبي شيء مما قلته، لأنّه جاء من ورائي ذات يوم، والبنت واقفة تكلّمني، فدفعني نحوها كمن يمزح، حتى اضطررت للإمساك بأحد كتفيها خوف السقوط، وقد خاصمته فيما بعد ووصفت فعله بالحمق والسخافة.

ورأيتها يوما وقد لبست أجمل ثيابها واقفة على حافة الخندق المحيط بالبستان، جئتها بعد أن نادتني وكنت أقرأ بين الأشجار، فوقفت على الضفّة المقابلة، وسألتها عن رغبتها. قالت:

«هل تنزل من مكانك وأنزل أنا من هنا لنرى من يصل منّا الأوّل إلى أسفل الخندق؟...».

كان المكان الذي أشارت إليه دغلا عامرا بالأشجار البرّية لا يظهر قعره إلاّ في بعض المواضع. قلت لها:

«انزلي وحدك وسأبقى أراقبك من هنا.

- واذا سقطت في حفرة، أو حدث لي مكروه، فمن ينقذني؟
- أنا ولا أحد غيري».

ونزلت أجري من أحد المسارب، وفعلت مثلي من الجهة المقابلة، إلى أن التقينا في آخر الوادي نلهث ونتماسك بالأيدي.

سألتني: «هل لك زوجة في بلادك؟

- نعم لي زوجة وأولاد.
- وتتزوّجون أكثرمن امرأة. أليس كذلك؟
- نعم هذا جائزعندنا.
- إذن ما المانع؟
- المانع في ماذا؟
- أن تأخذني زوجة ثانية.

انفتح فمي دهشة، فقد قصدت حين ذكرت أنّي متزوج ولي أولاد إنقاص محبّتها، لكن شيئا من هذا لم يحدث، بل بدا لي أنّها استعدّت للتضحية بدينها وبلدها، وفهمت من حالها ما لايخفى حين أحاطت عنقي بذراعيها، وأقبلت عليّ إقبال المشتاق.

سمعنا حديث أصحابي يقترب من ناحيتنا فانتبهنا إلى وجوب التوقّف عن اللعبة الخطرة التي انسقنا إليها و لم نشعر. وأستغفر الله مما صدر منّي بالقول أو الفعل، أو حتى بالنظر، إن ربّي لغفور رحيم.

ثم جاءت بنت أحد الأكابر من مدينة فونتاني لزيارة صنم بقرب المنزل الذي كنّا فيه، وبعد الزيارة جاءت لعيادة امرأة القائد وقريبتها. وبعد الغداء دعونني إليهنّ، وجلست إلى شمال زوجة القائد والبنات قبالتي. كانت الضيفة الجديدة جميلة أيضا، ينبيء لباسها وخادمتاها أنها من الأكابر.

قبل حضوري أعلموها بنسبتي، فثار فضولها وقرّرت أن تتحدّاني، لذا أظهرت الغضب وهي تسألني:

«أنت تركي؟

- مسلم أنتسب إلى الإسلام وهو دين، والتركيّ هو من ينتسب إلى تركيا وهي بلد، والمعنى واضح.
- كيف بكم لم تعرفوا الله؟
- المسلمون يعرفون الله أكثر منكم.

- أكثرمنا؟

- نعم.

- بم تثبت ذلك؟».

رأيتها متأبّطة كتابا، كما هي عادة بنات التجّار وأكابر الفرنج، تحمل كلّ واحدة كتابا فيه خمسة أدعية أو سور، مفروض على كلّ بالغ حفظها. قلت لها: «البرهان عما قلت في كتابك».

فأخذت الكتاب ووضعته بين يدي على المائدة، وقالت: «هذا هو الكتاب.

- انظري الوصايا العشر الربّانية.

- ها هي - قالت بعد تفتيش.

- اقرئي الأمر الأوّل من العشرة.

- الأمر الأوّل من العشرة هو - وبدأت تقرأ: قال الله تعالى: لاتعمل صورا ولا تعبدها، اعبد الله وحده.

المسلمون - قلت لها بعد أن قرأت - لا يعملون صورا ولا يعبدونها، ويتحفّظون من ذلك حتى أن النساء الطرّازات والرّاقصات لاتصوّرن ما له روح، وكذا يفعل الرسّامون حين يزوّقون الجوامع وديار الملوك.

- ليس عبادتنا للأصنام لذاتها، إنّما ذلك للمشبّه به.

- لي كلام أقوله لك في الشبيه والمشبّه، ولكن دعينا منه إلى مسألة أخرى.

- ما هي؟.

- الأمر الربّاني بالنصّ قال: لاتعملوا صورا ولا تعبدوها. أليس كذلك؟

- نعم.

- أتعملون أصناما أم لا؟».

نظرت نحو صاحباتها، وقالت لهنّ بلسانهنّ:

«غلبني هذا الرجل، فليس لي جواب على سؤاله».

قلت لها: «المعذرة يا سيّدتي، ليس قصدي تحقيق الغلبة عليك، وإنّما أردت إعطاءك البرهان القاطع من نصوص كتبكم. انظري إن شئت في التوراة، في الكتاب الثاني المسمّى إكسوديس في الباب العشرين، وستجدين فيه ما أوصى

الله نبيّه موسى أن يبلغه لبني إسرائيل: أنا إلاهكم أخرجتكم من مصر، من ديار الأسر.

الأول: لاتتخذوا آلهة غيري ولا تعملوا صورا من صور السماء العليّة ولا من صور الأرض ولا من تحت الأرض. لا تسجدوا لها ولا تعبدوها، لأني إلاهكم غيور.

الثاني: ولا تحلف حانثا،

الثالث: وعظّموا المواسم،

الرابع: وأطع والديك ليطول عمرك،

الخامس: لاتقتل،

السادس: لا تزنِ،

السابع: لا تسرق،

الثامن: لا تكذب ولا تشهد بالزّور ولا تفتري،

التاسع: لا تتمنّ دار صاحبك ولا زوجته ولا ماله.

هذه الأوامر أخذها النصارى من التوراة وزادوا العاشر وهو:

أن تحبّ الله فوق كلّ شيء، وتحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك.

هذه هي الوصايا العشر، أو الأوامر الربّانية المتّفق عليها في الملل السماوية الثلاث، وهي موجودة في القرآن متفرّقة.

أنهيت كلامي وبقيت صامتا أنظر إلى مخاطبتي. حوّلت انتباهها عنّي إلى من في المجلس، كأنّما تطلب رأيهنّ، ثم ابتسمت كأنّما تراضيني، أوكأنّما زال غشاء عن قلبها وذهب عنها الغيظ والغضب، فأقبلت علي بحسن الكلام. قالت:

- هل النّساء عندهم محجوبات؟

- نعم.

- وكيف يكون العشق عند البنات، وكيف يتزوّجن؟

- لا يرى البنت إلاّ من يخطبها».

وسبب سؤالها عن العشق أنّ العادة ببلاد الفرنج وهولندة أنّ طالب الزواج من بنت يباح له أن يزورها وينفرد بها لتحمل الصحبة بينهما، فإذا ظهر له أن

يخطبها حينئذ يقع الكلام عن النكاح، وإذا غيّر رأيه فلا شيء يلزمه فيما فات من مخالطتها. وقد أوضحت لسائلتي أنّه من أسوإ العادات أن يكون للبنت غير واحـــد يزورها على الوجه المذكور.

وعلى قدر ما كانت إقامتنا بأولونه محاطة بالسعادة والنعيم، فإنّها انتهت على غير ما تمنّينا، إذ لم نحصل على التعويض الذي طلبناه من ريّاس السفن، وأظـــنّهم خدعوا قائد الطابع فأخفوا ما نهبوه و لم يظهروا له شيئا، أو أنهم أغروه بالرشـــوة ليدّعي عدم العثور على السارقين أو على المال المسروق. ولما حصل لنا الشـــكّ في ذلك عزمنا على العودة إلى بوردو في أقرب الفرص.

أمّا الفتاة فقد تمارضت يوم سفرنا حتى أنني لم أستطع توديعهـــا. وحســـنا فعلت... فما فائدة ذلك إن كان سيزيد من انقباض القلب وضيق النفس في هـــذا الصباح الحزين الذي نهجر فيه أولونه وذكرياتها.

في قدومنا إلى بوردو
وما وقع لي فيها من المناظرات

بوردو من أعظم مدن الفرنجة، تقع على ضفّة نهر عظيم، وفيها ثمانون قاضيا، ومائتا وكيل، والمفتون والكتّاب بلا حساب. وقد اجتمعت عند قاضي الأندلس بقسّيسين جاءاه لقضاء غرض، وقيل لهما عنّي أني مسلم، فأرادا مناقشتي في موضع الجنّة التي يوعد بها المؤمنون، هل هي في الأرض أم في السماء؟ قالا:

«أتعتقدون أنّ في الجنّة أكلا وشربا وتنعّما مثل ما في الدنيا؟

- نعم، ولكن أفضل مما في الدنيا».

ضحكا من إجابتي، ولما سألتهما عن السبب قالا:

«لأنّ الطعام ينتج منه تفل ومنه تكون النّجاسة، ومن المحال أن تكون في الجنّة نجاسة.

- ألم تروا في كتبكم أنّ الله تبارك وتعالى حين خلق أبانا آدم عليه السلام أذن له أن يأكل من جميع فواكه الجنّة إلاّ من شجرة واحدة، قال له: لا تأكل منها لأنّك إذا أكلت منها تموت؟
- هكذا هو.
- لو لم يأكل من الشجرة لمكث في الجنّة إلى الآن.
- نعم هو كذلك.
- فكان يأكل من الفواكه ولم تعمل له تفلا، وكذلك لو بقي إلى الآن، لأنّ التّفل ما كان من فاكهة الشجرة المنهي عنها، وهذا ما سيقع إذا رجع

أبونا آدم عليه السلام وأهل السعادة من أولاده إلى الجنّة، يأكلون فيها ولا تخرج منهم نجاسة أبدا.

- لكن جنّة أبينا آدم كانت في الأرض، والتي يذهب إليها الناس في الآخرة في السماء.
- ما كان أبونا آدم إلاّ في السماء، لأنّ كلّ ما هو في الأرض لايسمى جنّة، لأنّه محكوم بالعناصر الأربعة يتغيّر بسببها، ولابُدّ من الظلمة والنور، والجنّة لا تغيير فيها ولا ظلمة».

عند هذا الحد توقّف النقاش مع الراهبين، لأنّهما سكتا عن الردّ، واستأذنا في الانصراف من عند القاضي. وقد علمت أنّ النصارى واليهود يقولون بما في الباب الأوّل من التوراة من أنّ الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام في جنّة على الأرض، فيها أشجار تسقى من عين ماء، تخرج منها أربعة أنهار هي: النيل والفرات وجيحون ودجلة، لكن كلّ نهر منها في بلاد مختلفة، معروف ابتداؤه وانتهاؤه، وهذا دليل بطلان هذا النصّ. ومعنى الأحاديث النبويّة في ذلك، والله أعلم، أنّها تخرج من الجنّة فيُفهم ذلك بمعنى البركة التي فيها، لأنّ الاعتقاد الصحيح أنّ الجنّة في السماء لا في الأرض. أمّا الأنهار فابتداؤها وانتهاؤها على الأرض.

جاء في بعض كتب عبد الوهاب الشعراني أنّ سيدنا جبريل عليه السلام نـزّل ماء من الجنّة ووضعه في أماكن مختلفة من الأرض، ومنها ابتداء الأنهار الأربعة، وكلّ واحد منها مختلف عن غيره.

وقد أمرني السلطان مولاي زيدان، عندما كنت بمراكش، أن أترجم له كتابا عجميًّا كبيرا سمّاه مؤلّفه الإفرنجي قبطان دافيتي: «داران» على اسم أعظم جبال الدنيا المعروفة، ولم أر في كتب الجغرافيات مثله، فبلاد الدنيا كلّها مصوّرة فيه، بطول كلّ بلد وعرضه وأنهاره، وكلّ نهر بأيّ أرض منبعه، والمدن التي على حاشيته بأسمائها، وكذا الأبحر والجزر والأقاليم.

وتتّفق كتب الجغرافيات أنّ نهر النيل يخرج من جبل القمر، وموضعه ثمان وعشرون درجة من خط الاستواء إلى جنوب السودان، والأنهار الثلاثة في غير هذا القسم الإفريقي متباعد بعضها عن بعض. أمّا الفرات فابتداؤه بقرب بلاد جرجان،

ثم يجتمع مع نهر دجلة المار من بغداد، والثالث ببلاد التتر، والرابع ببلاد أرمينيـــة، كما قال من يدعي معرفة الدنيا.

وقال القبطان دافيتي حين بان له غلط التوراة: «أمّا كلام التوراة عن خروج الأنهار من موضع واحد فباطل وكذب ظاهر لمن يعرف مواضع الـــدنيا». هـــذا القول وغيره هو شهادة متّفقة على بطلان القول بأنّ الأنهار تخرج من عين واحدة في جنّة الأرض، يبطل أيضا كلّ قول بأنّ أبانا آدم عليه السلام خلق في الأرض.

أمّا قول النصارى واليهود بانعدام نعائم الدنيا من مأكل ومشرب وغيرهمـــا في الجنّة فهو صحيح في حقّهم، لأنّها محرّمة عليهم، لا يـــدخلونها ولا يـــذوقون ما فيها.

وقد وقع لي كلام مثل هذا في بوردو مع القاضي فياردي وهورجل يعـــرف اللسان العجمي الأندلسي، وكانت مواجبـــي في الأمور الشرعية عنده فيرشـــدني وينصحني، وقد وجبت له دراهم كثيرة لكنّه لم يقبل منّي شيئا. وقد فاجأني مـــرّة بسؤال:

«يا فلان... عجبا منك، كيف أنت على دين المسلمين؟

- لماذا؟
- لأن كتبنا تقول أنّ المسلمين يزورون مكّة ليروا نبيّهم وسط حلقة حديد في الهواء، والحلقة وسط قبّة من حجر المغناطيس المعروف أنّـــه يجـــذب الحديد، والجذب في القبّة متساو من كلّ جهة وتبقى الحلقة في الهـــواء، والمسلمون يعتقدون أنّ ذلك معجزة لنبيّهم.
- هل يجوز في دينكم لأحد أن يكذب... حتى وإن كان بنيّة تقبيح ديـــن غيره لتحسين صورة دينه لأهل ملته؟
- لا يجوز ذلك.
- من قال هذا من النصارى فقد أتى ذنبا كبيرا في دينه.
- كيف ذلك؟
- لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ليس بمكّة، وليس هو في قبّة حجر ولا في حلقة حديد، بل هومدفون في المدينة، وبينها وبين مكّة عشـــرة أيـــام،

والمسلمون يزورون الكعبة لأنّها دار مباركة بناها سيدنا إبـــراهيم عليـــه السلام.

- هل زرتما أنت ورأيت قبر نبيّكم تحت الأرض؟

- لا، ولكن الذين مشوا من عندنا يقولون ذلك من غير اختلاف، وهـــي مسألة لا شكّ فيها.

تأكّدت صحبتي مع فياردي فاقترح عليّ زيارة عمٍّ له بلغ الثمانين من العمر، كان يشتغل قاضيا هو أيضا، وسافر إلى بلدان كثيرة، مـــن بينـــها بعـــض بـــلاد المسلمين.

لبّيت رغبته بعد إلحاح منه، وجلست إلى الشيخ في بيته، فأقبل عليّ مسرورا مرحّبا وقال:

«لقد بقيت في بلادكم نحو الخمس سنين.

- في أيّ البلاد كنت؟

- في القسطنطينيّة، وهناك سألت عن نبيّكم فذمّوه لي.

- ومن سألت عنه؟ لاشكّ أنّك سألت عنه غير المسلمين.

- صحيح، لم أسأل عنه المسلمين.

- المسلمون هم أعرف الناس به، وعندهم خبره من حين خلق ومن أرضعته من النساء، وأين مكث، وإلى أيّ بلد سافر، وما عمل من الغزوات، وما قال من أحاديث فيها الأوامر والنواهي والوصـــايا، ومـــا عمـــل مـــن المعجزات، وبمن تزوّج ومن أنجب، إلى أن مات. وأنتم ليس لكم خـــبر سيدنا عيسى عليه السلام أين كان، وأين سافر من سن الثلاث عشـــرة سنة إلى ثلاث وثلاثين التي تقولون أنه صلب فيها.

- ديننا هو دين الحقّ، لأنّ يسوع مات ليخلّص الذنب الأوّل عن سيدنا آدم عليه السلام، وعن الجميع بسبب الفاكهة التي نهاه الله تعالى عنها، فعصى وأكلها.

- عندنا كل فرد يخلّص عن نفسه.

- كيف هو خلاصكم؟

- ألم يبدأ أبونا آدم عليه السلام، حين كان في الجنّة بإخراج الفضلات إلاّ لما أكل من الشجرة المحرّمة؟
- نعم.
- فهذه الفضلات التي نفرزها هي ما ورثنا بسبب الشجرة، ولذا فرض في ديننا على كلّ مكلّف بالغ أداء الصلوات الخمس، ومن شروطها أن لا يدخل المرء لحضرة المولى إلاّ بوضوء يطهّر الجسد مما ورث من الفاكهة المذكورة، فيغسل بالماء الطاهر مواضع النجاسة في الجسد، ثم يغسل يديه، لأنّ أبانا آدم مدّ يديه إلى الفاكهة الممنوعة، وفمه لأنّه أكل به، وأنفه لأنّه استنشقها به، ووجهه لأنّه توجّه به إليها، ويمسح رأسه لأنّه دخل تحت الشجرة، وأذنيه لأنه سمع بهما ما شهاه في الفاكهة، ورجليه لأنّه سعى بهما إلى الشجرة. حينئذ يدخل الإنسان في مناجاة ربّه وهو في الحالة التي كان عليها أبونا آدم قبل أكل ما نهي عنه. وتدوم الطهارة حتى يخرج من الإنسان شيء من الإرث اللّعين، فيحتاج إلى وضوء جديد، وهذا خلاص خير من خلاصكم. وبما أنّك قاض تدرك الحقّ بعقلك، أفلا ترى أنّه من الأولى أن يخلص كل امرئ عن نفسه بالوضوء والصلاة عوض تحميل المسؤولية لسيدنا عيسى عليه السلام، وجعل فرد واحد يخلّص عن الجميع؟».

تعجّب القاضي العجوز من كلامي وقال:

«أبدا... أبدا. ما سمعت من قال هذا الكلام».

وسألني عن الاغتسال وسبب انتشار الحمّامات، فأجبته:

«كنت قرأت ببلاد الأندلس قبل خروجي منها كتابا اسمه «مختصر جبريل» أنّ المنيّ وجد في أبينا آدم عليه السلام بعد أكله الثمرة المحرّمة، وأنّه يخرج من جميع مسامّ الجسد، ولذا وجب غسله جميعا».

قضينا وقتا طويلا نتناقش ونقارن بين الأديان، وهو مهتمّ شديد الاهتمام بأقوالي وبراهيني. ثم التقيت بعد أيام بالقاضي فياردي فقال لي:

«حذار... إنّ عمّي شيخ كبير قد بلغ آخر أيّامه، فدعه على دينه ولا تردّه مسلما، فإنّي وجدته شديد التأثّر بكلامك.

- أنت أكّدت على لقائي به، وعليك تقع المسؤوليّة.
- هو يطلب منك زيارة ثانية، وها أنا أوصيك به خيرا.
- لا فائدة من وصيّتك لأنني لن أعمل بها».

مشينا بعد مدّة إلى مدينة تولون، وهي من المدن الكبيرة، موقعها على شاطئ نهر القارون الذي يمرّ منها إلى بوردو، وبين المدينتين نحو الثلاثة أيام، وعزمنا على السفر في قارب نهريّ.

كان القارب عامرا بالرّجال، ونحن في زيّ الإفرنج، لا يميزنا أحد عنهم إلاّ إذا كان يعرفنا. وقد حصل هذا، إذ تقدّم رجل قد عرفني قبل أن نركب فسلّم عليّ وناداني باسمي. انتبه لوجودنا عندئذ قسّيسان بين الركاب، فأفسح لي أحدهما مكانا بجانبه طالبا منّي الجلوس إزاءه، وكان قصده محاورتي. فأوّل ما بدأ كلامه باللغة الإيطالية فهمت مراده، وحاولت الجواب على أسئلته بلطف لتوضيح ما اعتبره غامضا في ديننا، من ذلك أنّه قال:

«لقيت في البندقية بعضا من أهل دينكم فرأيتهم يعملون أشياء كأنها السر، ويقولون هي فرائض وطقوس واجبة.

- مثل ماذا؟
- مثل الاغتسال طول الوقت، وازالة أيّ شبهة من نجاسة تصيب البدن أو الثياب، إلى درجة الهوس والشكّ المتواصل».

شرحت له دواعي الطهارة وصِلتها بمفهوم الخلاص، ليكون الإنسان بحضرة مولاه طاهرا في الظاهر والباطن. فاستحسن جوابي وحدث بقيّة الركاب عنّي بلغته، وأنا فاهم ما يقول، ذاكرا أنني مصيب وإن كنت على غير دينه، مستدركا مع ذلك:

«المسلمون وهبهم الله عقولا راجحة وأفكارا واضحة لتكون حجّة عليهم في الآخرة، ويكون عقابهم أشدّ وأقسى، إذ كيف هم كذلك و لم يهتدوا إلى دين الحقّ، دين النصارى؟».

كان الراهب الثاني غير راض عن أقوال صاحبه، فأخذ يلكزه بمرفقه ويهمس قرب أذنه، وأخيرا لم يطق صبرا، فكلّمه جهرا: «لمَ لا تسأله عن التثليث في الألوهية؟».

رد عليه صاحبه متحرّجا:

«المقام لا يليق بالحديث في موضوع كهذا».

إلاّ أنّه أصرّ على التحرّش بـــي ومناقرتي، فتوجّه إليّ بالسؤال: «كيف أنـــت في بلادنا، ومن أذن لك بذلك؟»».

أدخلت يدي إلى كيسي وأظهرت له خطاب ملك فرنسا بتوقيعه، فســـكت مبهوتا، ورشقه رفيقه بنظرة تأنيب. ولما وصلنا محطة نـــزل فيها للمبيت، رافقني الراهبان وكلّما صاحب النـــزل للعناية بـــي وتيسير إقامتي. وبقيا على احترامـــي والاحتفاء بـــي بقيّة أيّام الرحلة النهريّة.

في مناظرات اليهود
بفرنسا وهولندة

قابلت بعض اليهود بفرنسا، ولكن أصلهم القديم ببلاد الأندلس، وأكثرهم بالبرتغال. يبدون في الظاهر كالنصارى وهم في الخفاء يهود، يتعلّمون بالعجمية ولا يتكلّمون إلاّ بها، ويدركون بالعلم بعض المراتب فيتحكّمون في الناس على هواهم، ولا يتركون فرصة إلاّ وتقرّبوا من النصارى، وقد يصاهرونهم ويتزوّجون بناتهم.

ولهم من الكبر الخفيّ ما لم أكن أعرفه، حتى رأيتهم في فرنسا ثم في هولندة، حيث هم أشهر وأكثر صلفا مما هم عليه بفرنسا، لأنّ لهم الإذن بحمل السلاح، وارتداء ما يريدون من اللباس مثل أهل البلد.

والتقيت في أمستردام بحبر اليهود جوزيف باردو انتقل إليها من سالونيك بأرض المشرق بعد أن أطرد من البرتغال عند تهجير اليهود. فتكلّمنا عن سيدنا موسى عليه السلام وتناقشنا مطوّلا، واذا به في آخر الحديث يفاجئني قائلا:

«إن موسى – مع أنّه نبي – قد عمل ذنبا عظيما.

- كيف تقول هذا الكلام. ألا تعلم أنّ الأنبياء منزّهون عن الذنوب؟
- نعم... ولكنّه أذنب في حقّ بني إسرائيل، لأنّه كان يوبخهم ويقول أنّهم قوم عنيدون ومتشدّدون، وهذا خطأ في شأنهم لأنهم أهل الله وشعبه المختار، وما علت درجته عند الله إلاّ بسببهم».

وما زلت إلى اليوم أعجب من هذا التكبر الذي يجعل الناس يرفعون أنفسهم على مراتب أنبيائهم، وهذا ما لم أجده في أيّ دين.

قابلني في بوردو بعض علمائهم فأطنبوا في مدح دينهم حتى رأيت أنّه لا يكفي للردّ عليهم إلاّ استعمال كتبهم، فذلك أقوى وأبلغ في الحجّة، كما اتّفق لي مع النصارى. فرجعت إلى التوراة باللسان العجمي الأندلسي، ووجدت الردود اللاّزمة.

فقد سألوني مرّة:

«هل كان دين موسى من عند الله؟

- نعم، ما بيننا نزاع في هذا.
- هل سلاطين الدنيا يرجعون فيما أعطوا إذا أصدروا أوامر مكتوبة بذلك؟
- لا يرجعون إلاّ فيما يظهرانه يليق بهم، وفي بعض الأزمنة. وفي ديننا آية تقول: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾.
- ليس ذلك عندنا.
- عندكم في التوراة مسألة مثلما قال الله في القرآن من أنّه يمحو ويثبّت كما يشاء.
- في أيّ موضع من التوراة؟
- في الباب العشرين من كتاب السلاطين الثاني، قال: إنّ السلطان حزكية مرض مرض الموت، وجاءه النبيّ يشعيه ابن النبيّ مز وقال: إن الله أرسلني إلى دارك، لأنّك تموت ولا تعيش. فدعا وبكى بكاء شديدا. ثم تاب إلى الله توبة صادقة. فبعث الله النبي يشعيه: ارجع إلى سلطان بلادي وقل له: رأيت بكاءك وقبلت دعاءك، وفي ثالث يوم يأتي إلى بيتي لأزيد في عمره خمس عشرة سنة، وأنجيه من سلطان شؤم، ونحفظ هذه المدينة. هل هذا موجود في التوراة أم لا؟
- نعم، هذا في التوراة.
- الكلام الأوّل الذي جاء به النبيّ كان كلام الله، إذ قال: يموت من مرضه، والمرّة الثانية قال: يزيد في عمره خمس عشرة سنة، فمحا الكلام الأوّل وأثبت الثاني. وكذا محا الله دين اليهود في العبادات وأثبت دين الإسلام».

ثم ناقشتهم في مسألة الاغتسال بعد الجماع، فقالوا جميعا:

«ليس لنا ولا للنساء غسل بعد الجماع، ولكن النساء تغتسلن من الحيضة.

- من أسقط عنكم هذه الفريضة وأنتم مأمورون بها في كتابكم؟
- ذلك الأمر كان حين كنا في بيت المقدس.
- الأمر ليس مرتبطا بشرط ما دمتم في بيت المقدس. ولو قال ذلك لكانت لكم حجّة مقبولة. أليس أولى بكم التمسّك بفرض الطهارة وهي الأصل عوض التمسّك بترك أسباب الحياة يوم السبت، هو أمر موافق لشهوة النفس، وهي تحبُّ الراحة. تظهرون الورع في حقّ السبت وتتركون الطهارة التي هي الأصل، وهذا عكس ما يجب».

كنت عند دراستي للتوراة قرأت في كتاب حزقيال أنّ نبيَّ الله دانيال عليه السلام، حين فسّر العلم الذي رآه الطاغية الفارسي بختنصر أوضح له أنّ الصنم العظيم الذي ظهر له في المنام سيضربه حجر لم تقطعه الأيادي، وأنّ هذا الحجر سيغدو جبلا عظيما يعمر الأرض، بعد أن يحطّم الصنم الذي رأسه من ذهب، وصدره وذراعاه من فضّة، وبطنه وفخذاه من معدن، ورجلاه من حديد، وقدماه بعضها من حديد وبعضها من فخّار. ذلك الجبل العظيم هو سلطنة الإلاه السماوي التي ستملأ الدنيا فلا تنكسر ولا تفنى أبدا.

قال سيدي أحمد زرّوق، نفع الله به، في هذا المعنى: فانظر هذا التصريح الجليّ المطابق لرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ هو الذي بعث في آخر الزمان لتثبت نبوّته وملك أمّته إلى قيام الساعة، وهو الذي بعث لسائر الأمم، وظهر عليها كلّها، وخلط بين أجناسها على لغة واحدة ودين واحد.

لكنّني سمعت ببلاد الأندلس قبل خروجي منها خطبا كثيرة من قساوسة يذكرون رؤيا بختنصر، وتفسير النبيّ دانيال، على أنهما دليل على مجيء سيدنا عيسى عليه السلام، وأنّ دينه سيعمر الدنيا ويدخله جميع سلاطينها. لكن هذا لايستقيم، إذ الرّؤيا منبنية على الحجر الذي كسر الصّنم، لا على من أقام الأصنام وعبدها، وهذا ما فعله الإسلام منذ هدم أصنام الكعبة. أمّا النصارى فما من

كنيسة لهم إلاّ بها صنم أو أصنام. وسأذكر فيما يلي ما يؤيّد أنّ الحجرالذي كسر الصنم وعظم حتى عمر الدنيا هو النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وأهل دينه، لا غيرهم.

ذكر كتاب الجنسيس من كتب التوراة في الباب السادس عشر أنّ ملكا من عند الله كلّم هاجر وهي في الطريق، وقال لها: يا هاجر من أين جئت وأين تمشين؟ قالت: هربت من شرّ سيّدتي. قال لها الملك: ارجعي إلى سيّدتك واخضعي إليها، فمن نسلك يكون عدد لا يحصى من الكثرة، فستحملين وتلدين ابنا تسمينه إسماعيل، لأنّ الله سمع حزنك، ويكون رجلا قويًّا، يده عكس الكلّ وأيدي الكلّ عكسه.

وولدت هاجر إسماعيل لسيّدنا إبراهيم، ولما بلغ سيدنا إبراهيم مائة سنة ولد له إسحاق من سارة. وقال في الكتاب المذكور في الباب الواحد والعشرين: «وقام سيدنا إبراهيم من الصبح وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر، ووضع الطفل ابنه على كتفها وبعثها. فلمّا وصلت إلى فحص بيرشبا لم يعد لها ماء فتركت الطفل تحت شجرة وجلست قبالته وهي تقول: ما أرى إلاّ الطفل يموت، ورفعت صوتها وبكت، فبكى الطفل، وسمع الله صوت الطفل، وقال ملك من السماء: مالك يا هاجر؟ لا تخافي، إنّ الله سمع صوت الطفل من حيث هو، فقومي وارفعي ابنك وخذيه لأنّه سيكون كبير قوم. حينئذ فتح الله عينيها وأبصرت عين ماء، فملأت قربتها وأعطت الطفل يشرب. وأصلح الله الولد، وكبر في الخلاء، وكان راميا بالقوس».

والدليل على ما جاء في التوراة من أنّ نسل سارة يصير بعدد لا يحصى من الكثرة أنني رأيت في خرائط وكور أرضيّة وضعها النصارى كلّ مدينة قد صوّرت وكتب اسمها مع الطول والعرض، وكذا الأبحر والأودية. وفيها رسمت الأرض الكبرى المتّصلة من بلاد المسلمين، بما في ذلك آسيا نصف الدنيا التي قدرها مائة وأربعون درجة أو أكثر. والمحسوب لكلّ درجة من الأرض اثنان وخمسون ميلا ونصف الميل للماشي على خطّ مستقيم، ويكون بالتقريب لكلّ درجة ثلاثة أيّام للماشي المتوسّط. كما قدّرنا لطول بلاد الأندلس ثلاثين رحلة طولا، ولدرج

طولها عشر درجات بحساب الرّحلات المشهورة، فهي ثلاثون يوما تقريبا، وجاء لكلّ درجة ثلاثة أيام كما قلنا. لذا فحساب الأرض المتّصلة العامرة بالمسلمين أربعمائة وعشرون يوما.

هذا وقد قسم القدماء الدّنيا أربعة أقسام، وسمّوا كلّ واحد منها باسمه. فأوروبّة هو اسم الربع الجوفي الموالي لجهة القطب الشمالي، وابتداؤه من البحر الأسود إلى بلاد الأندلس، وفي هذا الربّع تقع القسطنطينيّة حرسها الله تعالى. وما حولها هو للمسلمين ويقدّر بنحو الخمسين يوما للماشي المتوسّط. وبجوارهم ممالك للنّصارى هي ألمانيا، وبلاد مشقوبية الجوفيّة، وإيطاليا، وفرنسا، وهولندة، وبلاد الإنكليز، وبلاد الأندلس بما لها من جزر في البحر المحيط والبحر الصّغير.

أمّا الربع الثاني فيُسمّى عندهم بالربع الإفريقي، وابتداؤه من بحر سويس، والبحر المحيط يليه من جهة القبلة والمغرب، والبحر الصغير من جهة الجوف والمشرق. هذا الربع أكثر سكّانه مسلمون، من بينهم سكان مصر وطرابلس وتونس والجزائر وتلمسان ومراكش بما تحت سلطتها من الأقطار مثل فاس وسوس الأقصى وسجلماسة، وبلاد درعة وتوات، وتحتها ببلاد السودان سلطنتان فتحهما مولاي أحمد المنصور هما تنبكتو ومدينتا جغ وكوكية، وليس بينها وبين خط الاستواء غير عشر درجات عرضا. وفي السودان بلاد كثيرة أخرى للمسلمين منها سلطنة مالي وهي تمتدّ إلى المحيط، وسلطنة برنو وما يليها إلى بلاد الحبشة ناحية الشرق. وما بقي في هذا الربع فهو أقلّه، وفيه سلطنة للنصارى والبقيّة وثنيّون.

أمّا نصف الدنيا فيسمى آسيا، وفيها للمسلمين: بلاد الشام، واليمن، والحجاز، والعراق، وبلاد هرمز، وحضرموت، ثم بلاد الهند وخراسان وفارس وبلاد التتار، إلى أقطار أخرى غير هذه لم أذكرها، ولكن أغلبها للمسلمين.

وقد جاء رسول من هولندة إلى مولاي زيدان ومعه رسالة بالعجمي، فأمرني بتعريبها، وبسبب هذا نشأت صداقة بيني وبين الرسول الذي قعد مدّة بمراكش، ورأيت عنده كتبا بالعربية يقرأ منها ويكتب، فسألته أين تعلم ذلك؟ فقال:

«إنّي كنت في جزيرة كذا من جزر الهند الشرقية المشتهرة بالبزور والبهارات كالقرفة والقرنفل والجوز، وهنلك تعلّمت القراءة بالعربية.

- وهل في تلك الجزر مسلمون؟

- فيها كثير، ويحكم كلّ جزيرة سلطان مسلم».

استغربت مقاله، لكنّه حلف بدينه وما يعبد أنّ في تلك النّواحي أكثر من عشرة آلاف جزيرة للمسلمين، فتوقّفت في الأمر ثم قلت في نفسي «ثلاث مسائل تدلّ على صدق الرجل: الأولى أنّه تعلّم العربية وليس ببلاده من يعرفها. والثانية أنّه رسول للملك، والملوك لا تأتمن على رسائلها السفهاء. الثالثة أنّه نصراني وليس من عادة النصارى تعظيم شأن المسلمين، واذا شهد لك عدوّك بما تحب فلك الغلبة».

وقد طالعت كتابا عجميًّا لبدرو طشاير وهو رحّالة برتغالي مشى إلى جزر الهند الشرقيّة وتجوّل فيها، ثم ركب البحر المحيط ومشى مغربا زمنا بين تلك الجزر إلى أن خرج بقرب بغداد، وجاء في البر من بلاد المسلمين إلى بحر الروم، ولعلّه مر من حلب على ما أذكر، ومن ثم أبحر نحو بلاد النصارى، وهكذا راوح في سفره بين البرّ والبحر إلى أن طاف بالدنيا كاملة. وبما أنّه كان رجلا حكيما فقد كتب ما رأى. ومن جملة ما ذكر في كتابه: أنّ جزيرة كبيرة من جزر المشرق اسمها جاوة دخلها الإسلام قبل عهدنا هذا بنحو المائة وثلاثين سنة. وكان أهلها، حسب قوله، قبل ذلك يأكلون لحم البشر.

وأختم كلامي في هذا الفصل بما نراه، في أيامنا، عند سلطان العثمانيّين من العظمة والتأييد، حتى خافهم أعداؤهم وطلبوا منهم الصلح والرضى بواسطة سفراء يقعدون ببلادهم، ما عدا سلطان إسبانيا، فإنهم لم يقبلوا سفيره لما طلب، لما تحقّقوا من عداوته للإسلام وغدره فيما مضى، لا لمسلمي الأندلس فحسب، إذ أخرجهم مطرودين مُهانين وافتكّ أولادهم، بعدما أمّنهم وطمأنهم... وإنّما غدره أيضا لسلطان الهنود بمدينة مكسيكو المسمّى متشوما، إذ بعث رسله إليه بهديّة، وعند تقديم الهديّة قتلوه.

مناظرة المنجّمين

انتهت مهمّتنا في بوردو وحصلنا على تعويض ماليّ لمن وكّلونا من أهل الأندلس المنهوبين، وولّينا إلى باريس. قابلني الصديق هوبرت ثاني يوم على وصولي، ودعاني لمرافقته إلى ناد كبير يجتمع فيه الفلكيّون والمنجّمون.

دخلت معه بناية فخمة وعتيقة اجتمع فيها رجال ذَوُو قيافات متنوّعة، بعضها طبيعي وبعضها غريب لم أشاهد مثله، بل إنّ أحدهم ارتدى عباءة فضفاضة عليها صور الأفلاك والأجرام السماويّة، وآخر على رأسه طرطور عال أزرق فوقه النجوم، وثالث بيده منظار طويل غريب الشكل وتتدلّى لحيته حتى تغطي صدره. سمعتهم يتناقشون وصاحبي يشرح لي حينا ويلخّص أحيانا ما يفوتني فهمه، حتى حصلت لي فوائد جمّة، ليس من السهل الحصول عليها.

قبل أن نخرج انتحى هوبرت جانبا بكبير الجماعة وعرّفه بي وبما ترجمته لسلطان مراكش عن الرسالة الزّكوطية، فاهتمّ بما سمع وسألني:

«هل لك اهتمام خاصّ بعلوم الفلك؟

- كان لي بديوان السلطان صديق مغرم بالتّنجيم، فيطلعني على أعماله، لكنّني لم أهتمّ بهذا الفنّ و لم أوسّع فيه معرفتي، إلى أن كلّفني السلطان بترجمة زيج إبراهيم زكوطو، فتعمّقت وبحثت لكن دون الوصول إلى درجة العالم المتبحّر.
- ... ولا يمكنك أن تتبحّر في هذا العلم لأنّه بلا حدود ولا شواطئ، ثم ما الفائدة وهو لم ينتج يوما شيئا واضحا محدّدا؟
- تقول هذا أنت المنجّم المتمكّن المجرّب؟

- مجرّب... نعم، لكن معلوماتي دوما نسبيّة. لم أتأكّد في يوم من الأيام مما أقول، و لم أطلع على الناس بشيء ملموس. إنّه علم تغـــرب شمســـه في عصرنا ليترك مكانه لعلوم أخرى.

- وهل اطّلعت على ما كتبه القدامى؟ إنّه كثير.

- عندي أكثر من مائة تأليف في هذا الفنّ، أراجعها باستمرار، ومع ذلـــك فيوم قتل الملك هنري الرابع والد مليكنا الحالي نظرت في برج الشـــمس فوجدتها مقترنة بالزّهرة، ولا يفسّر ذلك إلاّ بطالع السّعد علـــى الملـــك. هكذا قال العلماء عن الشمس المتحكّمة بـــأبراج الملـــوك إذا اقترنـــت بالزّهرة. واذا سلكنا بمقتضى هذه القواعد يكون الملك قـــد قتـــل يـــوم سعده. أترى هذا معقولا أومقبولا؟

- رأيي غير بعيد عن رأيك، فلم يشغلني يوما ما يحمله الغد، لأنّني قادر علـــى معرفته، ولو بصورة تقريبيّة، إذا أنا اليوم عارف بنفسي وما أصـــنع. لـــذا فالتنجيم لايخدم سوى من يجهلون موقعهم اليوم أو أين يكونون مستقبلا. ولا أرى ما يحظى به علم التنجيم إلاّ علامة عن حيرة أو قهر يصيب جماعة من البشر، فتلجأ إلى الرّجم بالغيب بحثا عن الراحة النفسيّة المفتقدة».

تدخّل هوبرت في النقاش بعد أن كان يترجم حوارنا، فقال:

«أعتقد أنّ التنجيم أحد العلوم الصحيحة، فهو الوسيلة الوحيدة التي يسبر بها الإنسان أغوار النفس وأعماق الزمن. وبحساب دقيق يمكنه الاطّلاع علـــى مـــا لا يمكنه استنتاجه. وأنا كرجل مسيحيّ أعتقد أنّ أدقّ الأشياء وأصغرها يستدلّ بهـــا على أعظم الأشياء وأكبرها.

- ولربّما ترشدنا العلامة الصغيرة على الأمور الكبيرة والأحداث الفاصلة».

قلت للرفيقين:

«وقد أرشدنا الله تعالى إلى النظر في آياته للاستدلال على وجوده، كاشتقاق الليل من النهار، فهو من يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل».

- «تفسير إشارات الربّ، وفهم تصرّفات مخلوقاته هو ما دفـــع إلى إقبـــال الناس على التنجيم في اعتقادي»:

قال كبير المنجّمين:

«نظريّة سهلة، ولكن تطبيقها معقّد وعسير».

إنّ ما قلته عن تهافت الناس على التنجيم، بدافع الحيرة وانعدام الثّقة بالحاضر والمستقبل، حقيقة لاحظتها آيّام وجودي في الأندلس، إذ كان الناس يطلبون منّي استقراء ما يخبئه الغيب لعلمهم باطّلاعي على بعض كتب الأقدمين. وقد انسقت - متأثرا بالجوّ السائد آنذاك - في تجارب كثيرة، لا أعلم يقينا سوى أنّها أراحت نفوسا كسيرة وطمأنت قلوبا حائرة، لكن دون تقديم أيّ إشارة صحيحة أومعلومة دقيقة. فالغيب لايعلمه سوى علاّم الغيوب.

تذكّرت في الليلة نفسها، وأنا أحاول النوم، ما جرى لصديقي الشيخ أحمد المعيوب، وكان ضالعا في علم التنجيم وخطّ الرمل، درسه وألّف فيه وانتسخ من كتبه الكثير، إلى أن انزلق في السحر والطلاسم ومخاطبة النجوم لاكتشاف المستقبل، فكان هذا سبب هلاكه على يدي السلطان.

قال لي رحمه الله أنّه يتناول من خزانة الكتب السلطانية ما يريد، وكان بها اثنان وثلاثون ألف كتاب، لكنّه إذا سأله السلطان شيئا في المغيّبات يترك الكتب كلّها، ويعمل جدولا مخمّسا يعمّره بخمسة من أسماء الله تعالى وهي: الهادي، الخبير، المبين، علاّم الغيوب بالتّداخل في الصنعة، بحيث يقرأ طولا وعرضا وقطرا، ثم يقرأ ما تنقط من الحروف في الليل قبل النّوم، ويضع الجدول تحت رأسه وينام، وفي الأحلام يأتيه من يخبره بالجواب عما أضمره في نفسه. وبالرغم من تأكيده لي مرارا أنّه عندما يجيب السلطان لايكون في كلامه غير الصدق، فرأيي أنّه ينصب جواب المسألة ويضمره في نفسه، ثم يظهره للسلطان كأنّه مستخرج من الجدول أو أتى به الهاتف الذي يزور الشيخ في المنام.

مات المعيوب مقتولا ضحيّة أفاعيله هذه. والأمر أنّه أخبر مولاي زيدان بأنّه سينهزم في معركة كان يتهيّأ لخوضها. تجرّأ وقال ذلك للسلطان بعد أن أمّنه، وأقسم بأن لا تسيل منه قطرة دم. لم ينهزم السلطان، وبعد المعركة دسّ السّمّ للشيخ في دجاجة برّا بقسمه، حتى لاتسيل قطرة من دمه.

مع هذا يمكنني القول أنّني لم أقابل إلى اليوم امرؤا، مهما كانت تقاه، لا يؤمن بالأرواح أو بالسّماء ذات البروج، أو يشكّ على الأقلّ في تأثيرها الكبير على حياتنا. لأبُدّ لمن أصابه الأرق ذات ليلة أن يسمع صوت أشباح تطوف في ظلمة الليل. كلّ الناس مسّهم الضرّ في فترة ما من حياتهم، وأغلبهم أنقذتهم الأرواح الطّيبة الهائمة في الأثيرا لمحيط بنا والرابط بين عالمنا والسماء. إمّا بطلب منهم وأحيانا دون أن يعلموا. حتى علماء الدين الذين يعتمدون على الكتب المقدّسة لا يمكنهم دحض ذلك وهم يرون كيف أدخل المسيح الأرواح في أجساد الخنازير فارتمت في النّهر.

أعادني هوبرت إلى محلّ سكناي بعربته، وفي الطريق سألته:

«تفضّلت السيدة حماتك ليلة العشاء في بيتك فأخبرتني عن امرأتين تركيّتين تسكنان باريس واعتنقتا الدين المسيحي، وأنّها اجتمعت بهما مرّات دون أن تفهم منهما حقيقة دينهما الأصلي. فهل سمعت بأمرهما أنت أيضا؟

- نعم سمعت، فهما معروفتان في أوساط النساء القريبات من الملكة، لحسن صناعتهما وإتقانهما التطريز العجيب والأشغال اليدويّة غير المعروفة، وأنت تعرف شغف النساء بهذه الأشياء.
- هذا ما قالت حماتك تلك الليلة، لكنّي أرجو معرفة المزيد، كسبب مجيئهما، وظروف حياتهما، وهل هما في حاجة إلى مساعدة. فقد أنال بعض الثواب من وراء تقديم عون ولو بسيط إلى الغريبتين.
- لعلّك وقد علمت بتنصّرهما تنوي إعادتهما إلى الإسلام؟
- إذا اختارتا ترك الدّين الإسلامي دون إكراه فلن أفعل شيئا، ولهما الحرّية في الاختيار.
- وهل تتصوّر أنّهما أُكرهتا على ذلك؟ انتبه يا سيدي إنّك في فرنسا ولست في إسبانية.
- أعرف جيّدا أنّني في فرنسا سنيور هوبرت، لكنّك تعرف نوازع التعصّب والانغلاق عند البشر حتى ولو كانوا في بلد يمجّد الحرّية الفردية. انظر ما جرى لنا في بوردو... أليست من مدن فرنسا العظيمة والشهيرة؟

- نعم لكن في طبع أهلها بعض التعصّب والانغلاق كما تقول.
- وسأروي لك بعض مظاهره إن اتّسع صدرك.
- إنّك تعرف طبعي وسأصغي إليك بانتباه.
- أقمت مع رفيقين من الوفد هما جاك فرننديث وهاري قرسيا قرب بوّابة سان جوليان في بيت اكتريناه من السيدة إسكواس، لكن أحد جيرانها لم يحتمل وجودنا في الحيّ، واشتكى إلى حاكم المدينة أنّه رآنا نتوضّأ ونُصلّي أو نأكل اللحم يومي الجمعة والسبت، وفي هذا عدوان على دين البلد ومشاعر أهله، كما في دعواه.

تصوّرت أن يصرفه الحاكم، أو أن يقول له دعهم وشأنهم نحن في بلد الحرّية، لكن حصل عكس ذلك، وهذا ما أستغربه. فقد أخذنا الأعوان إلى المحكمة وسئلنا عن أسمائنا وديانتنا ومقرّ إقامتنا، وفحصت أوراقنا والجواز الممنوح لنا من ملك فرنسا، وإثر ذلك تقرّر بشأننا ما يلي: أمّا أنا الوحيد الذي شوهد يصلّي فلم أنكر إسلامي، وأنّني من رعايا ملك المغرب، جئت بتكليف منه لمقاضاة الريّاس الذين نهبوا الأندلس. فأمرني الحاكم باتخاذ غرفة بمفردي مع التستّر عند أداء الشعائر وعدم إظهارها أمام الجيران. أمّا رفيقاي فقالا بسبب وثائقهما أنهما يقيمان في المغرب وإنّما جاءا بصفتهما متضرّرين في نفس الحادثة، ولكنّهما مسيحيّان كاثوليك، فأمرهما الحاكم بالوقوف في ظرف ثلاثة أيّام أمام الأسقف لتثبيت إيمانهما والاعتراف بما اقترفا من ذنوب للحصول على شهادة إيمان وصك غفران، يستظهران بهما في نفس المهلة وإلاّ أطردا من المدينة.

- مثل هذا لا يحدث في باريس.
- أرجو سنيور هوبرت وأتمنى أن يتّسع هامش الحرّية الذي تفتخرون به حتى يشمل كلّ مدنكم. أمّا السيدتان فإنّني أودّ مقابلتهما بدافع إنساني محض، مع جزء صغير من فضول لا أستطيع إخفاءه عن رجل ذكي مثلك».

ابتسم القاضي الوقور ووعدني أن تقوم حماته بترتيب لقائي مع المرأتين، وأنّه سيبعث عربته لأخذي إليهما متى تحدّد الموعد.

جاءني حوذيّ القاضي بعد يومين وسلّمني رسالة منه، وأعلمني أنّه مكلّف باصطحابي إلى موعد مهمّ. فتحت ظرف الرسالة وقرأت: «أيّها الصديق أحمد، تعتذر حماتي عن مرافقتك من باب الكياسة، ولكنّها قامت بالواجب، فرتّبت لك موعدا مع السيّدتين ودلّت الحوذيّ على عنوانهما، وهو تحت طلبك ليأخذك إليهما ثم يعود بك.

ولكي أهيّئك للقاء المنتظر أعلمك أنّ إحدى السيدتين هي الأمّ البالغة ستّين سنة من العمر، ومعها ابنتها وهي تقارب الثلاثين سنة، وسبب مجيئهما هو وقوعهما بين أيدي القراصنة حين كانتا في سفر، فأخذوهما إلى البندقية حيث باعوهما. اشتغلتا هناك بالتطريز لتخليص أسرهما، لكن شغلهما المبتكر ونوعيّته غير المعروفة في أوروبا جعل أمرهما يشتهر، حتى بلغ سمع ملكتنا بواسطة السفير. النتيجة أنها فكتهما من الأسر واستقدمتهما إلى باريس، حيث تشتغلان الآن وتنالان إعجاب نساء البلاط والمجتمع الرّاقي، وتنالان الربح الوفير، زيادة عن جراية يوميّة من الملكة قدرها ريال ذهبي».

طرقت باب التركيتين ففتحته صغراهما، وأسرعت برفع البرقع المشبّك لتستر نصف وجهها. كانت حركة لا إراديّة من امرأة تعودت على حياة الإفرنج، لكنّها تستعيد ذكرى أصولها فجأة عند تقابلها مع رجل غريب قادم من بني ملتها.

قادتني إلى مجلس أمّها في قاعة فسيحة مرتّبة، لكنّها عامرة بالأنوال الصغيرة وقراقف التطريز، مع مقصات وأدوات دقيقة أراها لأوّل مرّة، وأجهل مقاصد استعمالها.

قلت لعنايات خانم، بعد أن أخبرتني أنّ هذا هو اسمها الأصلي: «حاولت ابنتك الاحتجاب عند دخولي، وها أنا أعتذر لعدم الاستئذان والاحتياط، إذ بلغني أنّكما لم تعودا مسلمتين، وظننت دخولي عليكما غير محرج.

– تركنا الإسلام بحكم الضرورة أيّها الشريف، أمّا القلب فباق على فطرته. ألم تكونوا في مثل حالنا بالأندلس؟

– بل أكثر بلاء، وأشدّ محنة.

- حاوروني وداوروني، ويسّروا عيشي بالإغراء والترغيب، إلى أن قبلت الدخول في دينهم بعد انقطاع الرجاء في العود إلى بلدي وأهلي، فبدّلوا اسمي إلى ماري لويز واسم ابنتي إلى مرجولان، وعشنا مكرّمتين في ظل السلطانة.
- وما الذي أوقعكما في أيدي القراصنة؟
- كنا نقصد الحج بمعيّة زوجي وابني عصمت رحمهما الله، فهاجمنا قراصنة البندقيّة واستولوا على ما في السفينة، وقتلوا من قاومهم من الرجال، ومن بينهم عزيزانا وكل سندنا في الحياة. وها أنت ترانا من دار غربة إلى أخرى، تتلقفنا أمواج الحياة ولا ندري أين يكون مرسانا الأخير».

لفظت بعض عبارات التّعزية وأنا أحسّ بوجودي يثير حزن الأرملة القدم. دمعت عيناها فسارعت إليهما بمنديل، ثم حاولت الابتسام للتعبير عن فرحها بزيارتي.

ذهبت الفتاة تأتيني بالقهوة عندما بحثت بعيني فلم أجدها. سألت الأم:

«ومرجولان ماذا كان اسمها؟

- كان اسمها جلّنار أيّها الشريف».

تناولت القهوة من يد جلّنار وتوجّهت إليها بالكلام هذه المرّة رغم احتشامها:

«أشكرك يا جلّنار. أليس هذا هو اسمك الحقيقي؟

- نعم هذا اسمي، وأنا أحبّ من يناديني به، ولكنّهم غيّروه هنا.
- سلمت يداكما، هل كلّ هذه الأشغال من تنفيذكما معا؟
- البركة في الوالدة، فهي المعلّمة وأنا المنفّذة».

ابتسمت الأم لإطراء ابنتها وأضافت:

«بعد أن ضعف بصري صار العمل كلّه على جلّنار، وأكتفي غالبا بالتخطيط والتوجيه.

- نتيجة تعاونكما مبهرة، ولم أسمع في باريس سوى الثناء عليكما وعلى صنعتكما المتقنة.

قالت جلّنار:

«لا مال لنا ولا أهل... حتى الحرّية فقدناها، فلم نجد ما نعتمد عليه بعد الله سوى صناعة أيدينا لإثبات وجودنا في أرض غريبة، وبين أناس لا نعرفهم ولا تربطنا بهم رابطة، وها نحن نعيش وفق شروط دفعونا لقبولها، بأدب في الحقيقة ولكن بحزم، فقبلناها لنعيش بكرامة، بعداليأس من عودة قريبة إلى أرضنا».

كم وددت طرد هذا التشاؤم الطاغي على روح الفتاة، إلى درجة التأثير في ملامحها وإظهارها في غير سنّها الحقيقية. لا ريب أنها بعد زمن قليل ستصير كالعانس المزمنة، ويذهب رواء شبابها قبل الأوان. فمهما أحاطت بها مظاهر الإكرام من دائرة الملكة ستبقى مع ذلك فتاة مجهولة الأصل، سباها القراصنة ذات يوم وباعوها في البندقية. صحيح لديها المال، ولكنّها بلا أهل ولا سند، وبلا أمل في تكوين أسرة وإنجاب أولاد. قلت مواسيا:

«أوصانا الله أن لا نقنط من رحمته، ثم إنّك شابّة في مقتبل العمر فلا داعي لليأس يا آنسة ما دامت هناك حياة».

ابتسمت عن صفّين من عقيق منضّد. لأوّل مرّة أشرق وجهها وبانت فيه مخايل جمال على وشك الذبول، فأطلت فيه النظر قبل أن يعود إلى جهامته الأولى.

وافقت عنايات خانم على رأيي:

«كرّرت عليها هذا القول دائما، لكنّما الواقع يفرض نفسه كلّ يوم، وينزع عنّا الميل إلى الآمال والأحلام».

غيّرت محاور الحديث في باقي العشيّة، وسلّيت المرأتين بما استطعت، فتحاورنا في مقارنة عادات الفرنجة بعادات الأتراك، وضحكنا أحيانا من بعضها، وحدثتهما عن فضل الإسلام وأنّ لا خلاص إلاّ به يوم القيامة، وعذرتهما على تظاهرهما بالتنصّر، وأنا العارف بمثل هذه الحال. وقبل الخروج قبلت دعوتهما إلى تناول الغداء معهما قبل سفري، وكان مقرّرا لما بعد أسبوع.

في اليوم المتّفق عليه جهّزت لي التركيتان مأدبة سلطانية، ولا أبالغ... كيف انفتحت شهيّتي في ذلك اليوم على غير ما اعتدته منذ وصولي إلى أوروبا؟.. لا أدري فلعلّه الجوّ اللّطيف الذي أشاعته المرأتان حول مائدتهما، مضافا إلى طيب الأصناف الشرقية من الأكل التي أجهل أكثرها، ابتداء من التسمية إلى المحتويات.

دار الحديث بيننا أكثر ودّا وصفاء، وقد أحسّتا بالأنس بي والقرب منّي. أطلقت البنت ضحكاتها بعفوية أكثر من المرّة الأولى، وأولتني رعاية خاصّة لامست مشاعري حتى أحسست كأنني بين أهلي ووسط عائلتي. بعد الأكل اتخذت عنايات خانم سمتا جادّا وسألتني:

«سأطلب منك حاجة لوجه الله تعالى، فهل تمنحني أملا في قضائها؟».

نظرت ناحية جلّنار أستطلع مدى علمها بمطلب أمّها. وإذا بعينين في خضرة اللّوز تذيبان مهجتي برجاء صامت: كلّي لهفة لمعرفة ردّك، لا تقطع رجاءنا فأنت الأمل الأخير.

عند التقاء عيني بنظرات جلّنار أحسست بالاستعداد الكامل للتنفيذ، قبل معرفة ما المطلوب منّي.

- اذكري حاجتك يا عنايات خانم، وسأقضيها بحول الله.
- أن تساعدنا وتدلنا على طريقة نعود بها إلى إسطنبول.
- وهل تسمح ملكة فرنسا؟
- لن تسمح أبدا.
- هذا يعقّد المسألة، لكن دعيني أفكّر في الطريقة المناسبة وسترجعان سالمتين بإذن الله».

ما الذي أكسبني كلّ هذه الثقة بالنفس؟ كيف عرفت أنهما سترجعان... وما الذي أقدر عليه لتنفيذ وعدي؟ قلت كلامي ذاك براحة نفس وضمير، لكن بلا يقين في شيء.

عمّ البشر والفرح وجه الأمّ وابنتها، وتلاصقتا كحمامتين ضيّعتا الطريق وتاهتا في الغابة، فجاء ملاك يدلهما على المخرج. لاشيء مؤكّد أو قد يتحقّق

يقين، ولكنّهما فرحتا مع ذلك كطفلتين ملأت أحضانهما الهدايا، وتسابقتا إلى توديعي عند الباب وكلّ منهما تتفنّن في انتقاء كلمات المؤانسة والترحيب، مختلط عربيّها بألفاظ تركيّة وفرنسيّة.

عند ركوبي العربة خرجت من صدري آهة عميقة، وشعرت في قرارة نفسي بالسّعادة.

في ذكر بلاد هولندة

قصدنا تلك البلاد، وهي أبعد عن بلادنا من بلاد الفرنج، لمّا رأيت فعل بحريّة الفرنج بالمسلمين، وفي عزمي ألاّ نرجع إلى بلادنا في سفنهم، بل نمشي إلى هولندة لأنّه لم يحصل من أهلها ضرر.

ولما بلغنا مدينة أمستردام رأينا العجب في حسن بنيانها ونقائها وكثرة مخلوقاتها، حتى تكاد تشبه مدينة باريس. ولم تكن في الدنيا مدينة مثلها بكثرة السّفن، حتى قيل إنّ عددها ستة آلاف سفينة. وأمّا الدّيار فكل واحدة مرسومة ومزوّقة من أعلاها إلى أسفلها بالألوان العجيبة، لا تشبه واحدة الأخرى، والأزقّة كلّها مرصوفة با لأحجار. والتقيت بمن رأى بلاد المشرق وبلاد الصقالية ورومة وغيرها من بلاد الدنيا، وقال مع ذلك: إنّه ما رأى مثلها في الزّين والملاحة.

وتتألّف هولندة من سبع عشرة جزيرة، وجميعها كانت تابعة لسلطان إسبانية. ثم ظهر في تلك البلاد رجل دين يُسمّى لوثر، وعالم آخر يُسمّى كالفن، كتب كلّ واحد منهما ما ظهر له في دين النصارى من التحريف والخروج عن دين سيدنا عيسى والإنجيل، وأنّ البابوات برومة يضلّون الناس بعبادة الأصنام، وبما يزيدون في الدّين بمنع القساوسة والرهبان من التزوّج وغير هذا كثير.

والنتيجة أنّ أغلب أهل هولندة اتّبعوا هذا المذهب وخرجوا عن طاعة إمبراطور إسبانية قبل هذا العهد بنحو سبعين سنة، فما قدر على إخضاعهم، لما لهم من سفن وقوّة بحريّة. وعلى هذا المذهب أيضا أهل مملكة الإنكليز وكثير بفرنسا، وقد دأب علماؤهم على تحذيرهم من البابا ومن عبادة الأصنام، وأن لايبغضوا المسلمين لأنهم سيف الله على عبدة الأوثان، وبسبب ذلك لهم ميل إليهم.

ولما زرنا مدينة لايدن رأينا فيها مدارس لقراءة العلوم ومكتبة عظيمة، ووجدت فيها رجلا اسمه توماس أربنيوس يقرأ بالعربية ويدرّسها نحوا وصرفا، ويأخذ راتبا على ذلك. وكنت عرفته بفرنجة، بواسطة هوبرت وكان مشغولا بجمع مادّة كتابه المدرسي: «مقدّمة في قواعد العربية». والذي نشره بلايدن أثناء وجودي فيها، رأيته بين يديه مطبوعا بالقالب، حروفه عربية مسكوبة من رصاص. عجبت للأمر وتحسّرت في نفس الوقت لأنهم سبقونا إلى علومنا والآن يسبقوننا إلى استخراج كتبنا بالطباعة والقالب ونحن ما زلنا ننسخ يدويًّا بالمداد وأقلام القصب. حملني إلى داره فرأيت عنده كتبا عربية كثيرة من جملتها القرآن العزيز. وفي حواري معه رأيته - كما جرت العادة - يمدح دينه مثبتا القول بالتثليث في الألوهية، لأنهم متّفقون في ذلك مع البابا ومتّبعيه، رغم اعتقادهم بصواب ما قاله لوثر وكالفن.

قلت لأربنيوس:

«نحن متّفقان في جميع ما قلت في مدح المسيح ودينه، إلاّ قولك إنّه إلاه أو ابن الله.

- وما قولك في الروح القدس؟
- أليس الروح القدس هو البارقليط المذكور في الإنجيل؟
- نعم هو.
- أنت تعرف الألسن واللغات، فما معنى البارقليط؟
- هي كلمة من لغة اليونان، ومعناها بالعربية: شفيع.
- هذا من أسماء نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اسم يدلّ على شخص أليس كذلك؟
- نعم.
- ولماذا تجعلونه إلاها، وتقولون إنّ الثلاثة شيء واحد؟».

ثم جاء الحكيم المشهور في الطبّ والعلوم بطرس باوو ضيفا على صاحب البيت وشاركنا الحوار، فسألني:

«نحن عندنا القرآن المترجم باللاّتين وليس فيه معجزات لنبيّكم كما عندنا في الإنجيل، فهل توجد في كتب أخرى خاصّة؟

- عندنا، مذكورة في كتب مشهورة، أحدها للقاضي عياض. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤدّيها بحضرة أقوام كثيرين، فيهم من رأى فضله وصدّقه في القول والفعل فاتّبعوه ودخلوا في دينه، إلى أن انتشر في أكثر معمور الدّنيا.
- والله أتمنّى قراءة هذا الكتاب، لأنّ هذه المعجزات ذات احتمالات، وكثيرون يؤدّونها مستعينين بالحيل والشياطين.
- أليس في علمكم ما تفرّقون به بين المعجزة النبويّة الربّانية والحيل الشيطانية المستعملة بالشعوذة؟
- اذكر لي أنت كيف يعرف ذلك؟
- أما النبيّ فلا يقوم بمعجزة إلاّ إذا طلبت منه، وغالبا ينتج منها نفع بباطن وظاهر. أمّا الباطن فحصول اليقين في القلوب، والتصديق بما ذكر لهم من جانب الله تعالى، وأمرهم به ونهاهم عنه. وأمّا الظاهر فهو ما به نفع ظاهر للناس. مثال ذلك أن يغيث جيشا وينجده بالماء والطعام، وإن لم يفعل ذلك لماتوا، وقد حصل هذا مرارا. أوكأن يطلب المطر، أو يشفي مريضا.

وأمّا الأفعال الشيطانية فإنها لاتعود بالنفع إلاّ على صاحبها وحده لاغير. قد يصنع المشعوذون الأعاجيب من غير أن يطلب منهم أحد، فلا يحصل منها نفع حقيقيّ أبدا، وهم يجذبون الناس ليروا ما يعملونه، أمّا إذا طلب منهم أن يصنعوا شيئا من خوارق العادات غير الذي يظهرون، فهم لايقدرون. والمشعوذ يسعى أساسا ليفرح الناظرين ويستدرّ أموالا يعيش منها، ولو قلت له: علّمني شيئا من سحرك وأعطيك دراهم لفعل، فالأمر عنده حرفة وصنعة.

- صدقت فيما قلت... هذا هو الحقّ».

انتقلنا من لايدن إلى مدينة لاهاي وفيها دار أمير البلاد وديوانه. تقع هذه المدينة في الدّرجة اثنين وخمسين عرضا، وذلك في الإقليم السادس من الدّنيا. وقد صادفنا فيها أطول أيام العام عند حلول الشمس بالسرطان، فاليوم هناك ابتداء من الفجر طوله تسع عشرة ساعة، ولا تليه ظلمة الليل إلاّ قليلا، فالشمس تنحرف

وتبقي في السماء احمرارا يدوم إلى قرابة منتصف الليل، ثم بعد ذلك بساعة ونصف الساعة نقوم لصلاة الصبح.

والتقيت هناك بالسفير بيتر مرتينسن كوي، وكنت عرفته بمراكش وهو بها سجين. فزارني ليشكرني ثانية جزاء وقوفي معه في محنته حتى تخلّص من السجن وعاد إلى بلده مكرّما. وسبب قدومه إلى المغرب أنّ ملك إسبانيا حين شتت أهل الأندلس بعثهم في الأغربة إلى جزر مختلفة، وبعضها على ملك هولندة الخارجة عن طاعته، ومن أهلها من تجمّع في الموانئ عند علمهم بوصول السفن الإسبانية، ورموا بحّارتها في البحر مخلّصين من أيديهم قرابة الثلاثمائة أندلسي كانوا على متنها، وأرسلوهم في سفينة عظيمة هديّة إلى سلطان مراكش، وكان يومها المستولي على الحكم هو أبو فارس أحد أبناء مولاي المنصور.

وشاءت الصدف أن يكلّف بمرافقة الأندلس رسول من الأمير هو هذا الرجل الذي لاقيته صدفة في لاهاي، والذي لم يحالفه الحظّ في أداء مهمّته، إذ وصل في زمن الحرج والثورات والاختلاف بين أبناء المنصور.

ثم ثبت في السلطنة مولاي زيدان فسجن السفير بدعوى أنّه ما مشى بالهديّة في عهده، ظانّا أنّ العمل مقصود تمّ تدبيره وتوقيته، وقد تكون هناك وشاية من بعض ذوي الأغراض بالدّيوان السلطاني.

المهمّ أنّ السفير قضى زمنا وهو منسيّ في سجنه، حتى بلغني خبره فتحيّرت، وتساءلت: هل من المعقول أن يجازى رجل قدّم خدمة للمسلمين بمثل هذا الجزاء؟ لقد خلّص المسلمين الأندلس من ذلّ الأسر وأتى بهم مكرّمين إلى بني ملّتهم، مع رسالة من أمير بلاده، فكيف يسجن؟

كلّمت المفتي والعالم الشهير محمد الرجراجي، وكان مقرّبا من السلطان، وألقيت عليه نفس السؤال، فاحتار مثلي وسعى بكامل جهده حتى أطلق سراح السّفير من السّجن، وأعيد إليه فرسه وسلاحه وبقيّة أمتعته.

فلما رآني في بلاده مشى إلى الأمير موريس وأعلمه بما كان لي معه، وحملني عنده. وعند وصولي وقف الأمير من مجلسه ورفع قبّعته احتراما، ثم أخذ بيدي وأجلسني إلى جانبه.

قلت للسفير بيتر ونحن عائدان من زيارة الأمير:

«إن بالي منشغل بأمر امرأتين تركيّتين لقيتهما بباريس.

- ويهمّك أمرهما كثيرا؟

- كثيرا جدّا. لقد طلبتا منّي تدبير أمر إعادتهما إلى بلدهما، ولكن ماذا عساني أفعل وأنا غريب مثلهما؟ ومع ذلك وعدتهما بالمساعدة، وها أنا حائر لا أدري كيف سأفي بوعدي. علما بأنّ ملكة فرنسا تعارض سفرهما لأنها تستخدمهما في خياطة أزيائها. فكيف ترى التدبير... وهل في قدرتك المساعدة؟

- الأمر بسيط لو كانتا هنا. اكتب لهما بالقدوم إلى هولندة وسأستقبلهما في بيتي وأدبّر أمر سفرهما إلى بلدهما. هذا ما أستطيع الوعد به».

قابلت الأمير موريس ناساو أربع مرّات وكان رجلا وسيم الهيأة أنيق الملبس، عسكريّ المشية والوقفة، وقد علمت أنّه يجيد الفنون الحربيّة وقهر الإسبان في أكثر من معركة، وهذا زاد من تقديري وإجلالي له، إضافة إلى ما يوحي المظهر والمركز من هيبة واحترام. وفي أولى الزيارات سألني:

«ما ذا تعرف من الألسن؟

- العربية والإسبانية ولسان أهل البرتغال، أمّا كلام الإفرنج فأنا أفهمه ولا أتكلّمه.

- أنا أعرف كلام الإفرنج وأفهم كلام إسبانية ولا أتكلمه بعكس حالك، ولذا أكلّمك بالإفرنجي وتكلمني بالإسباني ليكون كلامنا دقيقا وواضحا، فما سأقوله لك هام، وأرجو أن تسمعه جيدا.

- هذه الطريقة مناسبة لكلينا، وأنا منتبه تماما لكلام سموّ الأمير.

- هذا جيد. خبرني الآن ما السبب الذي حمل ملك إسبانية على إخراج الأندلس من بلاده حسب رأيك؟

- لقد تنصّر أهل الأندلس يا سموّ الأمير بفعل القهر والخوف، لكنّهم بقوا مسلمين في الخفاء، ومن حصل الشكّ في أمره حاكمه قضاة ديوان

التفتيش، فإمّا أن يصادروا أمواله، أو أن يرموا بـه في السـجن، أو أن يحرق. فانعدم الأمان بين الطائفتين، وزالت ثقة الملك فيهم وحمايته لهـم، حتى إنّه أبطل تجنيدهم في الحروب، وهي التي تفني كثيرا مـن الخلـق، ومنعهم من ركوب البحر لئلاّ يهربوا، والبحر يفني أيضا. والنتيجـة أنّ النصارى قلّ عددهم بفعل الحروب وركوب البحر وامتنـاع الرهبـان والراهبات من الزواج، على عكس الأندلس الذين ظلّ عددهم يـزداد، وخاف فليبّي أنهم بطول الزمن يفوقون عدد النصارى.

- ما ذكرت هو الحق. والآن أصدقني القول فيما سأسألك عنه.
- تفضل يا سمو الأمير... وسأجيبك بما أعلم.
- ما رأيك لو اتفقنا مع كبراء الأندلس، فنبعث لهم عمارة سـفن كـبيرة ليتعاونوا معها على غزو إسبانية وطرد ملكها الظالم؟
- لكن كبراء الأندلس مشتّتون في عدّة أصقاع، ولا أظنّهم يوافقون علـى أيّ مشروع من هذا القبيل إلاّ بإذن السلاطين الذين يأوونهم... ليسـوا أحرارا في قرارهم يا مولاي.
- ما رأيك لو نتّفق مع سلطان مراكش والسلطان العثماني. هـل يمكننـا بتحالف كهذا الانتصار على ملك إسبانية والظفر به، بعد كلّ ما فعـل ويفعل؟
- لو حصل هذا لكان أمرا عظيما، ولكن تحقيقه عسير في الظروف الحاليّة يا جناب الأمير.
- بلّغ رغبتي إلى جلالة سلطان مراكش، وحاول إقناعه بموقفنا، وسأراسـل في نفس المعنى سلطان تركيا.

ثم التفت إلى السفير بيتر وقال له:

«اكتب رمزا في الحروف، وأعط ضيفنا نسخة لتكون المكاتبة بيننا وبينه أكثر أمانا».

زرته آخر مرّة للتوديع فسلّمني نسخة الرموز وطلب منّي المراسلة. وسـألني هل لي حاجة فيقضيها، قلت:

«شكرا يا جناب الأمير... إنّ رعايتكم شملتني، وعطفكم قضى كلّ حاجاتي وزاد، ولذا فأنا غير طامع إلاّ في توصية كريمة منكم لرايس السفينة التي سنعود بها إلى المغرب حتى يراعينا ويحسن معاملتنا».

نادى كاتب سرّه وأمره بالتّحقّق من اسم السفينة واسم صاحبها، وإعطائه تكليفا رسميًّا بأنّنا ضيوف الأمير، وأنّ عليه واجب خدمتنا بصورة ممتازة في الغذاء والمأوى.

وقد اعتنى بنا رايس السفينة تبعا لهذه الأوامر، فآوانا قرب مقصورة القيادة، وغذّانا من نفس طعامه، فتمّت عودتنا على أحسن حال.

باب تونس

ذكر قدومنا إلى تونس

تنشقّ صفحة الماء أمام مركبنا فيندفع مطمئنًا، واهبا أشرعته للـريح تدفعه بقدر ما تشتهي... لكن من أين يأتي الاطمئنان وهذا بحر أخطار وأهوال. على ضفافه المدافع والحصون كشوك الصحراء، وعلى رماله الجند المتراصّ يترصّد؟... أمّا القراصنة فمختبئون في الجزر للقفز كبراغيث البحر على كلّ عابر.

ألست مندفعا في مغامرة مجهولة العواقب؟ ألم أتهوّر بدخول هذا البحر العريق في الغدر واختلاق الحروب؟

ألا أقدّم نفسي وعائلتي غنيمة لقيود القراصنة وسجونهم؟... ألا أضع ثـروة جمعتها سنين طويلة، عطيّة سهلة بين أيدي صيّادي السردين النتنة؟

هذا بحر كلّ الأخطار، وأين منه سفري مدّة ثلاثين يومـا في المحـيط دون اعتراض؟ إنّ قصص الغارات البحريّة تتدفّق يوميًّا على الضفّتين: يعترض النصارى سفن المسلمين رافعين ألوية بصليب، ويعترض المسلمون سفن النصـارى رافعـين ألوية بهلال. هكذا كانت البداية، لكن القرصنة صارت فيما بعد مهنـة وتجـارة وسيول ذهب تملأ خزائن الحكام.

إنّ تاريخ هذا البحر الزاخر بكبريات الأحداث وعظـيم الوقـائع لاينسـى بسهولة. فعلى مياهه تصادمت جيوش العالم القديم كلّها، فهزمت وانهزمت، وعبره انتقلت الديانات السماوية، وتبادلت ضفتاه الحكام والسـلاطين، فتـارة يحكـم الجنوب الشمال، وتارة ينعكس الأمر ويحكم الشمال الجنوب.

كم رحل فوق هذه الأمواج منتصرون ومنهزمون، وكم حملت مطـرودين ومنفيّين فوزّعتهم على المفارق وفي مهبّات الريح؟

كم من خلالهم تسرّبت أفكار وآراء وفلسفات وحكم وأمثال وحكايات؟

وكم بين أصابعهم تجمّعت أموال، وكم من نفس الأصابع تبعثرت ثروات؟

تذكّرت حروب قرطاجنّة وجحافل سفنها تَغزو ثم تُغزى. وتذكّرت جيش المسلمين يرسي بصقلّية فيرسي التّرمان بدورهم في المهدية. وتذكّرت شارل الخامس وكيف جاء يبني القواعد في حلق الوادي ليطيل المقام، فإذا بسنان باشا ينقضّ عليه من الشرق ليقتلعه ويعيده إلى بيته.

وتستمرّ نفس الأمواج مهتزّة تحت مراكب القراصنة، مسلمين ونصارى، بين طارد ومطارد في سباق متواصل لايهدأ... هي نفس الدائرة التي أخذت موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى بلاد القوط، ثم عادت بأحفادهم منها، ولا زاد لهم سوى الحسرة، ولا مصير لهم سوى البحث عن وطن جديد.

حيثما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله... خرجت العبارة من شفتيّ دون أن أشعر، لكنّها أراحت نفسي القلقة المنقبضة لذكرى من فقدناهم، أو باعدت بيننا وبينهم المسافات.

أنظر كيف تتهادى سفينتنا مطمئنّة، وفي نفسي شكّ أن يكون للربّان نفس الاطمئنان، فلو خرج علينا مركب قرصان، خفيف الحمل كثير السلاح، بمجاذيف عديدة تضرب الماء متعجّلة، لأدركتنا قبل أن ننطق بالشهادتين.

سألت الربّان ونحن نغادر الميناء:

«هل توجد في السفينة وسائل للدفاع إذا ما هوجمت؟

- تعني مدافع ومنجنيقات وما إليها؟
- أعني الحد الأدنى لينقذ المرء نفسه وعياله.
- إذا جمعك موعد بالقراصنة فلا حدّ أدنى ولا حدّ أقصى. إنهم يطاردونك بجنون، فإمّا أن تفلت إلى أرض قريبة إذا ساعدتك الريح، وإلاّ فإنذار بطلقتين أوثلاث ثم رمي المخاطيف للالتحام، يليه القفز واستلال السيوف، فإمّا الاستسلام، وإمّا...
- لاتكمل. فهمت الطريقة».

حاولت نسيان ما جرى لعائلة جلّنار وهي قاصدة الحج كما نفعل اليوم، وتمنّيت ونحن أمام شواطىء الجزائر أن تحضر روح خيرالدين لتشيع الرّهبة في المكان فيخاف الأعداء، ويبتعدون.

ضحك الرايس من حيرتي، وأضاف إلى قوله:

«ادع لنا بالنجاة إذا داهمنا خطر، واترك الباقي لمهارتي في التسلّل عبر الموج. فإبحارنا بثلاثين درجة عرضا يجعلنا قريبين من الشاطىء الإفريقي، وأهله كلّهم مسلمون، نستطيع اللّجوء إليهم في حال الخطر.

- أنا الآن أكثر اطمئنانا، وسأدعو لك بالخير والسعادة حتى وإن لم نتعرض لشيء».

جلت بالنظر في سطح السفينة المزدحم بالحجيج، ثم توقّفت عند النافذة الصغيرة للقمرة التي تحت الشراع. عائلتي هناك. إن فقدت وطني فقد نجوت بكرامتي قبل أن ينزل الذلّ بالجميع. وجمعني الله بالأخيار من عباده، ثم وهبني عائلة هي وطني أنتقل به حيث يراد لي أن أكون.

«حيثما تُولُّوا فثمَّ وجهُ الله»... أعدتها ثانية حين انزويت في مقدمة السفينة، مستظلاً بالشراع الطويل من أشعّة الشمس القويّة، ناويا الاسترخاء والرّاحة، لكن الذكريات القريبة عاودت الحضور لتستعرض ما فات وتسأل عمّا هو آتٍ.

حضرت في الذاكرة سحنة السفير إسحاق بلاّش وهي تتغيّر من الأبيض الناصع لطول إقامته بهولندة، إلى الأحمر المحتقن لدهشته مما يسمعه منّي:

«ما بالك قد تغيّر لونك؟ كأنّني أروي حادثة مفزعة. سأعيد ما قلته على مهل لتأخذ أنفاسك جيّدًا: امرأتان تركيتان، أم وابنتها، تعيشان في رعاية ملكة فرنسا وتعملان بالتطريز والخياطة لحسابها. استنجدتا بي عند التقائي بهما في باريس، ووعدتهما بالمساعدة. هل في هذا عيب أوسوء تصرف؟

- أبدا يا مولاي أحمد... وهل يصدر منك العيب؟
- لماذا تنظر إليّ هكذا إذن؟... اسمع البقيّة. قابلت السفير بيتر كوي عند مروري بهولندة وحدّثته كما أحدّثك الآن بأمرهما، وطلبت منه المساعدة.
- هل وعدك بشيء؟

- كان رجلا نبيلا وشهما... التزم لي بإعادتهما إلى بلدهما على نفقته، لكن بشرط انتقالهما إلى لاهاي. وهذا لا حل له إلاّ في يدك يا صديقي إسحاق، لنقلهما في عربتك سرًّا من باريس إلى لاهاي.
- في يدي أنا... لنقلهما سرًّا؟ ومن تظنّني يا مولاي أحمد؟ إنّ مهمّتي رسميّة لا مجال فيها لتجاوز القانون.
- بالعكس، أنا محتاج إلى مهمّتك الرسميّة لتغطية هروب المرأتين، وإلاّ فلن تريا سماء إسطنبول الصافية بقيّة الدهر.
- إنّه ليس ذنبي، وأنت تعرف ذلك. وتعرف أنني لا أستطيع تلبية رغبتك، رغم اشتهائي الحصول على رضاك واسم ربّي.
- وأنا بدوري أقدّر همتك وشجاعتك، وأعرف أنّك عندما تشتهي شيئا تُنفّذه.
- إلاّ هذه لا أستطيعها... فهي جريمة. هل تتصوّرني أُهرّبُ الأسرى؟ إنّك تُعرّضُني للخطر.
- اسمع يا إسحاق. هذه آخر مرّة أطلب فيها منك معروفا، فلا تهدم صداقتنا وضع في حسابك أنّني سأعطيك... وسأعطيك... وسأقضي لك... وأقضي لك...».

وظللت أدفعه نحو قبول مطلبي بشتى وسائل الإقناع والإغراء، حتى لاَنَ واستسلم:

«سوف أخدمك يا مولاي أحمد باسم الصداقة والأخوّة لا غير. أنا بطبعي لا أطيق المغامرة، خاصّة إذا تعلّقت بالجهات السلطانية، وفي مثل حالك أنت لابُدّ أنّ ثمة أمرا خاصًّا... لا أريد سؤالك عن تفاصيله، ولكني أحسُّ أنّك ستتألّم إن لم يقض».

واستمرّ بوجهه المحتقن يبرّر رفضه الأوّل ثم قبوله بالدوافع الإنسانية، وبكثرة ما رقّ قلبه الحالي.

زوّدت إسحاق بخطاب إلى عنايات خانم فيه شرح للخطّة، وتعريف مختصر بمن سيرافقهما من باريس، وبمن سيتولّى أمرهما في لاهاي، وأعطيته العنوان مع

كيس ذهب رنان، أخذه منّي بتواضع كبير، وهو يؤكّد الالتزام بالدقّة والسرّية التامّة حتّى اجتياز الحدود.

بعد شهور من التّساؤل والحيرة جاءني خطاب من إسحاق يعلمني فيه بنجاح الخطّة، وعبوره الحدود بالمرأتين دون تفتيش، نظرًا لصفته، وأنهما مقيمتان عند الصديق بيتر كوي. ثم جاءت رسالة من بيتر بعد أيّام يقول فيها أنّه جاهز لإرسال السيّدتين إلى تركيا، ولكنّهما غيّرتا رأيهما الأول، وطلبتا منه ترحيلهما إلى المغرب، ويريد معرفة رأيي.

لا يمكن لرسالة مقتضبة أن تشرح لي العوامل التي طرأت على اتفاقنا الأول، لذا احترت كثيرا وتساءلت، ومع ذلك أحسست بجذل داخلي غير واضح الأسباب، فهل فرحت لنجاح خطّة الهرب... أم فرحت لرؤية الأسيرتين ثانية؟ هل دفنت العينان اللوزيتان في وجداني عاطفة أطلت برأسها الآن؟

مهما يكن الأمر فقد أجبت السيد بيتر كوي مع عودة البريد طالبا منه الاستجابة لما يستقر عليه رأي ضيفتيه، سواء بالذهاب إلى تركيا أو إلى مراكش مع استعدادي لتسديد النفقات. وأرفقت خطابي بنسخ من المخطوطات العربية التي أعرفه يرغبها ويتشوّق للحصول عليها، منها مروج الذهب للمسعودي، ومعها هدايا أخرى كثيرة.

ما هي إلاّ شهور قليلة حتى حلّت بيننا جلّنار وأمها. اقتبلتهما بما يقتضيه واجب الضيافة، ثم حان الوقت المناسب لكشف المستور وإعلان الرغبة الحقيقيّة. فقد أرادتني جلّنار كما أردتها منذ لقائنا الأوّل، وصارحت أمّها، فباركت عنايات خانم رغبتنا، ورأت فيها أحسن تخطيط لمستقبل ابنتها. ولذا عدلت عن العودة إلى تركيا حيث لا أحد في الانتظار، وجاءت تزفّ جلّنار أو مرحولان إلى رجل رغبت فيه وأرادت العيش معه. طبيعي بعد هذا أن أتزوج البنت وأن أبرّ بأمّها كأحسن ما يكون البرّ، فكان لي من رفقتهما ما اكتمل به أنسي وطاب به عيشي.

يوم زرت عبد الرحمان حمنيث لأعلمه بقرار رحيلي عن مراكش عدت إلى البيت فدخلت على جلّنار لأعرف رأيها:

«ها أنت ترين الوطن الذي اخترت العيش فيه يتمزّق، ويصاب أهله بهلوسة التصوّف وعشق الأولياء، أو بجنون الثورة على كل شيء، وإن بلا هدف معلوم. أما كان أولى بك وبأمّك العودة إلى تركيا ودعوتي إلى الالتحاق بكما هناك عوض المجيء إلى هنا؟ أنا، ويا شدّة أسفي، غير قادر على توفير النعيم الذي حلمت بـه بعد تخليصك من الأسر، لذا أفكّر في تعويضك عن خسارتك باصطحابك لأداء الحج الذي قصدته و لم تنجزيه بسبب القراصنة. فما هو رأيك؟

– ما دمت تعتبرني أخطأت في قراري المجيء إلى هنا، فهل أنت مستعدّ لأن نتعاون على إصلاح الخطإ؟
– ها أنني عوّضت عليك الذهاب لأداء الحج؟
– أقترح أن تذهب العائلة كلّها، الأولاد وزوجتك الأولى، ووالدتي.
– سيكلّفنا هذا أحمالا ثقيلة ومصاريف كثيرة.
– سنعوّضها إن شاء الله إن استمعت إلى تدبيري».

وكان تدبيرها دقيقا، متوافقا مع ما قرّرته بيني وبين نفسي، و لم أصرّح بـه لغير عبد الرحمان. خلاصته أن نرحل نهائيًّا بعد بيع ما يثقل حمله، متظاهرين بالسفر للحج، وعند الوصول إلى تونس نؤمّن سكنى ومؤونة العائلة، ثم نذهب إلى مكّة، وبعد العودة نستقر جميعا بتونس، إذا صادفنا ظروفا ملائمة للمقام.

اقترب مركبنا صباح أحد الأيّام من نتوء أخضر على يميننا، هو برزخ أوجزيرة في شكل كتلة متقنة التدوير ككومة الحبوب. وكان هذا أوّل ما شاهدنا من أرض تونس. وقفنا نتفرّج مبتهجين بقرب الوصول وانتهاء قلقلة السفر وعذابه. لكن الفرحة لم تدم، إذ صاح مراقب من أعلى الصاري ينادي الربّان ويحثّ الركاب على الاختباء.

التفتنا حولنا مذعورين واذا الأفق من ورائنا وشمالنا مغطى بالأشرعة، وإذا هي تقترب حثيثا في اتجاهنا محيطة بنا كالقوس الكبير، وليس لنا مهرب إلاّ الإسراع نحو البرّ لعلّنا نصله قبل الملاحقين. لم تنفخ الريح بقوّة تحقّق لنا ما نريد،

فابتعدنا قدرا غير قليل، ولكن السفن الأخرى كانت أخفّ حركة وربما فيها مئات السواعد للتجديف.

قال الربّان بعد تقليب ناظريه في جميع النواحي:

«إنها سفن مسلمين. لاتخشوا مكروها. رأيت هلالا على الرايات، ولا أظنّ النصارى استعملوها للخداع.

قلت مشككا في اعتقاده:

- ولماذا لا تظنّ؟... ألا تخادعوهم أحيانا برايات ذات صلبان، أم إنّك لم تشترك أبدا في معارك الجهاد؟
- بلى اشتركت، وأعرف أنّها حيلة دارجة معروفة، ولكن هذه السفن وفيرة العدد واقتربت كثيرا من البرّ. لسنا المقصودين بالمتابعة، وإنّما هي سفن الداي عائدة من غزوة أو نجدة، ووصولها معنا هو مجرّد صدفة».

رجوت أن يكون الأمر كما يظنّه الربّان، وقصدت عائلتي لأخبرهم بما استجدّ، وأُدخِلَ على نفوسهم بعض الأمان بعد أن شاع الفزع بين الركّاب، وبعد أن شاهدوا النوتية يتراكضون ويستعدّون للطوارئ.

لاحت من بعيد قلعة حلق الوادي، وفي نفس الوقت أحاطت بنا السفن الملاحقة كالسوار بالمعصم، واقتربت إحداها منّا حتى رأينا كلّ من فيها واقفين صفًا على الحافّة، عيونهم تقدح شررا، والخناجر تلمع بين أسنانهم، وفوجئنا بسفينتنا تنجذب نحوهم بمخطاف ألقوه علينا وسحبوه بعجلة دون أن ننتبه. وجاءنا صوت القائد المغير وهو واقف في مرتفع:

«لا تقاوموا. وإن كنتم مسلمين فلن يصيبكم مكروه. الآن على ربّانكم أن يأتيني، وأن تقبلوا عشرة من رجالي في سفينتكم».

في الحين قفز عشرة نوتية كالعقبان وانتشروا في أرجاء السفينة باحثين عن أسلحة أو مدافع مخفية، وانتقل في نفس الوقت ربّان مركبنا للتباحث مع ضيوف ما زلنا نجهل كلّ شيء عنهم.

أدرت البصر حولي فإذا السفن قد تجمّعت وتقاربت لتدخل بحيرة حلق

الوادي دفعة واحدة، مما أوحى لي بوجود خطّة وترتيب، وعددها فإذا هي أربع وسبعون، مسلّحة جميعا بالمدافع الكبيرة ومليئة بالجنود.

بقينا في حيرة لمدّة غير قصيرة إلى أن صار الغسق، وجاء معه الفرج بعودة الرايس إلينا وعلى وجهه دلائل الحيرة. احتشدنا حوله نسأل ونستفسر، فأجاب باقتضاب:

«لا تعاندوا الحرّاس الذين احتلّونا ولا تناوئوهم، فهم هنا للاحتياط فقط ولا ينوون عدوانا علينا. ولبأت إلى غرفة القيادة كبار الرجال لأعلمهم بفصيل ما يحدث».

علمنا منه أنّ السفن مرسلة من والي الجزائر للهجوم على تونس بسبب خلاف على الحدود، وأنّهم جاءوا بجيش جرّار وداخلون إلى المدينة لنهبها انتقاما واقتصاصا من يوسف داي الذي حرّض قبائل الحدود الغربية على دخول التراب الجزائري واقتطاع أجزاء منه، وختم كلامه قائلا:

«لاتجزعوا، هي خصومة مما يجري عادة بين الأخوار. قلت مُعلّقًا:

- ولكن ليس مما ينبغي حدوثه بين المسلمين.
- ما استغربته حقًّا هو ضخامة القوّة بسبب خلاف بسيط وتافه.
- إذا ضعف الرأي والتدبير اختلت الموازين بين كلّ الأشياء. وها نحن واحدون في مرسى يقتبلنا شبيه ما تركنا في مرسى ودّعنا».

أوصانا الرّايس بالهدوء الكامل حتّى تنتهي المعركة، واعتبار أنفسنا رهائن لدى أصعاب الحملة، لا ننزل البرّ إلاّ عندما يأذنون، وهذا من مصلحتنا كيلا نصاب بسوء إذا احتدم الخصام وقامت الحرب. ثم كيف إن نحن نزلنا سنتوجّه وسط اللّهيب، ومن عساه سيهتمّ بأمرنا؟

زحفت جميع السفن نحو البحيرة تحت جنح الظلام، وفي الصباح الباكر دوّت المدافع تقذف البرّ النّائم. هاج أهل المدينة وهبّوا بين دخان القذائف، قاصدين الشواطئ لصدّ المغيرين. وكُنّا مجبرين على البقاء في الخلف فلم نشاهد شيئا كثيرا مما حدث، ولا كيف قاوم السكان، وما إذا كان استعدادهم في حجم القوى المهاجمة.

حدّثني الحاج مصطفى كردناش فيما بعد عن شدّة المباغتة وأثرها في معنويات الأهالي الآمنين، وروى لي كيف بدأت الخصومة في المنطقة الحدوديّة بين قبائل البدو المعتادة على التحرّش والمناوشة فيما بينها، فتساءلت بيني وبين نفسي: لماذا يأخذ الأمر شكل حرب حقيقيّة، ولماذا تجريد حملة بحريّة بهذا الحجم، كأنّما هي تصفية حساب طويل بين الدولتين؟

أمّا عن يوم المعركة فقال الحاج مصطفى:

«دعاني يوسف داي في الصباح الباكر فوجدت الوزير علي ثابت سبقني عنده، وكان في حال من الغضب لا توصف. اندفعت الأوامر من فمه قاطعة عاجلة: استنفار جميع القادرين على السلاح، جلب كلّ العساكر من المدن القريبة، طلب المساندة من قبائل البدو وخاصّة أولاد سعيد لقرب مضاربهم، وليقف الجميع في وجه الفلك الزاحفة نحو البرّ فلا ينزل منها أحد إلاّ قتلوه. لأنّ ضرب المدافع لايضرّ كثيرا، أمّا احتلال المدينة فهو البلاء الأكبر.

تكفلت من جهتي بجمع رجال الأندلس وأخرجت معي منهم سبعة آلاف نفر بسلاحهم، وجمع علي ثابت نفس القدر من باقي الأهالي... ليتك رأيتنا وقد استلّ كلّ منّا سيفه وخرجنا كالمجانين نطوف بالديار ونطرق الأبواب مستنهضين الهمم، منذرين بالخطر المحقّق، دافعين الرجال إلى حماية أموالهم وأولادهم. وخرج في نفس الوقت أحد القواد إلى مضارب البدو بجهة منوبة ليجلبهم... ويا ليته ما فعل.

- لماذا يا ليته... ألم يساعدوا كما طلب منهم؟
- ساعدوا العدوّ لأنّهم نهبوا البيوت وخربوها، أي أدّوا نفس مهمّته لما وجدوا المدينة خلت من أهلها، كانت فرصة مناسبة ليفعلوا ما كانوا يشتهون دون رادع. كان الناس في حلق الوادي منشغلين بالدفاع، فلما جاءهم خبر الاعتداء على أملاكهم انقلبوا راجعين من الجبهة لطرد الأعراب، وانشغلوا عن المقاومة فترة قصيرة كانت كافية ليغتنمها المهاجمون ويدخلوا حيثما توجد ثغرة. هكذا انتقلت المعارك من الشواطئ البعيدة إلى قلب الأحياء والأسواق، وانقلب الغالب مغلوبا.

- أفهم أنّكم أوشكتم على الانتصار لولا تلك الحادثة المؤسفة؟
- لو صمدنا أسبوعا أو عشرة أيام دون أن نتركهم ينـزلون البرّ لانتهى زادهم وفنت ذخيرتهم. كلّ ما احتجناه هو الإمداد المتواصل والاطمئنان على العيال، لكن هذا لم يتوفّر فخسرنا الجولة، رغم استبسال الناس في المقاومة ومطاردة كلّ من نـزل البرّ، بل إن بعضهم ركبوا الفلائك ورموا الصوف المحرقة في المراكب، وقلبوا العبّارات الصغيرة الناقلة للجند.
- وكيف انتهت المعركة؟
- بالصلح... اضطررنا لطلب الصلح.
- على شروط مجحفة طبعا...
- اجتمعت بالشيخ إبراهيم الغرياني والشيخ تاج العارفين العثماني وآخرين من وجهاء القوم وقصدنا يوسف داي لإقناعه بطلب الصلح، لعلمنا أن لا ثأر ولا ضغينة بيننا وبين جيراننا، وإن تسبّب بعض قبائل البادية في خلاف على أراضي الحدود فنفس الجماعة مستعدّة للتوسّط والانتقال على عين المكان لإنهاء الخلاف. وقد استجاب لاقتراحنا ممتعضا حرودا من خيانة الأعراب الذين كانوا أصل الخلاف على الحدود، ثم سببا في انهزام مقاتلين ضاعت أرواح كثير منهم سُدى، هذا دون اعتبار المساكن المهدومة والأموال المنهوبة».

أمّا نحن الباقون في البحر، دون علم بما يحدث، فقد أفقنا ذات صباح لنرى المحلّة شرعت أقلعتها وبدأت تخرج من البحيرة. اقتربت السفينة الحارسة حتى لاصقتنا فقفز إليها الرجال العشرة وتركونا وسط البحر دون كلمة واحدة.

بقينا ساعات الضُّحى الأولى نتبادل الرأي مع القائد فيما يجب عمله، وعن حال الميناء كيف هو بعد عاصفة النار والبارود، وعن المدينة المثخنة جراحا المثقلة حزنا... كنّا مرتبكين، ومحتاجين إلى المعلومات، لذا لم نهتد إلى حلّ، حتى حانت ساعة الظهيرة.

شمس تونس تسطع قاسية حادّة في هذا الشهر الصيفي، لذا اختبأنا تحت كلّ ما له ظلّ، إلى أن سمعنا وسط هذا الهدوء المثقل بالشكوك طلقة مدفع من قلعة

حلق الوادي، تلتها ثانية بعد توقّف قصير، لكن الكرتين سقطتا في المــاء بعيــدا عن السفينة. مضت ساعة ثقيلة في انتظار الطلقة الثالثة التي ستصــيبنا دون شــكّ هذه المرة، لكن بدلا عن ذلك ظهر فلك مزدحم بعسكر الترك، اقتــرب قلــيلا ثم توقّف على بعد مرمى البارودة، ودون أن يتقدّموا شرعوا يطلقــون النــار في الهواء إنذارا وتحذيرا. عندها ذهب الرايس إلى مؤخّرة السفينة ويده ترفــع علمــا أبيض.

قال لي الحاج مصطفى كردناش فيما بعد:

«احترنا في أمر سفينتكم وفي سبب بقائها بعد انصراف جنــد الجزائــر... ظلّت واقفة في محلها ولا تحمل علما. عرفنا أنها بلا مدافع ومــع ذلــك خشــينا الخداع، وارتبنا في مجيء السفينة مع الغزاة ثم بقائها بعد رحيلهم.

- ولماذا لم تبعثوا رسولا يستطلع خبرها؟
- كانت هذه نيّتنا، لكن قلنا بوجوب الاحتياط، وأطلقنا المــدفع اختبــارا لنوايا الركّاب ومعرفة ردود أفعالهم. أوحى بالفكرة نصر آغة مستشــار يوسف داي وأحد قوّاد هذه المعركة العسيرة.
- تناحر... تقاتل، لاشيء غيرهما. الحرب تحضر دوما حيثما يوجد الطّمــع ورغبات الهيمنة والتسلّط.
- هل تركت المغرب على مثل هذه الحال من التحارب والتنــازع علــى الحدود؟
- تركت فيه حروبا عديدة: أوّلها بين أهل البلد والمغيرين الإسبان والبرتغال على الموانئ الهامّة مثل العرائش وسبتة والبريجة وآسفي وغيرها... وحربا أخرى بين السلطان وإخوة ينافسونه على السلطة، وحربا ثالثة بين الدولة وثوار متصوّفة مهووسين وأصحاب زوايا مشعوذين في ولايات ســوس وكزداغة وغيرها... وحرب رابعة تهمك معرفتها، تــدور بــين أبنــاء عمومتنا الأندلس.
- وفيم اقتتالهم وهم لاجئون في أرض غيرهم؟ هل اطمأنّوا كــثيرا حــتى ضجروا بالأمان فاشتاقوا إلى الأ سلحة ينفضون عنها الغبار؟

- هم في مكان ضيّق لا تفصل أجزاءه الحدود، وإنما تعصف في أرجائه المطامع والأهواء... لقد فقدوا العقل بعد أن فقدوا الأرض والوطن».

لما رأى الجنود علمَنا الأبيض تقدّموا متمهّلين، وصعد منهم ضابط أمر فورا بتفتيش السفينة ومعرفة جنسيتها، و لم تنطلق أساريرهم إلاّ بعد التأكّد أنّنا وفد حجيج ولا علاقة تربطنا بمحلّة الجزائر. طلبوا من الرايس الذهاب لمقابلة رجال الميناء وتسوية إجراءات الدخول، فاقترحتُ مصاحبته.

في قبّة الديوانة رأيت عساكر آخرين، وبعض وجهاء البلد تدلّ عليهم أزياؤهم النظيفة والأنيقة، يتوسّطهم رجل متين الكتفين طويل الشاربين، في عينيه ذكاء وحزم.

قلت في نفسي: «لابُدّ أنّه كبيرهم، أومندوب الداي. لكن لباسه مدني رغم السيف المعلّق والخنجر في الحزام».

رغم الشكوك قصدته مباشرة وبادأته بالسلام بلهجة أندلسية لم يضيّعها لساني.

ابتسم رادًّا تحيّتي بأحسن منها، ومدّ يديه للمصافحة، وكذا فعل مع الربّان، ذاكرا أنّ اسمه هو الحاج مصطفى كردناش. وبعد أن استمع هو ومن معه إلى حكاية رحلتنا، وعرف في الأثناء أنني أندلسي وأنوي الاستقرار بتونس، أظهر بالمزح صفته:

«أنا شيخ الأندلس، لذا فأنت من الآن فصاعدا من تابعي مشيختي، ومن مهمّاتي تولّي أمرك والعناية بك.

- هذا شرف عظيم ينالني من أوّل يوم أدخل فيه هذا البلد الكريم. لكنّني سأرجئ أمر الاستقرار إلى ما بعد أداء الحج صحبة هؤلاء الناس الكرام من ركاب السفينة. أمّا الذي أرجوه عاجلا فهو إيصال خطاب إلى منصور آغة. فهل تتكرّم بتكليف من يسلّمه إياه يدا بيد؟
- هذا ممكن جدًّا. سأسلّمه إياه بنفسي. ولكن منصور آغة لا يحسن اللغة العربية، فياليتك تترجمه.
- الخطاب يا مولاي مكتوب باللغة التركية».

أبدى الحاج مصطفى تعجّبه، فشرحت له الأمر:

«الخطاب من تحرير زوجتي التركية الأصل وأمّها، ومضمونه يتعلّق بهجرتهما من إسطنبول، وظروف اختطافهما من قبل قراصنة البندقية، وسبب انتقالهما إلى تونس... يمكن اعتباره خطابا شخصيًّا.

- بلى... فهمت الآن. سأوصل الخطاب بنفسي إلى منصور آغة.
- أخشى الإثقال عليك، فلو كلّفت أحد أعوانك بالمهمّة لكفى.
- أبدا، لابُدّ من إيصاله بنفسي. منصور آغة منشغل بذيول ونتائج ما حصل في البلد، ولكن بيننا تعاونا ومصالح كثيرة تجعلنا نتقابل باستمرار، ثم هو صديق قريب منّي. على أنّ حاجاتك جميعا سأتولاّها بنفسي وأقضيها لك كما تشتهي. وأنت نازل ضيفا عندي ابتداء من هذه الليلة».

لم ينتظر ردّي. بدأ يوجّه الأوامر لمعاونيه كي يصحبوني إلى السفينة لنقل عائلتي ولوازمها... ولم نبت ليلتنا إلاّ في حومة الأندلس، وفي ضيافة شيخهم الحاج مصطفى كردناش.

وقد عرفت فيما بعد أنّ للرجل من السلطة والهيبة ما يجعله محل تقدير من رجال الدولة ومن جالية الأندلس، لقدرته على التنظيم والإدارة، واتّساع معرفته بحالة البلاد الداخلية وشؤون أوروبا، لأنّه أقام فيها وتعامل مع أهلها، أضف إلى هذا حيويّة الرجل وقدرته على تصوّر المشاريع والإقدام على تنفيذها ببراعة وشجاعة.

ومع مشاريعه الخاصّة يتوسّط الحاج مصطفى للأندلس في اتصالاتهم مع أوروبا بربط الاتفاقات والعقود وخلاص الضمانات والمديونيّات، كما يقوم بتبادل الأسرى والاتجار مع طليان جنوة والبندقيّة بتفويض من الداي في سلع أساسيّة كالسكّر والصابون، نظرا لازدواج ثقافته ومعرفته باللغات.

كما تمنحه صفة شيخ الأندلس فصل النوازل بينهم، أو جمع الضرائب منهم، وتجنيد الجند عند الحاجة. وبصورة عامّة هو حلقة الوصل بين الحاكم والمحكوم، وعنصر التوفيق والتنسيق بين الاثنين.

تونس على أيّام يوسف داي

لايختلف هذا البيت الذي نـزلناه عن جناح فاخر في قصر أمير كبير. أناقة أثاث ووجاهة بناء، وحسن ذوق في كلّ ما ترى. نحـن ضيوف عنـد شيخ الأندلس، الرجل المحظوظ كما هو بيّن من دلائل النعمـة في بيتـه، وفي مظـاهر السيادة الممنوحة له من الداي، فهو من رجال الحاشية وشيخ طائفـة الأنـدلس، محترم من الطرفين، عالي الكلمة في كليهما.

انفردنا صباح اليوم التالي في فناء مشجّر بالنارنج والياسمين، ترطّب جوّه نافورة رخامية تنثر الماء في أشكال هندسية رائقة. ما أبعدك يا أندلس، وما أقربك. سألني:

«فأنت استقررت بعد في المغرب، كما فهمت منك بالأمس؟

- نعم انتقلت إليه بمغامرة غريبة».

طلب منّي تفاصيل هجرتي فرويتها وهو معجب بإقدامي على ما اقتحمته من أخطار، ثم جاء دوره ليروي ظروف انتقاله عبر فرنسا، ولم تخل هي أيضـا مـن الأهوال والأخطار. كانت نشأته في عائلة غرناطيّة كبيرة، ذات نفوذ وثراء، امتاز رئيسها، وهو أبو الحاج مصطفى بالحكمة في التخطيط والتنفيذ، حتى أنّـه بعـد خضوع طويل لابتزاز رجال الكنيسة عرف كيف ينسحب برفـق مـن تحـت ردائهم، ويتسلّل خارج منطقة نفوذهم، لإدراكه أنّه مهما اشترى رضـاهم فلـن ينسوا أصله العربـي، بل سيظلّ في نظرهم ذلك الموركسيّ المنافق غـير مـأمون الجانب. كانت للأب مبادلات تجاريّة كثيرة مع فرنسا، فاغتنمها ابنـه مصـطفى فرصة لتهريب أمواله إليها بطرق سرّية. ثم انتقل بعائلته إلى تولون بعلّة التـداوي، فبقي فيها فترة ثم أبحر من مرسيليا إلى تونس، حيث استقرّ بجهة قرنبالية، واستثمر أمواله في الفلاحة والتّجارة.

واصل الحاج مصطفى يروي كيف وصلت عائلته إلى تونس:

«ركبنا البحر من مرسيليا مع جموع طلبت مغادرة فرنسا لما ذاقت فيها من مهانة، والحال أنّ بعضهم كان ينوي الاستقرار بها، خاصّة منهم تجّار حرير أثرياء من أوكانيا وطليطلة وبسترانة، كان لهم معارف وحرفاء إفرنج، لكن ذلك لم يشفع لهم فتيلا، لما انتهى ما ادّخروه من مال لتنقّلهم، وأقفلت أمامهم أبواب الرزق وهم غرباء في البلد. جاء معنا في نفس الفترة جماعة أقلّ ثراء، تجّار من بايزه وعبيدة، ركبوا البحر من مالقة إلى مرسيليا، وآخرون أراغون وكاتالان خرجوا من بلنسية ومرسية، لكن عددهم قليل. والجملة لاتبعد عن الثلاثين ألف نفر.

- إنني ذهبت إلى فرنسا لمقاضاة أصحاب مراكب إفرنج نهبوا من الأندلس أموالهم ومتاعهم، ورموا ببعضهم في جزر خالية. فكيف كان صنيعهم معكم؟
- إذا بدأت أروي لك حوادث الابتزاز والنّهب فسأقضي في ذلك أيّاما، مما سمعت بعضه دون شكّ في فرنسا أو المغرب. فالحال كانت أشبه بساحة قتال انتشرت فيها أجساد جريحة غير قادرة على الحراك أو الدفاع عن أنفسها، فاشتمّت الضّباع وجوارح الطير رائحتها وأدركت عجزها عن المدافعة، وإذا هي حولها تنهش منها ما تطوله المناقير والمخالب.

أما سمعت بعصابة أوجييه الذي كلّفه الملك بتنظيم عبور الأندلس في مرافئ الجنوب، فإذا به يسلّط زبانيّته: جوزيف بالمير، وجان جوردان، وجاك بيرات لإجبار من يتوسّمون فيهم الثراء على دفع معاليم غير قانونيّة بنسب يحدّدونها باختيارهم.. هؤلاء كانوا رجال السلطة وقد استعملوا العنف والتهديد كما شاءوا، أمّا أصحاب السفن فجرائمهم من صنف آخر.

- سمعت عن كابولير الذي أدلى بوثيقة اعترف له اللاّجئون فيها مكرهين - بعد أن هُدّدوا وسلبت أموالهم - أنّهم نزلوا سالمين بمحض اختيارهم في تونس... لكن المفاجأة حصلت عند اكتشاف مصالح التفقّد لكنز مجهول المصدر من الجوهرات والعقود والخواتم وأساور الذهب والفضّة، ومعها أثاث متفرّق ونقود، مخفي جميعها تحت أخشاب السفينة.

- وهل علمت بقضيّة إستيان الذي أنــزل بالقوّة والقهر أربعين أندلسيًّا في غار الملح وفرّ بكلّ ما يملكون، وهو في تقدير المحكمة يتجــاوز الثلاثــة وتسعين ألف ريــال ذهبــي؟
- المهمّ في حال من ذكرنا أنّهم حوكموا لما اشتكاهم النــاس إلى الملــك، وفيهم من أُعدِم شنقا جزاء أعماله، والفضل يعود في اســترداد أمــوال أولئك المظلومين إلى ألونــزو لويث، وهو أندلسي تعلّم القضاء بفرنسا ودافع عن بني وطنه دفاع المستميت.
- لم يسعدني الحظّ بلقاء ذلك الرجل عند ذهابــي إلى فرنسا، فأنتم الذين قصدتم تونس مباشرة رتّبتم أموركم جيّدا، وسبقت لكم معرفة بلغة القوم وطرق التعامل في موانيهم، أما نحن...
- هذا صحيح... فأغلب من صاحبونا تجّار، ولأغلبهم نوّاب ومراسلون في مدن هامّة مثل فبيان ماروتو في مدينة سان جان دلوز، وهو ثــريّ مــن أفيلا، يعمل من زمن بعيد بفرنسا نائبا عن تجّــار الأنــدلس وموزّعــا لبضاعتهم، ومثل خيرونيمو هنريكاز في مدينة بايون، ولكليهما علاقــة ومراسلات مع تونس والقسطنطينيّة.
- لكنّ هذه المدن استعملت وكرا لجواسيس الملــك الإســباني يعلمونــه بتحرّكات الأندلس وظروف تنقّلهم، ويرصدون حركة نشاطهم ومدى عون أهل فرنسا لهم. من هؤلاء لورنــزو سوارس المتظاهر بكونه منفيًّا، وهو في الحقيقة عين للملك فليبّي، وقد بلغت به الوقاحة أن أرسل مــع صاحب الطابع يطلب مقابلتي عندما كنت في أولونه.
- كيف علم بوجودك... وهل قابلته؟
- جاسوس ماكر مطّلع على كلّ شيء في المنطقة. رفضت مقابلته بــالطبع، خاصّة وقد علمت من صاحب الطابع أنّه ظنّني سأقود وفد استنجاد إلى القسطنطينيّة بعد إنهاء زيارتي إلى فرنسا.
- وماذا يهمّه من ذلك؟
- كان يرجو مصاحبتي لأتوسّل له لدى السلطان في اللّجوء إلى تركيا.

- من أين استقى خبر ذهابك يا ترى؟
- أشكّ في صاحب الطابع... اكتشفت فيه النّفاق والمخادعة مرّات كثيرة، وهذه إحداها فيما أظنّ. صحيح أنني تحدّثت أمامه عن خطاب سأرسله إلى الأتراك على لسان المنفيّين فأخطأ في نقل الخبر وقال إنّني مسافر إليهم. تعرّضنا لكثير من الخداع والألاعيب، ورأينا النّهب يرتكب جهارا من الريّاس والبحّارة.
- فكيف سلّمك الله منهم ونجوت بثروتك ومالك؟

ضحك الحاج مصطفى كالهازئ من الإفرنج إذ لم يتفطّنوا لتمويهه عليهم بإلباس نساء العائلة حليًّا مُزيّفًا عوّض به الحقيقي الذي أخفاه مع نقود الذهب والفضّة.

- وهذه أين أخفيتها منهم؟
- كانت بين الحشد عجوز فقيرة مقعدة لا تتنقّل إلاّ على محمل خشبي يتطوّع أهل الإحسان لنقلها به من مكان إلى آخر، فاستأجرت لها من يساعدها طول الرّحلة دون الاقتراب منها أو إظهار علاقتي بها، مقابل التنازل عن محملها يوما واحدا أصنع فيه تجاويف وأدراجا سرّيّة خبّأت فيها مالي إلى حين الوصول، وقد كتمت المسكينة سرّي بشجاعة ورباطة جأش فكافأتها لما كتب الله لنا السلامة بما تستحق، وأسكنتها عندي مكرّمة إلى أن توفّاها الله.
- فالواصلون إلى تونس على ذلك العهد كثير كما سمعت.
- أكثر من سائر بلاد المغرب، وقد ذكرت لك العدد منذ حين.
- ولذا جعل لهم الدّاي مشيخة خاصّة بهم وعيّنك على رأسها...
- سبقني في هذه المهمّة الشيخ لويس راباتا، وهو من القادمين الأوائل.
- وبنيتم هذا الحي لسكناكم... إنّه حيّ راق في قلب المدينة.
- لا يا شيخ أحمد هذا يدعى زقاق الأندلس، وهو من بناء السابقين، بنته بعض العائلات الموسرة المستوطنة بتونس منذ مائة عام. أمّا الوافدون الجدد فلم يقطن داخل الأسوار إلاّ القليل ممن جلبوا معهم أموالا

واستطاعوا بالتالي شراء منازل في مثل هذه الأحياء الراقية، لارتفاع أسعارها، أمّا الأغلبية الفقيرة فقد آوتهم الزوايا، ورعاهم أهل الخير والبركة، مثل الشيخ القشّاش، إلى أن دبّرت لهم أماكن للبناء بضواحي العاصمة جنوبا، مثل باب الجزيرة، وشمالا خارج باب قرطاجنّة وباب سويقة، وبجهة الغرب أين توجد حومة الأندلس بين باب سويقة والحلفارين. و لم يمض عليهم وقت طويل حتّى شيّدوا إضافة إلى البيوت مرافق معتبرة مثل جامع سبحان الله، والمدرسة الأندلسية.

- ما شاء الله كان. أهلنا نشيطون كعادتهم. وهل قدرت المحروسة تونس على إيوائهم جميعا؟ إنّك ذكرت في بداية الحديث عددا ضخما.
- لا يا شيخ... لم يستقرّ هنا إلاّ قليل منهم، أمّا الأغلبيّة فوجّهوا نحو الريف بتشجيع من عثمان داي الذي اختار لكلّ طائفة جهة تتناسب ونشاطها القديم في الأندلس، وهذه الجهات عددها أربع، وكلّها في الشمال الشرقي للبلاد: أوّلها الريف المتاخم للعاصمة وما خلفه من أراض فلاحية، ثانيها شبه جزيرة الرأس الطيّب، ثالثها سهول وادي مجردة، رابعها بنزرت ونواحيها.
- لم أسمع بواحد من المواقع التي ذكرت، ولا أعرف لها وجهة سوى كونها في الشمال. ترى هل ذكرها المقدسي في جغرافيته؟

ضحك الحاج مصطفى من مزاحي، وازداد إقباله على التحليل والشرح ليتّضح في ذهني الوضع العام للمهاجرين، وإن بعُجالة.

- لم تبت على هذه الأرض سوى ليلة واحدة، ولكنّك عمّا قريب ستعرفها جيّدًا لأنّ رقعتها صغيرة مقارنة بالمغرب، وستحبّها أيضا.
- وهذا عندك من البديهيّات يا حاج مصطفى؟
- ... ومن الطبيعي أيضا، لأنّك سترى كيف تغطّي الخضرة كلّ مكان، وستزور المدن الصغيرة المنشأة حديثا على نمط هندستنا المعهودة بسقوف القرميد ونقش الحديدة، والبرطال ذي الأقواس المزدوجة، ووسط الدار المزهر بالفل والياسمين... أي كما جرت عاداتنا هناك.

- هناك... هناك. وأين نحن من هناك؟
- ستنتقل يا شيخ أحمد بين بلّي وسليمان وقرنبالية وزغوان، وبصورة خاصّة عند زيارتك لتستور، وسترى أنّنا لم نبتعد عن الأندلس إلاّ قليلا».

لم يكد ينتهي الحاج مصطفى من جملته حتى دخل علينا الخدم بمائدة عامرة، فيها من الأطعمة الأندلسيّة ما غاب عنّي مشهده مدّة سنوات. قلت لمضيفي:

- إنّك تعيد إلى عمري ما ضاع منه.

ابتسم مبتهجا لتفاؤلي، وأجاب:

- وسينضاف إليه المزيد عندما آخذك إلى تستور».

وشرعنا ننعم بما قدّم إلينا على مائدة هذا الرجل الكريم.

لم ينقض النهار إلاّ وجاءنا نصرآغة بنفسه في موكب حافل يحيط به الأعوان والجند، ففتح لهم مصطفى باب الدربية على وسعه، ورحّب به ترحيبا كبيرا. كان رجلا وسيما في أوسط العمر، يرتدي قفطانا مذهّب الحواشي، ومن حزامه يتدلّى غمد سيف عريض. تقدّم نحوي بخطى سريعة هاتفا بلغته التركية:

«أهلا وسهلا بضيوفنا الكرام. أين أحبائي وأقربائي؟

تقدّمت نحوه، وأجاب الحاج مصطفى:

- هذا ضيفي وضيفكم العالم الجليل أحمد الحجري مترجم سلطان مراكش سابقا.

أضفت إلى كلامه، وأنا أؤدي التحيّة بضم يديَّ إلى صدري ورفعهما إلى رأسي:

- ... وخادم حضرة محترم يوسف داي والي الجناب الأعظم مولاي سلطان البرّين وخاقان البحرين.
- أهلا بقريبي العزيز وصهر خالتي عنايات خانم. أين يمكنني أن أراها... أين بقيّة العائلة؟

اندهش صاحب البيت مما يسمع. لم يستوعب الحوار لأنّه لا يعرف محتوى الرسالة التي أوصلها بنفسه إلى نصر آغة، لم أخبره بسوى أنّ زوجتي تركيّة

الأصل، أمّا أنّها ابنة خالة الضابط نصر آغة فهذا يكتشفه لأوّل مرّة. لذا بقي يدير عينيه بين كلينا بصمت وحيرة. أجبت على السؤال: العائلة كلّها بخير منذ نــزلت هذا البلد وصارت في حمى والي السلطان الأعظم.

- وكيف لي أن أراهم؟

ازدادت عينا الحاج مصطفى اتّساعا، فتوجّهت إليه برجاء الإذن لنا بـدخول الحريم ليقابل نصر آغة خالته وابنة خالته التي هي زوجتي. انتبه صـاحب البيـت لتطوّر الموقف وفهم العلاقة التي تعرّضنا لها، لحدّ ذلك الوقت، بمجـرّد الإشـارة وأجاب:

- بالتأكيد... أنتم من أصحاب البيت. تفضّلوا بالدخول. اسمعوا لي فقـط أن أتقدّمكم لتوضيح الطريق.

صفّق بيديه فاجتمع حوله الخدم لسماع الأوامر، ثم انطلقوا بسرعة إلى داخل البيت.

مشينا خلفه على مهل في ممرّ يؤدّي إلى فناء ثـان مظلـل بعـريش كرمـة وتتوسّطه نافورة أصغر من الأولى. حين وصلنا انسحب مصطفى لأنّه رأى زوجتي وأمّها هناك تنتظران بعد أن علمتا بوصول نصر آغة. رفعتا اليشمك الخفيـف إلى نصف الوجه استعياء، وتقدّم نصر آغة نحو السيدة الكبيرة هاتفا:

«خالتي العزيزة...»

وأمسك طرف كمّها يقبّله ويرفعه إلى جبهته. قالت عنايات خانم:

«أخيرا يا ابن أختي كتب لنا اللّقاء... كنت في حكم الأموات يا نصر، لولا أنّ الله استجاب لدعائي وأرسل لي رحمته على يدي هذا الرجل الفاضل.

أشارت بيدها نحوي، فأمسك بها نصر وقبّلها ثم رفعها إلى جبينه كما فعـل بالكُمّ، وهو في غاية التأثّر:

- نعم يا خالتي... أخيرا رأيتك. لاأكاد أصدّق عينيّ».

جلست العائلة التركيّة المصغّرة تتبادل الأخبار، وتسأل عن الغائبين، ونصر آغة لا تسعه الدنيا من فرحة اللّقاء المفاجىء. وبعد ساعة وقف مستئذنا، وطلـب منّـا الاستعداد للانتقال إلى مسكن خاصّ أعدّه لنا قرب باب البنات لنكون قريبين منه.

أبدى الحاج مصطفى احتجاجا مهذّبا على خروجنا من داره قبل إتمام الضيافة السنّية، فاعتذر له نصر آغة بكثير من التهذيب، وأجزل له الشكر على الحفاوة والترحاب.

بدأنا نتعوّد على المناخ الرّطب للبلد، وعلى روائحه الفوّاحة واللاّذعة في آن واحد، وعلى أصواته بما فيها من تنغيم وتمطيط لم تعتده آذاننا، وطاب لنا المقام في هذا البيت المريح النظيف. لكن النفس اشتاقت إلى معرفة حركة الأسواق والأحياء وسعي الناس في قضاء شؤونهم ومشاغلهم. وكأنّما حدس نصر آغة ما بنفسي، فجاءني قبل انقضاء الأسبوع، ودعاني إلى زيارة جامع يوسف داي، وما جاوره من الأسواق.

أحاط بنا الحرّاس والأعوان يفسحون الطريق، وخرج أصحاب الدكاكين للسلام على مساعد الوالي، وهذا دليل احترامهم له وللدّاي صاحب هذه المآثر العمرانية الهامّة.

تفاءلت وأنا أدخل بيت الصلاة بالآية المنقوشة نقشا بارزا على رخامة تعلوها: «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين».

رآني نصر آغة أبتسم منشرحا فشجّعه هذا على تمجيد مأثرة مولاه، وهي في الحقيقة مأثرة ومفخرة:

«لما بنى يوسف داي مسجده الجامع هذا بنى حوله ثمانية أبواب معتبرة: باب الجامع نفسه، والمدرسة اليوسفية، والميضاة، والقهوة، والحمّام، وسوق البركة، والطّاحونة، وجميعها متلاصقة ملتحمة تكوّن مجمعا موحّدا، فلو لم تنظر إلى كلّ واحدة منفردة عن الأخرى لرأيتها قدر بلدة صغيرة».

كان مترجم الديوان ينقل حوارنا، فطلبت منه أن يسأل نصر آغة إن نحن سنزور تلك الأسواق. جاءني الجواب بالتاكيد:

«طبعا سنزورها... وسترى كيف نقل مولاي يوسف سحر المشرق إلى بلاد المغرب».

وأضاف المترجم:

«... وكانت الأرض التي بني عليها الجامع مهملة ومجمعا للقاذورات، جازاه الله خيرا على إنقاذ المدينة من أذاها».

بيت الصّلاة رحب مستطيل، تعلوه قبّة واحدة تسبق ممرًّا يؤدّي إلى المحراب، وينتشر فيه ثمانية وأربعون عمودا مختلفة المصدر فيما يبدو، إذ بعضها أملس لمّاع وبعضها مجرّح منقوش بإزميل، وفيها ما قُدّ من رخام أو من حجر الجير أو الصوّان، كما أنّها مختلفة الطول والاستدارة.

نفس الملاحظة تنطبق على التيجان والرؤوس، فبعضها من آثار الرومان وبعضها من مخلّفات بني حفص، والجميع مصاب إمّا بكسر أو رضوض في الحواشي، مما يظهر صعوبة العثور على مواد جديدة للبناء في أوائل ذلك العهد الموالي لحروب كثيرة وويلات عاشها البلد.

أمام المحراب ذي الدرجات العشر أنشىء مربّع خشبيّ مرتفع عن الأرضيّة بمقدار ذراع يدعى «المحفل» مخصّص للمعرّف ووظيفته ترديد تكبيرات الإمام في صلاة الجمعة، كما يستعمله المؤذّنون أو المنشدون لترديد الأدعية وإقامة الصلاة عندما يأذن الإمام. هذه الظاهرة الخاصّة بالجوامع الحنفيّة دخلت مع الأتراك، ومثلها «الختمة»، وهي كرسي مرتفع يجلس عليه قراء القرآن وأمامهم خزانة لحفظ المصاحف حفرت في خشبها نقوش، وألصقت عليها صفيحة نحاس تحمل اسم يوسف داي.

دخلنا بعد ذلك المدرسة اليوسفيّة المخصّصة لدراسة الفقه الحنفي الآخذ في الانتشار منذ انتصاب الحكم العثماني في تونس، بعد أن كان الفقه المالكي هو المنتشر على الإطلاق فيما سبق. بعد اجتياز الدريبة وجدنا صحنا مستطيل الشكل محاطا ببرطال ترفعه أعمدة تصطفّ خلفها عشرون غرفة لسكنى الطلبة، وفي الناحية الغربية منه قاعة متوسّطة الحجم يلقي فيها أئمّة الحنفيّة وقضاتهم دروس الفقه والشريعة، وكان أوّل من تصدّر لهذا في ذلك العهد رمضان أفندي، وقد قابلناه وسلمنا عليه.

لا أستطيع كتمان إعجابي بما رأيت، وبحكمة هذا الأمير النبيه المهتمّ بشؤون الدنيا مثل اهتمامه بشؤون الدين. فطريقة تعميره للمدن طريفة وجديدة

على بلدان المغرب، عمادها بناء المسجد الذي ترتكز عليه الحياة الروحية والدينيّة للسكّان، وحوله الأسواق وهي مجالات التجارة والمرافق الاجتماعية أي مركز الحياة الدنيويّة. التفت نصر آغة ناحيتي يسأل:

«ألا يحتاج المرء للاثنين يا شيخ أحمد؟ إنّنا في المشرق نبني المجمعات بهذه الطريقة لتلبية حاجات الجسد والروح في نفس الموقع ونسمّيها «الكلّيلي» باللغة التركية. ما رأيك فيها؟

عبّرت له عن إعجابي بالفكرة، ولكن ابتهاجي الحقيقي نبع من إحساسي بأنّ المدينة بدأت تنهض من أنقاضها، كميّت توهب له الحياة من جديد. لا فرق إن اختيرت لها هندسة عثمانية، أو تزويق أندلسي، أو رخام إيطالي... الأهمّ في كلّ ذلك أن تنفض عن نفسها الغبار، وأن تتنفّس بحرّيّة. قال نصر آغة:

«سترى أنّه وقع استعمال عناصر مختلفة، في هذا المبنى أو ذاك: أعمدة رخامية وأخرى حجريّة وثالثة من صوّان، سترى تيجان أعمدة رومانية وأخرى عربية ذات أهلّة وأغصان، هنا نقش حديدة أندلسي وهنا نحت رخام إيطالي أو برتغالي، قباب ملساء، وأخرى مخدّشة أو مخرّمة... أقواس كاملة، أقواس مكسورة، أقواس مزدوجة، زليج وفسيفساء. أحمر القرمز وأصفر الزعفران، مع الذهب البندقي، والأزرق السماوي... هل رأيت خليطا عجيبا كهذا... لكن بلا تنافر، بل بانسجام وجمال؟

- صحيح... إنّكم تضعون ختما مزهرا على ما صنعتم.
- مولاي يوسف داي يطبع تاريخ دولته بهذا الإنشاء العظيم ويترك صورة عن عهد جمع فيه تحت رعايته طوائف من الشرق والغرب: أندلس إسبانيا، يهود ليفورنة، أسرى جنوة والبندقية، أتراك وشركس، إلى جانب أهل البلد ورثة بني حفص، حتى وإن لم يترك لهم مولاء شيئا يذكر.
- تركوا أو لم يتركوا فإنّ تاريخ البلد عريق وثريّ، تكفي إزالة الغبار عمّا اندثر، وإحياء بعض ما غبر، مع تطعيم بالجديد المجلوب والوافد المرغوب، وسيأتيكم العجب العجاب، وتخرج أيديكم التّبر من التراب.

اكتشفت في جولاتي مع الحاج مصطفى أنّ يوسف داي لم ينشىء سوقا واحدة بل أربعا، ولعلّه ضمّها مع البركة لأنّها تتوسطها، وبابها أكبر الأبواب. هذه الأسواق متنوّعة الأنشطة، متعدّدة المرافق، ووثيقة الارتباط بمنشأة الجامع وأوقافها، يتألّف من ريعها دخل كاف لنفقات التسيير والصيانة.

أحد هذه الأسواق يدعى سوق اللفّة ومنحصر في تجّار جزيرة جربة، ولهم أنسجة صوفيّة راقية بلغت شهرتها بلاد الشرق، ولهم فندق خاصّ يسكنه الواردون منهم على العاصمة لبعد موطنهم. السوق الثانية هي سوق البركة المخصّصة لبيع العبيد، وتتوسّطها ساحة مربّعة يتاجر فيها يوميًّا بالزنوج، وتعجّ دوما بالحركة والضجيج.

بقيت سوقان تختصّان بالقيافة واللّباس، هما سوق البشامقيّة، وهم صنّاع أحذية البشمق التركية، وسوق الترك ذات المائة دكّان يعمرها الخيّاطون وطوارزية الألبسة التركيّة، وقد شجّع على ترويجها الحكّام الجدد بين موظّفيهم وعساكرهم، ثم تسرّبت إلى الموالين لهم والمقرّبين منهم.

هذه السوق الأخيرة هي الأجمل هندسة والأكمل نظاما، يشقّها شارع مبلّط مستقيم، في أعلاه سبّالة مسنودة إلى صومعة جامع الزيتونة، كسيت رخاما وبنيت فوقها قبّة. وفي أدنى الشارع سبّالة أصغر من الأولى، ولكليهما يأتي الماء في قنوات رصاص مختوم.

رأيت في الأسواق ميضاة فسيحة مكسوّة رخاما، بناها الوزير علي ثابت وهي ذات غرف ثلاث متتالية: أولاها مربّعة الشكل تحيط بها مصاطب من بناء ارتفعت عن الأرض بقدر ذراع، ويزيّن جدرانها أقواس مرفوعة على أعمدة رخام بارزة ذات قواعد مشغولة بالجصّ المخرّم المنقوش. الغرفة الثانية محاطة أيضا من جهاتها الأربع بأقواس وأعمدة تظلل مصاطب يجلس عليها المتوضّئ. وفي آخر المبنى غرفة ثالثة مبنيّة بالعرض يرفع سقفها الخشبي أعمدة أطول من الأولى، وتتوسّطها قناة ماء للوضوء حواشيها من رخام أبيض.

وبنى علي ثابت بنفس المكان مقهى ودكاكين جعلها حبسا على الميضاة حتى تستمرّ العناية بها وبقنوات الماء. مررنا بذلك المقهى عند رجوعنا، فرأيناه مليئا

بالأتراك يدخّنون التبغ بغلايين طويلة، فوق مصاطب عالية، ويطاف عليهم بفناجين القهوة الساخنة.

غادر مركب الحجيج ميناء تونس وتركنا بها، فالجميع تمسّكوا بتأجيل الفريضة إلى الموسم القادم، وغمرونا لطفا وحفاوة بما أنسانا عناء السفر ورهبة الإقدام على المجهول. قابلنا يوسف داي فأكرمنا وأغدق علينا عطاياه بما زاد عن الحدّ، وجعلنا ننظر إلى المستقبل بتفاؤل وأمل.

لم يتخلّف مصطفى كردناش عن زيارتي منذ غادرنا بيته، وطاف بي أكثر من مرّة بين أحياء المدينة ليعرفني بمعالمها، وذات يوم اقترح عليّ مصاحبته إلى مزرعته الكبيرة في قرنبالية على مسيرة يوم من العاصمة فلبّيت شاكرا، وفي نفسي شوق إلى معرفة أماكن انتشار الأندلس من ناحية، وإلى مخالطة هذا الرجل الناجح، من ناحية أخرى.

تحدّثنا، ونحن في الطريق، عن أحوال التجارة والزراعة، وما أدخله الوافدون الجدد من حيويّة عليها، حتى إذا وصل الحديث إلى دوره هو في ذلك نفى بكلام مبطن أن تكون ثروته نالها هدية من الحكام، أو أنّه جمعها بفضل ما له من سلطة ونفوذ على اللاّجئين. قلت له موافقا:

«وهل يستطيع أحد أن يمنّ عليك بشيء...؟ أراك كفيلا بأن تجمع إلى هذه الثروة ثروات أخرى، فأنت رجل نشيط وموهوب ومتعدّد الكفاءات.

- أعرف أنّك تمدحني لأنّك وثقت بي وصرنا أصدقاء... لكنّك ستسمع من يقول أنّ يوسف داي وهبني الأرض الفلانية، أو أنّ نصر آغة توسّط لي في صفقات تجاريّة مع سفن الجهاد... لاشيء من الصدق في ذلك. فأنا نلت من الأرض قدر ما نال غيري لكن استثماري لها مختلف عنهم. فإذا اكتفى بعضهم بزراعة الزيتون فإنّني أستغلّ مساحة بنفس القدر للزيتون ولأشجار اللّوز المالقي وللخضر السقويّة قرب الأديم، وأروي الثلاثة في نفس الوقت بقنوات من مياه الجبال القريبة، وأجني ثماري على ثلاثة مواسم كلّ عام.
- هذا يتطلّب نفقات كثيرة... ويحتاج أكثر من ذلك إلى الأيدي والعضلات.

- صحيح يحتاج... ويحتاج إلى الكثير، لكنّني وظّفت أموالا جلبتها معي من تولوز في شراء العبيد، ولي منهم في قرنبالية ثلاثمائة ساعد قويّ، علّمتهم أصول الفلاحة المنتجة، وهم يؤدّون مهمّتهم على أحسن وجه، بما ينفعني الآن، وينفعهم في حياتهم المقبلة إذا ما تحرّروا وارتدّوا إلى أهلهم.
- لكن ثلاثمائة رقبة من العبيد رأسمال ضخم.
- نعم... رأسمال ضخم لكنّه لم يتشكّل ولم يجتمع دفعة واحدة، وإنّما بالفردين والثلاثة والأربعة، إمّا شراء أو مقايضة، وكلّ ما فعلته عند وصولي هو استثمار مالي في تجارة العبيد واستثمارهم إلى أن جمعت مالا كافيا لمجابهة الفلاحة وما تستدعي من نفقات.
- وهل تكفي تجارة العبيد لجمع ثروة؟
- بلا شكّ، وخاصّة في مثل أوقاتنا هذه المليئة فتنا وخلافات بين الدول. إنّ الربّان الغالب يكتفي بالأسرى في أكثر الحالات ولا يهتمّ بالسفينة القنيصة ولا ببضاعتها، فالأسير مرتفع الثمن عند بيعه أوّل مرّة، ثم يبدأ ثمنه في الزيادة من يوم تأمينه لمردود عمله، خاصّة إذا كان ذا صنعة ومهارة، ومن هنا فهو رصيد متنام في انتظار فديته سراحه، وقدرها يتماشى مع قيمة الشخص وأهمّيته عند أهله. وقد شاركت في لقاءات كثيرة مع الفكّاكين الإفرنج واليونان والموالط والطليان، وربحت في صفقات المبادلة معهم مالا وفيرا، والحمد لله على نعمه.
- هل قمت بهذا لحسابك وحساب غيرك، أم لحساب الدولة؟
- أدّيت ذلك بالأوصاف الثلاثة... فالدولة تثق في معاملاتي وكذلك الإفرنج يثقون بي لأنّني أتكلّم لغاتهم، وأتعامل معهم بكلّ جدّ وصرامة، حتّى أنهم يعتبرونني أروبيًّا ويسألونني أحيانا: ما بالك تسكن عند الأفارقة؟

ولما رآني أضحك ضحك الحاج مصطفى بدوره. فسألته:

- أما قلت لهم: لأنّكم أطرد تموني من أوروبا؟
- وما الفائدة يا شيخ أحمد مع قوم لا يتصوّرون أوروبا إلاّ نصرانيّة صرفا، كأنّما الأديان لم تخلق للأرواح وإنّما للتوزيع الجغرافي.

- فبعث الله لهم سلطان آل عثمان يفسد أعمالهم وينشر الإسلام في شمال أوروبا، إذا هم عمّموا دينهم في جنوبها.
- وعدنا إلى التقسيم الجغرافي، وإلى عهد التصفيات الدينيّة، وكأنّما العالم لم يتقدّم منذ مئات السنين شبرا واحدا.

بعد مرورنا بعدد من القرى الأندلسيّة المنشأة حديثا مثل نيانو وتركي وبلّي، وصلنا إلى قرنبالية، فلم تقع عيني فيها إلاّ على خضرة الزياتين المصفوفة باستقامة كأنّما خطّت بالمسطرة، وعلى الأرض الطريّة المشغولة بالفؤوس حتى هشّت ولانت، وبينها أحواض الخضر المبلّلة بماء يجري قربها في قنوات، يتابعها النظر فيراها منحدرة من حنايا ذات أقواس تأتي إلى المزرعة من جبل قريب مجاور.

غير بعيد يوجد مسلك صغير خلف البيوت أخذنا إلى غرس خاصّ بأشجار التوت، فيه عملة مختصّون برعاية دود الحرير، يتسلّقون الشجر لتفقّده، وبأيدي بعضهم سلال لجمع الشرانق. سألت مضيّفي عمّن يشتري منه الحرير، فقال:

«أبيعه لنفسي وأصنع منه ألحفة وأنسجة لا تكاد تجد لها مثيلا في تونس.
- وهل تنسجه هنا؟
- نعم هنا... وسنزور محلاًّ فيه ثلاثون نولا يشتغل عليها صنّاع من عبيد الإفرنج علّمتهم في تونس وتستور، فحذقوا الصناعة ومهروا، وفيهم من زاد عليها.

وانتهت جولتنا آخر النهار في قصر بديع بناه الحاج مصطفى لراحته وسط نخل باسق وأشجار ورد ورياحين، وأحاطه بنوافير ماء تنبثق من رحم جوابي عظيمة تقبل السابحين إذا دخلوها بالعشرة أو أكثر. وخصّني من حسن إكرامه بجناح مستقلّ يقع أعلى المبنى الرئيسي، وله نافورته الخاصّة التي لم أعرف كيف يصعد إليها الماء، وبه مرافق العيش وحسن الإقامة، فكأنّه مخصّص للأمراء.

ذكر تستور وإقامة الأندلس بها

وفاء بوعده جاءني الحاج مصطفى كردناش يعرض أن نقوم برحلة إلى تستور، فلم يجد منّي سوى الاستجابة والترحيب بالفكرة.

خرجنا في عربة متينة يقودها جوادان ويحيط بها أربعة فرسان أشداء للحراسة، واتّجهنا غربا مخلّفين وراءنا ضاحية منّوبة وبساتينها، كانت الطريق جيّدة قليلة الحفر والعثرات، محاطة بالحقول الخضراء اليانعة. أبديت ابتهاجي بما أرى لمرافقي، فوعدني برؤية ما هو أبهج وأجمل. وقد حصل هذا ونحن لم نبتعد عن العاصمة إلا سويعات، إذ برز ونحن على إحدى الربوات، نهر هادئ يتثنّى بلطف بين ضفاف تغطيها حقول الخضر والبقول السقويّة، فأخرجت رأسي من النافذة أتملّى جمال المنظر. قال مصطفى:

«هل أعجبك نهر مجر ة... كأنّك تشاهد نهر شنّيل. أليس كذلك؟».

أدخلت رأسي وقد خرجت من صدري زفرة لا إراديّة، ونظرت ناحية مخاطبي بصمت فهم معناه، فلم يزد على عبارته شيئا.

صعدنا جسرا عرضه قدر ثلاث عربات تحمله سبعة أقواس قواعدها كالحنايا الحجرية المقلوبة، قد بنيت بشكل مائل ليتدفّق الماء بقوّة من الجهة إلى الأخرى، فيسهل عندئذ توجيهه في قنوات الريّ المنتشرة في ذلك السهل. قال الحاج مصطفى:

«غير بعيد من هنا أعيد بناء سدّ روماني قديم، ومنه يخرج الماء من الضفّة اليُسرى في توزيع معتدل ليغطّي غروس الزيتون. وبالجهة اليمنى توجد قنوات متراكبة في تناسق مع الارتفاع المتدرّج للأرض، مما يؤمّن ريًّا شاملا دون غمر لمساحات كبيرة. وهناك قناتان رئيسيّتان طولهما مسيرة يوم كامل، تكوّنان حوضا

تقترب جنباته دون أن تتلاقى، ويسقي منطقة الجديّدة التي نحن فيها الآن بالكامل، وفي إمكان هذه القنوات إغراق المساحة المطلوبة مرات في السنة عوض انتظار المرّة الوحيدة التي يوفّرها فصل الشتاء وفيضان النهر.

- لذا فعطاؤها أكثر وأرضها أخصب.
- وزيتونها بصورة خاصّة هو أجود الزياتين.
- يا ليت عبد الرحمان هنا معنا...
- هل هو أحد أبنائك؟
- لا... بل أخ وصديق عزيز، اختصاصه الريّ وتصريف المياه، كانت له مآثر وأياد على حقول الأرز في الأندلس، تركها وخرج معي، وتركته يبيع الصوف في مراكش.
- لو كان هنا لشاركهم التعمير والإنشاء، إنّ ما تراه أمامك هو من بناء مهاجرينا وأبنائهم.
- لم أشكّ في ذلك لحظة. وياليت ابني الأكبر يسلك طريقهم ويحذق صنعتهم بعد أن أخذ مبادئها عن عبد الرحمان.
- الأمر بسيط وسهل، فإدارة سدّ البا طان الذي ذكرته منذ قليل بيد نصر آغة وأحمد شلبي ابن يوسف داي، وبإشارة صغيرة من أحدهما يمكنه بداية التدرّب على ما يشاء من فروع هذه المهنة.
- هذا صحيح، لكن ما العمل ومقامنا سيكون بتونس؟
- بقاؤك بتونس أولى لك وأنفع لنا، إذ بدأت أفكّر جدّيًا أن تتولّى إدارة المدرسة الأندلسيّة، بعد استشارة يوسف داي طبعا.
- وقبل استشارتي أنا طبعا.

ضحك مرافقي واعتذر بحرارة:

- ظننت هذا متماشيا مع ما ترغبه من معاشرة أهل العلم وطلاّبه.
- لم تبتعد عن الصواب، وإنّما قصدت المزح، فلا تؤاخذني. أمّا مستقبل أولادي فقد شغلني منذ وصلت بلدكم.
- كيف هذا، ألم يشغلك من قبل؟

- ونحن في مراكش كان صديقي عبد الرحمان هو المهتمّ أكثر مني بتربية الأولاد، فأنا من كثرة ما تنقّلت ولشدّة ما انشغلت بعملي في الديوان السلطاني لم أجد الوقت الكافي لهذا الأمر رغم أهمّيته. فهو قد علّم أكبر الأولاد الريّ كما قلت، وعلّم الثاني صناعة الحرير إنتاجا ونسجا، أمّا الأصغر فما زال يذهب إلى الكتاب.
- فمصلحتهم وضمان مستقبلهم لايكون حسب رأيي إلاّ في تستور حيث استقرّ أكثر اللاّجئين من بني وطننا، وحيث لا يحسّون بالغربة. فإذا طلبنا من يوسف داي إقطاعهم أرضا كما فعل مع غيرهم، فسوف لن يتأخّر.
- تعني أرضا للإيجار والاستثمار...؟
- لا، بل منحة وعطيّة ومعها بذور العام الأوّل وقنوات الري، وإعفاء من كلّ أداء.
- كل هذا يمنحه لأبنائي؟ جازاه الله خيرا.
- لا يا شيخ أحمد، لقد فعل هذا وأكثر منه مع كلّ وافدي الأندلس، وفعله عثمان داي قبله. ليس ما سمعته عنهما مبالغة، إنّه واقع تراه أمامك، وسيحدّثك عنه إخواننا عند ما نصل إلى تستور.

حين أتيحت لي فيما بعد زيارة متأنّية إلى سدّ الباطان الذي ذكره مصطفى كردناش أدهشني منظره، وبصورة خاصّة الفكرة الدافعة إليه والمصلحة المنجرّة منه، إذ تقدّم بعض الأندلس بالمشروع إلى يوسف داي، فنال إعجابه وتبنّاه زمن لم تكن لتونس سياسة ريّ تذكر. وسرعان ما دعا مهندسين من هولندة لتهيئة الأمثلة والدراسات، وتابع العمل حتى تحقّق بناؤه بطول تجاوز المائتي ذراع على قاعدة عرضها ستون، وله أربعة وعشرون قوسا عرض الواحد خمسون ذراعا، تفصلها ثلاث وعشرون فاصلة عرض الواحدة ثمانية وأربعون ذراعا على طول يقارب الستّين، وبنيت به أربعة شلاّلات بارتفاع ثمانية أذرع، وصنع لكلّ قوس باب خشبيّ له ممرّ محفور في الفواصل. كما بنيت ممرّات أعلى وأسفل تلك الأبواب تمكّن من رفعها وإنزالها عند الحاجة.

وامتدّ فوق السدّ جسر هامٌّ استعمل في بناء كليهما الحجر الضّخم المنقـول من بعض الآثار الرومانية القريبة. ولما تمّ البناء وراق منظره أعجب به يوسف داي فأنشأ حذوه برجا ضخما ومطحنة بالنواعير، إضافة إلى مصنع تلبيد الشاشيّة.

لعب هذا السدّ دورا هامًّا في إحياء المنطقة، وحصلت لها منه منفعتان: الأولى أنّه زاد في نموّ المغروسات على اختلافها، فالمشرفون كانوا يفيضون النهر بإنـزال المغاليق في طريق الماء فيعلو ليفيض ويغمر المنطقة باستثناء المناطق السكنيّة، حتى إذا قدّروا أنّ الحقول ارتوت رفعوا المغاليق ليأخذ الماء مجـراه العـادي إلى مصـبّه في البحر. يعمل هذا ثلاث مرات في العام، حيث يتصيّد الفلاّحون موسم الأمطـار وارتفاع مياه النهر إلى ما يقارب العشرة أذرع أو أكثر قلـيلا، وعنـدها يـتمّ الفيضان: المرة الأولى قبل جمع الزيتون ليتمّ إنضاجه، والثانية بعد جمعه لتزداد كمّية الزهر، والثالثة في الربيع ليقوى الحبّ. وهذه هي الآجال الموافقة لامتلاء مجردة، مما يسهل الإفاضة.

المنفعة الثانية المنجرّة من السدّ هي تجديد التربة، لأنّ مياه النهر تجرف معهـا عند الإفاضة مياه السيول المتجمّعة فيها، فترسب عند انسحاب الماء بعـد كـلّ إفاضة. هذه الأتربة الجديدة المنجرّة عن الطمي غطّت الجذور الأصـليّة لشـجر الزيتون حتى صارت غائرة فيها محميّة من تقلّبات الجو.

ومما علمته أنّ العناية بالفلاحة لم تقتصر على جهـة دون أخـرى، بحيـث لاتوجد مدينة أحدثها الوافدون إلاّ وحولها بساتين خضر، وغلال متنوّعة ومعـتنى بها جدًّا، وأغلب هذه الغلال دخيل مجلوب من الأندلس: مثل المشماش الشاشـي المشهور في مدينة زغوان، والذي هو تمبرانو مرسية، ومثل اللوز المالقي، والعنـب المسكي المعتنى به في رفراف تبخيرا وتقليما على طول السنة، كما كُنّا نفعـل في حقلنا بالحجر الأحمر.

انتشرت أيضا غراسة شجر التوت لتربيـة دود القـزّ، والنباتـات الفوّاحـة، والزعفران، والأعشاب الطبّية، والأرز على حوض مجردة، والذرّة والفلفل المجلوبين من جزر الهند، وربّيت الأبقار من أجل اللّبن وصنع الأجبان، ومنه نوع تستوري مشتهر، إنها الفلاحة الماهرة والمتكاملة، أساس خصب إسبانيا وثراء أهل الإقطاع فيها.

أمّا مدينة تستور ذاتها فبناؤها على أرض مرتفعة عند منعطف نهـــر مجــردة، عامرة بآثار قرية رومانية تُدعى «تيشيلّه» ومثّلت في العهود القديمة مرحلة مهمّة في الطريق الرابطة بين قرطاجنة وتبسّه.

يشقّ المدينة ثلاثة شوارع عريضة أكبرها الشارع الأوسط، ويوازيه من أعلى في أبعد نقطة عن النهر شارع ثانٍ عرضه عشرون ذراعا، وبه ساقيتان لتصـــريف المياه، ويوجد شارع ثالث مثله لكن بدون سواق، وهو محاذ للجامع الكـــبير، ولا يفصله عن النهر إلاّ حي يسكنه الخزّافون وصنّاع القرميد، ولعلّهم اختـــاروه لأنّ الضفّة الواسعة أصلح مكان لتجفيف مصنوعاتهم في الشمس.

تربط الشوارع الكبرى الثلاثة أنهج فرعيّة تتوسّطها قنوات صـــرف مبلّطـــة، وعليها تفتح أبواب الكوران المعلاّة عن قصد لمرور الـــدواب وأدوات الفلاحـــة، توازيها أبواب أصغر حجما وأظرف شكلا لبيوت حسنة الهندسة والبنـــاء، ذات سقوف قرميديّة مائلة تختلف اختلافا كاملا عن السقوف المحدّبة المألوفة في ســـائر القرى، وهي من طابقين في الأغلب، ولها أفنية داخليّة لا يخلو وسطها من عنق بئر تظلّله ياسمينة أودالية عنب، وللبعض شرفات مطلّة على الشارع ذات درابز حديد مزوّق أو نقوش وزينة على النمط الأندلسي.

في تستور سبعة مساجد تنسب إلى عائلات محسنة أنشأتها أو رتّبت لها أوقافا، مثل جامع عبد اللّطيف، وجامع درمول، وجامع بوتريكو، وجـــامع متشـــينش، ولجميعها صوامع جميلة الهندسة والشكل، لكن أعلاها وأبرزها صـــومعة الجـــامع الكبير المكوّنة من قاعدة سفلى مربّعة يعلوها إفريز يفصلها عن قاعدتين مثمّنتين في الأعلى، أولاهما ذات نوافذ مزدوجة مقسومة بإسطوانة رقيقة، والثانية ذات نوافذ مفردة أصغرهنّ الأولى، تتّجه كل واحدة منها إلى ناحية وتحت إحـــداها ســـاعة ميقات منحوتة في الرخام، لم أعرف أنّ صومعة سبقتها إليهـــا، وفـــوق جميـــع ذلك هرم خشبـــي بثمانية أضلاع أيضا، يخرج منه الجامور وكرياتـــه الحديديّـــة الثلاث.

أمّا بيت الصلاة فعرضه خمسون ذراعا على عمق سبعة وثلاثـــين، تعمرهـــا تسعة أقواس وسبعة عوارض متساوية الأبعاد، ومرتكزة على أساطين أنيقة مأخوذة

من آثار الرومان، وقد رفعت على كلّ إسطوانة أربعة أقواس فاصلة بين القباب مباعدة بين الواحدة وأختها.

لكم ذكّرتني هذه البيوت، وهذه الجوامع بما شاهدته في صوامع طليطلة وأبراج كنائسها، فكأنّ نفس الأيدي هي التي أنجزت ما رأيته هناك، وما أراه الآن هنا، لذا لم أشعر، وأنا في تستور، أني اغتربت وابتعدت كثيرا عن إسبانيا، إلاّ بالقدر الذي يفصل غرناطة عن الحجر الأحمر. أضف إلى ذلك أنّ شيخ المدينة أسكننا منزلا ظريفا يطلّ على الساحة العامّة، وهي مربّع واسع يتوسّط البلدة، وفيها تنعقد سوق أهلها الأسبوعيّة للبيع والشراء مع أهل البوادي والقرى المحيطة بحقولها المتنوّعة الثمار، يرويها نهر مجردة، وتحميها جبال خفيفة من تقلّبات الجوّ وهبّات الريح العاتية. في هذه الساحة أيضا يحتفلون بالأعياد كما كانوا قبل هجرتهم، بل وقد يصارعون الثيران أحيانا حتى تبقى التقاليد حيّة «تنظم دقات القلب» كما قال لي إبراهيم الطّيبلي فيما بعد.

إلى جانب المساجد يوجد عدد من زوايا الرجال الصالحين والكتاتيب المخصّصة لتعليم الصبيان، ولكنّها تضع بين أيديهم كُتبا بالعجمية لتعليم قواعد الدين. قلت لشيخ البلد:

«ما دمتم لم تستبدلوا الكتب العجمية بأخرى عربية فلن يتعلّم أحد هذه اللغة لمدّة أجيال أخرى، وسيبقى اسمك «الكوبرنادور» واسم شيخ الحرس «القوازيل» إلى يوم يبعثون. أنتم وأبناؤكم باقون هنا، فلابُدّ أن تتعلّموا لغة أهل البلد، وتتعوّدوا بعوائدهم، حتى تعرفوا التعامل معهم والاندماج فيهم».

قال أحد الجالسين معنا:

«أمر الاندماج صعب... لم نقدر عليه ولن يتمّ بسهولة. نحن نحيا هنا منذ زمن ونشعر بالفارق ولكنّنا لا نسعى لتغييره. وهذا أولى للطّرفين إن شئت الحقيقة. كل واحد يلزم مكانه».

نظرت إليه وأجبت محتجًّا:

«أيّة حقيقة هذه...؟ عليكم بالسعي إلى الاندماج الكامل وإلاّ فستضطرّون إليه. إلى أين ستذهبون... هل بقي لكم مكان؟... هذه أرضكم، وهؤلاء هم

قومكم، فعليكم الائتلاف بهم ومصاهرتهم، فليس كالخؤولة رابطة للأرحام...
ومن بقيت في رقبته مرونة الالتفات إلى الوراء فأرشدوه، كي لا يضيّع وقته في التمني. هنا آخر الطريق وقد بدأتم ببناء الحجر، فابنوا صِلات العطف بين القلوب.

- من دون إغراق في التمني نريد الاحتفاظ بجلودنا كما هي، كما خلقنا بها، وكما نريدها أن تكون. في إسبانيا قيل لنا أنتم مسلمون ومشارقة فانقلبوا مثلنا أمّة كاثوليك أروبية، حاولنا فلم يعجب الحال أحدا. في فرنسا قيل لنا نفس الشيء، وحاولنا فلم يرض عنّا أحد، وأطردنا من هذه وتلك. والآن ينظر إلينا أهل تونس متعجّبين من لباسنا وأكلنا ولغتنا وعوائدنا، ويعتبروننا أروبيّين، بل لعلّ البعض يكتم اعتقاده بأنّنا نصارى متستّرون، كما ظنّنا الإسبان مسلمين متستّرين. دعنا يا شيخ نحتفظ بقشرتنا فلم يبق لنا غيرها، وليفعل من يأتي بعدنا ما يشاء ويشتهي».

كنّا ساهرين على درج الجامع الكبير، في جوٍّ خريفي ما زال محتفظا ببعض الدفء، وقد فرش الشيخ الطنافس والزرابي، وأحاطنا بشيوخ البلدة ووجهائها، يحاوروننا في أمورهم، ويبادلوننا الأخبار والذكريات. هذا إبراهيم الطّيبلي، الذي عرفته باسم خوان بيريث حين جمعتنا طليطلة مدّة سنتين نتعلّم في معاهدها. هؤلاء أيضا محمد بن عبد الرفيع وأولاد ابن أبي العاصي والأكيحل زميلي في الترجمة، أيّام عملنا في غرناطة، وجميعهم زمرة رجال علماء وصلحاء يؤلّفون ويترجمون، ويعلّمون الوافدين أصول دينهم ودنياهم، ويعيدون الروابط الاجتماعية بين العائلات والفئات القادمة من الأندلس، بعد تزلزل كيانها وانفراط حبّاتها.

قال إبراهيم محاولا التهدئة وإنهاء النقاش:

«لا تحمل حماس أخينا محمل التنكّر لضيافة إخواننا أهل تونس ولسخاء أميرهم التركي الشهم، فهم أهل لكلّ الشكر والعرفان، لكنّما الأمر في حاجة إلى مهلة وقت وتعوّد بطيء، فنحن نعيد الروح إلى جسد فقد الروح... نعيد إليه إيمانه بالله، وثقته بنفسه، وننقذه من انهيار أصابه وانحلال هدّد وجوده وحقّه في الحياة. وما هؤلاء الذين حولك، ممن عرفت بطليطلة وغرناطة، أو ممن لم تعرف، إلاّ رجال قد انكبّوا باجتهاد على تصنيف كتب في الشريعة بفروضها وآدابها

ومعاملاتها، ليتعلّم الجيل الجديد قواعد دينه ومقوّمات شخصيّته، وبهذا يتأهّل للاندماج بأيسر السبل في الأرض التي تغذّيه، والناس الذين أحاطوه بالحبّ والرعاية.

أضاف حفيد الأكيحل:

- حصل عندنا الآن ما لا يقلّ عن عشر مخطوطات في مختلف الفنون، وسنبدأ بتعليمها للصبيان بالعجمية مع محاولة تعريبها خطوة خطوة. لا يمكن قلب الأمور دفعة واحدة، إنّ النفس لا تترك ما اعتادت وشبّت عليه إلاّ بعد عناء وفطام شديد.

قال الحاج مصطفى كردناش:

- نحن نقوم في تونس بنفس المسعى، وسيعيننا الشيخ الحجري عند إشرافه على المدرسة الأندلسيّة اعتمادا على ما تحويه من كتب، وعلى ما ستمدّوننا به من تصانيفكم القيّمة، ممّا لا غنى عنه لكلّ متعلّم».

وكان لابُدَّ من قضاء يوم كامل مع إبراهيم الطّيبلي في بيته ليريني ما أتى به من كتب في رحلته مخفيّة وسط الثياب وأواني الطبخ، وهو عمل شجاع لم يجرؤ عليه الكثير. وأطلعني على مؤلّفاته الجديدة، وبعضها لم ينته من تنقيحه بعد، فاستحلفته أن يرسل لي نسخا من أعماله تلك بعد إنهائها.

وتذاكرنا أيّام الشباب في طليطلة، وسهرات الفرقة المسرحيّة التي اشتركنا في إنشائها إلى أن منعها ديوان التفتيش. في أيّامها كنّا مجموعة شبّان ستّة أصبنا بهوس المسرح، فلا نتخلّف عن أيّ عرض يقدّم في طليطلة، وقد نشاهد المسرحيّة الواحدة مرّتين أو ثلاثا حتى نحفظ أناشيدها وأشعارها. وأكثر المؤلّفين شهرة عصرئذ هو لوبّي دي بيغا وقد ادّعى المعجبون به أنّه كان يكتب بيدين في وقت واحد لكثرة إنتاجه وخصوبة أفكاره.

قال إبراهيم وقد أشرق وجهه من خلال اللحية البيضاء محاولا استعادة ملامح الشاب الذي كان لاهيا في طليطلة عن لعبة الأقدار المترصّدة:

- هل تتذكر مسرحية «باريبانيث» وأنشودة فلاّحي أوكانيا الرائعة؟

تر اللاّ... تر اللاّ... ترا... للاّ... للاّ

مرحى مرحى بالعروسين

شهر مايو بالزهور يتألّق

والنسيم في المروج يتدفّق

والمياه في العيون تترقرق».

تذكّرت هذه الأغنية، إنّها افتتاح التمثيليّة، فأشرق وجهي المتغضّن بفعل السنين وأخذت عن صديقي ترديدة المقطع الثاني:

تر اللاّ... تر اللاّ... ترا... للاّ... للاّ

فارفع غصونك يا شجر

وانثر ندى لامعا مثل الدور

واصنع التيجان من بيض الزهر

طاب لنا الليل... ما أحلى السهر».

وأنهينا الأنشودة ضاحكين كأيّ طفلين عابثين، بعد التأكّد أن لا أحد يسمعنا من أهل الدار.

ذكّرني إبراهيم بزيارتنا العجيبة إلى لوبّي دي بيغا حين كان في خدمة الدوق أنتونيو ألفاريث وجاء معه إلى طليطلة. بسرعة التأمت مجموعة الستّة كما العادة عند ما نقصد المسرح، وحاولنا دخول مقرّ الدوق لكن الحرّاس صدونا بعجرفة، لكنّنا أصررنا على الدخول شارحين لهم أنّنا لسنا متطفّلين أو طالبي صدقة وإنّما طلبة لاهمّ لهم إلاّ التثقّف ومعرفة مشاهير الرجال.

لما طال النقاش ووصلت أصواتنا إلى داخل القصر خرج رجل طويل القامة لايحمل سلاحا، وحاول مساعدة الحرّاس على صدّنا بالنقاش والإقناع. لكنّه ما إن سمع كلمة الشعر والمسرح على لسان أحدنا حتى أشار علينا بالهدوء وسأل:

«إن أنتم من هواة الشعر والمسرح فالدوق أنتونيو ألفاريث لا يهتمّ بهما كثيرا، وإن جئتم لطلب آخر فاكتبوه في عريضة وسأقدّمها له في أوّل فرصة وأردّ عليكم».

صرخنا بصوت واحد:

«لا حاجة لنا عند الدوق... نريد رؤية لوبّي دي بيغا».

ضحك عندئذ حتى لوى عنقه إلى الوراء، وقال للحـرّاس بعـد أن لعنـهم ولعننا:

«ابتعدوا... هؤلاء ضيوفي. أنا لوبّي دي بيغا».

أحطنا به فأدخلنا غرفته الخاصّة، وقضى معنا العشيّة كلّها يحاورنا وينشـدنا شعرا.

قلت لإبراهيم:

«ذكرى عظيمة لا تقدر الأيّام على محوها... هل تتذكر قصيدة المرأة الـتي سمعناها يومها لأوّل مرّة:

المرأة حبّ وطيبة

المرأة شرّ مصيبة

هي الحياة، هي المنايا

هي السرور، هي البلايا

حنان وخير إذا أقبلت

هموم وشرّ إذا أدبرت

ملاك رحيم يزين الوجود

رسول الجحيم، مثال الجحود

هناء وفير ولؤم شديد

فحينا غذاء وحينا صديد

كما بالدّماء ننال البقاء

كذا بالدّماء يلم الفناء».

- كأنّه هو الذي ينشدها الآن... صوته ما زال يرنّ في أذني، ووقفته بيننـا وهو يؤدّيها بحركة مسرحيّة لم تغب عن مخيّلتي.

- أنت أيضا خضعت لغواية الشعر قديما وقد رأيتك كتبت شعرا في بدايـة مخطوطك، فهل عاودك الحنين إلى هوايات الشباب؟

- إنّما هو استهلال بسيط لذلك الكتاب الجامع لأساليب عديدة، فيها الشعر والقصص والذكريات والمواعظ، جعلتها في لغة سهلة تسوغ للشباب، وقصدي تعليمي وليس أكثر. أمّا الأبيات التي ذكرتها فهي كتعويذة اتخذتها للإقدام على باقي العمل، بعد أن ألمّ بالنّفس ما عرفت من هموم وتثبيط عزائم:

أقدم على الإصداع بالرّأي يا قلمي ... لا تخش بأسا، ولا تخضع إلى ندم

علّم وقوّم مستنيرا بما ... في طُلَيْطِلِ العرفان والفِهَمِ

بيت العلوم وأهل الفضل كلهم ... ونهرها التّاج رمز الخصب والكرم».

قلت للحاج مصطفى كردناش، ونحن على وشك العودة إلى تونس:

«سأكون مطمئنًّا على مستقبل أولادي إن أقاموا بين أهل تستور، وأكون مدينا لك إن يسّرت لي إنجاز الأمر مع يوسف داي. ها أنا سأعمل بمشورتك مستعينا بك وبالقائد نصر آغة الذي فتح لنا باب ديوان دار الباشا وقلوب من فيه. فعلى الله الاتّكال وأنا سامع مطيع».

جمعت من إخواني في تستور كتبا كثيرة بنيّة حفظها في المدرسة الأندلسيّة، حتى يعمّ الانتفاع بها، ويمنع عنها التلف والضياع. من ذلك نسخة نقلها الشيخ الأكيحل بغرناطة عن وثائق «خندق الجنّة»، وقد عرفت خطّه لأنني درست عليه، وهي نسخة انتقلت بعد وفاته إلى الفقيه يوسف قلبو وأتى بها إلى تونس، ومنها نقلت عقيدة تصفيون بن العطّار في التوحيد وبعض المسائل الأخرى ممّا ذكرته آنفا.

ووجدت أيضا كتابا كبيرا مطبوعا بالقالب مترجما عن سيبرياني دي فاليرا البروتستاني، مثل الذي اشتريته مخطوطا في إشبيلية، وفيه جمع التوراة والزبور والإنجيل، وزدت منه في كتابي حلم بختنصر وما فسّره له النبي دنيال عليه السلام.

أخذت منهم ما ترجموه في المواعظ أو العبادات لاستعماله في الدروس المنتظر تقديمها للتلاميذ، وبعضها بالعجمي والآخر مترجم إلى العربية لكنّه يحتاج إلى

مراجعة وتعديل، مما سأباشره مع الشيخ أحمد الحنفي، إمام جامعنا وعمدتنا في الفقه واللغة.

على أنني وأنا أرتّب هذه الكتب وأتصفحها بعين المشتاق، وقعت على مخطوط له هوامش بلغات مختلفة: بالخميادو، بالإسبانية واللاتينية، وحتى بإسبانية كتبت بالأحرف الإغريقيّة، يحمل إمضاء علي بن محمد بن محمد صولار. لكن جلبت انتباهي عبارة إهداء كتبها النّاسخ على ظهر المخطوط بأحرف إسبانية:

«من فرانثيسكو العالمي... ساكن الأرض».

هكذا، على غير انتظار، عثرت على هذه المقولة الفريدة النابضة بالصدق المحض، مما لم أقرأه في كتاب، ولم أسمعه على لسان عالم ممن ناقشتهم. وليس فيهم إلاّ الفرحان بما أوتي من علم قليل، المكتفي بما وجد عليه آباءه، المسترحب لضيق جحره، وانكماش صدره... لم أسمع منهم من قال مرّة: أنا ابن آدم، ووطني الأرض، وما عدا هذا قيود وحدود. لم أسمع أحدهم قال: أرض الله للجميع، وَحَيْثُمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ.

أمّا أنت فقلتها يا فرانثيسكو البطل... هكذا قدرت على ما عجز عنه غيرك، وتحرّرت بسهولة من ربقة الأوطان، فلا أنت إسباني، ولا أندلسي، ولا حتى من ماذيانتي موطن صاحبك علي صولار. أوليت الرجل ظهرك. تأبطّت مخطوطه، وتركت المكان.

ولأنهم طردوك أنت أيضا يا فرانثيسكو، استبدلت مرارة المنفى بكبرياء الشمول وبوسع العالم كلّه... كتبت صفتك بلغة إسبانيا رافضا لإسبانيا ذاتها. إنها رمتك، وعليك الآن أن ترميها.

من حقك رفض مواطنة تشتمك، والاستغناء عن بلد أذلّك وأهانك. وليكن عنوانك الأرض بوسعها.

فرانثيسكو العالمي... ساكن الأرض ها أنت ترفع رأسي. تنسيني مرارة المنفى... أنا أحمد بن قاسم البيجارانو، الحجري، الغرناطي، الأندلسي، المراكشي، المغربي، التونسي.

لا أدري أيّ نسبة من هذه هي نسبتي؟

ولا أيّ بلد سكنته هو بلدي؟

ولا أيّ أرض وطئتها هي أرضي؟

فلأكن أنا العالمي ساكن الأرض... مثلك يا فرانثيسكو الهائم بمخطوط علي صولار بين الجهات الأربع.

عبد الواحد براهم

قبّةُ آخِرِ الزّمان

(رواية)

صاح قائد الكتيبة في جنده فوقفوا كالشجر النابت:

- اصعدوا السفينة وليحرص كلّ واحد على أثاثه وسلاحه. كلّ من يضيّع سلاحه أو يبكي حنينا إلى أمّه سأرمي به في البحر.

عمّ السكون ولم تتحرك عضلة واحدة في وجوه الجند، بعد أن كانوا منذ لحظات يملأون الرصيف صخبا وضحكا. صدر الآن أمر القائد بالتحرّك، فانحنى كلّ جندي على أدباشه بصمت، وعاد ليقف في الصفّ الطويل الصاعد إلى المركب.

أفردت السفن أشرعتها البيضاء فانسدّ الأفق، واتّجهت شرقا كالنوارس العملاقة، تدفعها نفس الريح التي ابتعلت أصوات المودّعين وآهاهم، وأتلفتها في الفضاء المطلق.

عاد قائد الكتيبة ينبّه:

- لكلّ كتيبة موضع خاصّ في العنابر السفلى. لا مكان على ظهر السفينة إلاّ للنّوتية وضاربي المدافع.

تنازع اثنان من صغار الجند على مكان قرب النافذة وهما يتضاحكان، ثمّ هدأ الجميع لما اقترب اللّيل، وهيّجت ساعة الغروب في النفوس همومها وذكرياتها القريبة والبعيدة. عندها خلع بدرو الخوذة النحاسية وشبّك يديه خلف رأسه وهو يتمدّد جنب سلاحه. أتته أصوات الريح والموج فغمرت قلبه بالوحشة وأسلمته إلى هواجس مختلفة، بعضها اجترار لما مضى، وبعضها الآخر خوف من نتائج هذه الحملة الذاهبة لغزو إفريقية.

بدرو ليس جنديًا مُحترفا، لكن له خبرة باستعمال السلاح، شأن جميع شبّان ذلك العهد، يحتاجونه للدفاع عن أنفسهم، وأحيانا للتباهي وإغواء الحسان. أمّا مهنته الحقيقيّة فهي نحت الحجارة وبناء الأبراج والحصون.

كان قد نزح من قريته إلى المدينة أيّام نشطت حركة بناء الحصون فربح ببراعته في الصنعة ونشاطه نصيبا وافرًا من المال، لكن هذا لم يكف لتطمئنّ نفسه

فأهدافه في الحياة لم تتحقّق بعد، وما تركه لقريته إلاّ خطوة أولى من طريق سطّره وبرنامج أعدّه، وجعله قضيّة حياة أو موت. يأتي بعدها الانخراط في الجيش، والمشاركة في حملاته على الشواطئ البربريّة ومطاردته لقراصنة البحر وتلك الخطوة الثانية. ولما كان أهل قريته والقرى المجاورة ممنوعين من العمل في العسكر لشغبهم المتكرّر فقد انتقل بدرو إلى المدينة بعد أن تشاور طويلا مع عمّه، وأخذ منه النصح والإرشاد لتنفيذ خطّته السرّية مع حسن التخفّي وكتمان أمره عن كل حيّ.

وها هو بعد أن اتّبع التعليمات بدقّة، وغيّر مسكنه مرّات حتى لا يتعرّف عليه الجيران، يستقرّ به المقام في حظيرة لبناء برج دفاعي فوق مقرّ حاكم المدينة. وقد حرص منذ الأيام الأولى لالتحاقه بالعمل على التقرّب إلى رئيس العملة وإلى قسّيس يداوم الزيارة للحاكم. أمّا الأوّل فقد اكتسب ثقته بالتفاني في العمل وإتقان ما يكلّفه به دون أن يتذمّر أو يحتسب الوقت، بل تعمّد أحيانا عدم المطالبة بأجره، إلى أن يأتيه الرجل يسخر من طيبته المُشطّة:

– هيه! بدرو الأبله! هل تنوي هذا الأسبوع أن تشرب الهواء كالإوزّ عوض النبيذ؟ تعال استلم أجرك!

أمّا القسّيس فكلّما رآه داخلا ساحة القصر إلاّ وجرى نحوه ليقبّل الصليب المتدلّي من مسبحته بخشوع، فيضع الرجل يده على رأس الفتى ويدعو له بالخير. وفي إحدى المرّات مدّ الفتى يده بكيس من النقود بعد أن تقبّل الدعاء الصالح، وقال لرجل الدين:

– هذه صدقة من أجل الأعمال الطيّبة التي توفّرها كنيستنا الرحيمة.

ردّ القسّيس اليد الممتدّة بلطف وأجاب:

– أنت أولى بالرحمة يا بني! أنفق على نفسك وعلى أهلك من أجرك الزهيد، وأكثر من الصلاة، فهذا يكفي منك.

– أنا بلا أهل يا أبت، ولا أعول أحدا، فاقبل منّي هذا القليل الذي وفّرته من زاد الدنيا، ولتحفظه لي الكنسية زادًا للآخرة.

– أنت ابن صالح أيّها الفتى، فتح الربُّ قلبك للرحمة فهنيئًا لك. تعال يوم الأحد إلى الكنيسة وقابلني بعد القُدّاس.

وكان ذلك الأحد يوما تاريخيًّا... ركع فيه بين يدي القسّيس بعد انصراف المصلّين، شكا إليه مرارة الوحدة والتشرّد بعد موت والديه في عام الطاعون، وكيف أنّ جارا طيّبا ربّاه وعلّمه الفلاحة، لكنّها لم تستهوه، فغادر العائلة الفقيرة في الشمال، وتنقّل بين مقاطع الحجارة ينحتها، وفيها تعلّم كيف يصنع تماثيل للصليب والعذراء، أهداها لأديرة وكنائس آوته وساعدته في أوّل شبابه.

سأله القسّيس:

- هل أستطيع رؤية بعض ما صنعته من تماثيل في الكنائس القريبة؟
- أنا من قرى الشمال يا أبي، وكلّ ما أنجزته تركته هناك لصعوبة نقله. ثم هي أعمال بدائية لا ترقى إلى المستوى الفنّي الذي أشاهده في كنائسكم بهذه الناحية.
- وهل تعدني بمنحوتات جديدة؟
- لا أطمح أن تكون أعمالي فنّا يا أبتي، وسأخجل إن عرضت في الكنيسة.
- لا بأس، سنعرضها في الحديقة ولن نذكر اسم صانعها.

وابتسم القسّ من عفوية الشابّ وطيبة قلبه، وأنهضه لينصرف، لكنّه استمرّ راكعا مطأطئ الرأس كمن يهمّ بكلام آخر فيغلبه التردّد. سأله الراهب:

- هل لديك كلام آخر تريد قوله؟ تكلّم يا بنيّ!
- لم أعد أجد يا أبتي في الصلاة تلك الحرارة التي تعوّدت عليها عندما كنت في القرية، فغوايات المدينة كثيرة، وأنا شابٌّ قويّ البنية، ولا أجد ما أهتمّ به غير الشغل، لذا قدّمت لك تلك العطيّة البسيطة عساها تكفّر عن أفكار طائشة راودتني في اليقظة، أو خامرتني في المنام.

طرفت عينا القسّ وبانت في وجهه ملامح الرحمة وقال:

- كلّنا مذنبون يا بنيّ، وليس فينا من ليس بلا خطيئة. و لم لا تتزوج؟

نهض الفتى واقفا، لكن دون أن يرفع بصره عن الأرض، وبقي صامتا.

- أجب يا بنيّ! أنت في سنّ الزواج، فلتبحث لك عن صبيّة تؤنسك، وتنجب منها نسلا يحب الله ويخدم الكنيسة.

- يجب أن أتعلّم حبَّ الله جيّدا قبل أن أُعلّمَه لغيري، لم أعمل أعمالا طيّبة بالقدر الكافي يا أبتِ.
- وماذا تريد أن تفعل؟
- أن أقاتل الكفار بهذا البدن القوي قبل أن يضعف بالزواج وتقدّم العمر. أن أنال رضا الرّبّ بالدفاع عن ديننا وحمايته من الكفّار. أليس هذا ما سمعتك تدعو إليه في الصلاة هذا الصباح؟

فتح القسّ فمه مُندهشًا من حماس الفتى وقوّة عاطفته وقال:

- طريق الجنّة مفتوح أمامك يا بنيّ فما عليك إلاّ أن تتقدّم، فالملك يستعدّ لغزو الشواطئ البربريّة ويمكنك الذهاب مع الذاهبين، فالاستعداد هذه الأيّام على أشدّه.
- رأيت المجنّدين يحتشدون في القلعة منذ أيّام، فلعلّهم يتدرّبون قبل السفر.
- لا وقت للتدريب، وإنّما يجري تسليحهم وتفقّد صحة أبدانهم ومدى تحمّلهم ركوب البحر، وأوّل شروط الاختيار هي أن يكونوا مدرّبين وأشدّاء في القتال، لأنّهم سيواجهون هذه المرّة أتراكا من عُتاة المقاتلين، حاصروا جندنا في قلاعهم بتونس وما جاورها، ولابُدّ من طردهم، بل وإعطائهم درسًا حتى لا يعودوا إلى تلك النواحي.

بدت على وجه الشابّ علائم الأسف وبقي واجمًا، فسأله القسّ عمّا به:

- كنت قبل هذه اللّحظة تتكلّم بحماس، فما بالك فترت مرّة واحدة كأنّ وصفي للمعركة القادمة قد أذهب حماسك؟
- لا يا أبتِ لم يذهب الحماس عنّي، ولم يرهبني وصفك للعدوّ، ولكنّ مهاراتي العسكريّة محدودة، لأنّني لم أتدرّب بصورة نظاميّة.
- ألا تعرف الضرب بالسّيف؟ وهل يوجد شابٌّ في مثل سنّك لا يُحسن الدفاع عن نفسه؟
- بلى، بلى، أحسن استعمال السّيف والرمح والرشق بالسهام، أمّا هذه الأسلحة النارية والمدافع فلم أتعلّمها.

- سأكلّم الحاكم في أمرك ولعلّهم سيجدون لك مكانًا في فرقة تُناسب ما تحذقه. ألم تقل إنّك ماهر في بناء الحصون؟! إذن هذا يكفي.

ارتمى الشابُّ على يد القسّيس يُقبِّلُها بحرارة وهو يُردِّد كلمات الشكر والامتنان، قبل أن ينسحب وهو يكاد يرقص فرحًا.

في آخر الأسبوع أتاه رئيس العملة وناداه بغير الوصف المعتاد:

- هيه بدرو! أيّها الضابط السامي في جيش الإمبراطور، هل تتفضّل بالنزول لاستلام أجرك؟

فتح الشابُّ فمه ليقول شيئا ثم ضمّ شفتيه جيّدًا لكي لا يصرخ فرحًا، ونزل درج الحصن قفزًا إلى حيث وقف رئيس العملة، ومدّ إليه يده مصافحًا بحرارة، ولم يكن متعوّدًا من قبل على ذلك. أمسك رئيس العملة بكلتا يديه كفّ الشابّ الخشنة وهزّها وهو يردِّدُ متأثِّرًا:

- بدأت أتعود على بلاهتك يا بدرو، وإن كنت تبدو لي أحيانا أذكى ممّا أعتقد. المهمّ أنّك أمهر من جمعتهم هذه الحظيرة، وسألعنك وألعن المكان الذي تركته شاغرا إلى أن أجد من يعوّضك.
- إذا قبلوني في الجنديّة سأؤدّي مهمّة نبيلة يا سيّدي، بل مقدّسة!
- احذر أن تعود إلينا راهبا بعد هذه الحرب، ألسنا نقوم هنا بمهمّاتٍ نبيلة في رأيك؟
- نعم يا سيّدي، لكنّنا نقتصر على الدفاع، أمّا هناك فإنّنا نغزو، نفتح بلادا جديدة. وإنني متعطّش للغزو، متحمّس للانتقام من الترك الأشرار.
- لا تفكّر كثيرا فيما هو أكبر من رأسك وإلاّ صرت مستشارا لقائد الحملة. أو ربّما عيّنوك واليًا على إفريقيّة... أمّا الآن فاعلم أنّ الحاكم سعى بوجاهته إلى إلحاقك بالمجنّدين، لكن ضمن فرقة خاصّة تضمّ حرفيّين وصناعا ممن مهروا في بناء الأسوار والتحصينات والحدادة والصناعات الأخرى، أمّا قائد الفرقة فهو القبطان أنسارت وتربطني به صداقة قديمة.
- أرجوك أن توصيه بي خيرا فأنا غير متعوّد على الحروب.
- هذه نقطة الضّعف فيك، عليك تعويضها ببناء حصون متينة.

- فأنا أترك البناء هنا لأتولّى البناء هناك؟

- هذا إذا وصلت سالما.

فهقه رئيس الحظيرة بصوت عال وهو يرى خيبة الظنّ مرتسمة على وجه بدرو ثم أضاف:

- ستحارب حتى تشبع، وتبني في أوقات الهدوء، ولن تكون كثيرة على ما يظهر، فالأتراك شرسون ولن ترتاحوا بجوارهم. سوف تكون أنفع من باقي الجنود يا بدرو، لأنّك ستحارب بيدٍ وتبني باليد الأخرى. هذه بقايا حسابك عندنا وسيأخذك حرس الحاكم إلى القلعة في صباح الغد. هل لديك ما توصي به إلى أهلك، أو ما تُودعه عندي من أثاث؟

- ليس عندي ما أوصي به، ولا ما أودعه عند الغير، فأهلي قد غادروا هذا العالم وسبقوني إلى جوار الله.

رسم الرجل الكهل الصليب بيدٍ ووضع اليد الأخرى على كتف بدرو:

- اذهب يا بني مباركا، ولا تنس أن تزورني بعد عودتك.

تذكّر الجنديّ الشابّ كلّ هذه المواقف عندما تمدّد في جوف السفينة واستعدّ لقضاء ليلته الأولى، وطفت على شفتيه ابتسامة غامضة المعنى عندما تذكّر حواره مع القسّيس عن تماثيل تصدَّقَ بها على الكنائس، وحواره مع رئيس العمّال الذي ختمه بالمباركة ورسم علامة الصليب بعد أن قال له: إنّ أهلي غادروا هذا العالم وسبقوني إلى جوار الله.

ولّما أوشك النوم أن يسحبه من أفكاره سرت حركة بين الجند وعلت أصواتهم بالغناء، فرافقهم أصحابهم بالتصفيق لمن وقف متبرّعًا بالرّقص، وقد نسي الجميع أنّهم ذاهبون إلى الحرب لا للتنزّه، وطغت جلبتهم على رفيف القلاع واصطفاق الموج المائج.

وفيما كان المجنّدون يلهون في جوف السفينة كان الحرّاس على ظهرها في أتمّ أُهبة واستعداد، والمراقبون تسلّقوا الصاري لاستشراف كلّ حركة تعلو سطح البحر خاصّة من ناحية الجنوب والشرق، حيث يتوقّع الجميع مُداهمة مباغتة في أيّ وقت من أوقات النهار أو الليل. ربض بعض الجند وراء مدافعهم الثقيلة منتبهين، فمن

يدري متى تصدر الأوامر بالضرب. كانت آذانهم تلتقط كلّ نبرة في الهواء، فلم يسمعوا في ليلتهم تلك غير أصوات الغناء الصاعدة في خفوت، وإلاّ صوت الحارس من مرقبه العالي وهو يعلن بصوته الأجشّ من حين لآخر أن لا شيء في الأفق.

لكن هذا اللاّشيء الذي في الأفق قد يتغيّر من لحظة لأخرى، بظهور أعلام أو قلاع أو قوافل سفن أو حرّاقات سريعة للتّجسّس، إذ بحر الروم يعيش فترة هيجان لم يعرف لها مثيلا في تاريخه الطويل الحافل بالحروب والصدامات، فإلى جانب الأسطول التركي الضخم البطيء الحركة، كانت أغربة الغزاة المجاهدين تقفز من كلّ الموانئ الجنوبية: من الجزائر أو من تونس أو من طنجة، فتظهر سريعة خاطفة وتنقضّ على أعدائها ثم تعود إلى موانيها بأسرع مما قدمت، وليس أمهر ولا أخفّ من بحّارتها في المباغتة واستغلال كلّ ظرف مُتاح.

ومهما تكتّل النصارى في مقاومة تلك القوى المناوئة وحاولوا كسر شوكتها فإنّهم لم يقدروا على ذلك، وهاهم يجمعون تحت قيادة محارب بارع هو دون خوان النمساوي عددا هائلا من السّفن، بها ذخيرة ومدافع ومُؤَن وخيل وعلف تكفي لحرب طويلة أو لضرب حصار ربّما يمتدّ شهورا. لقد فهم الإسبان أنّ الأتراك لا يستسلمون بسهولة وجرّبوا ذلك منذ حاربوهم أوّل مرّة، ولذا فهم لا ينوون إعادة نفس الأخطاء السابقة، واستعدّوا الاستعداد الكامل والأتمّ لتكون هذه هي معركتهم الفاصلة.

وصلت الحملة الإسبانية إلى ميناء تونس في ساعة متأخّرة من الليل دون أن يتفطّن لها حرّاس الأبراج، وانقضّ عساكرها على مراكز الحراسة وكانوا يعرفون أماكنها بالتحديد فقتلوا من وجدوه، ولم ينزل جند الينشرية من القصبة إلاّ وقد تقدّم الإسبان على الأرض أشواطا، واحتلّوا أغلب الأحياء الجنوبيّة والغربيّة من المدينة. ومنذ طلوع النهار بدأ القتال بين الطرفين عنيفًا دمويًّا، فلم يسع أهل المدينة إلاّ الفرار إلى البوادي المجاورة والجبال.

لم يغادر بدرو المركب، إذ أمر فريقه بالإمداد وإصلاح ما تعطّب بالمراكب، وإلى جنبهم بقي فريق للإسعاف ومداواة الجرحى، لكنّه لم ينفكّ منذ انتشر الضوء

يدور في جوانب السفينة، مشرئبًا بعنقه نحو الشاطئ، مستكشفا منظر هذه المدينة المشرقة البياض، ترسم قبابها ومآذنها على صفحة سماء زرقاء صافية، غير عابئة بما يدور بين أحيائها من قتال محموم يرتفع غباره إلى السماء، وتصل أصداؤه إلى سمع من بقي في السفن.

أخذ بدرو منظارا مكبّرا من أحد ضاربي المدفع، وسأله إن كان رأى بوادر انهزام الأتراك من خلال المعركة الدائرة فوق الربوة المواجهة، فردّ عليه بغضب:

– بوسا لأولئك المعمّمين والمطربشين! تحصّنوا بالقصبة الكبيرة هناك وأمطروا عساكرنا بالكور والبارود.
– وهل هذا لكثرة المدافع أو لعُلُوِّ المكان؟
– الأمران معًا.
– هذه فلوكة غادرت الشاطئ وأخذت في الاقتراب إلى مكاننا مدفوعة بالتيّار القوي.
– هل لها قلاع أم هي بالمجاذيف؟
– بالمجاذيف.. هاك المنظار لتتأكّد.

أخذ صاحب المدفع المنظار وما لبث أن صاح مفزوعا:

– أتراك يا ابن العاهرة ألم تتعرّف عليهم؟
– أنت أكثر تجربة منّي.. أنا لم أشاهد منظرهم إلى اليوم!
– لا تضع وقتا. اقدحوا النار وسنضربهم، لا تقفوا هكذا، ساعدوني ما داموا على مرمى مناسب.

تحرك رجال الفريق للمساعدة وكلّهم حماس لاقتناص غنيمة سهلة رماها القدر في طريقهم. قال البعض:

لا يبدو أن في الفلك جندا... وليس إلاّ رؤوس المجدّفين تتحرّك.

قال المدفعي:

– الآخرون ممدّدون على أرض الفلوكة... يبدو أنّهم جرحى أبعدوا عن المعركة.

- وهل تنوي ضرب الجرحى ماذا نستفيد من ذلك؟
التفت إليه المدفعي وخاطبه بغضب:
- هذه حرب وليست تكسير حجارة. لا قمتم بما لا يعنيك!
كظم بدرو غيظه و لم يناقش رفاقه لأنّهم شجّعوا المدفعي على ضرب الفلوكة، ولقد أصابها بعد محاولتين فأغرقها، ووقف يتفرّج في الجثث الطافية فوق ماء كدر يعلوه زبد وبقع حمراء. أمّا بدرو فجرّ رجليه ناحية السلّم منقبض القلب، ونزل إلى قاع السفينة وهو يعابث من قابله من الحرّاس حتى لا يشي منظره بما في نفسه من الألم والحزن، وارتكن زاوية بعيدة عن الأنظار مستسلما لهواجس نفسه.

في الأوّل تفكّر آمنة العجوز وخوفها الدائم...
- ما بال يديك ترتعشان يا آمنة؟
ازداد اضطراب العجوز وكاد الإبريق يسقط من يدها. التفتت يمنة ويسرة وتركزت نظراها على باب الغرف المفتوحة.
- زيدي قليلا من الماء عافاك الله وبارك فيك!
عادت تنظر إلى الباب، ثم أسرعت تغلقه بمجرّد أن انتهت من صبّ الماء على يدي سيّدها.
- ما بالك أيّتها العجوز الخرقاء تفزعين لأقلّ الدواعي؟ نحن الآن في بيتنا، وفي غرفة داخليّة لا يصل منها الصوت إلى الفناء، فما بالك بالسطوح.
لاذت المرأة بالصّمت وهي تجمع أواني الطعام وتنظّف المائدة بسحنة غائمة متجهّمة، أمّا الصبيّ الجالس قرب عمّه فحاول أن يجيب عوضا عنها:
- أنا خائفة بسبب الحكايات التي نسمعها كلّ يوم.
- اسمها آمنة. لا تدعها بغير هذا الاسم، فهو اسم مبارك لأنّه مشتقّ من الأمان والطمأنينة، ولأنّه اسم والدة الرسول محمد ﷺ... فهل فهمت أيّها الرجل؟

نطقت العجوز أخيرا:

- وأين الأمان الاطمئنان يا سيدي؟

- قصّي عليّ آخر حكاياتك. ما الذي أرعبك اليوم أكثر مما مضى من الأيام؟ ألسنا نعيش فترة الغرائب المتواترة، فما الجديد؟

- أعرف يا سيدي. ولست أتعجّب وإنّما خائفة، إنّه الخوف يتلف أعصابي ويمنعني من النوم ليلا، فأبقى كامل اليوم متوتّرة أفزع من حركة عصفور.

- ثقي بالله، وأكثري من طلب اللّطف في سرّك حتى ينفرج الكرب.

قال الفتى:

- سمعت آنا صباح اليوم.. أقصد آمنة سمعت عندما خرجت إلى السوق... بل أقصد أنّها رأت ضجيجا وجمهرة من الناس يقتادون تلك الأرملة التي تغسل الثياب عند النهر.

- تقصد خوانا البلهاء؟

- نعم هي نفسها، كانوا يقتادونها إلى الكنيسة ليستنطقها القسّ ويفهم سبب ما قالته وفعلته.

- وماذا فعلت المسكينة؟ إنّها لا تكاد تغادر المغسل إلاّ لتأوي إلى كوخها القريب منه.

تدخّلت آمنة لتوضّح لسيدها تفاصيل ما رأت:

- كانوا يجرّونها إلى الحرّاقين، وسنراها ممدّدة فوق كوم الحطب بعد أيام... تذّكر كلامي عندما يحدث ذلك.

- كل ما أعلمه عنها هو ادّعاؤها إزالة الصداع من رؤوس النساء والأطفال، تضع يدها على رأس أحدهم وتحرّك شفتيها بطريقة مضحكة دون صوت أو كلام.

قال الفتى:

- أظنّها كانت تضحكهم أكثر مما تداويهم.

عقّب العمّ على كلام ابن أخيه:

- وكيف تداويهم يا فتى، هل هي طبيبة؟ وإنّما هي امرأة خرقاء ترسل الكلام دون ضوابط، فتوهّم القرويون من غفلتهم أنها من طيبتها تقدر إزالة الآلام ومنح الراحة.

قالت آمنة:

- لقد تفطّن بعض خبثاء النصارى أنّ شفتيها تطلقان أدعية وكلمات بالعربية. وقد تكون انفلتت منها بعض الكلمات دون أن تنتبه. ربما حصل هذا. لذا كان القساوسة يعثون من يتجسّس عليها إلى أن وقعت في الأحبولة ذات يوم، وها هي تساق إلى مصيرها المحتوم.
- هذا طبيعي، ذهبت لتضع يدها على بطن الحامل وتزمّ شفتيها بطريقة تضحك الحاضرين كالعادة.
- لا يا سيدي! هذه المرّة وقعت في الحفير، وضعت يدها كما قلت على بطن المرأة لكن لا شيء حدث، وفي الليل لما أوشكت المرأة على الموت أخرجت خوانا من بين ثدييها حجابا مخيطا في قماش أحمر مثلّث الشكل، ودسّته تحت رأس النفساء، ثم خرجت إلى كوخها وهي تبكي.
- ألم تنته الحكاية بهذا؟ ألم ينفع الحجاب؟
- لم تنته الحكاية إنّما بدأت، فالحجاب الذي نجت بفضله النفساء وقع بين يدي زوجها. أخبرته امرأته بأنّه سبب خلاصها ونجاة وليدها من موت محقّق، وأنّها تنوي إكرام خوانا بجائزة هامّة. بلغ الخبر إلى القسّيس فطلب رؤية الحجاب. وبعد أن فتحه وجد فيه كلاما عربيا تعرّف أحد الحرّاقين بأنّه آيات قرآنية وأسماء من التي يطلقها المسلمون على ذات الربّ.
- آمنة... هل حصل كل ذلك فعلا؟
- حصل وألف حصل! قل لي الآن... هل تنفع الشفاعة لإنقاذها من أيدي قساوسة الحرق؟ إنهم أشدّ من جند السلطان.
- ألم يشهد الناس بأنهم رأوها في الكنيسة... أو ربما شهدوا أنّها جاهلة لا تعرف شيئا مما هو مكتوب في الحجاب؟

- قالت ذلك.. وقالت أنّها وجدته بين أثاث أمّها المتوفّاة من ثلاثين عاما، فحملته تعلقا بذكرى أمّها دون أن تعرف محتواه.
- إنّها تتحامق... رمت نفسها بداهية لن تنجو منها أبدأبدا... ولله الأمـــر من قبل ومن بعد.

ران صمت ثقيل على ثلاثتهم و لم يجد أيّ منهم رغبة في مواصـــلة الحـــوار، فهام كلّ واحد بخياله في هواجس مُرعبة. وبعد فترة تعوّذ الرجل الكهـــل، وأمـــر الصبيّ بإخراج لوحته من مخبئها، كي يراجع ما حفظ من آيات دوّنها فيها.

صعد الصبيّ إلى المسترق بخفّة فأخرج اللّوح من بين جرار المؤونة، وظهر في أعلى السلم واللّوحة تحت إبطه ليبدأ النـــزول، وعمّه ينبّهه إلى موضع قدميه حتى لا تزلاّ فيهوي... في نفس الوقت كانت آمنة تفرج الباب لتخرج ببقايا المائـــدة، وإذا صوت يعبر الفضاء مناديا بشكل ممطّط:

- آنّا ماريا... أين أنت؟
- نعم.. من ينادي؟

ردّت على النداء وفرائصها ترتعد من المفاجأة، وأغلقت دفّة الباب بضربة من مرفقها. بحركة أخرى سدّت الباب بظهرها واضعة يدها على صدرها. وفي نفس اللّحظة أشار العمّ إلى الصبيّ كي يعود إلى المسترق بحركة عصبيّة من يده، بينمـــا كمّمت اليد الأخرى فمه دون إرادة منه. عاد الصوت:

- آنّا ماريا.. هل لديك عود حطب لأعشّي زوجي؟ سرق الرعـــاة كـــلّ الحطب الذي جمعناه وراء البيت.

خرجت الخادم العجوز تجري بعد أن استردّت أنفاسها، وسمعها الصبيّ وعمّه من خلال الباب المغلق بإحكام وهي تردّ على الجارة بسماحة وتودّد:

- لا تقلقي أيّتها العزيزة، لديّ حطب كافٍ، فخذي ما شئت ليتمتّع زوجك بعشاء ساخن. اطلبـــي منه فقط أن يذكر العجوز آنّا ماريا في صلواته.

ثم سمعت قرقعة أغصان تنكسر، وبعدها عمّ السكون، ورجعـــت آمنـــة إلى الغرفة لاهثة. وانتظر العمّ حتى أشارت برأسها، إيماء بابتعاد الخطر. عندها نـــادى الصبيّ طالبا منه النـــزول.

قبل أن يشرع في التلاوة قصّ الفتى على عمّه ما سمع من أطفال البلدة عن نجّار عثر القساوسة عنده على لوح شبيه بهذا الذي بين يديه:

- لقد أقسم لهم بكل مقدّس أنّه وجده بالصدفة بين أخشاب قديمة باعها له أندلسي مهاجر، وأنّه لا يعرف إلى تلك الساعة لأيّ غرض كان يستعمله.. وأنّه لم يدرك أنّه خطير ومحرّم إلاّ عند زيارة آباء الكنيسة المحترمين.
- هل علمت بأمر هذا النجّار يا آمنة؟
- نعم سمعت الناس يتحدثون بأمره ويتعجبون لأنه من قدماء النصارى وليس فيه أية شبهة.
- وهل حاكموه وأحرقوه؟

تدخل الصبيّ ليختم القصّة التي بدأها:

- نعم حاكموه وأحرقوه.

قاطعته آمنة لتغيّر مجرى الحكاية:

- لا تتسرّع يا بني.. فنحن لم نره على كومة الحطب كما رأينا غيره... وقد جرت العادة أن يعلن الحكم ويحضر الناس لتنفيذه.

قال الصبيُّ محتجاً:

- فلماذا دكانه فارغ ومغلق منذ قبض عليه؟ أين ذهب إن لم يحرق؟

تدخّل العمّ ليهدّئ من حماس الطفل:

- دعنا نسمع بقيّة القصّة... يظهر أنّ آمنة سمعتها من مخبري البلدة.

احتجّت آمنة:

- لا علاقة لي بالمخبرين ولا بالحرّاقين... وإنّما هنّ جاراتي أحسن معاملتهُنّ فيخبرنني بكلّ جديد يحدث مع ما يلزم من حواش وتعليق، ومن بين ما سمعت أنّ النجّار لم تتأكّد عليه تهمة صنع الألواح، وهو وإن نجا من الموت فقد حجزت بضاعته، ونفي إلى الشمال، فغادر هو وأسرته البلدة من ليلته.

كان العمّ يسمع نهاية الحكاية وهو يمشط لحيته بأصابعه متأمّلا مزلاج الباب بإمعان، حتى ظنّت آمنة أنّها لم تحكم إغلاقه فوقفت تتلمّسه، عند ذلك أدار رأسه

نحو الصبيّ وطلب منه التلاوة، فتحرّك الصبيُّ لِتَوِّهِ وبدأ يقرأ ما كتب في اللّـــوح: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـــٰــنِ الرَّحِيمِ. القَارِعَةُ، مَا القَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ﴾.

ثم تذكّر بدرو عمّه أحمد وتنقّله الدائم بين المدينة وقريتهم الحجر الأحمــر... لذا فهو يجهل تفاصيل كثيرة عمّا يحدث في البلدة. يضطرّه العمــل إلى البقــاء في المدينة الكبيرة الشهرين وأكثر، ثم يعود ليتفقد شؤون الأسرة، ويشتري ما يلزمهــا من مؤونة، وبعدها ينصرف لقضاء مهامّه، وتتعلّق بأعمال الترجمــة في دواويــن الدولة وبعض المؤسّسات وهي مرخّصة ومأذون بها من الإمبراطــور أو حكّــام الأقاليم القريبة من بلدته.

ولم تكن الأسرة كبيرة فترهقه طلباتها، بل هي لا تحتــاج لغــير الإشــراف والرعاية من حين لآخر، أمّا شؤون الحياة اليوميّة فهي سائرة على عادة ما يجــري في البلدات الصغيرة، شطر في العمل وشطر في الكسل، تقطعهما أيّام الآحاد حيث يجتمع الناس في الكنيسة لقليل من الصلاة وكثير من الهذر والنميمة.

كلّ أفراد الأسرة هم العمّ وذلك الصبيّ الصغير الذي وضعه تحت جناحــه، وربط مستقبله ومصيره بنفس مستقبله ومصيره. فلأجله ولتأمين سلامته أبقى بيت العائلة مفتوحا وظلّ يتردّد عليه بين فينة وأخرى. ورغم أنّ الجميع تشرّدوا اليوم، إلاّ أنّ ظروفا غريبة وصدفا لم يكتشف سرّها أبقت على وجوده هو والصبيّ.

أمّا العجوز آمنة فإنّها خالة زوجته، ترمّلت منذ زمن بعيد دون أن تنجــب، وبقيت بلا عائل، فارتبطت بالعائلة وأخلصت في خدمتها، فبادلها الجميع الحــبَّ والإخلاص، إلى أن تفرّق الشمل ولم يبق إلاّ عنصران على أرض المنبت، أحــدهما صبيّ صغير حدبت عليه حدب الأمّ الرؤوم، وثانيهما عمّه الغائب الحاضر.

هكذا ربط الرجل حياته المتقشّفة وغير المستقرّة بحياة الصبيّ، وبذل من أجل استبقائه عنده جهدًا جبّارا، واستعان بسلطة وُجهاء وقساوسة كبار حتى لا يُودَعَ عند أسرة نصرانيّة، مثل أطفال آخرين سلخوا من أهاليهم عند حملــة التــهجير الكبرى. كان عليه الاستظهار بشهادة التعميد وبرخصة بقائه للعمل في الترجمــة، كما هو مسموح به لذوي الاختصاص، وكان عليه الإدلاء بمــا يثبــت ثروتــه وقدرته على تلبية حاجات الصبيّ إلى بلوغه سنّ الرشد. ثم لابُدّ أن يمضي إقــرارا

يسمح للطفل بمتابعة دروس الكنيسة، وإقرارا آخر بأن لا يتدخّل أو يعترض إذا اختار الصبيّ في المستقبل خدمة الكنيسة بصورة تلقائيّة. وقد أمضى على جميع الوثائق المطلوبة، وأظهر من الانسجام مع القرارات والقوانين ما دفع الحاكم والقساوسة إلى اعتباره محلّ ثقة واطمئنان، وإيكال أمر الطفل إليه.

وهو قد أنشأ إلى جانب هذه الهيئة الخارجيّة للعائلة حياة خاصّة لا اطّلاع عليها إلاّ لضميره وضمير الصبيّ، قوامها الحفاظ على تعاليم الأجداد وسنن الدين الإسلامي الذي نشأ عليه، حتى وإن كان الصبيُّ مازال بعيدا عن فهمه كلّ الفهم، لأنّ القطيعة بينه وبين أهله جاءت مبكّرة وباترة، فلم تترك في نفسه سوى الحزن والفراغ، لذا انصبّ اهتمام العمّ على تربية الصبيّ وبناء روحه الخاوية قبل أن تسبقه إليها تعاليم جديدة.

بادر قبل كلّ شيء بتعليمه الحذر وأساليب التقيّة في كلّ أمر، وأن يعيش حياته خارج البيت كما يراد منه أن يعيشها، وأن يترك للبيت حياة خاصّة بالإشباع الروحي واستيعاب أصول حضارته ودينه ولغته المهدّدة جميعها بالتحطيم، بل هي قد تحطّمت بعد.

كان الطفل في السابعة من عمره، تهيّأت مداركه واستعدّت لاستقبال المعارف، فأعطاه عمّه دروسا متتالية على امتداد ليال طوال لا تنتهي إلاّ مع طلوع الفجر. حتى إذا غطّه النوم في الغداة عن دروس القسّيس وضحك منه الأطفال، افتعل الأعذار، ولعن كلّ أنواع البعوض الذي يمنعه من النوم، لأنّ مسكنهم بجانب النهر.

أنهى الصبيُّ حفظ لوحته وذهب ليمحُوَها، وتوقّف لحظة بجانب عمّه ليسأله عن شيء، فتأمّله الرجل معجبا بطول قامته وابتسم قائلا:

- عرفت الآن أنّك لست سريع الحفظ فقط بل سريع التمطّط أيضا، انظر ما شاء الله كم طالت قامتك، إنّها تساوي ثلثي طول الباب. اذهب وقف بجانبه لأرى.

قفز الطفل جاريا ناحية الباب وفي عينيه زهو واعتداد وقال العمّ:

- بالفعل، وكما ظننت، فأنت الآن بطول الثلثين، وبعد سبع أخرى تصير في طول الباب بكامله.

احتجّ الفتى وبدا عليه التأسّف وهو يردّ على عمّه:

- إذًا أنا بلغت الثلثين في سبع سنوات فكيف أحتاج إلى سبع أخرى لأبلغ الثلث الباقي؟ نصف السبعة يكفي يا عمّي... كن عادلا معي.

ضحك العمّ لفطنة الطفل وبداهته وأجابه:

- لكنّنا لم نحسب الشبرين اللذين هبطت بهما من بطن أمك، كان علينا حذفهما من السبع الأولى!

وضحك العمّ مرّة أخرى، ولكن الفتى أنزل عينيه إلى الأرض وفاجأه وجوم وحزن، ووضع اللّوحة جانبا، والتصق بجانب آمنة كأنّما يطلب أن تهدهده لينام.

توقّف العمّ عن الضحك فجأة لمّا رأى ما ألمّ بالصبيّ عند تفكيره بأمّه وبمولده، فهذه أشدّ الأمور إيلاما لأحاسيسه التي زلزلها فراق الوالدين منذ عام مضى، وترك فيها جرحا لم يندمل بعد، وربّما لن يندمل أبدا.

مدّ العمّ يده فجذب ابن أخيه إليه، ومسح بيده الأخرى شعره، وشفتاه تتحرّكان بقراءة غير مسموعة، ثم وضع رأس الصغير على حجره وهو يربت كتفه بإيقاع خفيف، ويحدثه مهدّئا طاردا نوبة نشيج بدأت ترجّ الجسم النحيل، ولكن النوم غلب الصبيّ فما وجدت الدموع فرصة جديدة لتفريج ما في نفسه من كرب مكتوم.

وإنّما أنقذته الأحلام إذ رفعته عاليا، قرّبته من قبّة السماء حتى كاد يلمس النجوم، رأى جسمه يستطيل ويتمطّط كأنّ قوّة جاذبة تسحبه إلى فوق، تحاول تخليصه من الأرض وهمومها، تزيل عنه الثقل الممسك بقدميه يمنعه من اقتلاعهما، فهو مشدود إلى أرض هذه القرية الظالمة غير قادر على الخلاص منها.

لوى رأسه عن الكواكب ونظر أسفل، حيث خوانا غاسلة الثياب المسكينة قد التهبت ثيابها وأطرافها، وأحاطت ألسنة النار بها هالة مخيفة، وحيث العجوز آمنة ترتعد من خوف، وتستحلفه دامعة العينين، أن يأخذها هي والمرأة إلى مرافئ النجوم القريبة من يده، حتى لا يغذّي الحرّاقون بلحمها نيران أحقادهم.

يفتح الصبيُّ فمه يريد القول: «لا طاقة لي بحملكما أيّتها العجوزان، جسمي نحيل، ولا قدرة لي على إيصالكما حيث النجوم»، لكن لا يصدر منه صوت، فهو كالأبكم أو المشلول، فيغلق فمه وينظر إلى ساحة القرية بقلب جريح.

يرى هناك رجلا يمسك بلوح الكتابة ويجري لاهثا من مكـان إلى مكـان كالباحث عن مهرب. إنّه النجار وخلفه أشباح سوداء بلا وجوه، وإنّما لها أذرع طويلة تمسك أغصانا ملتهبة يزيدها الجري اتّقادا واستعارا. يصيح الرجل ويستنجد لكن لا مجيب. فتح بدرو فمه ثانية ليعيد محاولته الأولى لكن الأصوات تجمّدت في حلقه، وبقي رأسه قريبا من قبّة السماء، ورجلاه ملتصقتين بالأرض.

رقّت نفسه من حزنها وشفّت، حتى تصوّرت الجسم غدا عمود ضـباب أو دخان، ترفعه الريح إلى أعلى تمنحه حرّية الانتقال إلى حيث يشاء. وماذا يشاء لـو سألناه؟ يشاء العثور على أبويه أولا وأخيرا، وليذهب الحجر الأحمـر وأهلـه إلى الجحيم، وليحرق قساوسته لحم الناس ليتقرّبوا به إلى آلهتهم شواء طريًّا طازجـا. سيترك مصيره بيد الريح تأخذه إلى مستقرّ آمن بعيدا عن الفتن، حيث لا تستجير به أرملة تشتعل كأنّها فتيل زيت، ولا نجّار مذعور تهدّده أشباح سود بالأغصـان الملتهبة.

وماذا يشاء بدرو لو سألناه؟ يشاء أن يكون في مدينة عالية الأسوار محصّـنة الأبراج، تهدأ فيها النفس الخائفة، والقلب المهدّد بالرّعب في كلّ حين. وبـذكرى العجوز آمنة وارتعادها عند كلّ حركة، وتذكر قول عمّه أحمد:

- لا تدعها آنا... اسمها آمنة. عندما نكون وحدنا لا أحبُّ سماع غير هـذا الاسم، فهو اسم مبارك لأنّه مشتقّ من الأمان والطمأنينة.

فتردّ المسكينة:

- وأين الأمان والاطمئنان يا سيدي؟

قال بدرو في نفسه التي شفّت حتى صارت كالضباب أو الدخان:

- سأجدها أيّتها العجوز الطيّبة في مدينة من صنع أحلامي، نأت بنفسـها عن مواطن الكراهيّة والبغضاء، وشقّت بنفسها طريقا لا يعرفه منـتقم أو حقود، فهي مصطفاة لإيواء الأجناس والألوان والطوائف مهما كانـت ملهمة لإسعادهم وتنقية نفوسهم من أدران البغضاء، هي كنف للفقـراء والأغنياء معا، ومؤتلف لأهل الملل والنِحل والأهواء، يستظلّون بظلّهـا، وينتشر العدل بينهم انتشار الهواء، كما يجري الإنصاف والتفاهم بينـهم

مجرى العادة والطبع، فلا قهر قاهر، ولا سطوة سلطان. هذه هي مدينتي، أطفالها أصحابي، وأهلها أهلي، أدخل بيوتهم فلا أرى ملّة تعتزل بنفسها أو تعلو على غيرها، ولا أعثر فيها على مسلمي بلدي المذعورين، ولا رهبانه القساة الظالمين. فالكلّ مختلط بالكلّ، متمازج معه، ذائب فيه.

هذا العمّ كارلوس الحطاب يناديه:

- تعالَ ساعدني يا بدرو... فقد غدوت شيخا أعجز عن ربط حماري بهذا العمود.

- سي سينيور كارلوس... برفافوري!

وهذا الشيخ عامر تاجر الدواب يسأله ممازحا:

- متى أبيعك فرسا أيّها الرجل القصير؟ أمازلت تخاف ركوب الخيل؟

يردّ عليه بدرو:

- أنا لا أخاف... هات فرسا على مقاسي وسأشتريه.

ويتركه الرجل ضاحكا من بديهته الطفوليّة وحسن تخلّصه. أمّا في هذه الأيّام، فالشيخ عامر مفلس، مغلق على نفسه باب البيت، لأنّ العساكر أخذوا دوابّه كلّها، حتى لا يزوّد بها بني عمومته المتمرّدين. وذاك العمّ كارلوس الحطاب صار ينظر إلى الجميع بحذر وريبة، ولا يكلّم أحدا يسلّم عليه في دروب الغابة، بل يهمز حماره بمسمار ويجري. ينظر القساوسة إلى بدرو من طرف أعينهم يراقبونه سراً في قُدّاس الأحد. يضحك الأطفال من لكنته ويرصدون أخطاءه في الأدعية والصلوات. هل هو أكثر غباء من أطفال النصارى؟ لماذا لا ينهرهم الرهبان، ولا يرصدون حركاتهم؟

قال بدرو في نفسه الشفافة كالضباب أو كالدخان:

- ليتني أستطيع أخذك معي يا خوانا إلى مرافئ النجاة. لقد وجدت مدينة جديدة لا تصل إليها نيران المنتقمين. طيري بها إلى هناك أيّتها الرياح. خذيها إلى مدينة الرحمة حيث لا ضيم ولا ضرار، فكلّ الأطفال سواء، وكلّ الرجال سواء، وكلّ النساء سواء. وليتني أستطيع أخذك معي يا

آمنة العجوز إلى مدينتي الجديدة، إنني أراها الآن أبوابا عالية كتب عليها: ادخلوها بسلام آمنين، وساحات فسيحة يعمرها التجّار والبضائع من كلّ بلد وصقع، برك ومسابح وغدران يلمع فيها الماء النمير، ويرفرف عليها الحمام وطير الجنّة، وقصور بهيجة تعمرها نساء جميلات، إذا خالطتــهنّ انقلبت صبيّة بهيّة ترشق في شعرها الأسود مشطا طويل الأسنان وزهــرة جلّنار، ولك إن شئت الانتقال بين سوق العطّارين حيث طيب الشــرق والغرب، أتى به حذّاق التجّار خصّيصا لجميلات هذه المدينــة، ولــك أن تطوفي بمحلاّت الأزياء والملابس فتختاري منــها مــا يعيــد إليــك نضارة وجهك ورواء عودك. ولك بــرك الميــاه لتتــبرّدي وتســبحي كحوريات البحر بين الأسماك الذهبيّة وزهرات النيلوفر. ولك الحمّامات الساخنة بمهرجاناتها وعروضها الفريدة يلفّك فيهــا البخــار الــدافئ، وتدلك أعضاءك الجواري بلطف يزرع الحياة في الشــرايين والفــرح في النفس. ولك أن ترقصي الفلامنكو مــع حلقــات الغجــر في ســاحة «المركنتي» أو الصطمبالي في ساحة بوسعدية، أو الــرقص الشــرقي في ساحة «شهرزاد».

ستنسين ذكرى عجوز ضعيفة اسمها آنّا تتملّق الجيران، فتهبهم الحطــب في منتصف الليل لكي يحترموها إذا ما لقوها في النهار. في المدينة الجديدة لك الخيــار أن تحملي اسم آنّا أو آمنة أو اسم مريم العذراء وقد يخطبك بعض الشــبّان فــلا أعترض ولا يعترض عمّي أحمد، فلك الحقّ أن تحبّي، بقدر ما يحتمل فؤادك، مدينتي هذه تجدّد الروح وتدفعها إلى الحركة كلّما أرادت التوقّف إعياء أو مللا. عليــك التزحلق في «الزرزاحة» منذ الوصول ليأتيك العرسان ركضا، فتختــارين أجمــل شابٍّ تطيب له نفسك، وتساكنيه في حيّ العرائس حيث يعشّش الحــبّ وتحــوم ملائكته حول كلّ النوافذ، ويعزف أجمل الفتيان تحت شرفاتها أنغــام حنينــهم، فترتمي زهرات الياسمين تحت أقدامهم منتحرة، قبل أن تلين قلوب العذارى فتسمح بنظرة أو ابتسامة.

قبل أن يأوي العمّ إلى فراشه سأل آمنة وقد بقيا وحيدين:

- هل تأتيه نوبات البكاء بكثرة في غيابي؟ أقصد ألم يبادئه النسيان؟

تنهّدت الخادم وهي تضع يدها على صدرها:

- ويلي عليه المسكين! كيف ينسى و لم يمض على الحادثة غير عام وبعض العام؟ من أين له قوّة الكبار ورباطة جأش من جرّب صروف الدهر؟ إنّه مازال في عزّ الغضارة والنضارة!

- اتركي الأمر للزمن فهو وحده الكفيل بذلك، وما عليك إلاّ إلهاءه كيفما تستطيعين... أشركيه معك في شغل المطبخ وتنظيف البيت، مع تحذيره دوما من زلاّت اللّسان وكشف ما يدور بيننا في البيت ولو أثناء اللّعب مع الأطفال.

طأطأت العجوز رأسها وهي تمهم:

- بستر الرحمان يا سيد بيجارانو... بستر الرحمان.

- أنا عائد إلى غرناطة في الصباح الباكر، فاهتمّي بالصغير كما أوصيتك ودسيّ جميع كتبي وأوراقي خلف الجرار ولا تسمحي للجيران بالدخول إلى هنا ولا لصبيانهم. خذي كيس النقود ودسّيه في مكان آمن، ولا حاجة لي بعد الآن بالمصباح فاطمسيه.

عمّت الظلمة المكان ولكن النوم لم يراود عيني المترجم الكبير والفقيه العالم أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري الذي صار يُعرف في بلدته باسم جديد هو فلّش بيجارانو بحكم قوانين التنصير، فلا مناص إلاّ أن يعيش باسمين وهويّتين ومظهرين، أحدهما لاستعماله مع مجتمع بلدته الضيّق، والثاني لاستعماله في غرناطة عند اجتماعه بعلمائها وكبار رجالها وحيث يتمتّع بحرّية أوسع.

وهو يرى أنّ هذه الحرّية إنما أتيحت له دون غيره لغرض وقصد، فكثيرا ما يحتاج إليه ويستعان به على ترجمة وثائق إداريّة أو قانونيّة أو دينيّة ممّا يتداوله الحكام والقساوسة، كما أنّه يُدعى إلى بعض المدارس والمكتبات سواء في بلنسية أو طليطلة إضافة إلى قرطبة وغرناطة ليحقّق أو يترجم بعض كتبها العلمية ممّا خلّفه

عرب الأندلس الراحلون، حتى غدا هذا العمل معدن رزقه وسبب وجاهته وعلوّ قدره بين سادة البلاد الجدد.

و لم يكن هو الوحيد المزاول لهذه المهنة فهناك علماء آخرون، مشهود لهم بالدراية والتجربة، وقع استثناؤهم من قرار الطرد ليخدموا الدوائر الرسميّة، ولكن بالخصوص ليعينوا مواطنيهم ممن بقوا على جهلهم للّغة القشتالية حتى بعد أن تنصّروا، وفيهم من ابتدع رطانات مخلوطة من عدّة لغات، وقد شاهد منها الشيخ أحمد أمثلة عجيبة، خاصّة في الأرياف عندما يطلب منه التوسّط في قضايا استحقاق إرثيّة بين الفلاّحين، وهؤلاء كانوا يعانون من مزالق لغتهم الأم، فإذا بهم يواجهون اليوم تلك المزالق مضاعفة.

تمتّع المترجمون برعاية خاصّة، وكذلك أصحاب المهن المستثناة من قرار الطرد، كخبراء الريّ وعصر السكر وفلاحة الأرز، إلاّ أنّ الضوابط القهريّة الجديدة التي أكرهت الناس على غير ما يريدون، واندسّت في شؤون حياتهم الخاصّة، لم تترك لأحد سبيلا إلى هدوء النفس وراحة البال، - بما في ذلك من استثناهم القانون الجديد - فالشعور بالمهانة والإذلال ينخر النفس ويفتّتها من الداخل حتى تحسّ ذاتها هباء في تيّار الريح قبل أن ترى أنها في عيون الآخرين أقلّ من ذلك.

والشيخ أحمد وسط هذا الجوّ المليء بالعواصف، قاهر لنفسه ضاغط على نوازعها، وليس إلاّ أن يقوم بواجبه دون التفات إلى ما حوله. وإنما يفعل ذلك تحاشيًا لأيّ صدام، وخوفا من أيّة هزّة يكون الصبيّ بدر الدين ابن أخيه محمد أولى ضحاياها. فمن يعوله من بعده ومن يحميه؟ لقد رأى بعينيه المصير الذي لاقاه ألف أو تزيد من صبيان وفتيات لا تزيد أعمارهم عن السبعة أعوام، أخرج العساكر آباءهم وأمّهاتهم من ديارهم، ورحّلوهم في ظرف ثلاثة أيام، واحتازوا الأطفال عندهم ثم وزّعوهم فيما بعد على عائلات النصارى. هذا ما حدث في جهة الحجر الأحمر منشإ أسرته ومرقد أجداده منذ سنين، ومثله حدث بسائر المناطق الجنوبية في البلاد، وقد اقتلعت هذه العاصفة العنيفة فيمن اقتلعت زوجة الشيخ وكانت حاملا، وأخاه محمد وامرأته اللذين تركا ابنيهما محجوزا مع باقي أطفال القرية

وهجّرا من دونه. وقد روت آمنة للشيخ أحمد أنّ محمد صعد إلى المركب حاملا امرأته بين يديه من إغماء أصابها فانطرحت على الأرض وجرّها الجند قبل أن يتدخّل ويفتكّها من أيديهم.

رفع الشيخ الغطاء فوق رأسه وبدأ التسبيح عساه ينسى... وعساه ينام.

وما أن أغمض عينيه حتى أخذه الحلم إلى أرض يباب، يشقها في إعياء وعطش فتوصله إلى باب كبير بقوس مزدوج تعلوه عبارة السكينة الدائمة: ادخلوها بسلام آمنين. ويفرح من كلمة السلام، فيدخل باب «الديوان» مستبشرا ليجدَ نفسه وسط سوق تعجّ بالحرفيّين، وأهل صناعات الفخّار والزجاج والنسيج والنحاس والجلود، ينهمك جميعهم في إتقان ما بين أيديهم، لا همّ لهم غير ذلك، وغير استمالة الزبائن بابتسامة فيها شيء من الزهو وكثير من الرضا.

في الجوّ رفيف رقيق لأجنحة السعادة والهناء، من كلّ ناحية تأتيك الدلائل: ضحكة من هنا، نغمة موسيقى من هناك، تعابث أطفال حول بركة ماء، أو زغاريد نسوة يصحبن عروسا إلى الحمّام في نهج «حمّام العرايس» فيما يصحب «العرّاسة» عريسهم إلى حمّام الرجال، وكلاهما يعيشان أجواء نشيطة من الرقص والغناء. أحياء شبيهة بغرناطة ولكنّها ليست منها، فيها ملامح أخرى لم ترها العين من قبل، يستشعر الذهن أنها ملامح إفريقيّة مغربيّة، بحريّة بالأساس، فتلك رائحة البحر توحي بقربه من المكان، حتى تظنّ أنّ منظره سيفاجئك من أحد الأركان.

ويرى الشيخ أحمد، وهو مستند إلى حوض «الساروط» في ساحة محاطة بمقاصير القيافة والألعاب، رجالا ونساء يخرجون إليه بمسوخ وأقنعة وألبسة لا حدّ لألوانها وأشكالها، فيرقصون حوله ويأخذونه في تجوالهم من باب «المدينة»، حيث فرق القادريّة والسلاميّة والعيساوية بألويتهم ودفوفهم وسناجقهم، إلى باب «البحر» حيث فرقة التيجانيّة ومدائحها النسويّة الرقيقة.

ويقول الشيخ أحمد: أنا رجل كتب وعلم، فأين متاحفكم ومعابدكم ودور العلم؟ فتأخذه حلقة السرور إلى رواق الفنون «شيم» ليرى ما فيه من لوحات ورسوم ومنحوتات لأشهر من نبت في البلد أو مرّ به من فنّانين ونحاتين على مرّ العصور، فإذا هو مبهور بما يزى من آيات الإبداع الحرّ الخلاّق.

ويأخذونه إلى دار الزربيّة ومعرض الخزف والجليز وفيهما عرض دائم لمجموعات زاهية الألوان متنوّعة المواد، تشتهر هذه المدن بإجادة صنعها، وينطلق على مساحاتها إبداع فتياتها وفتيانها ليقدّم أنبل المعاني في رشيق الصور والأشكال. وفي متحف العادات والتقاليد يرى الشيخ أحمد، في فضاء كبير تعلوه القباب، صورا لمجسّمات وتماثيل تحكي تاريخ قرطاج وتاريخ الحضارة العربية، سواء بتقاليدها العريقة أو بما رسّخته من عادات جديدة في هذه المدينة.

ويأخذونه إلى المسرح حيث تُقدّم مسرحيات تبعث الحياة في مسار الماضي، استيحاء من الأساطير ومن قصص التاريخ وأحداثه. الناس هنا بين اللعب واللهو يحتفون ببطولات أجدادهم الأوّلين، ويقدّمونها دون تمييز أو مفاضلة، على أنّهم حصيلة ذلك الجهد الإنساني الذي أفرزته حضارات اتّفقت واختلفت، تناحرت وائتلفت، فمنها جميعا هؤلاء الناس الذين يعمرون المدينة فرحين بما أوتوا، مقبلين بتفاؤل على ما سيأتي.

وتذهب الحلقة بالشيخ أحمد إلى «متحف الخبز»، ومتاحف أخرى متنوّعة، ثم ينتهون به إلى «متحف الأديان» وفوقه مئذنة شبيهة بصومعة جامع الزيتونة، تشير إلى المكان المرموق للدين الإسلامي في هذه الأرض المشتهرة بتسامحها واقتبالها لعدّة أديان في مجرى تاريخها العريق. يجسّم «متحف الحضارات» هذا المعنى، ويقدّمه في مجسّمات ومحفورات وقطع أثريّة نادرة، وفي رموز وتعبيرات تجسّدها أمثلة لتلك المعالم، مساجد كانت أو هياكل أو كنائس أو بِيَعًا. تقدّم صورة عن أجواء الطقوس وأماكن العبادة مهما كان المعبود.

ويندهش الشيخ أحمد بجوّ المودّة السائد، ويعجب أنّ مدينة شبيهة بمدينته تسمح بالحوار وتعايش الأديان، لا مكان فيها للتعصّب، أو مكايد الربّيين، أو نيران الكنيسة. ونادى صاحبه ابن الأكيحل لينظر معه كيف يستطيع الناس العيش بتفاهم وسعادة إذا أعملوا العقل وتركوا الشقاق. ووجد نفسه يقول بعد هذا النداء:

- يا صديقي ليس كالظلم لإيقاظ مردة الشرّ النائمين. الظلم يا صاحبي هو سيد الفتن. ولا أظنّه وصل إلى هذه المدينة.

تلك آخر كلمة تصوّر نفسه يقولها عندما أفاق فجأة من حلمه على صياح الدِّيَكة تُعلن طلوعَ يوم جديد.

وضع الجندي بدرو رأسه بين يديه وهو يردّد في داخله مغتاظا من حادثة قتل الجرحى: «وهل الحرب أشرف من تكسير الحجارة؟ هل الحرب أشرف من كلّ شيء؟ يا لِلجهَلة... يا للطغاة!». يتمنى الآن لو أنّه لم يشارك في الحملة، ولكن كيف يضيع فرصة كهذه انتظرها دهرًا وعلّق بها آماله واستمساكه بالحياة؟ لأبُدّ أن يتحمّل الصعوبات والإهانات والأخطار مهما ثقلت، المهمّ في النهاية هو أن يصل إلى مبتغاه.

وتذكر نصائح عمّه، ذلك الرجل الجلد الشامخ الذي علّمه كيف يصبر على المكاره، ويذلّل الصعاب بالأناة والحكمة، وكيف يخاطب الناس بما يرضيهم دون أن يغضب الله أو يذلّ نفسه، كما درّبه على التقيّة وكتمان السرّ منذ أن كان صبيّا لاهيا إلى أن بلغ الآن الثالثة والعشرين، حتى أنّه ليتخيّل أحيانا شرايين جسمه وأعصابه قد حاكت منها الظروف القاسية والخوف الدائم جهازا صلبا غامضا يعسر فهمه أو قهره.

وبذكر عمّه وردت على ذهنه العجوز آمنة، راعية صباه ومؤمّنة خوفه، ومن ذكرى الاثنين أتته قوّة روحيّة اعتاد استمدادها منهما ليظلّ متوازنا مواصلا طريقه إلى الهدف بهدوء، وهي القوّة التي أعانته في كامل مراحل حياته حين كان يلعب مع صغار البلدة ويتعلّم على قساوستها، ثم حين اشتغل وهو شابٌّ في مقطع الحجارة القريب، وحتى في علاقته بعد ذلك بماركو شيخ البنّاءين في منطقة الحجر الأحمر، وهي علاقة توطّدت وجعلته محلّ ثقة، يكلّفه بالإشراف كلّيا على حضائر خارج المنطقة فأدّى واجبه فيها بحذق وعناية. في كلّ علاقاته هؤلاء لم ينضح شيء مما يدور في بيته أو بينه وبين عمّه، ولا أفصح مرّة عن مكنون سرّه وما يعتمل به جنانه، بل تصرّف في حياته العامّة كسائر الناس، بينما هو إذا اختلى بنفسه مخلوق مغاير لكلّ أولائك الناس.

أدّى الشيخ أحمد صلاة العصر صحبة ابن أخيه، ثم قام إلى بعض كتاباته، ولا حركة في البيت سوى خطوات آمنة الهادئة، حتى إذا حانت صلاة المغرب عاد

العمّ إلى نفس البقعة فوجد بدر الدين حيث تركه، متربّعا وراحتاه على ركبتيه وهو في حال سكون تام. نظر إليه مليّا، ثم دعاه إلى القيام للصلاة وفي نفسه قلق وحيرة. بعد أن انتهيا اقترب العمّ من الفتى بلطف وسأله:

- هل يزعجك شيء يا ابن أخي؟
- أنت تعرف ما بي، وهل يحتاج الأمر إلى مزيد شرح؟
- أعرفه يا بدر الدين، أعرف أنّه حمل ثقيل، لكنّنا لا نملك إلاّ أحد أمرين، إمّا أن نغيّر ما هو كائن، وهذا في حكم الاستحالة، وإمّا أن نصبر عليه في انتظار الفرج.
- وإنّي لكاتم وصابر يا عمّي... في انتظار هذا الفرج!
- أعرف، وأشجعك على ذلك. لكن نوبات حزنك ووجومك تحيّرني، وأرجو أن تشغل نفسك عنها بالذكر والصلاة.
- إنني أبذل جهدا كبيرا خارج البيت لأبدو في مظهر الفتى اللاّهي اللاّمُبالي، لكنّ في النّفس رغبة جامحة لأصرخ في الجميع شاكيًا ألمي ومُعَرِّيًا جروحي.
- إيّاك يا ابن أخي أن تفعل، ففي هذا هلاكنا جميعا.
- أعرف... وهذا ما يزيد كآبتي.
- الأمر أقوى من سنّك الصغير يا بُنيّ، ولكن صروف الأيام تعجّلت عليك وسرقت طفولتك بأن نكبتك في والديك.
- وأنت يا عمّي.. أليس بك مثل ما بي؟
- بلى يا بُنيّ... بلى!

ولمح في عيني الشاب حدّة وتصميما لم يشاهدهما من قبل، فحدّث نفسه: «ما أبعدهما الآن عن العينين الباكيتين، وعن ذلك الصبي ابن السابعة، يحزن فينكفئ على نفسه كالأرنب الصغير! وينام على ركبة عمّه أو في حضن آمنة. لقد نضج الفتى ولابُدّ أن أدخل به المرحلة الحاسمة، وأن نبدأ معًا تنفيذ الخطّة السرّيّة».

قرّب فمه من أذن الشاب وأسرّ إليه حديثا جدّيا طويلا، والسامع إمّا واجم تائه النظرات، أو محرّك رأسه حركات موافقة واستيعاب، وفي كلتا الحالتين لم

يُفارق سحنته التقطيب والصرامة. استغرق حديث الشيخ إلى الفتى كل سهرهما، وكان أغلبه مساررة وهمسا، حتى إذا قاما ليقصدا الفراش وضع الشيخ أحمد يده على كتف بدر الدين وقال بلهجة حازمة:

- إذا افترقنا هذه المرّة فربّما لن نتقابل إلاّ بين يدي الله، وقد يشاء العليُّ القدير أن يجمعنا ثانية مع الأحباب قرّة الأعين فتصفو الحياة من جديد. من يدري يا ابن أخي... من يدري؟.

لم يزُل عن بدر الدين تجهُّمهُ، بل ازدادت ملامحه قساوة، شعورا منه بمأساوية الموقف، إذ بعد فقدان أبويه ها هو يهمّ بفقدان سنده ووليّه ورفيق آلامه وكفاحه، فعلى من سيتوكّل وبمن سيستعين في بحر الظلمات الذي ينتظره؟ ومع ذلك تشجّع وقال لعمّه:

- سأحزم أشيائي منذ الغد، ثم أبدأ الترحل بعيدا عن الحجر الأحمر. سأتنقّل ما بين إشبيلية غربا وركّانة شرقا بين اقليش شمالا والمريّة جنوبا إلى أن يستقرّ بي المقام في غرناطة مجهولا ابن مجهول. لا يعرف أحد أصلي ولا من أيّ أرض أتيت.
- واطلب رزقك بالعمل الذي صرت تحذقه الآن ومهرت فيه، واسلك سلوك من حولك، حتى تبدو عاديا ليس فيما تفعله أو تقوله ما يريب.
- سأفعل يا عمّي والله المعين.
- أمّا أنا فسأواصل حياتي وعملي بصورة عادية، إلى أن تؤاتي الفرصة وأنفّذُ الخطّة كما شرحت لك، وليس المهمّ متى ولا كيف وإنما العمل بخواتمه، وأن يكون ميعادنا في الأرض التي يهدينا الله إليها، كما هدى إليها من سبقونا.
- قد تراني غدا، وقد تدعوني بعد غد فلا أجيب.

استدار الشيخ بسرعة كي لا يظهر لابن أخيه مقدار تأثّره بهذا الكلام، وقصد فراشه دون كلمة أخرى.

التقى أحمد الحجري عند باب المكتبة بابن الأكيحل الأندلسي، فسُرّ برؤيته وسأله عن أحواله وأعماله، لأنهما لم يلتقيا منذ أكثر من عام.

- هيَّا نأخذ كمًّا من هواء الجنينة قبل الاندساس بين الرفوف وفي غبار الكتب.

اقترح أحمد على صديقه تلك الجولة القصيرة وأخذه من ذراعه ليمضيا بخطى بطيئة بين سور الحديقة وأحواض زهورها.

- خامرتني شكوك كثيرة لمّا انقطع عنّي العلم بأمرك، وبحثت عنك فلم أعثر على أثرك في أيّ مكان اعتدت رؤيتك فيه، حتى إنّي سألت غير واحد فما وجدت جوابا، فأين كنت يا رجل؟

امتنّ الشيخ أحمد لصاحبه لما أبداه من اهتمام بأمره واشتياق لأخباره في زمن تقلّبت فيه الأحوال وانعدم فيه الأمان، واعتذر بأنّ غيبته طالت في بلدته الحجر الأحمر، حيث بيت الأسرة وما بقي من مصالح تدعو الضرورة إلى تفقّدها حينا بعد حين، وأضاف بلهجة مثقلة حزنا:

- دعت الحاجة هذه المرّة أن أبيع البيت وحقل العنب، فمن سيقوم عليهما بعد خروج أخي وزوجته؟ لقد خرب البيت وتلف الحقل ولم يعد منهما نفع.
- حسنا فعلت، ولو غبت عنهما سنة لافتكّوهما وأعطوهما لغيرك.
- بعت كلّ شيء بأبخس الأثمان، وعدت إليكم يا أهل غرناطة بهذا الثوب وبهذا الرأس فقط لا غير.
- سلامة الدين والبدن أفضل أنواع السلامة.

وكأنّما انطلقت منه العبارة دون أن يشعر، وإذا بالرفيقين يلتفتان يمنة ويسرة بحركة لا إرادية، لعلّ العبارة بلغت أذنا تتلصّص أو عدواً يترصّد. ولما اطمأنّا إلى انفرادهما بالمكان جلسا على مقعد حجريّ واستمرا يتحاوران في شتى الشؤون.

- كنت أقرأ منذ أيام في كتاب أشياء تدفع إلى العجب دفعا وكيف أنّ أمراء الأندلس السابقين ما انتبهوا إلى هفوات خطيرة ارتكبوها.
- لو انتبهوا إلى هفواتهم لما عانينا آثارها إلى اليوم.
- ولما دفعنا ثمنها غاليا كما ندفع الآن.
- وما الذي أثار اهتمامك بصورة خاصّة؟

قال ابن الأكيحل متنهّدا:

- لا أظنّك نسيت الامتيازات وإنـزالات كور الجنـوب الـتي منحهـا الخلفاء للجماعـات العربيـة المسـتقرّة هنـاك منـذ بدايـة الفـتح الإسلامي.
- لا... لم أنس، إنّه أمر معروف استرضوا به القبائل الموالية.
- نعم... ولكنّها حظوة خاصّة لم ترق للمولّدين وأهل الذّمّة بتلك الجهات وبدأت بذلك الثورات على أمراء قرطبة.
- أتذكر من بينها ثورة عمر بن حفصون الذي جمع سـكّان ريّـة ومـا جاورها، وقال لهم: أذلّتكم العرب واستعبدتكم!
- قالوا عنه قاطع طريق، قالوا إنّه كافر مرتدّ ولكن دعوته كما تعلم أثّرت في الناس، لأنهم رأوا الظلم عِيَانًا وتجرّعوه ألوانا. كان يخطـب فـيهم: «طالما عنّف عليكم السلطان، انتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طـاقتكم، وأذلّتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم مـن عبوديّتكم».
- ها قد مضت على تلك الأحداث قرون طوال. ولكن الرجل احتجّ بمـا رأى لذا فهو محقّ في كلامه... والدليل على ذلك أنّنـا نـدفع اليـوم الثمن... ونُؤاخَذ بجريرة ما فعل أجدادنا.
- وتلك عاقبة الظلم والبغي.
- والعجيب أنهم ظنّوا الله في جانبهم وأنّه سينصرهم لكونهم مسـلمين... حتى وإن ظلموا واعتدوا.
- حدّثني أحد القساوسة منذ أيام عماّ يقاسيه أهل الممالك البيزنطيّة على يد السلطان التركي، وبعد أن أشار إلى بطش هذه القوّة الوليـدة المهـدّدة لأهل النصرانيّة جمعاء، قال متنهّدًا: «إنّ الله يعاقبنا بتسليط التُّرك علينـا لكثرة ما ظلمنا وبدّلنا في حكمه تبديلا... فبعد ظلم ملوكنا، وانشقاقات كنيستنا، هل ننتظر من الله أن يساعدنا ويأخذ بيـدنا؟» إنّهـا نفـس عباراتك التي قلتها عن المسلمين.

- هي ليست عباراتي بقدر ما هي حكم التاريخ... من فسد يمضي ويخلي محلّه لمن أصلح منه... وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وسكت الرجلان عند اقتراب فوج قساوسة، نهضا لتحيّتهما برفع القبّعة، ثم عادا إلى الجلوس وهما يتنهّدان.

يعتبر أحمد الحجري هذا الرجل الجالس إلى جانبه أحد العلماء المتضلّعين في اللغات المعروفة على أرض الأندلس، فهو إلى جانب الشيخ صالح الجبّاس واثنين آخرين، قد حصلوا من دائرة الملك، وبموافقة رجال الكنيسة على براءات خاصّة للإقامة وللتنقّل الحرّ، دون اعتراض من حكّام الأقاليم، كما هي تجعلهم معتمدين في ترجمة النصوص القانونيّة، وقد كثر الاحتياج إليها بسبب هجرة المسلمين، أو انتقال نصارى الشمال لتعويض من أخرجوا من الأندلس، وانجرّ عن ذلك حركة بيع وشراء وتجديد عقود، وتوثيق استحقاقات، أو تعويض واحدة بأخرى، مما دعا إلى أعمال نشيطة لأبُدَّ أن تضبط نصوصها من طرف متضلّعين في اللغات المستعملة آنذاك، خصوصا قد اختلط بعضها ببعض، بل ونشأ من ذلك الخليط لغات ولهجات أخرى لأبُدّ من خبراء لِفَكِّ رموزها وفهم معانيها.

وقد لازم الشيخ أحمد الحجري صديقه الأكيحل زمنا غير قليل، ليتعلّم أسلوبه في سرعة الترجمة، وتدرّب على آخرين أكبر سنّا وتجربة ليزداد حذقه لهذا الفنّ، أمّا الفقه واللغة العربيّة فقد برّ فيهما أقرانه وفات خلاّنه، حتى صاروا يحتاجونه فيما يرجع إلى هذين الفرعين، أكثر مما يحتاجهم في سرعة العثور على معنى ملتبس من الخميادية والقشتالية.

إضافة إلى هذا كان للشيخ أحمد الحجري نباهة وبداهة يعترف له بهما إخوانه وزملاؤه، يجلّونه من أجلهما رغم شبابه الظاهر، مقارنة بالشيوخ المتجاوزين له سنًّا وتجربة، إلاّ أنّه لا ينفكّ يظهر للجميع التواضع، والرضا بالعمل تحت إمرتهم، في انتظار أن ينال إجازة رسميّة تسمح له بالعمل في حرّية واطمئنان. في الأثناء لم ينقطع الشيخ أحمد عن زيارته للمكتبة الكبرى والمكتبات الخاصّة، يبحث ويترجم ويحقّق المخطوطات، مستزيدا من العلم متلهّفًا عليه، وكأنّه سبب وجوده الوحيد.

وبسبب ذلك قضى شبابه متنقّلا بين مراكز العلم المختلفة، آخذا من علماء زمانه، لا يستقرّ إلى جوار الأسرة إلاّ أوقاتا قليلة متقطّعة، يعاوده إثرها الشوق إلى طليطلة أو قرطبة أو غيرهما من مراكز البحث والتعليم. حتى أنهم لمّا زوّجوه طمعوا في أن يستقرّ بالحجر الأحمر وقتًا أطول مما اعتاد، فما بقي بجوار عروسه إلاّ عاما وبعض عام، ثم ترك أسرته في رعاية أخيه الأكبر، ورحل إلى جوار كتب بدأ يترجمها وتركها تنتظر. واستمر أخوه محمد يعتني بالضيعة والأسرة كالمعتاد، كما استمرّ هو يغيب السنة وأكثر، ثم يلمّ بهم ضيفا لبضعة شهور ثم ينصرف، إلى أن وقعت الكارثة الكبرى في إحدى غيباته تلك، فما استطاع أن يصل إلاّ بعد أن حُمّ القضاء وهُجّر الأخ الأكبر وزوجته، ودُفعت معهم امرأته الحامل دفعا، رغم احتجاجها بغياب زوجها في السفر، وبكونها حاملا على وشك الولادة، وقيل له إنّها أوشكت أن تُجهض خلال الترحيل.

كان عليه أن يتجلّد ويظهر الصلابة يوم عاد إلى بيت الأسرة ليجده خاويا إلاّ من آمنة النائحة طول الوقت، ومن الصبيّ بدر الدين الذي افتكّه الجند من يد أمّه ومنعوه من السفر. ولقد بقي الصبيّ تائه النظرات، غير مستوعب لما حدث ولا لأسبابه، وإنما يأخذ في البكاء كلّما رأى آمنة تبكي، وقد يلزم أحد الأركان مرتعدا منتظرا أن يأتي الجند ثانية لأخذه من البيت، كما أتوا أوّل مرّة لإخراج الأسرة تهديدا بالسلاح.

تظاهر الشيخ أحمد بالشجاعة، وأمّن العجوز والصبيّ واعدا أن لا يتركهما عرضة للخطر، ومن يوم الغد بدأ يسعى لاستثناء الصبيّ من قرار الضمّ إلى عائلات النصارى كما جرى لباقي الشبان والفتيات.

مع حلول المساء ارتفعت الضوضاء على ظهر السفينة، وقرقعت جنباتها باصطدام الشّواني العائدة من البرّ بأفواج الجند ومعهم جرحى ومعطوبون، وآخرون يحملون أسلحة مكسورة وقطعا مفتّتة مما ترك الأعداء عند تخلّيهم عن بعض المواقع.

خرج بدرو للمشاركة في مدّ الحبال وسحب الأحمال إلى سطح السفينة وهو يسأل مع جملة السائلين عن نتيجة المعركة وما جسّمته من أخطار حقيقيّة أو

وهميّة، عن عدد الخسائر وفي أيّ المعسكرين كانت أكثر، سأل عن قوّة العدو وإلى أيّ مدى يمكنه أن يصمد، فلم تجد الأسئلة جوابا شافيا من الجند العائدين لأنّ الإنهاك والجوع قد أخذ منهم كلّ مأخذ، بل إنّ بعضهم ارتمى على أرضية السفينة طالبا أن لا يقترب منه أحد، والبعض جروا نحو عنابرهم للتخلّص من آثار المعركة. اقترب بدرو من أحد المجدّفين، بعد أن ساعده على رفع قاربه إلى فوق وربطه جيّدًا بالحبال، وسأله إن كانت المعركة قد انتهت، فأجابه بسخط:

- كيف تنتهي وقد تحصّن الأتراك الملاعين بتلك القصبة العالية وأمطروا كلّ من اقترب منها بالبارود والسهام؟
- وباقي المدينة هل مازال يقاوم أيضا؟
- لا يوجد أحد بالمدينة الآن، فأهلها فرّوا إلى الأرياف المجاورة، مخافة أن يقعوا بين نارين، وليس إلاّ أولئك الشياطين ومدافعهم تمنع تقدّمنا ناحية الشمال.
- فأنتم عائدون غدا لمواصلة المعركة؟
- بالطبع... سوف يقع إنزال بقيّة المدافع إلى البرّ، وضرب القصبة من الجهات الأربع إلى أن يخرج منها الأتراك، وإلاّ ردمناهم فيها.
- ألا يستطيعون الاستنجاد بقوّة تفاجئنا من خلف؟
- أكبر خطر نخافه هو قدوم الأسطول التركي من الآستانة ولكنّه لن يصل للنجدة إلاّ ونكون قد أنهينا المعركة. ويوجد خطر أصغر منه هو أسطول أتراك الجزائر وقد تركنا أغربة ترصّده في بحر بنزرت لتعترض طريقه قبل أن يتدخّل.

صار عند بدرو شبه يقين بأنّ المعركة قد حسمت لصالح الإسبان، وأنهم سيدخلون المدينة بعد يوم أو يومين، فعاد الأمل يراوده، ومنّى النفس بأن تطأ قدماه في القريب العاجل ذلك الشاطئ الذي يلوّح له الآن أفقا ضبابيا يلفّه الغسق الأزرق حتى لا يكاد يبين.

لم يطل انتظاره إذ جاء قائد الفيلق ينبّه بالاستعداد للنزول صباح غد الباكر، وطلب بصفة خاصّة من الحرفيّين أن يأخذوا الأدوات اللاّزمة لبناء حواجز

حجريّة على مداخل الأحياء الهامّة، وإقامة متاريس خشبيّة حول القصبة. هذا دليل على أنّ المعركة قد تطول، اقتنع بذلك بدرو وعرف أنّ له مهمّات كثيرة قد تستغرق أياما وربّما أسابيع، قبل أن يتاح له التفكير في خططه الخاصّة، أما الآن فليس عليه إلاّ الانخراط في المعركة سامعا مطيعا لأوامر القادة، وفي انسجام تام مع أفراد الكتيبة. وقبل أن تبزغ شمس الغد كان بدرو يضع قدمه لأول مرة فوق الأرض الإفريقيّة، يحاول أن يتبيّن في العتمة ما تحتويه من أسرار يجهلها، رغم ما سمع من روايات رفاقه، وفيهم من سبقه في النزول إليها، أو سمع عنها من أقارب له شاركوا في الحملة القديمة أيام الإمبراطور شارل الخامس.

بقي جماعة قرب الميناء لبناء متاريس تكون رأس جسر يحميهم إذا ما أجبروا على الانسحاب نحو المراكب، وربّما الهرب إذا دارت عليهم الدوائر، ورافق آخرون عربات المدافع المربوطة إلى خيول قويّة بدأت تسحبها بمشقّة نحو مرتفع القصبة. أمّا المشاة فشقّوا أسواق المدينة الخاوية، لا يسمع في أرجائها غير صدى خطاهم وصليل أسلحتهم. كانوا يصعدون على مهل متوجّسين عند كلّ منعطف أن يداهمهم مقاومون من أهل المدينة أو فلول عساكر الترك. ولم يكونوا في عجلة من أمرهم، لأنّ رغبتهم هي أن يصلوا أعلى الهضبة في نفس الوقت مع الطوبجية والخيالة الذين صعدوا بمحاذاة السور عن يمين وعن شمال في شكل هلال يلتحم طرفاه خلف القلعة بالقادمين من جهة باب سعدون والقادمين من جهة باب سيدي قاسم الجليزي.

ما إن ما برزت كتيبة بدرو من مدخل الأسواق حتى قابلتها نيران البنادق من شرفات القصبة، فصدرت الأوامر للجميع بالاختفاء خلف الجدران أو التوزّع بين الأحراش المحيطة بالسور، لتبدأ المعركة الحقيقيّة بعد أن يحتلّ كل فرد مكانه. في أوج تلك الاستعدادات طلب من الكتيبة الفنّية البدء في إقامة الحواجز على مداخل الأسواق المحيطة بالقصبة، فتحرّك أفرادها في كلّ اتجاه يجلبون الحجارة والرمل والحصى وكلّ ما يقع تحت أيديهم، يبنون بجميعها جدرانا صغيرة يمكن للجند المداهم أن يختفي وراءها، أو يتنقّل بيسر دون أن تراه العيون.

وفي نفس المكان قضى بدرو أياما ثلاثة دون أن تنشب معركة حقيقيّة، وإنّما هي مناوشات صغيرة لا خطر منها، ومع ذلك لم يطلق سراحه ليستكشف المدينة

وأحياءها وأرباضها، فبقيت تحتفظ بأسرارها، وبقي هو يأمل أن ينطلق في أحشائها ذات يوم. وكم ينقبض قلبه كلّما وردت على ذهنه احتمالات هزيمة جيشه، إذ لا أحد يمكنه التنبّؤ بمصير معركة لم تبدأ بعد. هذه الخواطر توجع بدرو وتطرد النوم من عينيه، لأنّ إخفاق الحملة هي إخفاق كلّ ما سعى إليه في حياته، وفقدان وجوده بعد ذلك لكلّ معنى.

اقتصرت حياة الشيخ احمد الحجري في غرناطة على حضور يومي في المكتبة الكبرى، يطالع ويقتبس من بعض المراجع، أو ينسخ ما يحتاجه في أعمال يوكلها إليه بعض زملائه المترجمين، أو في ترجماته الخاصّة لبعض الكتب. وقد بذل الكثير من السعي والاجتهاد لمساعدة أصحابه إلى أن استوثق له الأمر مع بعض القساوسة، فاستخرجوا له براءة من الحاكم تؤمّنه على نفسه وماله وتتيح له فرصة العمل مع الدوائر الرسميّة، دون مجلبة للشكّ والاتهام، كلّ هذا هو مظهر تنصّره في القيافة والسلوك، مُخْفٍ إسلامه عن الجميع.

كان العصر مليئا بالريبة والشكّ، اختلطت فيه سبل الحقّ وسبل الباطل، وكثر الوشاة وأهل النميمة حتى صارت الأحكام تصدر بمجرّد الشبهة أو الظنّ، لذا أكثر الشيخ من الحيطة والحذر، وانزوى غالب الأوقات في المكتبة أو البيت، مدمنا على القراءة والكتابة، مقلّلا من زيارة الأصدقاء إلا لحاجة ماسّة، مختصرا عدد المعارف تحسّبا مما عسى أن يفسد عليه ما اتّفق عليه مع ابن أخيه، ليلة قرّرا الافتراق كلّ في طريق.

ومع أنهما انقطعا عن التواصل لإبعاد الشبهات، إلاّ أنهما اتّفقا على صيغة بسيطة يبلغ بها أحدهما صاحبه أنّه موجود في غرناطة أو أنّه غادرها، وهي معلومة بتراء، لكنّها تفيد في أدنى الأحوال أنّ التنفيذ متواصل، وأنّ كليهما حيّ يرزق وموجود في نفس المدينة. كان الشيخ أحمد يتقيّف عشية كلّ جمعة بقيافة متسوّل، ويجلس بجوار منزل خرب مادّا يده لتقبل صدقات المارّة، فيمدّ له بعضهم الفلس، ولا يأبه به أكثر العابرين، وهكذا لفترة من الوقت وعيناه لا تكفّان عن النظر يمنة ويسرة، فإذا اطمأنّ لخلوّ المكان مدّ يده إلى ركن قريب ونبش ترابه بعجلة ولهفة، كأنما ليتفقّد أشياء مردومة، حتى إذا بانت له حبّات فول أخذها في

كفّه ووضع مكانها حبّات حمص، ثمّ أهال التراب فسدّ الحفرة كما كانت، وعاد باسطا يده ثانية للسؤال. ولما اطمأنّ لخلوّ المكان فتح كفّه المضمومة على حبّات الفول وتأمّلها محدّثا نفسه: «هذه حبّات فول جافّة غير نابتة، أي وُضعت حديثا، لقد مضى أكثر من شهر والحفرة محافظة عل حبّات الحمص التي وضعتها، والآن جاء بدر الدين وعوّضها بحبّات الفول كما اتّفقنا... يا ليتني أعرف إلى أين وصلت مساعيه، وهل هيّأ الفرصة التي خطّطنا لها؟ المهمّ الآن أنّه موجود بالقرب منّي، وأنّ فرصة قريبة ستزيدني من أخباره».

ثم قام الرجل يلملم ثوبه الممزّق، ويمشي الهوينا متظاهرا بالعرج، إلى أن وصل بيته والشمس موشكة على الغروب. وهو منذ بدأ طريق العودة والأسئلة تتوارد على ذهنه باستمرار متواترة ملحّة، فتارة يجد لها الجواب فتنفرج أساريره، وتارة يحتار في إيجاد الجواب المناسب، فيقطب الجبين ويستسلم للهواجس حتى يخشى القنوط، فيبدأ بالتلاوة والدعاء إلى أن تطمئنّ نفسه وتذهب عنه سود الأفكار. دخل البيت متخفّيًا عن الأجوار، كي لا تهيج شكوكهم، وهو يحدّث نفسه: «الجيش خارج إلى تونس لطرد الأتراك بالاتفاق مع ملوك بني حفص، وهذه هي فرصتك يا بدر الدين، ربّ اجعل الحفرة تحافظ على حبّات الحمص دون تبديل!».

ترى من هو حاكمك الحقيقي يا تونس؟ أيّتها المدينة البيضاء الصغيرة ذات الشوارع الملتوية والأزقّة الضيّقة!... بُوحي بما تحمّلت من تهشيم وتخريب، واذكري أيّ قوّة تجعلك تنتفضين متمرّدة عل الموت رافضة للهزيمة، تلعقين جراحك بعد كلّ معركة وتجمعين صغارك من جديد كالقطّة الخائفة لتستمرّ الحياة وكأنّ شيئا لم يحدث. فمن أين تستمدّين الشجاعة ومن أين تأتين بهذا الصبر؟

حدّث بدرو نفسه بهذا وهو يطوف بالسور رفقة كوكبة فرسان ليتفقّدوا مواضع الكسر ويقيّموا ما يجب إصلاحه بعد انتهاء المعركة وفرار القوات التركية من القصبة. صعدوا الهضبة حيث البرج فوجدوه سالما، ومن هناك رأوا المدينة تحتهم كبرنس أبيض مبسوط على سهل يأخذ في الارتفاع انطلاقا من البحر،

وتبدو في الوسط المدينة بأسواقها المسقوفة وعلى جانبيها باب سويقة مما يلي باردو، وباب الجزيرة مما يلي مقبرة الجلاّز وبرج على رايس، وفي الجميع ديار متلاصقة متلاحمة تبرز من بينها القباب والمآذن كأنها قطعة واحدة نازلة بتدرّج نحو البحيرة، وتتخلّلها أنهج ضيّقة متعرّجة يعسر أن تمرّ الكتيبة بينها بالخيل أو العربات. يظهر على حدود تلك الرقعة البيضاء من ناحية الغرب سهل أخضر عامر بحدائق البرتقال والليمون، كما تبرز لامعة تحت ضوء الشمس ثلاث بقع فضّية هي سبخة أريانة شمالا، وسبخة السيجومي غربا، والبحيرة جنوبا، وينغلق الأفق من بعيد بجبال أعلاها جبل زغوان المتعمم دوما بالسحاب.

تجوّل بدرو في بعض تلك الدور الصغيرة المتراصّة، وأدهشه أن يكون داخلها مناقضا تماما لمظهرها الخارجي المتقشّف، فالجليز والرخام منتشران في كلّ مكان يضفيان ألوانا زاهية على الأفنية المعرّشة بالياسمين، وعلى البرطال ذي القرميد الأخضر الزاهي، وفي صحن الدار لا تغيب أعناق بئر أو ماجل وحوض فلّة وريحانة أو شجرة نارنج. حول الجميع غرف متناظرة ذات أبواب منقوشة بأناقة، وسقوف لها تخريم ونقش وتزاويق تعمرها الأغصان والعصافير والأزهار، وتجد فيها التعاريج الهندسيّة أوسع مجال.

وفي نهاية الجولة أخذ القائد كتيبته إلى جامع كبير فخم البناء رائع الهندسة والاتّساع. الصحن الفسيح مبلّط بحجارة منحوتة دقّق بدرو النظر فيها ليعرف نوعها وطريقة نحتها، وأطلّ برأسه وسط فتحتين لمواجل حفظ ماء المطر. إنّه صحن يشغل نصف مساحة الجامع، أمّا النصف الثاني فلِبَيْت الصلاة ذات الأبواب الأربعة والسقف المحمول على أربعة صفوف من أعمدة الرخام المرتّبة بشكل مدهش، إذ نصب العمود الأسود عقب العمود الأبيض، يليه آخر أحمر، وبعده رابع رمادي تتنافس جميعها في الأناقة والبهاء. لكن ما أفسد الشكل العام هو فقدان أربعة أعمدة في الركن الغربي وضعت مكانها أعواد سدراوي كي لا يتضرّر السقف. وقد ظنّ بدرو أنّ أشغالا ترميميّة دعت إلى إزالة الأعمدة من مكانها، فأظهر الأسف وتساءل بحسن نية عن أسباب الترميم ولا شيء يدعو إليه. رمقه الضابط شزِرا وقال:

- لقد نال الحظّ السعيد تلك الأعمدة فانتقلت إلى البلاد المسيحيّة على يد قائدنا المنتصر دون خوان. ألن تكون في بيته أجمل مما لو بقيت هنا؟ لا شكّ أنّها ستجد نفسها بين أناس يستحقّونها ويقدّرونها حقّ قدرها. أليس هذا رأيك يا بدرو؟

- سي سنيور... سي سنيورا

أحسّ بدرو بالألم يعتصر معدته، ولكنّه تكتّم وخرج إلى الصحن بحثا عن هواء جديد، وتساءل: ماذا سيفعلون بهذه المدينة اللطيفة بعد أن بدأوا بسرقة الجامع؟ كيف تعفّ أيديهم عن الدّكاكين والمخازن إذا لم تعفّ عن أماكن العبادة؟ بهذا كان الشاب يحدّث نفسه متشائما ممّا سينال مدينة تونس على أيدي غزاتها الجدد.. إلى أيّ حال تصير لو أطلقت فيها أيديهم... خاصّة وقد خلت من أهلها وتركت مشرّعة الأبواب نهبًا لمن يريد. صعب عليه أن يتحمّل ذلك وقد اقتربت المدينة من قلبه، ومازجه حبّها من أوّل يوم دخلها.

و لم يمرّ وقت طويل حتى أذنت القيادة باحتلال الدّور الفارغة وإسكان العساكر فيها، فكانت هذه فرصتهم للاستيلاء على ما خزّنه الأهالي من مؤونة يدّخرونها سنويًّا في فصل الصيف ليكون بها معاشهم في فصل الشتاء، ولكن لما احتلّوا الدّور والفصل خريف فقد وجدوا الجرار مملوءة زيتا وحبوبا وبقولا فأكلوها قبل أن يحلّ يوم واحد من فصل الشتاء. ثم راج بين المجنّدين أنّ أهل المدينة إذا اضطرّوا للهروب يدفنون عادة أشياءهم الثّمينة ونقودهم في أماكن سرّية قد تكون عتبة باب أو جدار مقصورة أو تحت شجرة غرست حديثا للتّمويه.

ونقّب البعض في أماكن مختلفة فعثر على أشياء من ذهب وفضّة، وإذا بأطماع الجنود تهيج دفعة واحدة، فتركبهم حمّى تخريب جبّارة حتّى أنّ من لم يعثروا على شيء في أحد البيوت حطّموا جدرانه انتقاما، أو كسّروا الجرار فأغرقوا الحيّ في برك الزّيت والسّمن والقديد. وقد أتاحت هذه الفوضى للضبّاط الطليان فرصة لينقلوا ما أعجبهم من خشب منقوش وأعمدة رخام وأطر أبواب إلى حظيرة البستيون لتكون زينة لبيوتهم المقبلة داخله.

وقد صاحب الجيش عدد من التجّار السبنيول والطليان أخذوا يحرّضون العساكر على زيادة البحث والتنقيب ويشترون منهم المسروقات مقايضة بسلع أخرى ممّا جلبوه معهم، ولكن بغبن كبير وإجحاف لا يوصف، فقد رأى بدرو كيف باع جندي كيس عود قرنفل مقابل منديل مطرّز سيرسله إلى حبيبته، وكيف اشترى تاجر سجادا ثمينا بما لا يساوي ثمن الحذاء الذي يلبسه.

خاطب بدرو نفسه وهو يرى صفّ التجّار المنتصبين عند باب البحر ينادون على مكنوزات أهل تونس وحليّ بناتها: «ترى أين أنتم أيّها المساكين، وماذا عساكم تجدون يوم عودتكم؟ سوف لن تتعرّفوا على البيوت لأنّها أضحت بلا جدران، وسوف لن تجدوا مدخلا إليها لأنّ أبوابها اقتلعت وتدفّأ بخشبها جند الإمبراطور».

نظر بدرو إلى تحت، ونادى جماعة العمّال ليرفعوا إليه مزيدا من الحجارة، فلبّوا طلبه بسرعة قبل أن ينتبه الضابط المراقب إلى تقاعسهم، ومع ذلك جاء الضابط يسأله عمّا به، فموّه عليه:

- كنت أناديك لأسألك عن اسم السّلطان الذي تقرّر أن يحكم البلاد، أحمد أو محمد؟

اتخذ الناظر هيئة العالم بالخفايا، وأجاب:

- وماذا يهمّك من اسم السّلطان؟ السّلطان الحقيقي هنا هو القائد سربلّوني، أمّا أنت أيّها البنّاء فلا يهمّك إلاّ عدد الحجارة اللاّزمة لإتمام السّور، ومع ذلك أفيدك أيّها الفضولي بأنّ أحمد سلطان الذي جاء به دون خوان معنا رفض شروط الملك فيليب لمّا اطّلع عليها في حلق الوادي.

- وما معنى أن يرفض هذا النّذل أوامر الملك؟

- أرأيت نكران جميل كهذا؟

- ألم يكن بمجيئنا معه حسب اتّفاق مسبق؟

- بلى.. كان هناك اتّفاق قبل خروج الحملة، ولكن الرجل يدّعي الآن، بعد أن جئنا لمساعدته وتكبّدنا الخسائر، أنّ اقتسام الحكم مع القائد سربلّوني لم يرد في الاتّفاق ولم يسمع به.

- كيف يحدث هذا.. هل في الاتفاقيّات بنود ظاهرة وأخرى خفيّة؟
- الأقرب عندي أنّ السلطان لم يأت معه بمترجم جيّد.

فهقه ناظر العمّال بأعلى صوته، وأتبع ضحكته بفرقعة السّوط لتنشيط العمّال وإيقاظهم من غفوة قد تداهمهم وتبطئ سير العمل. شاطره بدرو الضحكة وفي قلبه حسرة على الممالك يضعف حكّامها فتتلاعب بهم الدّسائس وينفرد بهم الأقوياء، يمضون عليهم أوامرهم ونواهيهم وهم أذلّة صاغرون. عاد يسأل الناظر متصنّعا الجهل بالسياسة:

- كيف العمل في رأيك... هل نعود من حيث أتينا من دون غنائم، أم سيطلب منه القائد تعويضا عن المصاريف والأجور التي دفعتها دولتنا؟
- يالك من أحمق! وإلى أين نعود؟ نحن هنا وسنبقى... شاء السلطان اقتسام المملكة معنا أم لم يشأ. نحن الأقوى وعليه قبول أحكامنا.
- وإذا استنجد بغيرنا، ماذا يحصل؟
- لا أحد ينجده غيرنا... لا تنس أنّه جاء إلى إسبانيا متملّقا فيليب باذلا كلّ الوعود، فما باله اليوم يتملّص وينقلب؟ عليه قبول شروطنا أو ترك السّلطنة لآخر من أفراد أسرته، وليذهب إلى حيث يكمل حياته في هدوء وسلام.

وهذا ما حصل بالفعل، فقد أخذ دون خوان عند رحيله عن تونس نفس الرجل الذي استنجد به، وهو أحمد سلطان الذي لم يرض بتقاسم الحكم، فما كان من الإسبان إلاّ أن نصّبوا أخاه محمدا حاكما جديدا على البلاد... احتلّوا بإذنه أرباض تونس، وسكنوا ديارها ناهبين فاتكين بكلّ من اعترض سبيلهم، وصار السلطان يجلس في سقيفة القصبة للحكم جنبا إلى جنب مع قبطان الإسبان، بعد أن بعث للناس فأمّنهم على أرواحهم وأمرهم بالرجوع إلى البلد، فمن رجع ووجد داره سالمة أخذها، ومن وجد داره بيد النصارى أوكل أمره إلى الله وعاد إلى التشرّد في البادية.

رغم استغراق بدرو في العمل فإنّه اغتنم أوقات راحته ليتجوّل في الأسواق بعد ما عمرت ثانية بالسكان وأحكم جيش الإسبان قبضته عليها، لكن التّحذير الصّارم كان يؤكّد على جميع العساكر التوقّف عند باب بنات وعدم اجتيازه إلى منطقة باب سويقة، لأنّ أهاليها ثاروا واقتتلوا مع الإسبان من أجل خصومة تافهة بين جندي وأحد سكان الرّبض.

سكن مع كتيبته دارا واسعة في الدبدابة، ومنها يتسلّل أحيانا إلى مشارف الحفصيّة وما والاها من الأزقة، متسلّحا بالشجاعة والإقدام مادامت عيناه ترى دوريات الحراسة قريبا منه، لكن إذا لم يعد يرى غير السكان استوحش وعاد أدراجه مخافة أن يجلب الشكوك، أو يكون ضحيّة عمليّة انتقاميّة. ومع ذلك كان يختلط بسكان المدينة عند قضاء بعض الشؤون لنفسه أو للكتيبة، ويحادثهم فيشعر بطيبة أخلاقهم وحسن معاملتهم، ولكنّه يفعل هذا وهو في صحبة زملائه وكانوا لا يتنقّلون فرادى، ولا يتخلّون عن سلاحهم، خاصّة وقد حدثت عمليّات قتل وانتقام كثيرة في الأحياء الشرقيّة.

احتار بدرو كيف يوفّق بين جانب الاحتراس، وبين رغبته في التجوّل حُرّا دون رقيب بين الأحياء الشرقيّة، وفيها يسكن أهل الأندلس، وإلى معرفة أحوالهم تهفو نفسه؟ كلّ ما يعرفه عن الحيّ أنّه واقع خلف باب سويقة، وأنّ المرور إليه لا يتمّ إلاّ عن طريق باب بنات أو باب قرطاجنّة، بعد التواءات أزقّة متتالية لا يعرف مجاهلها إلاّ السكان الأصليّون.

ورأى أنّ العمل يأخذ أكثر وقته ويحصره في دائرة باب البحر حيث يكثر العساكر ويقلّ سكان المدينة، فخطر له أن يفتعل حادث سقوط من مكان قليل الارتفاع بحيث لا يحدث له ضرر بالغ، وقد نفّذ ما خطّط فانكسرت ذراعه أُخِذ من فوره للعلاج وهو يصيح من الألم، وبعد أن صبر على توبيخ رؤسائه لقلّة انتباهه، جبر كسره، ثم علّقت الذراع إلى عنقه وأصبح عاطلا عن العمل. وكمن أراد التكفير والاعتذار، تطوّع بسياقة عربات الشحن والكراريط الذاهبة يوميًّا لشراء الجير والرمل من تجّار رأس الدرب، ونقل الحجارة من مقطع جبل الجلود. وكانت هذه فرصته ليتعرّف على الناس من قرب وهذا أمر غير يسير لكثرة الرقباء

من جند الإسبان، ولنفور الأهالي من التعامل معهم إلاّ بدافع الحاجة إلى تحريك تجارتهم بعد أزمة الحرب وما تبعها من سوء الحال.

تحت سماء ملّبدة بغيوم الخريف دعا جنرال سربلّوني الضباط وفرقهم، ليحضروا افتتاح الأشغال في حصن البستيون وهو مشروع خطّط له الإسبان منذ قدموا، وباركه دون خوان قبل سفره. وُضعت منصّة للصلاة وسط ميدان فسيح أحاط به الجند من كلّ الجهات، واختطّ المهندسون بالمحراث أخاديد الأسس، بين تهليل القساوسة وأدعيتهم وترديد الحاضرين، ثم طاف كبار الضبّاط وهم خاشعون مبتهلون بكل الأركان، وأنهوا الموكب في مبنى الكنيسة المؤقّت حيث بكى أكثرهم طالبا من الله أن لا ينال حصنهم هذا ما نال حصن جربة على يد الأتراك. ثم انطلقت المدافع من القصبة ومن أماكن عديدة حول المدينة في ضجّة واحدة روّعت السكان، ولكن أبهجت العساكر وأثارت حماسهم، فتبادلوا الصراخ من فرقة إلى أخرى وكأنّما هذه المدافع، وهو تواصل ضرباتها، تقول لهم: أقدموا وتشجّعوا ولا تخافوا... ها أنا معكم أحرسكم وأحمي ظهوركم.

وبدأ ضرب المعاول بعد الحفل مباشرة، وتواصل رفع الأسوار وبناء الأبراج يؤدّيه آلاف الجنود متداولين عليه الفرقة تلو الأخرى بالإضافة إلى عمال من بين الأهالي دفعت لهم أجور يوميّة، وتمّ هذا تحت إشراف كتيبة الحرفيّين والصنايعية رفاق بدرو وعددهم ثلاثمائة وخمسون جنديًا بين نجّار وحدّاد وبنّاء وغيرهم.

ونصبت الحراسة على مكان العمل فلا يدخله أحد إلاّ تحت أنظار الرقابة، كما حرّم على الجنود التعامل مع السكان منعا للتصادم والمعارك. بقي أمر التزويد بمواد البناء فإنّه يتمّ حسب إجراءات مقنّنة بواسطة قوافل العربات تروح وتجيء تحت الحراسة إلى مقاولي التزويد، فيؤخذ منهم الرمل والحجارة والجير يوميًا على شرط أن تكون أماكنهم معروفة وآمنة.

من بين محلات التزويد منشر فسيح بجهة رأس الدرب، يبيع صاحبه أحمد الجيّار مواد البناء المستجلبة من الجيّارات ومقاطع الحجر إلى سكان الحيّ في العادة، لكن منذ بدأ بناء البستيون كادت مبيعاته تقتصر على الجيش الإسباني يبعث له

بالعربات كلّ صباح فتفرغ المحل مما فيه، ويقبض الرجل الثمن.

وصل بدرو ومعه قافلة عربات تجرّها البغال إلى حيث أكوام الحصى في ناحية وأكوام الجير في ناحية أخرى، وجاء صاحب المنشر ليسأل الجماعة عن طلبتهم كعادته كلّ يوم، فأخذه بدرو إلى ناحية وأسرّ إليه هامسا وهو يناوله كيسا في خفية من رفاقه:

- خذ هذا الكيس من السكر هديّة بمناسبة العيد.

نظر الرجل مندهشا لا يدري ماذا يصنع، أيأخذ هديّة العدو أم يردّها؟ لكن بدرو ابتسم له مشجّعا وقال:

- لا تفضحني أمام الآخرين.. أليس عيدكم بعد أيام وليس في البلد سكر؟

ابتسم الرجل بدوره، وأخفى الكيس في كوخه بسرعة، وعاد يسأل عن السلع المطلوبة. وفيما كان العمال يشحنون البضاعة والجنود يراقبونهم، جلس بدرو بجانب صاحب المحلّ وقد اكتسب ثقته عازما أن يجاذبه الحديث لاستقاء معلومات عن الحيّ الأندلسي. وقد حانت الفرصة عندما سأله الرجل عن سبب انكسار يده فأجاب:

- سقطت من لوح معلّق وأنا أبني السور.
- أنت بنّاء إذن... صحيح، هذه أثار الجير بيدك الأخرى، ما أشدّ بلاهتي، لم أكتشف هذا من الأوّل. إنّنا هنا نحترم الصنّاع المهرة، وقد أتانا منهم كثيرون أيام هاجر الأندلس من بلادكم.
- تقصد عندما طردناهم، و لم نستطع تعويضهم إلى اليوم.

نظر الرجل الأشيب إلى الجندي بحذر، و لم يعلّق على كلامه، مخافة أن يكون الجندي يستدرجه ليوقعه في فخّ ذمّ النصارى والإسبان، ولكن الفتى واصل كلامه بلهجة صادقة صريحة:

- ما أقوله صحيح، فبلادنا خسرت كثيرا عندما طردت المتعلّمين والصنّاع المهرة، والحال أنّهم أبناء البلد لا فرق بينهم وبين مواطنيهم الآخرين إلاّ كونهم مسلمين، وقد صار هذا في أيامنا عيبا كبيرا وذنبا لا يُغتفر.

- على كلّ حال فأنتم لم تخسروا شيئا... أخرجتموهم من هناك إلى هنا، ثم لحقتم بهم، فاجتمع الشمل عندنا. انظر إلى هناك.. إلى باب كبير قدمت منه وستعود منه، إنّه باب سيدي قاسم الجليزي ابن بلدكم الذي أدخل صناعة الجليز وطوّرها في بلادنا، وتلك داره ومقبرته، فإذا مررت وأنت عائد فادع له بالرحمة.

ثم توقّف الرجل فجأة وضحك بملء فيه كأنّما يهزأ من قولته:

- قلت لك ادع له بالرحمة... فكيف ستصله رحمتك وأنت نصراني؟

نظر بدرو في وجهه بكامل الجدّية والوقار وقال بصوت خفيض:

- لا تضحك أيّها الشيخ... لست نصرانيًّا... أنا مسلم!

وكأنّما لدغت الرجل عقرب، إذ هبّ واقفا بعصبيّة وتوجّه نحو العربات يتفقّد حمولتها، محاولا أن لا يبقى مع بدرو على انفراد، وأن ينهي الحديث معه عند هذا الحدّ.

تمّت المعاملة ودُفع للرجل ثمن بضاعته، فأمسك بدرو مقود أوّل البغال وغادر المكان مطأطئ الرأس حزينا، بينما وقف صاحب المحل يخالس النظر إليه مشوّش الفكر، لا يكاد يعي ما سمعه منذ حين، وقد لازمته تلك الحال بقيّة يومه وكامل اللّيل. أسئلة كثيرة تواردت على ذهنه ولم يجد لها جوابا: ماذا يفعل مسلم في جيش النصارى؟ أهذه حقيقة أم أكذوبة يستدرجه بها ليتجسّس بواسطته على أحوال الناس؟ هل هذا الرجل مدسوس حقيقة، أم أنّ له حكاية غريبة لم يدركها؟ بات ليلته مهموما لا يكلّم أحدا من أهله، وبان عليه التوتّر وضيق البال طول الوقت. وعزم في نهاية الأمر أن يتجرّأ ويسأل الشاب توضيح ما قاله في الأمس.

لكن ها أنّ قافلة البغال والعربات تأتي في صباح يوم الغد وليس فيها بدرو، مما ترك التاجر مندهشا لا يجد تفسيرا لغيابه، فهل سيتركه في حيرته ويختفي؟ لماذا اعترف له إذا لم تكن له مقاصد واضحة من الاعتراف؟.. وهل أظهر له حقيقة أمره دون غرض مبيّت؟.. هذا غريب لا يقبله العقل... إنّ ما قاله الشاب هو مقدّمة لأشياء أخرى يريد البوح بها له، فلمّا قابله بالانفعال والنفور انغلق وكتم أمره، ثم ها هو قد غاب تماما وربّما لن يعود. وبدأ الرجل يلوم نفسه ويعذّبها من

أجل تعجّله مع أنّه رصين مُتأن في غالب أحواله.

سأل الجند والحمّالين عن الشاب المكسور الذراع، فقالوا أنّ الكسور تؤلّمه، وقد بقي في الفراش، وربّما يؤخذ إلى المستشفى. ازداد عذاب الضمير بالرجل، وتأمّل سحنات الجنود فاختار منهم واحدا تظهر عليه الطيبة أكثر من الباقين، ليطلب منه إبلاغ بدرو أنّه عثر على تصميمات فريدة من الزليج يريد عرضها عليه، لأنّه أوصاه بالبحث عن نماذج من ذلك النوع المصنوع في تونس ليقلّدها بعد عودته إلى بلاده.

- أرجوك سنيور... قل له إنّ صاحبها صديق لي ولن يطلب ثمنا مرتفعا. سأنتظره غدا وإلاّ فاتت الفرصة.

وعده الجندي بإبلاغ الرسالة، وبقي التاجر في حيرته ليلة أخرى، مفكّرا فيما عسى أن يقوله للجندي إذا وصلته الرسالة وعاد لمقابلته.

أمّا بدرو فقد انكسرت نفسه من موقف الرجل وصدّه له عندما فاتحه بالحقيقة. كان ينتظر الدهشة والاستغراب فإذا به يجد النفور والشكوك، وكأنما أهان الرجل أو حطّ من قدره. صحيح أنّ العلاقة بين النصارى وأهل البلد مشحونة بالعداء والتوحّش، ولكن الحدس دفعه إلى الثقة بهذا الكهل الطيّب، فلماذا لم ينتظر إلى أن ينهي حديثه ويشرح له أسباب تنكّره في زيّ الجنود الإسبان؟ ولكن إذا تبصّر في الأمر فهو غير متنكّر، بل إنّه واحد من رعايا ملك اسبانيا أرسله ضمن حملة تخدم مصلحة بلاده ولا فرق بينه وبين سائر الجند إلاّ أنّه مسلم وهم نصارى، بل لعل فيهم مسلمين مدجّنين ويهودًا متستّرين، فترك كلّ فرد إيمانه خبيئا في صدره، وليس للدولة أن تطالبه إلاّ بما يلزم من طاعة وانصياع لأحكامها وأوامرها، وحسبها هذا.

ولما جاءه صاحبه بما أوصاه به بائع الجليز نشط بدرو وعادت إليه الابتسامة، حتى ظهر لصاحبه أنّ الفتى بعثوره على تصميمات الجليز الأثريّة قد عثر على كنوز سليمان، فضحك منه ساخرا:

- أصحابك يسلبون المسلمين أموالهم وأنت تشتري منهم قطع الجليز المكسّر... هذا هو الجنون بعينه!

جاء الشيخ أحمد في قيافة متسوّل فجلس مجلسا تعوّد عليه قرب حفرة منزوية. أجال عينيه يمنة ويسرة منتظرا خلوّ الطريق من المارّة، ثم مدّ يده ينبش التراب ويفحص ما تحته، فإذا حبّات الحمص التي وضعها لم تنتقل من مكانها. وعاد يوم الجمعة الموالي والذي بعده، وقام بالحركات نفسها، فوجد حبّات الحمص توشك أن تنبت، فغطّاها بالتراب وقام عائدا، والهواجس تتقاذفه، تارة إلى اليأس وتارة إلى الأمل. فإن كان بدر الدين في المدينة فما منعه من زيارة المكان وإعطاء الإشارة حسب الاتّفاق. وإن كان خارج المدينة فأين عساه يكون؟ الاحتمال الأول أن يكون قد ذهب مع فريق عمل إلى مكان بعيد، والاحتمال الثاني أن يكون قد نجح في الانضمام إلى جنود الحملة التي يعدها دون خوان هذه الأيام وتهتمّ بها كلّ دواليب الدولة. وتساءل في سرّه وهو لا يتمالك من الفرح والابتهاج: «إنّه فتى عبقريٌّ ولا أشكّ أنّه وجد فرصة ملائمة للانضمام إلى الجيش إذا أجاد التستّر والتخفّي، ولم يترك رجال السلطة والقساوسة يعرفون أصله وفصله، هذا هو الشرط الأساسي، فهل تراه نجح في مسعاه؟ أتراه نفّذ توصياتي، وجميع ما اتّفقنا عليه؟ إنّها فرصته الأخيرة للوصول إلى أهله، ولم يعد في الجراب حيلة غيرها».

وعاد قلب الشيخ الحجري إلى الانقباض بعد فورة السرور، فربما انكشف أمر بدر الدين واطّلع مُفتّشو الكنيسة المندسّون في كلّ خلايا المجتمع على أصله وفصله ومعتقده، وفي الحال هذه لا مفرّ له من السجن وربّما الحرق، وبهذا تفشل خطّتهما المشتركة على أساس أن ينفّذ كلّ واحد منهما الجزء الخاصّ به على حدة، ثم الالتقاء في النهاية مع باقي الأسرة في بلاد الهجرة إن كُتبت لهما النجاة. وعندما وصل به التفكير إلى هذا الحدّ غمر قلبه الحزن، فاستعاذ بالله من وساوس الشيطان، ودفع باب بيته وهو يتمتم بالأدعية والذكر، ثم قضى ليلته في الصلاة والتهجّد إلى طلوع الفجر.

شاهد روّاد المكتبة الكبرى في صباح اليوم الموالي الشيخ الحجري يحارانو صحبة الشيخ ابن العاصي حفيد الشيخ الجبّاس، وكانا قد تعلّما الترجمة عل يده، وتزاملا مدّة إلى أن توطّدت بينهما الصداقة وروابط الأخوّة. جلسا على كرسيٍّ

حجري في حديقة المكتبة يتحادثان، وكلما مرّ بهما أحد القساوسة وقفا لتحيّتهما رافعين قبّعتيهما، لأنّه صار لزاما على أهل الأندلس اتّباع أسلوب قدماء النصارى من أهل البلد في الأكل واللبس وسائر العادات، وطرح ما سلك عليه أهلهم الأقدمون، وقد صدرت الأوامر بالتضييق على كلّ مخالف إلى حدّ التحريم والعقاب وربّما القتل، لذا لم يعد من المستنكر أن يأتي الشيخان بمثل ذلك السلوك وهما على قدر كبير من العلم والتفقّه في الدين، بل إنّهما كثيرا ما نصحا شبانا من معارفهما بالتقيّة وإخفاء ما يجلب لهم المضرّة والعقاب، وليس أدلّ على ذلك مما أوصى به الشيخ الحجري ابن أخيه ليلة افتراقهما، إذ أكّد عليه مرارا وتكرارا بأنّ النصارى لن يأمنوا جانبه ويقبلوا اقترابه منهم إلاّ بأمرين، إظهار العداوة القصوى والحقد الأسود نحو المسلمين، وبذل الروح والمال خدمة للكنيسة والرهابنة.

سأل ابن العاصي رفيقه عن صحّته وهو يلاحظ ذبول سحنته واحمرار عينيه، فأجابه مخفّقا من كرب يثقل نفسه:

- لم أنم ليلي بطوله... أصابني قلق وسهاد لهواجس تسلّطت على الفكر والقلب، وما أمكنني طردها إلى أن بان ضوء النهار.
- وما يزعجك يا بيجارانو؟
- أمرك عجيب يا رجل! سؤالك في محلّه... ما الذي يزعجني بصفة خاصّة بعد أن صار الإزعاج حالة دائمة. ننام بها ونصحو عليها؟
- لا تغضب منّي، فهذا هو قصدي. إنّنا نسمع ونرى كلّ يوم من العجائب والمنغّصات ما يدمى له الفؤاد، فما الحيلة في الاصطبار على ذلك غير الانشغال بالعبادة.
- هل علمت بآخر ما حدث لأهل أندراش وبلفيق؟

خفّض ابن العاصي صوته وأجاب صاحبه مقتربا من أذنه:

- وماذا كنت تتصوّر أن يحدث غير القتل والتنكيل؟ لقد فرّ إلى هناك كلّ من امتنع عن التنصّر، واعتزلوا بقيّة الناس عازمين الدفاع عن دينهم وأنفسهم، وكانوا لا يقلّون عن خمسة آلاف نفر.

- سمعت أنّ الملك أرسل لإخضاعهم أخاه الطاغية المتهوّر دون خوان فماذا كانت النتيجة؟ لقد أكثرت المكوث في البيت هذه الأيام فلم أعلم بنتيجة الحملة.
- استأصلوهم قتلا وسبيا إلاّ من نجا بنفسه إلى جبل الثلج، أو الذين وجدوا طريقا آمنا إلى الشاطئ فركبوا البحر من المنكّب أو شلوبينية نحو فاس.
- وماذا فعلوا بالأسرى؟
- حُذف العمل بالأسرى والفدية ونظام الذمّة كما في السابق. صدر الأمر بأن يقولوا للرجل المسلم: إنّ جدك كان نصرانيًّا فأسلم فترجع نصرانيا كما كان جدّك، وإلاّ حوكمت بالعصيان ووجب قتلك.

أطرق بيجارانو وتاه بأفكاره، بعيدا عن الحديقة والمكتبة والشيخ ابن العاصي. ذهب فكره خلف بدر الدين وما عسى أن يكون حاله، خاصّة وقد تأكّد من غيابه عن المدينة. وألحّت عليه أسئلة الأمس من جديد: هل نجح في الانضمام إلى العسكر؟ وإذا قبلوه فهل خرج مع دون خوان لقتال أهل أندراش عوض الذهاب إلى إفريقية... هل انقلبت الخطط فذهب يقاتل إخوانه هنا... عوض الأتراك هناك؟ أسئلة كثيرة لم يجد لها جوابا شافيا، فاستأذن من صاحبه وعاد إلى البيت للانطواء على أحزانه.

دخل بدرو على رأس قافلة البغال والعربات، وأحاسيس كثيرة تحتدم بداخله، فهل هي اللهفة إلى لقاء التاجر الذي بعث يدعوه؟ أم هو الفضول إلى معرفة ردود فعله الجديدة؟ وهل هو الخوف أن يكون الرجل واشيا فيرفع أمره إلى القبطان ويُشنق؟ أو أن يكون جبانا فيصدّه ويتبرّأ ممّا سمعه منه؟

لم يخالف ما تعوّده في جيئاته السابقة، دخل يقود دابّته، وطاف في نصف دائرة ليترك مكانه لمن يليه، ثم انشغل يربط البغل ويقدّم له مخلاة الشعير، فعل ذلك دون أن يلتفت إلى ما حوله، وإذا بيد تلامس كتفه برفق وإذا بصوت التاجر يحيّيه ويسأله عن حال يده المكسورة. التفت بدرو إلى الرجل وسأله معاتبا:

- وماذا يهمّك من أمر يدي؟

ابتسم التاجر ملطّفا من غضب مخاطبه، معتذرا بوقع المفاجأة غير المنتظرة. سأله بدرو بعد أن ذهب عنه العبوس وفهم حقيقة ما أحدثته مفاجأته:

- وما حكاية تصاميم الجليز التي تريد إطلاعي عليها؟. أنا مشتاق لرؤيتها ولهذا جئت.
- أتعني أنّ ملاقاتي لم تعد تهمّك كثيرا؟
- إذا فكرت فيما صنعته معي ستعذرني.
- هيّا نتسامح وإلاّ جلبنا انتباه بقيّة الجند بحديثنا المطوّل. عليك أن تسألني بعد قليل عن قطع الجليز التي وعدتك بها، وترفع صوتك بالسؤال ليسمعك الجميع، وبعد أن أجيبك اتبعني إلى مكان آمن يمكننا التحدّث فيه بعيدا عن العيون.
- وأين المكان؟ يجب أن لا أبتعد كثيرا عن القافلة، وأن لا يعود العساكر بدوني.
- اطمئن المكان قريب من هنا.. زاوية سيدي قاسم الجليزي، وفيها توجد نماذج الجليز. وهذا عذر كاف لتغطّي به عيون رفاقك.

عاد الرجلان لتفقّد الشحنات وتنشيط الحمّالين على رفع الحصى والجير في شواويل الحلفاء، وصبّها أكواما فوق العربات، حتى إذا كانت ساعة الضحى والشغل في أنشط حال، نادى بدرو بأعلى صوته:

- اسمع أنت أيّها الرجل!... أمازلت على وعدك ببيعي تصاميم الجليز التي تقول أنها فريدة ولا يوجد مثلها في الكون؟
- سي سنيور بدرو... لو نقضت عهدي لما بعثت لك.
- فما بالك تتلكأ ولا تخرجها لأراها؟
- هي محفوظة في مكان آمن حتى لا تُسرق، فثمنها مرتفع... لذا أرجوك قبول اعتذاري سنيور.
- لن أتركك تنهب مالي قبل أن أراها وأقتنع بجودتها.
- تعالَ معي لتراها... ولن تدفع شيئا إلاّ بعد أن تقتنع بقيمتها.

- أنبّهك ثانية إلى أنني خبير في مواد البناء، وإلى أنني أقتلك إذا حاولت أن تسرقني. انظر إني مسلح.

ابتسم التاجر حاملا كلام بدرو على أنه من باب الفكاهة وقال:

- هل نحن نتاجر أم نقتتل؟

وفيما كانا خارجين من ساحة الرمل والجليز نادى أحد الجنود بدرو لينصحه:

- احترس يا بدرو فأنت وسط قوم لا يؤتمن جانبهم.

طمأنه بدرو بإشارة من يده الممسكة بالسلاح وخرج إلى الطريق مع التاجر.

دخلا مقام الوليّ الصالح فطافا بأرجائه ليتأكّدا من انفرادهما بالمكان، ثم جلسا قرب الضريح. بادر التاجر بالكلام:

- أقسم بالإنجيل والسانتا ماريا أنّك لا تستدرجني وتنوي خداعي.

- كيف تطلب منّي ذلك وقد أعلمتك إنني مسلم واسمي بدر الدين؟

- أقسم بالإنجيل أوّلا، ثم احلف بالقرآن فإذا لم ينفع معك هذا نفع ذاك.

ضحك بدرو وطمأن صاحبه بأن أقسم بالإنجيل والقرآن معًا، ثم ثنّى بالشهادتين، في حين وقف التاجر الأشيب فاغر الفم لا يكاد يصدّق أذنيه. قال بدرو بلهجة جادّة:

- لنبدأ الحديث الذي جئنا من أجله، فصدري ضاق بما أحمل ولابدّ أن تسمعني وتعينني إن كنت مسلما بحق.

- أنا أسمع يا بني، تكلّم اطلب منّي ما تريد.

- أعرف أن اسمك أحمد وهذا اسم عمّي أيضا، بينما يدعى والدي محمد الحجري، أمّا اسمي الحقيقي فهو بدر الدين.

- أكاد أحسب نفسي في منام!

- لا تعجب أيّها الرجل الطيّب.. فما حدث ويحدث في الأندلس يفوق الخيال، فكيف لم تعلم بشيء من ذلك؟ إنّك لو تتبّعت التفاصيل واستمعت إلى روايات المهاجرين لما عدت تندهش.

- فعلا... سمعت أشياء غريبة، ولكن ما عانيناه من جنودكم ومن ظلم سلاطيننا واقتتالهم فيما بينهم، شغل بعضنا عن الاهتمام بما يحيق بالبعض الآخر، لكأنّنا مشرفون على قيام الساعة.
- سوف لن أشغلك بقصّتي، وإنما أطلب منك أن تيسّر لي الاتصال بمهاجري بلدنا الذين وصلوا في الفترات الأخيرة، عساني أعرف مصير أهلي، فقد احتجز الإسبان الصبيان والبنات عند طرد أهاليهم، وكنت من بين هؤلاء.
- فكيف تدبّرت أمرك إذن؟ كيف عشت إلى اليوم؟
- حكاية تطول... إنما لطف الله بي، فالطرد شمل أبي وأمّي وزوجة عمّي وكانت حاملا، أمّا عميّ ذاته فكان غائبا تلك الأيام في طليطلة، يتابع دراساته وبحوثه ولعلّ هذا ما شفع له بالبقاء إلى اليوم، إذ صارت له براءة رسميّة للترجمة، جعلت القساوسة ونواب الملك في حاجة إلى خدماته. وهو الذي رعاني ووجّهني ودلّني على خطّة أتستّر بها وأتكيّف مع الحال السائد، أتفانى في طاعة الملك وخدمة الكنيسة والقساوسة لأستطيع الإفلات من الحصار والانطلاق باحثا عن أهالينا. وهو من جهته سيدبّر خطّة للفرار حين تحين له فرصة مناسبة، لعلّنا سنلتقي إن شاء الله لنا ذلك قريبا.
- وكيف عرفت أنّ أهلك وصلوا إلى تونس ولم ينزلوا في غيرها من بلدان المغرب.. أو أنهم لم يقعوا في أيدي القراصنة...؟ لقد حدثت لمهاجريكم مصائب كثيرة.
- بلغتني أخبار من هذا... منذ سبعة عشر عاما وأذناي تلتقطان كلّ صغيرة وكبيرة. وكان الأسرى الإسبان المفكوكون مصدرا هامًّا لهذه الأخبار، كما أن تجّار الفرنجة والمراكبية سرّبوا نبذا عرفت منها أنّ جماعتنا وصلوا إلى تونس بأمان... فهل تدلّني على من يؤكّد لي ذلك؟ فلا يمكنني تصديق ما سمعت إلاّ إذا وصلت إلى مصدر الخبر، أو شاهدت أهلي بعيني.

- كلّ ما أستطيع إفادتك به يا بني هو أنّ زاوية سيدي القشّاش هي محطّة النازحين من الأندلس، بها يبيتون لياليهم الأولى ويستريحون من عناء السفر ومصائبه، ثم يتوجّهون إلى أماكن أخرى يعيّنها لهم السلطان أو من ينوبه.

أمسك بدر الدين بيدي التاجر وفي عينيه رجاء واستعطاف، ولم يترك فرصة استغلال هذه المعلومة تفوته فقال:

- أيّها الرجل الكريم أوصلني إلى تلك الزاوية. دعني أقابل القائمين عليها، دلّني بسرعة أرجوك!
- مهلا يا فتى! كيف تذهب إليهم بهذا الزّي وهذا السلاح؟ فإمّا أن يهربوا عند رؤيتك وإمّا أن يفتكوا بك... لابُدّ من تدبّر الأمر وإعداد العدّة له بإحكام. ثم إنّك لن تسلم من عقاب ضبّاطك إن علموا بزيارتك للأعداء.
- فما الحلّ إذن؟ إنّ الوقت يمضي.
- دع الأمر لي وسأعلمك بما خطّطته.

وعادا من حيث جاءا ليجدا قافلة البغال جاهزة للانطلاق.

زاوية القشّاش التي تحدّث عنها التاجر توجد في صميم المدينة قرب سوق البلاط، وقد اشتهرت بدورها في مساعدة الضعفاء وكلّ من استجار بها أو لجأ إليها من أبناء السبيل. والقائم المنظم لتلك الأحوال شيخ صالح يدعى أبو الغيث القشاش يقضي حياته في الزاوية، وله جاه وشفاعة عند السلطان، فإذا ما جاء فوج جديد من مهاجري الأندلس اقتبله وسجّل عدد أنفاره وجملة ممتلكاتهم، وطلب من الحكام إنزالهم في مناطق تصلح لعيشهم، وقد بذل في ذلك جهودا يشهد بها عامّة الناس وخاصّتهم، لذا كان اسم الزاوية وشيخها أوّل ما ورد على ذهن التاجر وهو يحدث بدر الدين، لكنّه قرّر أن لا يجازف باصطحاب الشاب دون استئذان الشيخ وتمهيد الأمر برويّة وحسن تدبير، ولذا تعمّد إغلاق محلّه في وقت مبكّر، وذهب إثر صلاة العصر مباشرة يشقّ الأسواق قبل أن تغلق أبوابها عند مناداة العسكر، وفي نيّته أن لا يعود من قصده إلاّ بعد مقابلة الشيخ، حتى ولو دعا الأمر إلى قضاء ليلته عنده.

لقي منذ الباب زحاما شديدا، فبعض الناس خارج منها وقد قضى حاجته، ونال من الصدقات والعطايا ما جعله يضمّ يديه على لفائف، أو يرفع على ظهره كيسا، وفي وجهه سمات فرح وانفراج، وآخرون قدموا مثله أو سبقوه ومازالوا واقفين يأملون الحصول على وساطة أو صدقة مما توزّعه الزاوية كلّ يوم.

دخل أحمد الجيّار الزاوية وهو يدير ناظريه في الحركة الدائبة والخلائق المختلفة السحن والهيآت، إلى أن اعترضه حاجب على صفة من يقفون بأبواب الدواوين وسأله بلطف عن حاجته، فطلب مقابلة الشيخ أبي الغيث.

- إنّه في حال غياب هذه الأيام. أغلق باب خلويّته للعبادة، ولن يظهر إلاّ عند ما تخطر له الرغبة في الظهور.

قال الحاجب ذلك، ثم لما بانت خيبة الأمل على سحنة أحمد أضاف:

- لكن حاجتك تقضى بحول الله على يد وكيل الزاوية سي نصر الدهماني إن كانت يسيرة.

- دلّني عليه جازاك الله خيرا.

- بعد أن تجتاز الصحن كلّه تجد رواقا قبالتك، فادخله تجد درجات قليلة عليك صعودها، وهناك ستجد البوّاب وسيدلّك على مجلسه.

سار أحمد يقطع صحن الزاوية العريض بخطى واسعة وقد قوي لديه أمل الحصول على نتيجة تفرح قلب بدر الدين.

نظر وكيل الزاوية بعينين برّاقتين إلى أحمد الجيّار وسأله بصرامة:

- ما بك يا رجل؟ هل لديك شكوى من أحد؟ ألم يقضوا حاجتك في الزاوية؟ ألم يسألك أحد عن طلبك؟

تكلّم بسرعة فلم يجد أحمد فرصة للردّ، وبقي صامتا يتلفت حوله ويتفقّد المكان. أعاد الوكيل سؤاله:

- قل ما حاجتك يا رجل؟

لم يعد للتاجر حلّ آخر غير الإفصاح عمّا جاء من أجله، لكن وجود كاتب في أحد أطراف الغرفة جعله يتردّد، حتى وإن كان الرجل مستغرقا يدقّق فيما بين

يديه من أوراق ودفاتر. لذا غامر بطلب أمر قد يقبله منه الوكيل وقد يرفضه، ولكن لا مناص منه:

- أرجو من سيدي الإذن لي بمحادثته على انفراد.

تعجّب الوكيل من هذا الطلب، لأنه لم يشك لحظة في تفاهة ما جاء الرجل من أجله، فالزوار في الغالب طلاب صدقات أو رفع مظالم، أو ممّن تقطّعت بهم السبل في هذا الزمن المليء بالحروب والأوبئة والفتن. نعم... توجد قضايا كبيرة تتعلّق بفك الأسرى، أو المصالحة بين القبائل أو الطوائف التي بدأت تتداخل وتتساكن مع أهالي البلد، وهناك قضايا أخرى تتعلّق بالعلاقات الدولية أو الوساطة لدى السلطان وكبار رجاله... لكن هذه أعمال ومهمّات لا يقدر عليها سوى شيخ الزاوية ولا يتجرّأ عليها الوكيل.

لما رأى أحمد الجيّار نظرة التعجّب في عيني الوكيل أسرع إلى القول:

- حديثي إليك أمانة لأبُدّ من تبليغها إلى من له النظر، وكان في عزمي مقابلة شيخنا وعمدتنا في وقت الشدّة أبي الغيث، لكن قيل لي أنّه غائب ولا يعرف وقت عودته، على أنّ المسالة تتطلّب الاستعجال نظرا للأحداث الدائرة في البلد، والتي لا أحد يعرف متى تكون نهايتها، ولا كيف تكون.
- مهلا أيّها الرجل!.. هل جئت تطلب معونة أم حلّ قضية سياسيّة؟
- لا هذا ولا ذاك، إنّما هي مسألة إنسانيّة مما اعتاد الشيخ، عمدتنا وشفيعنا، حلّه والاعتناء به أثابه الله.
- دعني أعرف أوّلا من أنت ومن أين أتيت؟

نظر أحمد الجيّار ناحية الكاتب، ففهم الوكيل قصده، وطلب من الموظّف الذهاب إلى المخازن لتفقدها، ثم جلس وأجلس أحمد بجانبه طالبا منه ذكر حاجته بعجل قبل عودة الكاتب.

تردّد بدرو في الأيام الموالية على متجر أحمد الجيّار ضمن القافلة كالعادة، ويبقى ينتظر إيماءة أو إشارة من الرجل، فلا يبالي هذا به، بل ينهمك في تفقد البضاعة ومراقبة العمال وهم يشحنون العربات طول الوقت، حتى إذا حان وقت رواحهم نظر ناحية الجنديّ وأشار بأصابعه المضمومة بما معناه صبرا إلى أجل قريب. ويعود الشاب يائسا أو كاليائس، فهو خائف أن تنتهي عمليّات البناء أو تنقلب الأحوال مع سلطان الوقت، أو يغيّر قائدهم موقفه فيعيد توزيع القوى ويبعثه إلى موضع آخر، فلا أحد يدري إلى أين تسير الأمور، وعامل الوقت سيف مسلول يتحكّم في الأحداث. وبعد أن قضى في الحيرة أيّاما ثلاثة، ناداه التاجر ذات صباح بصوت مسموع:

- هات النقود معك غدا، فنماذج الجليز التي اتّفقنا عليها جاهزة، ويمكنك تسلّمها إذا أردت.

تماسك بدرو لئلا يرقص من الفرح، ولكن قسماته المبتهجة وصوته المتهدّج وشيا بمشاعره، وأجاب التاجر:

- أتسلّمها؟.. بالطبع أتسلمها. ما طلبتها منك إلاّ لأني أريدها... غدا أسلّمك النقود وآخذ النماذج والتصميمات. إيّاك أن تغشّني أو تسرقني، أعرف أنّك تاجر حاذق.
- حاذق نعم... لكن حاشا أن أغشّ أو أسرق.

وارتفع صوت رئيس القافلة وهو عملاق أقرع:

- خذ حذرك يا بدرو... إذا خدعك اخنقه. وإن شئت أن أذهب معك للمساعدة فعلت.

قال بدرو مداعبا:

- ألا تظنّني شجاعا بما يكفي لخنقه وخنق كلّ عائلته يا كارلوس؟
- أعرف... ولكن خذ معك سلاحك وكن حذرا، إنهم خبثاء.

استمع أحمد الجيّار إلى هذا الحوار البذيء وهو يبتسم، ولكن لم يظهر أنّه فهم مراميه، واستمرّ يؤدّي عمله بصورة طبيعيّة إلى أن غادرت القافلة المكان، فالتفت بدرو إلى أحمد يودّعه بعينين مليئتين شكرا وعرفانا.

يقع مقام سيدي قاسم الجليزي في جانب من الباب المعروف باسمه، وهو قريب من القصبة مقرّ الديوان السلطاني والقيادة المشتركة بين بني حفص وجيش الإسبان الغزاة.

يبدأ الداخل إلى المقام باجتياز صحن فسيح جنباته مغلقة بالجليز البديع، مما تفنّن سيدي قاسم في صنعه أيام كان معمله والكوشة التابعة له ينتجان في اليوم الواحد مئات القطع، فيتخاطفها الأمراء وأصحاب القصور لتزدان بها أقبية البيوت والمقاصر والمخادع، حتى انتشر استعماله في بيوت الأسر الكبيرة بحاضرة تونس والمدن الهامّة.

يلي الصحن باب مُحاط بإطار رخاميّ نُحِتت أعلاه طغراء جميلة مكوّنة من أغصان وأزهار متعانقة، وعلى الجانبين نحت بارز لهلال عن يمين وهلال عن شمال. ويواجه الداخل قبوٌ تحيط به مقصورتان يتوسّطه تابوت خشبيّ تظلّله ألوية ذات ألوان مختلفة، وبالأركان الأربعة شمعدانات لا تنطفئ شموعها بالليل أو بالنهار. الأرض مفروشة حول التابوت بزرابي زاهية الألوان، أهدتها لمقام الوليّ الصالح صبايا المدينة تقرّبا وتبرّكا، أو وفاء بنذر حتّمته على نفسها عانس أو أرملة أو مريضة طال انتظارها للشفاء.

على يمين الداخل ويساره جناحان بنفس المساحة التي يشغلها التابوت، في جنباتها فُرُش وآرائك لاقتبال الزوّار والضيوف، ويطلب منهم وكيل الزاوية إذا امتلأ بهم المكان أن لا يطيلوا المقام، فما هي إلاّ لحظة حتى يبدأ بالترحّم على صاحب المقام والدعاء له برضاء المولى وحسن قبوله، ويختم بالدعاء للسلطان، وسائر الحضور يردفون أدعيته بآمين يا رب العالمين، إلى أن ينتهي فيتلو الجميع الفاتحة، ويتقدّمهم الوكيل فيفتح الباب، وفي يده مرشّ الزهر ينثر قطراته على أكفّ الزوّار وصدورهم.

لكنّ الحاضرين في موكب هذا اليوم الخصوصيّ لم يتبعوا التراتيب المعمول بها، لأنّ الوكيل، حسب ما أوصي به في اليوم السابق، بقي خلف البوّابة الكبرى منذ أول الصباح، إلى أن جاءه فوج من الناس في أول الضّحى قد غطّوا رؤوسهم ببرانيس سابغة لا تبين من ملامحهم شيئا، ففتح لهم الباب ليدخلوا بدوابهم، وهذا

غير مسموح به عادة، ثم أسرع فأغلق الباب، وأوصى الحارس أن يرد الزوّار بقية اليوم. ثم مرّ وقت قصير وصل بعده أحمد الجيّار ومعه جنديّ إسباني بكامل أسلحته و لم يكن سوى بدرو بيجارانو. كان الوكيل في انتظارهما أيضا، فقادهما بسرعة إلى الغرفة الكبيرة التي يتوسّطها التابوت ويجلس في الركن الأيسر منها جمع الرجال الوافدين منذ قليل.

تفرّس أحمد الجيّار في وجوه الرجال الجالسين وكانوا ثلاثة، فاهتدى بسرعة إلى معرفة وكيل الزاوية القشّاشية الذي اقتبله منذ أيام، وكان جالسا بين شيخين مُعمّمين عليهما هيبة ووقار. تقدم أحمد ليسلّم فأوقفه الوكيل بحركة من يده، وطلب منه الإشارة على صاحبه بترك سلاحه قرب الباب. فهم بدرو المطلوب منه فتخلّص من بندقيّته والسيف والخنجر وكيس البارود وعاد يقف جنب الباب. فتح أحمد الجيّار فمه ليلقي سؤالا يراوده، فسبقه الوكيل مشيرا بكفّه اليمنى إلى من بجانبه الأيمن وقال:

- الشيخ سليمان حمدون كبير الأندلس وشيخهم مولود بحاضرة تونس، ولكنّ جدّه مهاجر من أيام سقوط غرناطة. قاوم النصارى مع مشيخة الغزاة، ولمّا ضاقت به الحيل وعزّ النصير هاجر إلى تونس واستوطنها، واتّبع أبناؤه سيرة أبيهم في الجهاد فطاردوا النصارى في البحر وغزوا جزرهم، وزاد أحفاده إلى ذلك الإكثار من عمل البرّ ومساعدة إخوانهم اللاّحقين بهم أو الذين أسروا وامتُحِنوا في دينهم وعرضهم ومالهم.

ثم أشار بكفّه اليسرى إلى الرجل الآخر وقال:

- هذا حفيد سيدي البكري كبير الأشراف، زاويته مشهورة وكلمته عند السلاطين مسموعة، وقد حضر الاثنان وأنا ثالثهم لنكون شهودا على ما يقوله صاحبك السبانيولي، فإذا لم نستوثق من دعواه، وحصل لنا شكّ في دسيسة يدسّها، أو خديعة تبلبل الأفكار، فهو منذ الساعة لن يستطيع الخروج من هنا، ويؤخذ أسيرا لدينا لأبُدّ من محاكمته بأمر الشرع وكشف الأيدي التي حرّضته وبعثته جاسوسا علينا.

ضمّ أحمد الجيّار يديه إلى جنبيه، وطأطأ رأسه نحو الأرض وقد علت وجهه صفرة مفاجئة. أمّا بدرو فرفع يديه وفتح فمه ليتكلّم مدافعا عن نفسه، فأشار إليه وكيل الزاوية بحركة من يده ليصمت ويهدأ، وتابع كلامه:

- أمّا إذا استوثقنا من صحّة دعواه، وبانت لنا الحجّة على ما يقول، فسنقف جميعا إلى جانبه، ونساعده في العثور على والديه وأهله، وتأمين سلامته وحرّيته حتى وإن طلب منّا الأمر عصيان السلطان أو الوقوف في وجه جيش السبانيول العاتي. لدينا إذن بذلك من شيخنا وبركتنا أبي الغيث، أغاثه الله وأصلح به حال المسلمين.

التفت الوكيل ذات اليمين وذات الشمال، كأنّما يأخذ موافقة رفيقيه على ما قال فأشارا برأسيهما، ولم يكن في الحقيقة محتاجا إلى ذلك، لأنّ ترتيب الجلسة تمّ بالتفاهم بين جميعهم قبل القدوم. صمت الوكيل قليلا ومشط لحيته، ثمّ طلب من أحمد الجيّار أن يأخذ مكان الجنديّ قرب الباب، وأن يدعوه للتقدّم وسط القاعة. سارع التاجر قبل أن يتحرّك من مكانه ليحدّد بعض الأمور:

- يا سادتي الكرام، يا أصحاب البركة، سوف يحدثكم هذا العسكري بنفسه ولكن بلهجة مكسّرة لأنّه لا يقدر...

أوقفه الوكيل بإشارة من يده ونظرة حادّة من عينيه، فتوقّف ولم يكمل عبارته، ثم رفع يديه إلى رأسه كالمعتذر وتقهقر ناحية الباب، فأخذ بدرو مكانه وهو في غاية التأثّر من هيبة المجلس، ومن اهتمام الجماعة بقضيّته، وهي لا تعدو في الحقيقة أن تكون قضيّة شخصيّة وعائليّة، حتى وإن مثّلت جزءا من مأساة كبيرة. فتح الشاب فمه مرّة أو مرّتين قبل أن ينطق بالكلمة الأولى. ولكنّه - بعد أن انطلق يسرد مأساته الشخصيّة ومأساة تشريد عائلته، وقصصا مما شاهده وعايشه خلال المطاردات ومحاكم التفتيش- صار يتكلّم بطلاقة، وعثر بيسر على الكلمات المناسبة والعبارات المؤثّرة، حتى وإن اختلطت لغة بعضها ببعض، فقد تحدّث بالعربية عن طفولته في الحجر الأحمر، وعن احتفالات زواج عمّه أحمد وهو طفل في السادسة، ثم عن رعاية هذا العمّ له وتعليمه وتدريبه إلى أن شبّ وشقّ طريقه، وكذلك عندما تحدّث عن آمنة العجوز التي هدهدت سريره وعوّضته عن أمّه،

رغم ما اعترى حياتها من رعب دائم مبعثه الحرّاقون ومحاكماتهم، حتى ماتت المسكينة نصف مجنونة. ثم تكلم بالقشتالية وهو يصف حظائر العمل وما تعلّمه فيها، وكيف توفّق بحذق إلى كتمان إسلامه عن القساوسة رغم معاشرته الدائمة لهم. وتكلّم بالخيميادو عند وصفه لحال المتنصرين الجدد، وكيف أخضعهم الإسبان لامتحانات التأكّد من ولائهم للعقيدة الجديدة.

سأل سليمان حمدون:

- ولماذا لم تلازم عمّك أيّها الفتى، فتتدبّران أمر خروجكما معا، عوض ما لجأت إليه من طرق ملتوية غير مأمونة العواقب؟

أجاب بدرو:

- عمّي رجل عالم، اشتهر بحذقه للّغات وترجمة الكتب، ولديه براءة رسمية من الدولة ومن الكنيسة فلا أحد يجرؤ على إذايته، وهناك آخرون مثله تحتاج إليهم مختلف الدوائر، مثل عمّي وبعض العلماء العاملين معه، ومثل الأنفار الستّة من الأندلس المطلوب بقاؤهم في كلّ بلد به مائة دار للإشراف على الريّ ومعاصر السكّر وزراعة الأرز، وأشياء فنّية أخرى لا يحذقها الإسبان. لقد تغيّر الأمر كثيرا يا شيخ حمدون عن أيام جدّك. فالحكام الجدد نقضوا كلّ العهود، ووضعوا قوانين جديدة لا تسمح بغير دين واحد هو النصرانية والكاثوليكيّة المتشدّدة وبغير لغة واحدة هي الإسبانية.

سأله وكيل الزاوية وقد كان منتبها لكلّ كلمة قالها الفتى:

- من الذي أشار عليك بدخول الجيش، وكيف حصل لك التأكّد بأنّك ستصل عن طريقه إلى العُدوة الإفريقية؟

تذكّر بدرو في الحين أيام اشتغاله في حصن الحراسة بمقرّ حاكم غرناطة، وكيف تقرّب إلى القسّ بواسطة العطايا والصدقات، وكيف داوم الحضور والصلاة ليتوسّط له في الخروج لمحاربة أعداء المسيح ودينه. روى لهم بالتفصيل حواراته مع القسس، وما أبداه من حرارة إيمان لإقناعهم، كل هذا مع إخفاء أصله العربي، وتغيير إقامته مخافة أن يتعرّف عليه أبناء جهته من قدماء النصارى. ثم

عاد بالذاكرة إلى ليلة افتراقه هو وعمّه في دارهم الصغيرة بالحجر الأحمر، فقال للجماعة:

- كان عمّي أحمد كثير التنقّل، لا يزورنا إلاّ لماما، فأبقى أنتظره حزينا مرتبكا لا أدري ما أفعل، ولو لم يكن لديّ اهتمام وحبّ لعملي في البناء ونحت الحجارة لجننت، أو همت على وجهي في الجبال. وفي إحدى الليالي اختلى بي عمّي بعد أن صلّينا المغرب معًا، وأسرّ إليّ بخطّة حبك خيوطها بأناة، وطلب أن أنفّذ ما يخصّني منها بكامل الحذق والكتمان، وخلاصته أن أغيّر السكنى باستمرار، مع التقرّب ما أمكن إلى مراكز النفوذ ودوائر السلطة والكنيسة ليرشّحوني إلى الجيش، مع رصد حركات التجهيز التي تنشط أيام تأزّم العلاقات، سواء مع أمراء السعديّين في مراكش أو قراصنة أترك في الجزائر، وبصفة خاصّة مع بني حفص حكّام تونس، وكانت تتأرجح دوما بين مدّ وجزر. وقد سعيت ووفّقني الله إلى أن وصلت للقائكم بفضل السنيور أحمد الجيّار جازاه الله كلّ خير.

وقد بنى عمّي أحمد خطته على قسمين حتى لا نجلب الانتباه أولا، ولكي يطبّق كلّ واحد منّا ما يخصّه بسهولة وتحكّم في الوقت والوسائل دون ارتباط بالغير ثانيا، على أن نحصل في الختام على نفس النتيجة ونلتقي في عين المكان. ثم انهمك في عمله مبتعدا عن كلّ ما له علاقة بالسياسة، جامعا ما يكفيه من المال لتحقيق مشروعه. واشترط أن لا يغادر أرض الأندلس حتى يتأكّد من خروجي قبله، فكان يتابع أخبار الحملة، ويعدّ الأيام متفقّدا حفرة الفول كلّ يوم جمعة، ليعرف إن كنت في غرناطة أو غادرتها.

سأل الشيخ البكري فضول:

- وما دخل الفول والحمص في هذا الأمر؟

ابتسم بدرو لأوّل مرّة، وروى قصّة إشارة كان يتبادلها هو وعمّه، بواسطة الحبوب. يضع العمّ حبّات الفول ليدلّ على أنّه مازال في المدينة، فإذا جاء ابن أخيه أخذها ووضع مكانها حبات حمص فيعرف العمّ نفس الشيء، وهكذا تبادلا

الإعلام بهذه الواسطة البدائية، لأنهما لا يملكان غيرها في ذلك الظرف الخطير المريب. تبادل الحاضرون نظرات الدهشة وسأل حمدون:

– وماذا تعرف الآن من أخبار الشيخ أحمد الحجري، هل خرج أم مازال هناك؟

رفع الجندي يده إلى السماء وقال:

– الله أعلم بحاله، ولكنّه سيحرص على تدبير الهجرة بعد تيقّنه من خروجي مع حملة دون خوان، لأنّه أراد الاطمئنان عليّ أولاً.

صمت الجميع، ومرّت فترة سكون تبادل جميع الحاضرين فيها نظرات مختلف المعاني والدلائل. وبدا على الشيوخ الثلاثة أنهم مستغرقون في تحليل المعلومات التي سمعوها لتمحيص نصيب الصدق فيها. أمّا الشاب ورفيقه فبقيا واقفين منتظرين أي سؤال يضيفه الشيوخ قبل إبداء الاستعداد لمعونة هذا المستجير.

وفجأة شقّ هذا الصمت الرّخو ما يشبه خبط الأرض بنعل، فوقف الشيوخ الثلاثة دفعة واحدة، وارتعدت فرائص الجندي من المفاجأة، فنظر ناحية الجيّار كالسائل أو المستنجد. لم يترك الشاب في حيرته طويلا إذ قال وكيل الزاوية في لهجة آمرة:

– انطق بالشهادتين يا بدر الدين!

استجاب بدر الدين لطلب الجماعة دون تردّد وبلكنته الأندلسيّة التي تقلب الحاء إلى هاء في أغلب الأحيان:

– أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.

وفي الحين انفتح باب المقصورة الجانبيّة، وخرج منه أبو الغيث القشّاش في جبّة خضراء بالأكمام وعليها ثوب أحمر مقطّن، تغطي رأسه عمامة ملفوفة لفًّا غليظا. فسح له الشيوخ مكانا على الأريكة، وبقوا واقفين احتراما لمقامه. هذا كله وبدر الدين لم يستفق من دهشة المفاجأة، فلا علم مسبق لديه بوجود الشيخ في المقصورة يسمع اعترافاته، ولم يعرف إلى حدّ ظهور الرجل الصالح سبب هذا الترتيب الذي سارت عليه المقابلة. نظر أبو الغيث إلى الشاب مليًّا ثم قال له:

- أنت الآن منّا وإلينا، فما هي المساعدة المطلوبة؟

اقترب الجيّار من الشاب وهمس في أذنه، فركع على ركبتيه وأمسك يد الشيخ أبي الغيث يقبّلها، وجسمه يهتزّ في هدوء كأنّه يكبت نوبة نشيج، أو لعلّها الفرحة بالوصول إلى ما خطّط له وتمنّاه من زمن طويل بعيد. ربّت القشاش على كتفه بلطف، ودعاه إلى النهوض والإفصاح عمّا يطلب، لأنّه مستعدّ بعد أن سمع قصّته إلى معونته بما يستطيع.

- أحبّ العثور على أبي محمد بن قاسم الحجري، وأمّي راوية ابنة إسماعيل بن هود، وزوجة عمّي قمرية بنت أحمد بن سهيل، وكلّهم من سكان الحجر الأحمر، أخرجوا قهرا منذ سبعة عشر عاما وأركبوا سفينة إلى تونس، واحتجزت وأنا ابن ست سنين مع قرابة ألف فتى وفتاة، وزّعوا فيما بعد بين العائلات النصرانية.

نظر الشيخ نحو الجيّار، وأمره بإرجاع الفتى إلى جماعته حتى لا يثير الشكوك، وأن يزوره في الزاوية مساء يوم الغد. حاول الفتى تقبيل يد القشّاش ثانية، ولكنّه استنهضه وأمره بسرعة العودة من حيث جاء، واعدا إياه باقتراب الفرج.

كانت الأشغال الجارية في البستيون لا تتوقّف، فارتفعت أسواره بسرعة وبُنيت داخلها أسواق ودكاكين ودور جديدة يكوّن مجموعها مدينة صغيرة ملتصقة بالمدينة الكبيرة، ولكن مستقلة عنها، لا تخضع إلاّ لحكم الإسبان ولا يسكنها غيرهم وإلاّ من تنصّر وانتسب إليهم. وكان القبطان يتعجّل إتمام الأشغال خوفا من الأخطار المحدقة به والمناوشات التي تتكرّر باستمرار من طرف الأتراك أو عرب البادية، وأحيانا من أهالي العاصمة أنفسهم، وخصوصا وقد انحاز قسم منهم إلى جهة باب سويقة، رافضين الحكم المزدوج الذي فرضه عليهم سلطانهم الجديد. أمّا أهالي وسط المدينة وباب الجزيرة فلم يقدروا على المنعة لأنهم تحت رمية مدافع القصبة، ولأن العساكر ساكنوهم وقاسموهم أغلب الدور.

وبالنظر إلى نشاط البناء وسرعته كثر الطلب على موادّه اللاّزمة، حتى أنّ قوافل العربات والدواب بين البستيون والجيّار ومقطع الرمل وجبل الجلود وسائر

تجار تلك المواد باتت لا تنقطع، وهي رائحة غادية طول اليوم في أرتال يحرسها الجند إذا كانت كراريط كبيرة، تسير بمحاذاة السور إلى أن تصل إلى باب الجزيرة، فتمرق منه إلى البستيون، أو تشقّ الأزقّة الضيّقة إذا كانت حميرا وبغالا تحمل الزنابل والأكياس، والجميع في تنقّلهم يبتعدون قدر الإمكان عن منطقة باب بنات، مخافة أن يتحرّش بهم سكّانها.

ومع ذلك - ورغم الاحتياطات والحذر الشديد - اندلعت معركة كبرى ذات صباح، عُرفت باسم «خطرة الشكارة»، لأنّها انطلقت من خلاف بسيط حول «شكارة»، بدافع الجوّ المتوتّر والحقد المكبوت إلى حركة تمرّد، سقطت فيها ضحايا كثيرة، واستعملت فيها الأسلحة بأنواعها لمدّة يوم كامل. وكانت مُهيّأة للاستمرار أياما أخرى، لولا تدخّل السلطان وتوسّطه بين المتخاصمين، مع وعد الأهالي بعدم التعرّض إلى أعمال انتقاميّة من طرف الإسبان بمقتضى أمر من قبطانهم سربلّوني بالذّات.

كان رجل من باب سويقة صعد إلى رأس الدرب قاصدا متجر أحمد الجيّار وارتكن مكانا قريبا منه، فلمّا وصلت قافلة الإسبان بعرباتها وحرّاسها يتقدّمهم بدرو بذراعه المعلّقة إلى عنقه، تقدّم ذلك الرجل، ويدعى ابن الصفّار، وصاح فجأة في وجه التاجر أحمد:

- هل غرقت في نقود السبانيول فلم يعد يهمّك حرفاؤك وأهل بلدك؟
- لا والله... وإنّما السلعة قليلة والطلب كثير!
- لنا الحقّ في جزء من هذا الطلب.. أم تريدنا نتوقف عن البناء والتبييض وإصلاح ديارنا؟ قلت لك إنّ سطوحي كلّها تشقّقت فما سمعت منّي... وقلت لك إنني أجّلت زواج ابني بسبب ذلك حتى لا تسقط السقوف على رؤوس المدعوّين، وأنت تزيد في التسويف كلّ يوم. كم رسولا بعثت إليك ورددته؟ ها أنا اليوم جئت بنفسي، ولن أتحرّك من هنا إلاّ ومعي طلبتي.

ظهر على الرجل غضب شديد احتقن منه وجهه واحمرّت عيناه، وجذب أكياس الجير المعدّة للجيش ليسقطها أرضا، فسبقه إليها التاجر وفي عينيه حيرة

وخوف من تهوّر الرجل. لم يكن يبدو عليه الانتباه إلى وجود الجنود ولا الخوف من تدخّلهم إذا لزم الأمر، إذ البضاعة مرصودة لهم وموضوعة على ذمّتهم. وقفوا في أوّلْ الأمر يتفرّجون مندهشين من ثورة الرجل، غير فاهمين لغرضه، ولكن لما تدخّل التاجر ومنعه من لمس الأكياس بدأوا يفهمون المشكل ويحسّون أنهم طرف فيه.

جذب ابن الصفّار شكارة وهو ثائر غاضب، فتهاوى هرم الغرائر المرصوفة فوقها، عند ذلك صاح أحمد الجيّار غاضبا محتجًّا، ونظر ناحية العساكر كمن يطلب الرأي أو النجدة. تقدّم بدرو نحو ابن الصفّار فدفعه بيده الوحيدة دفعة ألقته أرضا، وافتكّ منه الشكارة وهو يسبّ ويشتم، وإذا بالرجل يصيح صيحات ارتجّت منها أرجاء المكان، ويطلب الغوث متّهما الجنديّ بمحاولة قتله، وبأنّ ظهره انكسر من شدّة الوقعة.

لم يفهم الجنود والعمّال ما حدث بعد، ولم يتحرّكوا من أمكنتهم، وإذا موجة من الأهالي تقفز داخل المنشر من كلّ النواحي، وفي أيديهم هراوات وسيوف وأسلحة مختلفة، هاجموا الجند فاضطرّوهم إلى الدفاع عن أنفسهم باستعمال البنادق والسناكي، وسمع أهل المركاض ورأس الدرب ضجيج المعركة فجاءوا للنّجدة، كما انتبه حرّاس القصبة إلى ما يحدث فبعثوا كوكبة للتدخّل، لكنّها لم تقدر على شيء، فدامت المعركة يوما كاملا، ولم تهدأ إلاّ بعد أن مات خلق كثير من الجانبين، وبعد ما توسّط السلطان بنفسه لما رأى الهيجان انتقل إلى الأحياء كلّها وكأنّه تنفيس عن غضب مكبوت.

لم يتمكّن التاجر أحمد الجيّار من ارتياد محلّه أو مزاولة نشاطه لمدّة أيام، منتظرا أن تهدأ الخواطر، ويزول ما حام حول متجره من احتراس وشبهات قد تمسّ شخصه، إضافة إلى عمله ومصدر رزقه. ولازم بيته أياما لا يعلم بما يحدث في الخارج. إلاّ ممّا يأتيه به عماله بعد تفقّدهم المخازن.

وبعد انصراف العمّال من عنده ذات عشيّة، أقفل باب البيت وأحكم رتاجه، ثم انثنى إلى باب الدّريبة فدخله ونادى ضاحكا:

- اخرج يا فار، من هاك المغّار.

وإذا بصندوق الثياب المركون في أقصى الغرفة يتقلقل في مكانه ويرتفع غطاؤه ليخرج من تحته شاب وسيم، ملتفٌّ في قفطان قطني أبيض يغطّيه من الرأس إلى القدمين. اقترب الجيّار من الشاب مبتسما:

- اطمئن!... هذه آخر مرّة تختبئ فيها وسط الصندوق، ولابُدّ أنّك صرت تكرهه لشدّة ما ضيّق نفسك وذكّرك بالقبر.
- كلّ هذا هيّن بجانب ما سبّبته لك من خسائر، وما عرضتك له من أخطار. لا تنس أنّنا كدنا نهلك في ذلك اليوم السعيد والتعيس في نفس الوقت.
- بل إنّه يوم سعيد، لأنّنا انتقمنا من الظالمين والغزاة شرّ انتقام، ونفّسنا عن غيظنا وكبتنا.
- ولكن بأيّ ثمن؟ تذكّر عدد الأموات!
- مهما كان الثمن لابُدّ للناس أن ينفجروا من حين لآخر، فالذلّ والهوان الذي يذوقونه كلّ يوم في أبسط أمور معاشهم لا يكال بكيل أو يقاس بمقياس.
- لقد علمت بالظلم الكثير، وشاركت في بعضه غصبا وكرها، والله يعلم ما في سريرتي، وأنني لم أشارك في إيذاء المسلمين إلاّ مُكرها أو خائفا على نفسي، بل إنّك رأيت شدّة ندمي على ضربي لابن الصفّار يوم الخطرة، وكم استغفرت الله على ما فعلت، وإنّني أناشدك الاعتذار باسمي للرجل وطلب عفوه عن سوء معاملتي حتى لا يطالبني يوم الحساب.
- لا تعد إلى مثل هذا الحديث يا بدر الدين، فضربك للرجل كان جزءا من الخطّة، ولو لم تفعل لما صرخ واستنجد، ولما جاء الناس المختبئون حول المتجر بدعوى إنقاذه من أيدي الجنود، إنّه أمر مرتّب بيننا وبينه.

ضحك بدر الدين وقد شعر بالراحة وعودة الأمل في انكشاف غمّته وسراحه من جنديّة الإسبان، وضحك معه أحمد شريكه في الخطّة وترتيب فصولها وتعيين منفذيها مع تدريبهم على المطلوب، وقد تمّ كلّ ذلك في نطاق السرّية الكاملة في زاوية سيدي القشّاش بسوق البلاط.

نظر بدر الدين إلى الجيّار، ومازالت الابتسامة تضيء وجهه، وقال كأنّه يستعيد ذكرى قديمة مترسّبة في الذاكرة:

- كنت أحلم وأنا صغير أن ينقذني الله من بؤر الشرّ والعدوان التي انغرست فيها رغم إرادتي، وأن يهديني إلى أرض سالمة مطمئنّة أكمل فيها حياتي، وحولي كلّ من أحبّهم وكلّ ما أشتهي، فلعلّي اليوم بدأت طريقي نحو مدينة أحلامي. إنّ مشاعر خفيّة تتحرّك في نفسي تُحدّثني بأن السعي الذي بدأته لن يخيب.

جلس التاجر بجانب ضيفه ليكون قريبا من أذنه وأجابه:

- لن يخيب بإذن الله. سوف تزول الغمّة برحيل الإسبان، ولا يبقى في البلد سوى أصحابه. فما عليك منذ اليوم سوى البحث عن أهلك، فإذا انتهينا من هذا فسأقودك وإياهم إلى مدينة أنشئت في مكان غير بعيد، فيها كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين، فإذا جمعت فيها أحبابك أحسست أنّها الجنّة.

- وكيف هي يا عمّ أحمد؟

- هي صورة مستحدثة ومجدّدة لمدينتنا العريقة، بل لمدننا الكبرى مثل تونس وصفاقس والمهديّة والقيروان ولمدنكم مثل غرناطة وقرطبة وإشبيلية. تحميها أسوار منيعة تلفّها بالأسرار، وتقود إليها أبواب كبيرة جميلة النحت، تتفرّع عنها أنهج وأزقّة وساحات مليئة بالعجائب والخفايا. فمن هنا دُورٌ أندلسيّة الشكل رائعة الجمال، ومن هناك حدائق غنّاء ومسابح ساحرة، ومن حقل زيتون إلى روضة أزهار يتنقّل زائر المدينة، سواء قاصدا الترفيه واللّهو أو التسوّق وقضاء الشؤون، أو التثقّف وشحذ الحواسّ بما طاب وراق من الفنون. قد علمت أنّ ساحتها تعجّ بالوافدين من كلّ صقع لاكتشاف ما تهبه لهم المدينة، من سكن فاخر مريح، وعيش مطمئن، في جوّ ملؤه المرح ونكهة الطعام وجودة البضاعة.

مدينة عجيبة كما علمت لا ينقطع منها الفرح، تعيد كلّ يوم إلى أذهان ساكنيها عجائب الأساطير القديمة، بما تقدّمه من حفلات التّذكّر والفرجة على

مسارحها وفي متاحفها. فمن رقصات الأفارقة، إلى شطحات الصوفية وأرباب الطرق، إلى خيال الظلّ ومحاكاة الطير والحيوان. عالم خرافي يا بدر الدين، لكنّه حقيقي وملموس. آه لو تكتب لنا الأقدار يوما الانتقال إليها!...

تركت ابتسامة بدر الدين مكانها إلى نظرة حالمة تحاول اجتياز الزمان واختراق المكان. وقال للجيّار وكأنّه يحدّث نفسه في ذات الوقت:

- تخيّلت نفسي فيها وأنا طفل، فقد تبخّر جسمي ورفعهُ الهواء حتى لامس قُبّة السماء. لو كان الأمر بيدي لأشرت إلى الكون أن يتوقّف وقلت له عندئذ: ها أنا تحت قبّة آخر الزمان فدعني هنا.. ولا تتحرّك ثانية فهذه هي السعادة.

- عد بنا إلى واقع الحال حتى نصل إلى مرمانا ونحقّق مبغانا.

بعد اجتماع سيدي قاسم قصد أحمد الجيّار، بين عصر ومغرب، الزاوية القشّاشيّة في قلب المدينة. شقّ درية الزوّار وسقيفة باب الشبّاك، وعبر الفناء الكبير حيث شجيرات نارنج جلس تحتها جماعة من المنشدين، فوقف يستمع إلى الششتري والمالوف مما تعوّد سماعه من قبل، ولمّا ناداه الحاج مزهود، تراجع خطوات وصعد الدرج إلى غرف نصر الدهماني وكيل الشيخ. اقتبله الرجل مرحّبا:

- جئت في الوقت المناسب. هيّا بنا ندخل إلى الشيخ في خلويّته، فلا شيء يشغله الآن. ولتعلم أنّنا لم ننفكّ منذ تلاقينا مع صاحبك الأندلسي نبحث في قائمات الأندلس الوافدين، عسانا نجد اسم عائلته أو إشارة دالّة على منبتها الأصلي.

- لا أظنّ أنّ المنبت ذو أهمّية كبيرة يا سي نصر.

- تخطئ كثيرا... لأنّنا صنّفناهم قبل توجيههم إلى سكنهم الجديد، فالريفيّون وُجّهُوا إلى الريف، وأهل الشطوط وُجّهُوا إلى ناحية البحر، لتجد كلّ فئة ما تعوّدت عليه في طلب رزقها. فإذا كانت عائلة هذا الشاب قادمة من سهل أو جبل فأولى بنا البحث عنها بين من استوطنوا السلوقية أو تستور، وإن كانوا من أهل المواني فالأجدر البحث عنهم بين من استوطنوا بنزرت أو شطوطا مثلها.

- أعرف مما حدثني به الفتى أنّ أباه كان فلاّحا يملك حقل عنب يعيش منه، أمّا عمّه فهو من أهل العلم.
- سنتبادل الرأي مع الشيخ أبـي الغيث ونأخذ منه التوجيـه، أمّـا أنـا فالأقرب عندي أنّهم في ناحية بنـزرت، لأنّ تاريخ قدومهم يصـادف تاريخ توجّه جماعة إلى هناك، وقد وجدت هذا مسجّلا في دفاتر الزاوية. بقي أن نعرف هل نـزلوا المدينة آم تفرّقوا في ضواحيها.
- وهل وجدتم الاسم كما ذكر بدر الدين؟
- لم نجد اسم محمد الحجري كما ذكـره الشـاب، لأنّ أولئـك النـاس اضطرّوا إلى تغيير أسمائهم، وانتحال غيرها عدة مرّات، لظروف وأسباب نعرفها جميعا. أو نجدهم يدلون بأسماء متسلسلة فلان بن فلان فيتشـابه بعضها ببعض وتختلط. ثم لا تنس أنّهـم وصـلوا في حـال تعاسـة لا توصف، فكان أوّل الأمور إطعامهم وتأمينهم، لا البحث عـن أصـلهم وفصلهم.

وجاءت الخماسيّة الزنجيّة لتدعو الرجلين إلى خلوّية الشيخ، وكان بين يديـه كتاب، فلما رآهما أزاحه جانبا ودعاهما للجلوس. ذكر الوكيل نتيجة أبحاثه، وأعاد ما قاله لأحمد الجيّار، فصمت الشيخ برهة يفكّر ثم خاطب زائريه:

- سنعثر على العائلة بسهولة إن شاء الله، وليس هذا أصعب الأمور، وإنمـا شيء آخر يشغلني.

سأل أحمد:

- وما هو يا سيدي؟.. الصعب يسهل ببركاتك!

وأشار نصر إلى الجيّار بالسكوت والانتظار، رافعا كفّه إلى فمه، أمّا الشـيخ الصالح فواصل الكلام كالمحدّث نفسه:

- لنفترض أنّنا عثرنا على العائلة في بعض الأماكن، فكيف سـيلتحق بهـا الشاب؟ هل يمكنه مغادرة العسكر بسهولة؟ هل يفضح أمره إلى القـادة ويقول لهم أنا مسلم وقد عثرت على عائلتي التي طردتموها من أرضـها، وإنني سأبقى معها؟ مستحيل! سيقتلونه إن فعل. هل يفرّ من السـبنيول؟

نعم لابُدّ أن يفرّ، ولكن هل يقدر على ذلك وحده؟ كيف يفعل... وإلى أين يذهب؟ سيبحثون عنه ويقبضون عليه في رمشة عين، إنّه لا يعرف أحدا في البلد غيرنا فأين يمكنه الاختباء؟ أين؟

وأخذ يجيل بصره بين الرجلين ويعيد السؤال. قال نصر الدهماني:

- إذا اعتبره السبنيول فارّا سيقلبون الدنيا بحثا عنه، وإذا ظنّوه أسر أو اختطف فسيكون الأمر أنكى وأشدّ، لأنّهم سيفتّشون أركان المدينة، وسينتقمون من الأهالي، ويكثرون التجسّس وبثّ العيون.

رفع الشيخ يده إلى فوق، فسكت الرجلان تعلّقت عيونهما بشفتيه. قدّم لهما الكتاب الذي كان يطالعه وقال لهما:

- سأشير عليكما بأمر يجب أن يبقى سرّا بين ثلاثتنا لا يعلم به إنس ولا جانّ... احلفا على المصحف!.

حلف الرجلان، ثم دار بين الجميع نقاش طويل انتهى بتدبير مؤامرة أساسها افتعال خصومة في محلّ الجيّار، يكلّفون بها رجلا من أبناء باب سويقة المشهورين بالشجاعة والنخوة، واختاروا للمهمّة شخصا معروفا بالشدّة اسمه ابن الصفّار، تساعده جماعة من مائة رجل أو أزيد، يكمنون قريبا من المتجر، ثم يهجمون على من فيه من العساكر عند أوّل استغاثة يطلقها قائدهم.

وجم الجيّار وتاهت أفكاره فيما يمكن أن يحصل نتيجة لهذه الغارة على زبائنه من عسكر السبنيول، لا خوفا عليهم، فهو يشتهي أن يحدث لهم مثل ذلك أو أكثر، إذ لا ربح يجنيه من ورائهم، بما أنّهم يقرّرون كلّ يوم ثمن ما يأخذون حسب المزاج، وإنّما كان خوفه من تلف البضاعة وتحطيم أحواضها، وهي لم تكتمل بناء وإنشاء إلاّ منذ وقت قصير. نظر إليه الشيخ سائلا:

- ما بك يا أحمد؟ هل أنت خائف؟
- الأمر لله يقدر ما يشاء!
- ألست أنت الرّاغب في تخليص الفارس الإسباني من عسكريته؟
- نعم أنا صاحب الفكرة ولن أتراجع.
- احتسب لله إذن، واطلب منه العوض.

قال نصر الدهماني، وقد أسندت له مهمّة تجنيد ابن الصفّار وجماعته، وتوفير مسالك هروبهم بعد أداء المهمّة نحو حيّهم المنيع:

- لا تخش الخسارة يا سيد أحمد، ستعوّضك الزاوية بحول الله، إنّما عليك حفظ وصايا سيدنا الشيخ وتطبيقها بالحرف الواحد، حتى لا تجرّ التهلكة عل نفسك وعلى غيرك.
- وعيت الوصيّة وحفظتها، وهي أن أحاول فضّ الخصومة بهدوء في أوّل الأمر، وأن أوبّخ ابن الصفّار بعد ذلك وأفتكّ منه الشكارة لأبعد شبهة التواطئ معه. ويتدخّل بدر الدين فيضربه، عندها يبدأ ابن الصفّار بالاستغاثة والصياح فتأتيه جماعته للنّجدة، حتى إذا بدأت المداهمة والضرب أهرب إلى خلف المحلّ يتبعني بدر الدين مدّعيا الاختباء لأجل يده المعطوبة، لأنّه إن شارك في المعركة سيقتل لا محالة.
- وبعدها يا سي أحمد ترمي على صاحبك برنسا يخفي زيّه العسكري، وتهربان عبر الأزقّة البعيدة عن السور ومراكز الحراسة، فتختبئان في بيتك حتى تهدأ الحال.
- وهل يبقى المحل مغلقا؟
- كلّف به واحدا من أعوانك، وسنبعث من خدّام الزاوية من يساعده حتى تمرّ الأزمة، والفرج على الله.

نهض أحمد الجيّار لينصرف قبل أن يعمّ الظلام وهو يقول:

- يا لطيف لم تزل، ألطف بنا فيما نزل، اذكرنا في دعواتك يا سيدي يا صاحب الكرامات!
- حسبنا المولى ونعم النصير. انصرف مجبور الخاطر يا أحمد، فالله معنا.

بهذا ختم الشيخ القشّاش جلسة التخطيط لمعركة الغد.

انتهت الأمور كما خُطّط لها، وبقي أحمد الجيّار في بيته مدّعيا المرض، ومعه الجندي الهارب بدر الدين الحجري الأندلسي أو بدرو بيجارانو الفارس الإسباني. كان مسكن الجيّار صغيرا على قياس عائلته، لذا لم يقدر أن يوفّر لصاحبه محلا خاصًّا به، فكان لزاما عليه الاشتراك مع أهل الدار في مجالات الحياة اليوميّة. وقد كشف أحمد الجيّار أحواله وظروفه للضيف منذ أوّل ليلة سهراها معًا على ضوء سراج زيتي ضئيل ليزيل وحشته ويجعله يستأنس بالمكان وأهله:

- ستكون واحدا منّا ابتداء من هذه الليلة. والأسرة كما ترى صغيرة، وازدادت صغرا منذ تُوفّيت زوجتي وبقيتُ أرعى الأطفال وحدي. ومن ألطاف الله أنّهم شبّوا قليلا ولم يعودوا محتاجين إلى عناية كبرى كما هو شأن الأطفال الصغار، والأهم من ذلك أنّ مرجانة بلغت سنّ الخامسة عشرة، وورثت رصانة أمّها وحذقها لشؤون البيت، فقامت عليه أحسن قيام. أمّا حسن ودرعية فقد بلغا السابعة والعاشرة وصارا يساعدانها في كلّ شيء.

وقد طرق الباب على أحمد الجيّار ذات يوم فأرسل ابنته تسترق النظر من السطح لمعرفة الطارق، وتمهل هو قليلا حتى اختبأ بدر الدين في عنق البئر، ثم أطلق صوته من وراء الباب يسأل عن اسم الطارق، فأجابه:

- بعثني شيخ الزاوية سيدي بلغيث، افتح يا أحمد يا جيّار، عليك الأمان!

أطلّ من شقّ الباب بحذر يفحص هيئة القادم، كان رجلا طويلا عليه برنس داكن ويلفّ رأسه بعمامة غليظة تمسكها خيوط سوداء كي لا تنخرم.

- ادخل الدريبة، إن كنت رسول الشيخ.

دخل الرجل وهو يبسمل، جلس على دكّة قريبة من الباب.

- اسمعني يا سي أحمد! أهالي صاحبك وضيفك توجّهوا إلى بنزرت. وصلوها أم توقّفوا قبلها فهذا غير واضح، والشيخ نصر يبلّغك السلام ويطلب منك أن تتجهّز للسفر إلى تلك الناحية، وسأكون معكما حارسا من أخطار الطريق.

- لكنّي لا أستطيع ترك بيتي وأطفالي بدون معين في أوقات الشدّة والخطر الذي تعيشها البلاد.
- الشيخ نصر سيبعث لك كريطة وبعض المؤونة، ويوصيك بأخذ العائلة كلّها معك، كأنّك ذاهب لزيارة سيدي علي الشباب، وهذا أصلح للتمويه على الحراسة، ولإخفاء ضيفك في صورة امرأة من جملة أفراد العائلة.
- ألا يوجد حلّ آخر؟
- لو كان هناك حلّ آخر لخيّرونا بين الاثنين. وسأكون مسؤولا عن سلامتكم إلى أن يصل الرجل إلى أهله، وتعود سالما إلى بيتك. هذا ما أوصاني به.
- وفي أيّ يوم يكون السفر؟
- بعد يومين، أي في صباح السبت القادم عند الفجر. ولا تنس أن تأتي لصلاة الجمعة عندنا وتقابل الشيخ.

ثم خرج الرجل واختفى بسرعة من الزقاق كما أتى.

لم يزد الشيخ بلغيث شيئا كثيرا عمّا قاله الرسول. كان أحمد الجيّار قد جاءه إلى الخلويّة وجلس متربّعا يستمع إلى تعليماته بانتباه:

- وكيل زاوية سيدي علي الشباب من تلاميذي، بلّغه سلامي وأعطه رسالتي هذه، وسيقوم بالواجب نحوكم وربما أكثر. على أن إقامتكم عنده لن تطول، وهو سيرى إن كانت قافلة الأندلس التي وصفتها له واصلت الطريق عند عبورها به إلى بنزرت، أو حطّت رحالها قريبا من مكانه.
- جازاك الله كل خير ونفعنا ببركاتك.
- الله يثيب الجميع. سوف لن تحاروا في العثور عل جماعتكم، فعددهم غير كثيف، كما أنّ المنطقة عامرة وغير مترامية الأطراف.

عند اجتيازه لساحة الزاوية وقف أحمد الجيّار يتفرّج عن حلقة المالوف متعجّبا من الآلات الموسيقيّة لأنّه يشاهدها لأوّل مرّة، وكذلك الإنشاد المطرب مما لم يعرف له مثيلا، وكان كلّه من أشعار الغزل أو وصف الرياض والزهور وجمال

الجداول النهريّة والنواعير. سرح به الخيال والطرب فجلس فترة تحت شجيرات النارنج يستمع منشرحا، ثم تذكّر ما ينتظره من عناء وتعب في غده، فلملم ثيابه وسارع بالخروج قاصدا منزله.

في غبشة الصبح، وبمجرّد أن فتح الحرّاس أبواب المدينة، خرجت كريطة يجرّها بغل قويّ ويحاذيها زمزمي بكامل لباس الفروسيّة، على كتفه مكحلة بارود وفي ركّابيّته عصا سنجق رفرفت ذؤاباته فوق رأسه كطيور خضراء. كان من الواضح أنّ خروج الفارس بجنب العربة هو لحمايتها، وأنّ السنجق المنشور فوق القافلة يهبها وقارا ويضمن لها الأمان، فهي بلا شكّ تحت رعاية أحد الأولياء الصالحين، أو هي لجماعة مريدين يقصدون زيارة إحدى الزوايا، وفي كلتا الحالتين سوف لن تعترضهم صعوبات أو أخطار في الطريق.

أمّا الكريطة فعلى ظهرها أسرة مكوّنة من امرأتين ملتحفتين معهما طفلة ذات ست سنوات قلّدت المرأتين في تغطية الرأس، لكن دون أن تحجب وجهها الطفولي الصغير، وبجانبها أخوها ذو العشر سنوات يجتهد في فتح عينيه الواسعتين، وطرد النعاس الملحّ بعد أن اقتُلِع من فراشه فجرا. أمّا السائس فهو رجل كهل يمسك زمام الدابّة بحزم، ويظهر أنّه رئيس العائلة قد جمع شملها ليذهب بها في مهمّة لا يعرف تفاصيلها غيره، وقد يكون قاصدا مكانا بعيدا، لذا امتلأت الكريطة بأواني المؤونة وصندوق للملابس، وبعض ما يلزم لإقامة قد تطول. ولعلّه ينوي الابتعاد عن الحاضرة من طرق غير مأمونة لذا جنّد هذا الزمزمي للحراسة، ولربّما يكون من أتباع زاوية ذات حول وطول فرفع سنجقها ليعلن الانتماء ويطلب الحماية. وقد يكون زائرا لخلويّة بعض الصالحين وفاء لنذر وتنفيذا لوعدة تفكّه من ضيق أو مرض. منظر القافلة، وهي تخرج من باب سعدون في هذا الصباح الباكر، يقبل كلّ هذه الاحتمالات ويجيب على مختلف الظنون، خاصّة وقد بان على الرجلين عدم المبالاة بما يدور حولهما، فلم يلتفتا إلى حارس الباب الأسود الذي شيّعهما بعينين خاشعتين، ولا إلى رفيقه الإسباني الذي ركن سلاحه إلى جنب الباب وفحص العربة وركابها بعدم اهتمام.

تقلقلت العربة بركابها وهي تمرّ بالطريق المحاذي لبساتين السلطان في رأس الطابية، وحاولت الابتعاد عن نقاط الحراسة قدر الإمكان، ما دام المرورُ بقربها ضروريًا لكلّ قاصد إلى جهة بنزرت وما والاها من قرى الشطوط الحديثة النشأة. ووجد الفارس المرافق عسرا في كبح فرسه الراغب في انطلاقة لا يعترضها شيء ولا يمسكه عنها لجام، فبقي يتقدّم الكريطة خطوات ويتوقّف، إلى أن تفوته فيتبعها، والفرس أثناء ذلك يحرّك قوائمه بعصبيّة، غير راض عن مشية البغل المتثاقلة، وفي كلّ الحالات لم يجد الفارس والسائس فرصة تقربهما، وتسمح لهما بتبادل الحديث.

كان يعوقهما، قبل أن يبتعدا شوطا عن الحاضرة، وجوب الاحتراس من المعسكرات المنتشرة خلال حقول الزيتون وتأوي جندا من مختلف الجنسيات، فقد تلاقي أتراكا، أو أعراب بادية صحبة خيل وأغنام، وقد يعترض طريقك كوكبة من جند السلطان يطاردون عدوّا أو هاربين من عدوّ، وفي كلّ المرات لأبدّ للزمزمي أن يرفع سنحقه عاليا، ويعمّر المكحلة بالبارود، ويظهر من الجدّ والحزم ما يجعل الجميع يعتقدون أنّه ذاهب في مهمّة مقدّسة. ومع ذلك حاول بعض الجند اغتنام مهمّتهم في الاستقصاء عن أفراد القافلة وعن مقصدهم لمحاولة نهب العربة، فيطوف بعضهم بجوانبها، وقد يمدّ يده للمس ما فيها، فيتابعهم الفارس بنظرات نارية، ويضع السائس يده في الحزام متفقدا الطبنجة والخنجر، بينما ينكبّ باقي أفراد الأسرة بأيديهم وأجسادهم على أواني العربة ومحتوياتها، مبدين استعدادا للدفاع عنها باستماتة. وكان على الرجلين تكرار العبارات المتفق عليها كلّما يطلب منهم التعريف بأنفسهم وبمقصدهم، فيقول الفارس:

– أنا وكيل زاوية سيدي القشّاش، وهاذم فقرته، وهذي وعدته.

ولما يرى في عيني السائل ملامح تقدير للمهمّة واحترام للشيخ الذي يمثّله، يرفع قليلا حدّة التأثير، فيضع يده اليمنى على رأسه، ويحرّك يده اليسرى بالسنحق، صائحا بأعلى صوته:

– وعدتك يا سيدي علي الشباب... الشاي لله بأولياء الله!

فيرتفع تبعا لذلك مقدار الخشوع في أعين الجند إذا كانوا مسلمين، بل قد يصيبهم الهلع إذا كانوا من الأعراب، أمّا إذا كانوا نصارى فإنّهم ينزعجون من

صياح الرجل، ثم يرتبكون لعدم فهم الموقف على حقيقته، وفي النهاية يصرفون القوم من أمامهم متأكّدين أنهم لا يمثّلون خطرا، أو على الأقلّ لا علاقة لهم بالنزاع الذي هم فيه. وقد يضيف سائس العربة مزيدا من الشرح لمقصد الجماعة قائلا:

- نحن عائلة من فقرة سيدي القشّاش ذاهبون لزيارة سيدي علي الشباب في العالية، ومعنا قربان وطعام لفقراء الزاوية ولا نملك غير ذلك فاتركوا سبيلنا يثيبكم الله.

وبين لهجتيْ التهديد والملاطفة وجدت القافلة طريقها سهلا عبر الهضاب الفاصلة بين تونس وبنزرت، ولم تعترضها عوائق تذكر. وكلّما اطمأنّ الفارس طوى السنجق وضمّه إلى الركّابية، وسار بفرسه خببا إلى جنب البغل الذي تنشّط حركته وتسرّع إذا انفتحت الطريق أمامه. وقد يعود الرجل المرّة بعد الأخرى لمواصلة ما انقطع من حديث كان يتجاذبه مع السائس:

- «خطرة الشكارة» يا عمّ أحمد سرت على كلّ ألسن الناس وتحدثوا بها مثل حكاية سيدنا علي مع رأس الغول.

التفت نحوه أحمد الجيّار مبتسما وأجاب:

- ألم تسمع المغنّين وقد ردّدوها في مقاهي باب سويقة؟
- خلدوك في الغناء يا عم أحمد أيضا!
- خلدوا ابن الصفّار وجماعته الأبطال، أمّا أنا فقد وهبتهم الفرصة فقط لإظهار بطولاتهم.
- وماذا تقول الأغنية؟

وضع الجيّار يده على صدغه الأيمن وبدأ الغناء:

حارت تونس مستنيّة ... راجل يفدي الثّار

جاها واحد م البلديّة ... رِفْدَه وعِينَه للجيّار

ما تُكْرُفْش معناه الميَّة ... اسمو ولد الصفّار

بضرب الرَّاسْ والبُونيَّة ... والرّكلة ألفين عبار

دغسُـــوا رِفْسُـــوا الكُبَّانيَّـــة جْـــرَات الدّمَايَـــة انْهَـــار
رَدُّوا الهمّـــة ليـــك وليّـــه وقـــالوا للعِلْجِـــي بخْطَـــارْ

ضحك الفارس طويلا من العبارة الأخيرة وكرّرها:

– صعبة كلمة «بخطار» هذه... صار العبار بالعبار... إنّه التحدّي وضرب الراس بالراس!

– ألا ترى في حالنا ما يدفع للتحدّي وقرع الرؤوس؟ ألا تقدّر يأس الناس؟ إنّ قفزهم على السبنيول يومها كان بدافع القنوط، كانوا كبراميل البارود المنتظر لشرارة حتى ينفجر. لقد زال الخوف من الناس إذ لم يعد لهم ما يخسرونه أو ما يدافعون عنه، فصارت كلمتهم «بخطار» معناها إلقاء التحدّي في وجه الأعداء: إما إن نمحوهم ونحتفظ ببلدنا، أو أن يمحقونا ويأخذوه... فما الذي بقي لنا في الحقيقة بعد عناء خمسين سنة من فتن الحسن الحفصي وأولاده؟ وعلي باشا وأتراكه؟ والسبنيول وبستيونهم... «انفريّة تونس ودمّالتها»؟

وارتفع ضحك الصبيان من الخلف لعدم فهم العبارة الأخيرة، وتعالى عقب الضحكة صوت نسوي رقيق يسأل:

– ما معنى «أنفريّة» يا بابا؟

– هي سوس اللحم والعظم يا مرجانة عافانا الله، من دخلت جسمه لا تخرج إلاّ بروحه، وهل فهمتها أنت يا بدر الدين؟

عرّى بدر الدين رأسه، وأرخى عصابة سوداء تكمم فمه، وعلّق على كلام أحمد الجيّار بلكنته الاسبانيّة الأندلسية، فالحاء هاء والعين ألف والسين ثاء، وبعض الكلمات تضيع منه فيطلقها حينا بالخميادو وحينا بالإسباني، وحينا يتلعثم فيستمرّ في فأفأة لا تنتهي، والطفلان الصغيران يضحكان مقهقهين من هذا الرجل الذي لم يتأكّدوا بعد من لغته ولا ملّته. وقد شبعت مرجانة ضحكا بدورها لكن دون أن يعلو لها صوت بدافع الحياء والاحتشام.

بعد أن أنهى بدر الدين الحوار مع رفيقي السفر عاد يُغطّي رأسه، ويعالج العصابة لستر وجهه فلا تطاوعه، وبعيد المحاولة فإذا بها تنفرط كلّها وتسقط خيطا طويلا حول العنق والكتفين. يضجّ الطفلان بالضحك وتصاحبهما مرجانة دون تحفّظ هذه المرّة، وبعد الضحكة الطويلة وبدر الدين صامت واضع يديه في حجره استسلاما، نظرت مرجانة في عينيه بتخابث وسألته:

– ما هذه الحيرة البادية عليك؟ أتعجز عن طيّ قطعة قماش؟

كانت أوّل مرّة يسمع فيها صوتها مباشرة وتقابل نظراته عينيها، فارتبك و لم يدر ما يقول، إذ تسارعت دقّات قلبه وضاع منه الكلام. اكتفى بهزّ كتفيه، وإعلان هزيمته أمام هذا الشيء البسيط، كطفل لم يستطع جبر لعبة مكسورة.

مدّت يدها تفكّ عصابتها، ثم أمرته أن يتابع حركة لفّها ثانية حول الرأس والوجه لفّة بعد لفّة، نزولا من أعلى الرأس إلى ما تحت الذقن. زاد الارتباك عندما انكشف اللثام عن وجه الصبيّة، ورآه على بعد شبر من وجهه، حتى ليكاد رداء رأسيهما يكوّن خيمة صغيرة، أو مظلّة ذات شقّين تسترهما عن العيون. دام الموقف لحظة قصيرة لكن كثافتها كثيفة، وشحنتها مليئة بالوعود. وحين عادت مرجانة تلفّ العصابة ثانية لتحجب ذلك الوجه الجميل تشتّت انتباه بدر الدين و لم يتابع حركة اليدين، بل تاهت عيناه بين الحاجبين المهللين والفم المكتنز وحبتي تفاح تزين الخدين. فهمت البنيّة ما طرأ على الضيف، ورأته يلفّ القماش بين يديه دون نظام وقد احمرّت وجنتاه، و لم يحاول تغطية وجهه ثانية، فاستمرّت تدير خمارها صامتة وهي تسأل نفسها إذا ما كانت آذت الفتى عندما كشفت له وجهها. لم ينتبه أيّ من ركّاب الكريطة إلى ما حدث، وحين طلب الطفلان من بدر الدين ملاعبتهما كما كان يفعل منذ حين وجداه غير راغب ولا مستجيب، وحين ألحّت عليه درعيّة مرّ بيده على شعرها بلطف وقال:

– دعيني أتملى منظر الطبيعة الجميل، إنّنا لم ننتبه إليها طول الطريق. ألا تعجبك تلك الحقول اليانعة بخضرة لا تنتهي كأنها سجّاد مخملي مطرّز... والأزهار من كلّ شكل ولون انظري ما أجملها كأنها فاجأتنا بالحضور الآن وبدأت تلومنا على عدم الانتباه لجمالها!

رفعت الصغيرة عينيها إلى بدر الدين لتفهم كيف حضرت الزهور الآن فقط... وأين كانت غائبة. ولكنّه كان سارحا ببصره إلى بعيد. وتطلّعت إلى أختها فوجدتها سحبت الفراشية لتغطّي رأسها جيّدًا وبقيت ساكنة لا تريم. ولم تفهم درعيّة لماذا انقلب جوّ العربة غمّا بعد أن كان الجميع يضحكون ويتداعبون، فانتقلت إلى مقدّمة العربة ملتحقة بأخيها الجالس حذو الأب، ومحاولة فهم ما يدور بينه وبين الزمزمي من حوار لا يدركه عقلها الصغير.

أمّا في الخلف فكانت يد بدر الدين وقعت فجأة ودون إرادة منه على يد مرجانة حين اهتزّت العربة بعنف فوق حفير... سكنت اليد الصغيرة ولم تنسحب، بل ارتعشت كثيرا من الخوف والتأثّر، ثم لما أحسّت باليد الكبيرة تضغط عليها بلطف استدارت ومنحت كفّها الملتهب لاحتواء كامل من طرف يد الفارس الخشنة. تكاثر اهتزاز العربة وهي تصعد هضبة سيدي علي الشباب، قال الزمزمي أنهم أوشكوا على الوصول، إلاّ أنّ الشابين تمنّيا أن تتمطّط المسافة الباقية لكيلا تفترق اليدان، أو تستيقظ الروحان من خدر لطيف ملك عليهما كلّ الحواس. لكن الشمس المواجهة للقافلة احتجبت بقدر النصف وراء الأكمات، ويستحسن أن لا يداهمهم الليل وصقيعه إلاّ وهم في حمى الزاوية وأمنها، مع طعام ساخن ينسيهم أتعاب السفر وأخطار الطريق.

أخذ قدر كبير يشيع في الجوّ بخارا لطيفا، ورائحة شهية أسالت لعاب الطفلين الصغيرين، وتحت القدر أعواد حطب تلتهب وتدعو الجماعة المحيطين بها إلى الاقتراب طلبا للدفء، خاصّة وقد نزل صقيع الليل على مرتفعات هذا الريف المتغلغل في رحم الطبيعة.

كان وكيل الزاوية يعيش بمفرده في هذه البناية الرابضة فوق الهضاب، بعيدا عن مراكز العمران المحاذي للشواطئ، وقد حرص أن يطبخ لضيوفه المتعبين حساء ساخنا يدفّئهم ويهيّئهم لنومة هادئة، فأجلس الجميع حول النار وظلّ فترة بعد أخرى يتفقد القدر أو يحرك أعواد الحطب المشتعل، وهو لا ينفكّ يحاورهم:

- آخر من قدم إلى جهتنا من الأندلس جماعة لا يزيد عددهم عن الأربعمائة نفر... وقد وقعوا في صعوبات جمّة، لكن الله أغاثهم وأعانهم.

تحفّز بدر الدين لسماع بقيّة الحديث وبان عليه التوتّر عند سماعه لكلمة الصعوبات، فأضاف الوكيل وهو يحرّك حطب الموقد:

- جاءوا ومعهم مكتوب من السلطان، ليختاروا أرضا مناسبة في بنزرت أو ضواحيها، لكن أغلب الجماعة جبالية، وليس فيهم إلاّ قلائل من أهل المريّة اختاروا مواصلة الطريق نحو بحر بنزرت، لذا بقي أغلبهم في المنطقة، واختاروا السكن قرب النهر المار في تلك السهول السفلى، من حيث مررتم عند قدومكم.

قال بدر الدين:

- لكنّنا لم نعثر على مساكن في طريقنا.

ضحك الوكيل وأجاب:

- شاءت إرادة الله أن لا يستقروا هناك طويلا... رغم أنهم تفاءلوا بالمكان وعزموا على إنشاء مدينة جديدة فيه، حتى أنهم أطلقوا عليه اسم غرناطة... ومازال أهل المنطقة يسمّون إلى اليوم المكان ذاته باسم «قرناطة».

سأل أحمد الجيّار:

- أفهم من كلامك أنّ مشروعهم لم يتم.
- فعلا يا سي الحاج، المكان بطاح وسهول ككفّ اليد، والأعراب المنتشرون كالجراد يناوشون الجميع، وينهبون الأقوات من أيدي الناس وأفواههم، فلا يتركون زرعا ولا ماشية، ولا يدعون أحدا يهنأ بعيشه وبما كسبت يداه.

قال الزمزمي:

- لا تصلح الأراضي الواطئة للسكن، لابدّ من الجبل إذا شاء المرء الدفاع عن نفسه بصورة مجدية.

واصل وكيل الزاوية:

- هذا ما فهموه واقتنعوا به، لكن بعد ما خسروا أموالا وأقواتا الله به عليم. أخبروني بعد الخطرة الكبيرة أنهم قرّروا الانتقال صعودا نحو الأعلى،

تاركين محاصيلهم جميعا، وأكواخا صغيرة آوتهم طيلة عام ونصف.

سأل بدر الدين بلهفة:

- إلى أين اتجهوا؟ وهل فقدوا أرواحا قبل نقلتهم؟

- لا... لم يقتل منهم أحد، لأنهم لم يقاوموا... وهل كان يمكنهم ذلك في رأيك؟ لقد كان فيهم شيوخ مسنّون ونساء حوامل وليست لديهم أسلحة.

تذكر بدر الدين امرأة عمّه، لما ذكر الوكيل عبارة النساء الحوامل، فقفز إلى ذهنه يوم الرحيل، وسدت حلقة غصّة مفاجئة. وواصل الوكيل روايته:

- والغريب يا جماعة أنّه لم يكن من بينهم أطفال... كانوا إمّا رجالا ونساء، أمّا الأطفال فلا.. أليس هذا غريبا؟

ابتلع بدر الدين ريقه وأجاب:

- هذا ليس غريبا... لأنّ الأطفال احتجزهم الإسبان.. افتكّوهم من أمّهاتهم ووزّعوهم على كنائس وعائلات النصارى.

فتح الجماعة أفواههم تعجّبا كأنّهم لا يصدّقون ما حدث. أضاف اللاّجئ وقد جفّ حلقه:

- صدّقوا ما قلته لكم، لأنّني رأيته بعيني... في جهتنا فقط افتكّوا ألف فتى وفتاة.

ازداد التعجّب من حوله، وسمع آهات كثيرة تصدرها الأفواه، كما شاهد الصبيّين الصغيرين يلتحمان بالأب فيظلّلهما بذراعيه الطويلتين. نظر ناحية مرجانة فرأى تراقص اللهب قد زاد وجهها إشراقا، وعينيها السوداوين عمقا والتماعا. أضاف وهو يحدّق في الأعين المحيطة به:

- وأنا واحد من أولئك الفتيان!

تعالت الآهات من حوله مرّة أخرى لتدلّ على وقع المفاجأة غير المنتظرة، وواصل الفتى:

- ... نعم صار اسمي بدرو بيجارانو بعد أن كنت بدر الدين الحجري، ومن حسن الحظّ أن سمح لعمّي بالبقاء لأنّه مترجم، وإلاّ لكان مصيري مثل مصير الآخرين، والله وحده يعلم أين هم الآن.

أنهى بدر الدين كلامه وهو ينكت الأرض بعود حطب صغير ليداري تأثّره، ورفع رأسه بعد انتهاء الحديث فألقى العود إلى النار وحوّل بصره ناحية مرجانة، فرأى دمعتين تغادران في نفس اللحظة عينيها السوداوين، وتلتمعان بتراقص لهب الموقد، ثم تستقرّان على جانبي فم في حمرة حب الملوك. وعمّ إثر هذا الحوار سكون لا يقطعه إلاّ غليان القدر أو فرقعة أعواد الحطب، إلى أن قام وكيل الزاوية يفرّق الأرغفة ويدعو الجماعة إلى ذكر الله، فهو وحده القادر على كلّ جبّار.

واصلت القافلة في الغد الصعود نحو الروابي المواجهة للزاوية، ولكن على ظهر الدواب لوعرة المسلك، واتجهت إلى قرية العالية كما أشار الوكيل، فإذا هي دور قميئة متراصّة، يتوسّطها جامع صغير تحاول مئذنته القصيرة مطاولة سماء زرقاء صافية.

نبحت الكلاب تستقبل الغرباء بشراسة تدرّبت عليها، وحاولت مهاجمتهم، فهشّها أحمد الجيّار بالعصا، وأطلق الزمزمي النار من بارودته فأفزعها وجعلها تتقهقر. وبفعل ما حصل من ضجيج أطلّت من السطوح أشباح ملتحفة بأردية صوف خشنة، وشرعت تلقي الحجارة ناحية القادمين، وتطلق صراخا غير مفهوم. توقّف الموكب لتقييم ما يحدث، فتقدّمه وكيل الزاوية رافعا عمامته كاشفا عن وجهه بجلاء، وصاح بأعلى صوته معلنا عن هويّته وهويّة مرافقيه، ثم التفت إلى الزمزمي ليلومه على استعماله للبارودة، وليطلب منه رفع السنجق فوق رؤوس الجميع ليراه أهل القرية ويحسّوا بالامان وأضاف:

- ألا ترى أنّك أرعبتهم، وهم الذين قاسوا الأمرّين من هجمات الأعراب؟ والنتيجة أنهم رمونا بالحجارة من فوق السطوح معلنين الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وديارهم.

سأل بدر الدين:

- أليس لديهم حرّاس للذود عنهم وقت الحاجة؟

أجابه الوكيل:

- الحرّاس من أبناء القرية ذاتها، ولكنّهم يتناوبون بالليل، أمّا بالنهار فالجميع يعملون في الحقول، وليس في القرية غير النساء، وهم من تراهم فوق السطوح.

ظلّت القافلة مكانها لا تتقدّم، ورفع الزمزميّ السنحق فوق رأسه وحرّكه يمنة ويسرة، فعمّ السكون لحظة وتوقّف رمي الحجارة، وصياح الأشباح المتحرّكة فوق السطوح، وفجأة انطلقت زغرودة طويلة بدأتها امرأة ثم شاركت فيها كلّ النساء.

انفرجت أسارير بدر الدين، ورنّت الزغرودة في أذنه كلحن مطرب لم يسمع مثله منذ زمن بعيد، والتفت ناحية مرجانة فرآها تتأمّله بابتسامة صافية. غمر قلبه فرح مفاجئ، وأطلق زفرة طويلة لكن لأسباب أخرى غير التي أثقلت صدره في الليلة الماضية.

برز أطفال من فجوات الأزقّة وتقدموا نحو الزائرين وهم يطردون الكلاب التي ألصقت ذيولها بقوائمها الخلفية وعادت من حيث أتت. ابتهج بدر الدين لرؤية الأطفال ابتهاجا إضافيًا ونظر ناحية وكيل الزاوية وهو يبتسم

- ألم تقل أنّه لم يكن معهم أطفال؟ انظر الآن...

ردّ الوكيل على ابتسامة الفارس الإسباني بمثيلتها وهو يتمتم:

- تبارك الله.. ما شاء الله، هؤلاء أولاد إفريقية.

طلب أكبر الصبيان من القادمين دخول الجامع إن أرادو الراحة والتبرّد في انتظار رجوع الرجال من الحقول. تأمّل بدر الدين هذا الصغير ابن السبعة أعوام بحنان، متصوّرًا فيه نفسه يوم فارقه أبواه. حدّث نفسه بأنّ الشاب أوفر منه حظا إذ ولد في أرض النجاة، و لم يتعذّب عذابه. مدّ إليه يد المصافحة، فتردّد الصبيّ برهة و لم يعرف لأوّل وهلة ما يصنع، وبعد أن نظر في عيني بدر الدين، وخفض عينيه لتأمّل الكف الممدودة، قهقه عاليا وصفّق يده الصغيرة بقوّة في يد الفارس، فجذبه هذا بقوّة وبحركة فجئيّة رفعه على كتفه. وقبل أن يفيق الطفل من دهشته تعالت ضحكات وتهليلات أصحابه، وعمّ الجميع جوٌّ مرح زادت روعته زغرودة ثانية قادمة من فوق السطوح.

لم يصدّق أولئك الفلاّحون البسطاء أنّ ضيوفًا من العاصمة حلّوا بالقرية الصغيرة. لم يتفاءلوا كثيرا بالخير بل تعجّبوا، وربّما خافوا، فمن ذا يعرف مكانهم؟ وما حاجة الناس بهم، وهم المنقطعون عن وطنهم الأصلي، المنعزلون كأن لا شيء يربطهم بالوطن الجديد؟ فهل هي الدولة بعثت تطلب معونة أو جباية؟ فما الذي

تطمع فيه، وما يمكنهم أن يعطوا وها هي الحقول الصغيرة التي اقتلعوها من حجارة الجبل لا تكاد تكفي لمؤونتهم؟ ساءلوا وتساءلوا فما عرفوا مَن الزوّار وما غرضهم؟

جاءوا مباشرة إلى الجامع بأدواتهم الفلاحيّة، فوجدوا الضيوف قد افترشوا حصيرا في الفناء والمؤدّب يحدّثهم كيف انتقلوا من السهل بعد غارات البدو، لينشئوا هذه القرية التي سموها العالية، لأنها عالية فعلا، بالنسبة إلى مستقرّ أوّل اختاروه وتفاءلوا بتسميته غرناطة، لكن خاب فألهم كما خابت أمانيهم جميعا.

علّق بدر الدين على قول المؤدّب:

- يا ليتهم لم يستعملوا اسم مدينة تشتّت أهلها، وأدركهم ما تعلمون.

حكّ المؤدّب رأسه كأنّما لينشّط ذاكرته التي خانته كثيرا عند روايته للأحداث وقال:

- صحيح لم نتذكّر ذلك.

- ثم لماذا لم تحتاطوا عندما اخترتم المكان الأوّل؟

- صحيح... لماذا؟؟؟ الحقيقة لا أعرف.

ابتسم الضيوف من حركات المؤدب وأجوبته، وأوقفوا نقاشهم معه رأفة بسنّه المشرفة على التسعين، وفي لحظة توقفهم عن محاورة الشيخ دخل رجال القرية ووقفوا ينظرون إلى الضيوف خجلين متردّدين، كأنّهم نسوا كلمات الترحيب وطقوس استقبال الضيوف. وقف الوكيل وهو الشخص الوحيد المعروف لديهم مظهرا البشاشة وسائلا:

- سأرحّب أنا والجماعة في البداية بالقادمين الجدد، ثم يتبعني أهل العالية للترحيب بي وبمن معي، أليس كذلك يا سيدي المؤدّب؟

نزع الشيخ عمامته وهرش رأسه جيدا ثم أجاب:

- إذا أردت أن يكون الأمر كذلك... فليكن كذلك!

انطلقت الأسارير وتقدّم الفلاحون خطوات نحو الضيوف وبدأوا مصافحتهم واحدا واحدا. وجاء قادمون جدد ففعلوا مثل من سبقوهم، إلى أن امتلأ صحن

الجامع الصغير، وانسدّ بابه بالأطفال الصغار يدفعهم الفضول، لأنّهم لم يعرفوا في حياتهم بشرا غير أهل قريتهم.

بدأ التعارف بصورة فوضويّة، واختلطت الأصوات والأسماء، فهذا يذكر اسمه وأسماء أبنائه، وذاك يذكر أسماء أجداده كلّهم، وآخر يكتفي بذكر لقبه أو نسـبته الأندلسية. تدخّل وكيل الزاوية فأعلى صوته فوق الجميع:

- سنقضي ليلتنا بينكم، ليكون لدينا وقت كاف للتعارف، وهذا بالطبع إذا قبلتمونا ضيوفا في هذا الجامع.

وقال المؤدّب بصوته المرتعش:

- زيارة النبـي لابدّ منها.

ربت وكيل الزاوية على كتف العجوز قائلا:

- ثلاثة أيّام يا سيدي المؤدّب، لا نردّ كلمتك ولا نخالف سنّة الرسول.

ضجّ جميع الحاضرين يصلّون على النبيِّ بصوت واحد، وعلى إثر ذلك بـدا القرويون في الانصراف ليتفقّدوا أسرهم ويتدبّروا عشاء الضيوف ومبيتهم. بعد أن فرغ صحن الجامع اقترب أحمد الجيّار من بدر الدين، وكان واقفا بجنب الباب في صمت ووجوم، وسأله:

- لم أرك تكلّمت مع الجماعة، وإنما ظللت تراقبهم من بعيد.
- كانت عيناي تبحثان عن ملامح أبـي، وأذناي تقارنان بين مـا أسمـع ومخزونات ذاكرتي عن صوت أبـي وهو يناديني في بيتنا القديم.
- وهل عثرت على دليل؟
- سمعت ما يشبه لهجة أهل قريتنا.. ورأيت في الوجوه والقسمات ملامـح أبناء الحجر الأحمر لكنّني لم أمسك بعد بطرف الخيط.

مازلت مرتبكا بعض الشيء.

- الفرج قريب... لا تيأس يا بدر الدين!
- إنّني لم أيأس يا عم أحمد، ولن أيأس ما دمت معي تعينني وتأخذ بيـدي. وإذا قدّر الله ولم أعثر على أبـي وأهلي فسأعتبرك أحسن عوض عـن أبـي، وسأجد في عائلتك أحسن عوض عن عائلتي.

- الله يعلم ما في الأنفس... وهو يعلم أنّي أعتبرك واحدا من أبنائي، وأنّي عاملتك وسأعاملك مستقبلا مثلهم تماما.

ثم التفت إلى أطفاله المرتكنين بعيدا عن حلقة الرجال، وقاد بدر الدين من يده ناحيتهم، وقال كأنّه يقدّمه لهم أوّل مرة:

- اسمعوني يا أولاد.. سواء وجد بدر الدّين عائلته أو لم يجدها فإنّني أتبنّاه منذ اليوم، وعليكم اعتباره أخاكم الكبير، تحترمونه وتعاشرونه معاشرة الإخوة من عائلة واحدة.

ثم خاطب مرجانة متلطّفا:

- ارفعي العصابة عن وجهك يا ابنتي، فلم يعد بدر الدين جنديًّا إسبانيًّا، ولا مُهاجرًا أندلسيًّا، وإنّما واحدا مِنّا ومن عائلتنا.

خفضت مرجانة حجابها إلى ما تحت الذّقن، ونظرت إلى بدر الدين بعينيها الواسعتين، فلم يعد الجامع الصغير يسع جسم الفتى ولا روحه، بل ونسي أين هو؟

سارت محلّة رمضان باشا والي الجزائر تحاذي نهر مجردة في طريقها إلى حاضرة تونس، فالقائد سنان، في حصاره للبستيون وتصفية الحساب القديم مع السّلطان الحفصي حليف النّصارى، في انتظارها وفي انتظار محلّة طرابلس للمعونة والإسناد. كان العدد يتجاوز الألفي فارس بكامل عدّهم وبمدافعهم المحمولة على عربات تجرّها بغال قويّة، ومعهم جند زواوة بزيّهم المتميّز وقرابيناتهم الطويلة، كانوا يمشون بالنّهار ويعسكرون لمبيتهم ليلا، وغالبا ما يختارون لذلك الأماكن المرتفعة أو المكشوفة لتسهل الحراسة والمراقبة.

وبينما كان الجند يهيئون الخيام للمبيت ذات مساء سمعوا أصواتا تطلب النجدة من مكان غير بعيد، فاندفع بعض الفرسان بأمر قائدهم لمعرفة مصدر الصوت، وداروا خلف الهضبة، فوجدوا آثار نار وبقايا خيمة ممزّقة حولها أواني طعام مكسّرة وملابس مبعثرة، وعلى الأرض أربعة رجال تسيل منهم الدّماء.

اتّضح للجنود أنّ معركة دارت في المكان وتلك آثارها. أخذوا الرّجال إلى رمضان باشا فأذن بعلاجهم وسأل عمّا حصل. من كلامهم علم أنّهم مغاربة

يقصدون الحجّ عن طريق تونس فداهمهم الأعراب، وسلبوهم المؤونة وزنجيا كان يخدمهم، كما ساقوا معهم الخيل بما تحمل.

قال كبير الجماعة وكان برأسه جرح غائر:

- لم يقبلوا احتجاجنا أو مقاومتنا، ولولا لطف الله لقتلونا. ويبدو أنهم جياع مثل سباع أمسكت فريسة. ولو رأيت كيف ارتموا على زادنا القليل يلتهمونه التهاما لتصوّرتهم لم يروا الطعام منذ شهور.

تنهّد رمضان باشا وقال محدّثه:

- تلك هي حال البلاد هذه الأيام، جوع ولصوصيّة وفتن. ومع ذلك لابُدّ من تعقّب المعتدين واستعادة ما ضاع منكم، ولا عذر لمن يعتدي على غيره من جوع أو من غير جوع.

ثم نادى فريقا من زواوة فكلّفهم بالبحث عن الجناة في كامل المنطقة وجلبهم إلى المحلّة مع ما نهبوه، ولو تطلّب ذلك وقتا طويلا. والتفت إلى المغاربة فطمأنهم:

- رجال زواوة يعرفون المنطقة وأهلها لكثرة ما تنقّلوا ذهابا وجيئة بين الجزائر وتونس، وسيعيدون لكم ما فقدتم، وفي انتظار ذلك أنتم ضيوف المحلّة ترافقونني إلى حاضرة تونس، ومن هناك ترحلون مع وجق باشا طرابلس عند عودته، فتحجّون وتدعون لنا في الكعبة الشريفة.

صاحب الجماعة رمضان باشا طول الطريق، وهو يقرّبهم منه متفائلا برفقتهم وهو قاصد الغزو، وحرص على مطاردة من اعتدوا عليهم إلى أن ظفر بهم واستردّ منهم ما نهبوه، وخاصّة المال والدّواب والعبد، أمّا المؤونة واللّباس فتنازل الحجّاج عنها صدقة، ثمّ حلفوا على رمضان باشا أن يعفو عن اللّصوص ويطلق سبيلهم، فقال:

- إكراما لكم سأطلق سبيلهم، خاصّة وقد استرددتم حقوقكم، لكن لابُدّ لهم من الفلقة والعصا، حتّى يتأدّبوا وينتهوا عن السّلب والنّهب.

ثم إنّه جلدهم في مشهد حضره الجند، وضحكوا لمرأى رجال من عتاة البدو يلقى بهم أرضا وترفع أرجلهم لتجلد بالعصا كأطفال الكتّاب. ولم يسع الضيوف إلاّ التأثر بما حدث، والحضور ليلا إلى خيمة الباشا لشكره، فاغتنم المناسبة ودعاهم إلى العشاء معه.

عرّفه الجماعة بأسمائهم كاملة وبمراكزهم في المغرب، ورووا شيئا من أخبار بلادهم وأحوالها، وما يجري فيها من عدوان النّصارى على ثغورها، واستماتة الناس في مقاومته ودحره. قال رمضان والتّأثر باد على وجهه:

- لكن علّة تونس هم سلاطينها الفاسدون المفسدون... يستعينون بالأجنبي على بني دينهم وملّتهم، همّهم الوحيد الاحتفاظ بالحكم، حتى ولو تقاسموه مع نصراني كما فعل محمد بن الحسن الحفصي الذي يسكن القبطان الإسباني معه في القصبة، ويجالسه في سقيفتها للحكم.

عقّب أحد الضّيوف على كلام الباشا:

- سمعنا بشيء من هذا، لكن ظنّناه مبالغة ونقدا من معارضي السّلطان.
- أبدا... وإنما هو السوس ينخر الدّولة ويزيل هيبتها إذا مال حكّامها إلى الظّلم وسوء التّدبير، فتهلك ويهلكون معها واحدا بعد آخر، وليس أدهى وأمرّ ممّا فعله السّلطان أحمد بأبيه الحسن، إذ أزاحه عن الحكم ثمّ سمل عينيه والعياذ بالله.

تعوّذ الحاضرون واستلطفوا، واشتاقوا أن يزيدهم رمضان باشا من تفاصيل الأحداث وكأنّه عايشها. قال كبير الجماعة وهو يسوّي ضمّادة جرحه:

- يا ليتك تزيدنا تنويرا وعلما بما حدث في تونس، لأنّ أخبارها شحيحة في المغرب، خاصّة منذ انعدم الأمن في الطرقات وصعب تنقّل الحجيج.

فصّل رمضان باشا الحديث عن أحوال بني حفص وفتنهم إلى أن بان على الضّيوف التّعب لما طال السّهر وتقدّم اللّيل، فأذن لهم القائد لأخذ ما يلزم من الرّاحة، على أن يواصلوا حديثهم في اللّيلة الموالية. ولم تكن إصابات المغاربة بالغة أو خطيرة، وإنّما هو الإرهاق وبقاؤهم ليلتين بلا نوم أو طعام قد أضرّ بهم، خاصّة بعد أن قطعوا مسافة طويلة في هذا السّفر المضني.

في المساء الموالي بعدما نصبت الخيام للرّاحة استدعى رمضان باشا ضيوفه للعشاء والسّمر، فجاؤوه أنشط من يومهم السّابق. قال وهو يراهم في تلك الحال:

- سأسمع اللّيلة من شيخكم المبجّل، نفعنا الله بعلمه، ما وعدنا بروايته عن هجرته من بلاد الأندلس.

شكره الرّجل المعطوب الرّأس، وشرع يحكي عن خروجه متنكّرا في قارب لبعض النّصارى قطع به البحر في يومين إلى بلد يسمّى «البريجة» ليس بينه وبين مرّاكش إلاّ نحو ثلاثة أيّام مشيًا... قال:

- كان البلد على ملك النّصارى... افتكّوه من أهله وحصّنوه بالحجر الصّلد الغليظ، حتّى أنني شاهدت ثلاثة فرسان يدفعون خيلهم جملة على السّور ولا يخافون الوقوع منه. وكان معي صاحب من بلدي تقدّم نحو قبطان البرج عند وصولنا وقال له: «وقع لنا خصام مع أناس ببلاد الأندلس، فهربنا من انتقامهم وجئنا إلى حرمتكم». فرحّب بنا وأعلمنا أنّ بلده آمن لا يخرج منه أو يدخل إليه أحد إلاّ بإذنه. خشينا أن يكتشف قصدنا فتظاهرنا أوّل الأمر بحب التّحوّل بين البساتين المحيطة بالبلدة، إلى أن وجدنا ذات يوم غفلة من نوبة الحراسة، فاختفينا بين الأشجار إلى أن أتى اللّيل وأغلقت الأبواب.

قال الباشا متشوّقا إلى باقي الحكاية:

- ألم يتعقّبوكم ولهم كلّ تلك الحراسة التي ذكرت؟
- بدأنا نمشي على حاشية البحر قاصدين مدينة أزمور وهي أقرب المراحل على طريق مرّاكش. وبعد ساعة سمعنا طلق البارود، ومع ذلك بقينا نمشي الليل كلّه متوقّعين أن تصل إلينا خيل الحراس في كلّ لحظة. ومع طلوع النهار بلغنا حقول أزمور فخرج إلينا أهلها بالسلاح والخيل كأنهم في انتظارنا، وقال لنا بعضهم: «سمعنا طلقة المدفع الكبير عند الصبح فعلمنا أنّ أحدا هرب من برج النصارى».

ثم بلغنا أزمور فأقبل علينا قائدها محمد السفياني مُرحّبًا وبعث بخبر السلطان مولاي أحمد بقدومنا، فردّ عليه بعد أيام وأمره أن يمشي إلى حضرته في عيد الإضحى، ونحن معه.

قال الباشا:

- بعد هذا كيف يمكن أن نقارن بين أهل الأندلس الفارّين بدينهم، رغم ما وفّرته لهم دولة النّصارى الجديدة من مغريات ليخرجوا من جلودهم

ويرفضوا أصولهم، فخيّروا الهرب ومواجهة الموت في كثير من الأحيان... وبين أناس يبيعون أنفسهم وذممهم بمحض الاختيار وبكلّ راحة البال طلبا لسلطان موهوم أو رزق يزول.

وأضاف أحد المغاربة:

- يحدث هذا وأكثر منه حين تضعف الدّول وتأذن بالزوال، ولسيس بنو حفص أوّل من استعان بالنصارى وارتمى في أحضانهم، فقد سبقهم بقايا بني مرين في المغرب بعد زوال دولتهم، إذ انتقلت فلول منهم إلى أروبا، وأغلبهم تنصّر وتسمّى بأسماء أعجميّة، ومن أشهرهم قسبار بنيمرين، الذي يعيش إلى اليوم في نابولي، وسبقهم كارلوس دي أفريكا ابن الملك حسن آخر بني زيان ملوك تلمسان... فالمصيبة كما ترى عامّة شاملة.

التفت رمضان باشا نحو الشيخ وقال:

- أعتذر يا شيخنا عن هذا الحديث المؤلم، والآن حدّثنا عن سفارتك لدى الفرنجة.

- كانت متعبة للرّوح والبدن، إذ رأيت فيها ما بلغه القوم من تقدّم ورقيّ في تنظيم شؤون دنياهم وترتيب معاملاتهم، وفي تنفيذ أحكام السلطان بمقتضى العدل والإنصاف، حتى ولو كان الحقّ متعلّقا بأعدائهم في الدّين، من ذلك ما حصل مع قاض بمدينة بوردو تعلّقت شؤون كثيرة مما كلفت به بمشورته، فكان ينصحني ويرشدني إلى قوانين بلادهم، وهو يحذق لساننا. وقد وجبت له عندي دراهم كثيرة، فلما أردت دفع أجرته ما قبل مني درهما واحدا. ومن شدّة الألفة التي نشأت بيننا قال لي ذات يوم: «يا فلان، أنا أتعجّب كيف أنت على دين المسلمين؟» وبدأ يرغّبني في البقاء عندهم والتديّن بدينهم.

ضحك الشيخ وضحك الجماعة، أمّا رمضان باشا فاستنكر طلب النصراني:

- أستغفر الله، وهل وصلت به الجرأة إلى هذا الحد؟

قال الشيخ:

- إنما قال ذلك تحبّبا وتقرّبًا، ولِمَا يُروّج في بلادهم أنّ بلاد المسلمين لا تشتمل على فقهاء أو علماء، حتى بدا لهم أنني صنف نادر الوجود. والحقيقة أنني وجدت في بلاد الفرنجة، وفي هولندة بصفة خاصّة، علماء يتكلّمون في التصوّف، وبعضهم لديهم نسخ من القرآن يحاولون فهمه وترجمته، وقد تناقشت معهم في كثير من معانيه. ومن اللاّفت للانتباه أنّه ظهر في تلك البلاد عالم اسمه لوثر، وعالم ثان اسمه كلفن، كتب كلّ منهما ما ظهر له من تحريف في دين النصارى، والخروج عن تعاليم سيدنا عيسى، وهاجما البابا المقيم بروما يُضلّ الناس بعبادة الأصنام، وبما يزيد تبّاعه في الدين من منع تروّج الرهبان وأمور أخرى غيرها، وقد دخل جميع أهل هولندة في هذا المذهب. ومثلهم أهل سلطنة الانكليز وكثير منهم بفرنسا أيضا.

قال الباشا:

- فهم بهذا أقرب إلى عقيدة المسلمين من غيرهم.
- بالطبع... وإنّ علماءهم يحذّرونهم من عبادة الأصنام، ويوصونهم بعدم كراهية المسلمين، ولذا وجدتهم أكثر ميلا إلينا وأقلّ تعصّبا من الإسبان. ولّما دخلنا مدينة ليدا رأينا فيها مدارس لقراءة العلوم، ووجدت فيها رجلا يقرأ بالعربية ويقرئ بها غيره، ويأخذ راتبا على ذلك، وقد تناقشت معه كثيرا في أمور اللّغة والدّين.
- فهم عارفون بأمورنا ونحن غير عارفين.
- نحن عارفون أيضا بما عندهم وأكثر منهم أحيانا، وقد وضعت فيه كتابا أبيّن فيه جهل بعضهم بكثير من حقائق ديانتهم كما أنزلت على عيسى، وقبل أن تُبدّل.

ومضى الضيف يفصّل حديث مناقشاته مع النّصارى والقساوسة، والباشا متعلّق بكلام ضيفه، معجب بسعة علمه وقوّة حجّته وذلاقة لسانه. وقضوا ليلتهم تلك في ذكر بلاد أروبا.

كان من المقرّر أن تنـزل المحلّة في مساء اليوم الأخير من الرّحلة بمنطقة سيدي علي الحطّاب القريبة من العاصمة، وأرسلوا من يخبر القائد سنان باشا بوصولهم لكي يأذن لهم بالدّخول، ويعيّن لهم مركز انتصابهم، لكن الجنود فوجئوا عند اقترابهم من زاوية الولي الصالح بقوم يتحدّرون من أعلى الهضبة، ضاجين منادين بأصوات مختلطة، لا يبين منها كلام مفهوم، فانـزعج الجند وخافوا أن تكون في الأمر مكيدة، فأطلق بعضهم النّار في الهواء، واتخذ آخرون مراكز دفاعية احتياطا.

أمر الباشا بالتّوقّف، وأرسل فريقا من عشرة فرسان لصدّ ذلك الزّحف البشري والاستفسار عن مقصده، وبعد أن كان ينوي الأمر بنصب الخيام وحطّ الرّحال توقّف وانتظر حتّى يأتيه خبر عمّا يحدث. وقد تبيّن أنّ الزاوية تعجّ باللاّجئين من أهالي الحاضرة، تركوا ديارهم للإسبان وجاءوا إلى هذا المكان، كما ذهب غيرهم الى نواحي أخرى من الرّيف، وقد أمر الباشا بأن يُعادوا إلى مبنى الزاوية وتعطى لهم مؤونة من عوين المحلّة، مع طمأنتهم بأنّ جيش السلطان سليم يقاوم الإسبان وسيأتيهم الخبر قريبا عن هلاكهم أو مغادرتهم البلاد.

هدّأ الجند ما استطاعوا من ثائرة أولئك الجائعين المشرّدين، وطلب الباشا أن يأتيه وفد من عقلائهم يحدثونه عن آخر أحوال المدينة وأهلها. وقد حضر الضيوف المغاربة مع الباشا في خيمته عندما جيء إليه بثلاثة رجال عليهم آثار نعمة زالت، وخلّفت شحوبا واصفرارا وملابس رثّت واتّسخت. ظلّوا واقفين وعيونهم إلى الأرض، فكلّمهم الباشا برفق ودعاهم للجلوس، ووصف حالة الناس والبلد، فلم يتمالكوا عن الإفاضة في الوصف، وليس فيه إلاّ ما يدمي القلب ويؤلم، ومع ذلك استنكر الباشا ترك الناس لمدينتهم بين أيدي العدوّ:

- كنت أتصوّر أنّ المرء إذا أُخِذَ منه بيته وماله وبلده هان عليه الموت و لم يعد ما يخاف منه... أليس كذلك؟

كان أحد الثلاثة صامتا إلى ذلك الوقت، لكنّه الآن رفع يده ليتكلّم:

- يا جناب الباشا! هؤلاء الذين قلت أخذوا كلّ شيء إنّما أتى بهم المولى السلطان مبجّلين لمساعدته وطلب منّا الإفساح لهم في بيوتنا، ومقاسمتهم

مؤونتنا إلى أن ينوا قصبتهم. لكن نيّة الغدر كانت مبيّته في ضمائرهم فأطلق عنانها قائدهم دون خوان إذ أعطى إشارة التخريب من أوّل ما دخل تونس وزار جامع الزيتونة. هل تعلم أنّه خلع أعمدة الرّخام الوردي من الجامع، فنقلها إلى سفينته و لم يتحرّك السلطان؟ هل تعلم أنّه نقل أحمال الكتب من خزائنها إلى معسكره و لم يتحرّك السلطان أيضا؟ وأحسّ الغزاة بضعفنا وتخاذل حكامنا، فبدأوا ينهبون بحذر في أوّل الأمر، ثم لما لم يردعهم أحد تحوّلوا بالفؤوس من دار لدار، يحفرون الجدران والأعتاب واقتلعوا أرضيات الغرف والمقاصر، فإذا وجدوا مخبّآت أخذوها وإذا لم يجدوا انتقموا من أهل الدّار بتكسير جرار الزيت وبعثرة العولة في الشوارع، وأحيانا يعملون الفأس في البيت كلّه فيتركونه ركاما، أو يقتلعون الأبواب وأخشاب السقوف ليتدفّأوا من صقيع الليل.

لقد رأى النّاس يا باشا سوقا منصوبة بين باب بحر والبحيرة طولها ربع ميل تباع فيها ألبستهم وأدواتهم وحليّهم، وتحتوي على صنوف من الزرابي، والمطروزات والحليّ والجواهر، وأواني الفضّة وكلّ ما يتصوّره المرء، إنّهم تجّار من صقليّة يقفون على جانبي الطريق متراصّين ينادون على أشياء نهبوها بأنفسهم أو قايضوا عليها الجنود. فإذا كان دون خوان أعطى المثال ونهب أقدس مكان في البلاد فما الذي سيردع العساكر؟ ومن سيقف في وجوههم؟ وإذا كان سلطان البلاد، رأى أعمدة الجامع تقتلع من مكانها ويأخذها النصارى، وسقوف الخشب المنقوش تسرق من قصبته وقصوره لتزيّن مساكن ضباط البستيون، فأيّ بيت وأيّ وطن وأيّ مال، بل وأيّ شرف يبقى للإنسان حتى يجد الشجاعة ليدافع عنه؟

وسكت الرجل محتقن الوجه من الألم والتأثّر، فعمّ الوجوم كامل القاعة، وظلّ الباشا يدور ببصره بين الحاضرين دون أن يجد ما يقول.

أكبر رجال القرية سنّا هو المؤدّب، احتفظ أكثر من الجميع بذكريات الهجرة وأحداثها، وبأسماء العائلات التي رافقته في السّفينة وفي قوافل الترحّل، ولكن الزمن أثّر في صحّته وأضعف ملكاته، فضاعت في ثنايا النّسيان أحداث هامّة، وتفاصيل

كثيرة لو دُوِّنت لملأت كتبا، حتى لقد صار الرجل يخلط تاريخا بتاريخ، وأوّلا بآخر، ويبدّل الأسماء ويحرّف بعضها، ويخلط بين الأنساب، لذا غلب على أحاديثه السّهو، وكم مرّة بدأ رواية و لم يستطع الوصول إلى نهايتها.

اقترب منه أحمد وبدر الدين محاولين معرفة العائلات التي تؤلّف القرى وأصولها وأمكنة قدومها وأسماء بعض أفرادها، وسأل بدر الدين:

- لما جمعكم الإسبان في دانية وقاموا بالفرز، لم يكن الناس جميعا قادمين من جهة واحدة... أليس كذلك؟
- طبعا يا ابني... طبعا.
- إذن من أيّ الجهات كانت الغالبية؟
- من جهات شتى يا ابني... من جهات لا يعلمها إلاّ الله.
- أنت مثلا من أيّ منطقة قدمت؟
- أنا نشأت في مرج أخضر كبير، يكثر فيه الرعاة وتسمّن أبقار من نوع ممتاز لا أتذكر الآن ما يطلق عليه.
- وما اسم هذا المرج؟
- اسمه مرج بيّانة ويقع بين نهرين.
- هذا مرج واسع، وفيه قرى ومدائن كثيرة، ما اسم قريتك أنت؟
- اسمها عند الإسبان أحيلار ونسميها نحن العرب بلّي... وقد عادت فيما بعد إلى اسمها الأوّل.
- عرفنا قريتك... فهل ركب معك نفس السفينة جماعة من قرى أخرى؟
- لا أدري، ولكن هذا ممكن إن فكرّنا بالعقل.
- كيف... ألم يسأل بعضكم بعضا... ألم تتبادلوا المعلومات؟
- لم نكن في حال تسمح بذلك أبدا... انشغل كلّ واحد بهمومه وبعائلته، كان على الفرد أن يتفقّد عائلته كل حين ويعدّ أفرادها بأصابعه، فمن حين لآخر نسمع صياح رجل لم يعثر على أخيه أو ابن عمّه، أو بكاء امرأة افتقدت ولدها، إمّا ضاع منها أو سرقوه أو تاه في الزحام.

- أو يكون الإسبان احتجزوه.. ألم تعلم أنهم أبقوا الصبيان والبنات دون السابعة عندهم ليفرّقوهم بين القسس وينصّروهم؟.
- أعوذ بالله. وهل حصل هذا بالفعل؟
- حدث يا سيدي الشيخ، ولعلّك نسيت.
- هذا صحيح... هناك أشياء كثيرة ضاعت من ذاكرتي، لكن أبناء القرية مازالوا يتذكّرون، وفيهم بعض الشبان.

قال أحمد الجيّار:

- أيّ شُبّان يا عمّي، قريتكم لا تضمّ إلاّ كهولا على باب الشيخوخة، وأطفالا صغارا ولدوا بعد النّفي. حدثنا إن استطعت عن وصولك وأيامك الأولى بتونس. ألم تنزلوا ضيوفا على زاوية القشّاش؟
- صحيح نزلنا في زاوية... هل هذا هو اسمها؟ يبدو أنّ لها اسما آخر!
- تعرَف أيضا باسم شيخها بلغيث.
- صحيح هذا اسمها الذي أعرفه. إنهم أكرمونا غاية الإكرام وساعدونا في العثور على هذه الأرض، مع معونات هامّة عوّضتنا عمّا سلبه منّا قراصنة السفن وقُطّاع الطرق.

بدأ صبر بدر الدين ينفد لأنّه لم يصل إلى معلومة ولو بسيطة تهمّ عائلته ومكان نزولها، وخاف أن يدعوه الأمر للخروج للبحث من جديد في جهات أخرى، أو ربما العودة لتونس للبدء من نقطة الصفر.

التفت الجيّار ناحية بدر الدين وهمس في أذنه:

- لا داعي من الاستمرار في محاورة الشيخ، ألا ترى أن ذاكرته أضاعت كلّ شيء؟ علينا انتظار مجيء الرجال فقد نعلم منهم ما نريد.

وقام الرجلان إثر ذلك مستأذنين المؤدّب لتأمّل قرص الشمس وهو يغرب في أقصى السهل الممتدّ تحتهم كالكفّ العريضة.

لم يبق الجيّار طويلا مع بدر الدين، عاد إلى فناء الجامع ليتفقّد صغاره، فاقتعد الشابّ حجرا أملس، وسرّح بصره في الملكوت المترامي سهولا ومزارع وخضرة لا تحدّ ولا يكلّ منها البصر. ها هي يا بدرو مزارع الحجر الأحمر وخضرتها

وشمسها الغاربة... أتذكرها؟ أليست هذه روعة الغروب، وكنت في صباك تقف مندهشا مبهورا لتشاهدها تماما كما تفعل الآن؟ كم مرّة خرجت إلى الحقل ترقب المغيب وتستقبل برودة الليل، وتطول جولتك حتى يخاف عليك أهلكْ ويعلو صوتهم يناديك من بعيد؟ هذه هي شمس الله ذاتها التي رصدتها في الحجر الأحمر موجودة هنا، ولكن صوت الأهل غائب، لا تسمعه أذناك وحقل العنب غائب هو أيضا لا تراه عيناك، هل ضاعوا إلى الأبد؟ هل تشتّتوا ولا أمل في جمعهم؟ هل رأيت أين هم أيّتها الشمس؟ ساعديني بخيط أمل يدلّني على أهلي... حتى لا أقضي العمر بحثا عنهم من أرض إلى أرض.

ستبحث يا بدرو بلا يأس أو كلل، وستجدهم مهما طال البحث، ولكن من ذا سيساعدك ويصاحبك طول الوقت وينتقل معك من بلد إلى بلد؟ وأين الأمان في الطرقات وبين الحواجز وهذه حرب السلطان على الترك وعلى الإسبان وعلى أبناء بلده وعلى عربان البادية مشتعلة في كل مكان؟ الجميع في خصومة دائمة ومعارك لا تنتهي... فأين الأمان، وأين القوت، ومتى العثور على الضائعين؟

إذا كان أبوك قد وصل سالما وهذا الأمر لم يتأكّد بعد، فكيف وصلت أمُّك؟ ألم تُؤخذ إلى السفينة فاقدة الوعي؟ أين أنت أيتُها الأمّ المفجوعة في ولدها؟ هل يُمهلك الموت والمرض وقساوة الناس حتى أراك؟ هل وصلت الطرف الآخر سالمة؟ هل مازلت تذكرين صبيًّا استلّه من ذراعيك بشر قساة وتركوك ثكلى بقيّة الدهر؟ هل مازلت تذكرين عزيزك بدر الدين الذي فرض عليه اليتم حتى وإن كان أبواه على قيد الحياة؟ هل يئست من لقائه وأجبرت نفسك على النسيان تخلّصا من عذاب الانتظار؟ هل جفّفت دموعك وتلهّيت بمشاغل يومك وغدك عسى أن تطفئ السلوى نار أشواقك، وتمنح نفسك برودة الصبر والاستسلام لتصاريف القدر؟ كيف سلبوا حليّك يا أمّي؟ هل لووا ذراعيك اللتين كنتُ أتوسّدهما؟ هل جرحوا أصابعك وهم يستلّون الخواتم؟ هل دسّوا أيديهم في صدرك...؟ سأقتلهم إن فعلوا ذلك وأنشر جثثهم لجوارح الطير... اروي لي كلّ ما حصل يا أمّي عندما نتلاقى، وسأنتقم لك من كلّ أعدائك.

وأنت يا أبـــي... يا شيخ محمد كيف وصلت؟ وهل ابيضّ شعرك في الطريق من هول ما قاسيت؟ أعرف أنّك صبور قليل الشكوى، هكذا حدثني عنك عمّـــي أحمد، وحكى لي خوفه من اعتلال جسمك وضعف نظرك، فهل استطعت أن تقاوم بؤس ما حصل لك ولأسرتك؟ أن تتحمّل عبء علّتك ومسؤولية زوجتك وزوجة أخيك الحامل؟ ألم يتأثّر جسمك بحسرة نفسك على فقدان ما ملكت من أمر دينك ودنياك، وما جمعت بكدّ يمينك في الحياة؟ هل حزنت من أجلي يا أبـــي ويئســـت من لقائي؟ هل أحسست بالثكل قدر إحساسي باليتم؟ لو فرّقنا الموت لكنت يئست ونسيت وشغلتك أحوال الدنيا، أمّا شعورك بأنّي موجود لكن لا تراني، وشـــعوري أنا بوجودك دون أمل في أن أراك، فمعذّب محبط، يحرمنا كلينا من نعـــم السّـــلوى والنسيان. وها أنا اليوم قريب منك، باحث عنك، لكن لا شيء يهديني إلى مكانك. فاظهر يا أبـــي في ضوء النهار، أو نادني بصوت عال حتى أسمعك وأعرف مكانك.

ويا عمّ أحمد الحجري... يا خير من عوّضـــتني عـــن الأب والأم، وهيّـــأتني لخوض هذه المغامرة الكبرى، أتراك تعرف كم حرصت على أداء ما أوصيتني بـــه وأرشدتني إليه، وأنني وصلت إلى مكان أبـــي لكن دون أن أعثر عليه ولا علـــى زوجتك الحامل؟ وهل أدّيت القسم الخاصّ بك من المغامرة؟ أتراك خرجت مـــن بلاد الأندلس سالما؟ مع من ترافقت وإلى أيّ أرض خرجت؟ ســـأوقف حيـــاتي للبحث عن أخيك وزوجتك وابنك منها وعن أمّي، ولن يهنأ لي عيش قبل العثور عليهم. فعجّل بالظهور يا شيخ أحمد لأنّ جمع شتات العائلة سيبقى من غيرك بـــلا طعم، ولأنّ فرحتها لن تكتمل إلا بحضورك... فعجّل يا شيخ أحمد، وأعرف أنّك ذو عزم شديد.

أحسّ بدر الدين بلسعة برد، فدلك زنديه يدفّئهما وهو يلتفـــت إلى الـــوراء، وكانت مرجانة تطلّ من سور الجامع القصير واضعة ذقنها على الجدار الأبيض، فلا يظهر إلاّ وجهها الصغير، أطلّت به تراقب الفارس الجالس على الحجر، المستغرق في تأمّلاته، كعملاق بعثر أشياءه في ذلك السفح العريض، وأخذ يفرزهـــا ويفحصـــها ويقلبها على كلّ وجه، باحثا عن شيء غامض مجهول... وتردّد في نفسها ســـؤال محتار: لم كلّ ذلك الحزن البادي على ضيفنا؟ ما الذي يؤلمه وعمّ تراه يبحث؟

تأمّلت مرجانة ابنة المدينة منظر الغروب بابتهاج كبير لأنها غير متعوّدة عليه، فهي لم تخرج إلى الفلاة مطلقا، ولا شاهدت أراضي شاسعة كهذه، ولا تنفّست هواء نقيًّا شبيها بما يملأ رئتيها هذا المساء. أمّا بهاء الشمس وهي تكتسي بصفرة الأصيل، وأمّا الشّفق الأحمر وهو يمتزج شيئا فشيئا بظلام الليل إلى أن يندمج فيه، فذلك ما لم تتح لها رؤيته وهي بين جدران البيت في ذلك الزقاق الذي لا تخرج منه، وإن خرجت فإلى دار أخرى وزقاق آخر مماثل.

تطلّعت من وراء السّور بعينيها أوّلا، ثم أبرزت كامل وجهها لمّا اطمأنّت إلى خلوّ المكان، وبقيت تتأمّل جمال السّهل غطّته الخضرة والنوّار، وتعاقبت خلفه الهضاب والسّهول، فغمر نفسها الهدوء، وامتلأت رئتاها بهواء صاف منعش، ولما رأت الفتى احمرّت وجنتاها وزاد إشراق وجهها، إذ اعتملت في داخلها مشاعر جديدة رغّبتها في احتضان الكون بأسره وامتصاص ما فيه من فرح وسعادة.

تأمّلت خصلات الشعر الأسود تغطّي رقبة الفارس الإسباني، ومرّت بنظرها على كتفيه العريضين، فأحسّت على البعد بمغناطيس قويّ يشدّ بصرها إليه، ويشيع في حواسّها خدرا لطيفا مسكرا، يأخذ خيالها إلى عوالم لم تعهدها في حياتها كلّها. إنها تشعر الآن كأنّ موجة دافئة تجذبها نحو بحر لا تراه، ولكن تحسّ بمياهه تغمرها، وبأحضانه تلفّها، تدور بها في دوّامة تغطس بها إلى أعماق حارّة حنون، لكأنّها عروس في «حمّام التشليلة» يحتويها البخار وهمسات الفرح والأماني، ودفقات من الماء السّاخن اللّذيذ، فترتخي بين يدي الحوارز والصّواحب، يدلكنها ويهيّئن جسدها البكر لعريس سكن قلبها منذ أوّل نظرة، وهاهو قادم ببرنس أبيض يتلاعب بطرفيه الرّيح ليأخذها بعيدا بعيدا، إلى مدينة لا تتشكّل إلاّ في الأحلام، فيمشي ماسكا بيدها في شارع مخصّص للعرائس، ومن حولهما الناس يهتفون فرحا بقدومها كأنّها أميرة متوّجة. ثم يركبها عربة مذهّبة يجرّها أيائل بقرون طويلة وعيون كحيلة، إلى مكان تعلوه قبّة مرصّعة بالزّمرّد والياقوت. ولما ترفع عينيها وتشهق من الدّهشة والسّعادة، ينحني عليها بدر الدين وقد تهدّلت خصلات شعره الأسود على الجانبين حتى لامست خدّيها، ويسأل:

- إذا شئت أن يتوقّف الزمن يا حبيبتي فسآمره بذلك.
- وهل هو طوع أمرك يا حبيبـــي؟
- بعد أن جمعنا يا نور عيني لم تَبْقَ له مهامّ كثيرة. فليتوقّف حتّـــى نـــنعم بالسّاعة التي نحن فيها.

مشاعر غريبة، وأحلام عجيبة، شردت بها كلمح البرق، ثم أعادتها إلى حيث كانت، تتأمّل بهاء ذلك الفتى الغريب في جلسته أمام السهل العـــريض. مشـــاعر غريبة ما أحسّت بها إلاّ منذ نـــزل بدر الدين بيتهم، وعاش بينهم تلـــك الأيّـــام القليلة على غير صفة واضحة... فهو لاجئ متخفٍّ، هارب من وجـــه العســـاكر بينما هو واحد منهم... هو هارب من زمازمة السلطان، ولكن السلطان متحالف مع الإسبان، فكيف يطارد جنود حلفائه؟ ثم تبيّن أنّه أندلســـيٌّ مســـلم ولـــيس نصرانيا، وأبوها يعامله مثل الضيوف، وها هو في النهاية يتبنّاه ويطلب أن تعاملـــه الأسرة على هذا الأساس. نظرت ثانية إلى خصلات الشعر الأسود وتمنّت أن تمرّر عليها يديها، ومدّت يدها في الهواء فعلا، ثم سحبتها وقد ارتفعت دماء قانية تصبغ جيدها وخدّيها، والتفتت حولها لترى إن كان هناك من يراقب حركتـــها، ولمـــا اطمأنّت بدأت تدندن بأغنية تحفظها، واضعة كفّها على فمها المبتسم للحياة.

جاء القرويون بالفرش والأغطية وقدور يخرج منها بخار خفيف، ثم أســـرجوا الفتائل بالزيت وتحلّقوا حول زوّارهم للسمر والمؤانسة، وإتمام حـــديث العشـــيّ. افتتح الكلام وكيل الزاوية وهو معروف لديهم بحكم زيارتهم لضريح الولي قال:

- هذا الزمزمي خديم سيدي القشّاش الذي أقمتم عنده فأطعمكم وآواكـــم وأخذ لكم موافقة السلطان على الإقامة بهذه النواحي من مملكته.

ضجّ المكان بعبارة «الشاي لله يا سيدي القشّاش» ولهجت الألسن بالـــدعاء والثناء. وأضاف الوكيل:

- وقد وجّهه الشيخ لحراسة هذه الجماعة واصطحابها إلى ناحيتكم حتى لا يناوشهم الأعراب، أو يتعرّض لهم عساكر الإسبان في الطريق.

صاح رجل في آخر الصفوف:

- وهل وصل الإسبان ناحيتنا؟

- لا تخف... لم يصلوا ولكنّهم يقطعون الطريق على الداخل إلى الحاضرة والخارج منها... وأظنّ الأمر مثل هذا أو أكثر في ثغر بنزرت، حيث علمت أنهم أرسوا سفنهم وبدأوا يبنون الحصون.

اختلطت الأصوات مرة ثانية، وتماطلت الأسئلة تطلب مزيدا من الشرح لحالة العاصمة ولتوازن القوى، هل تميل إلى صالح المسلمين أو للغزاة. فعاد الوكيل يهدئ خوفهم ويُقدِّم شروحا مقتضبة قبل الولوج في موضع الضيوف، قال:

- الجماعة المبعوثة من الشيخ القشّاش تتألّف في الحقيقة من شخص واحد هو هذا الشاب واسمه بدر الدين. أمّا العائلة المصاحبة له فهي من سكان تونس تطوّعت لحماية الرجل الذي هو في الأصل جنديّ في عسكر السبنيول وفرَّ...

لم يستطع الوكيل إتمام عبارته، إذ وقف فجأة بعض الحاضرين كأنّما لدغوا، وعلت صيحات عجب واستنكار تعيد وتكرر عبارات «عسكر السبنيول»، «يا عجبا كيف جاء؟» «ماذا أتى به إلينا؟»، ولكن الوكيل عاد ليواصل الكلام مُهدِّئا من روع مستمعيه. هنا انبرى بدر الدين واقفا وأشار بيده طالبا من الوكيل أن يفسح له بحال الحديث، وقال بصوت مرتفع ليسمعه الجميع حتى الذين وقفوا بالباب:

- أنا بدر الدين بن محمد بن قاسم الحجري الأندلسي، كنت متسلّلا في الجيش الإسباني باسم بدرو بيجارانو. افتعلت تلك الحيل لأخرج من القفص الذي حاصرونا فيه من يوم افتكّونا من أيديكم ونحن أطفال... ألا تتذكرون؟ تنصّر كل من بقوا غصبا وكرها، ومن عثروا على دليل إسلامه احرقه الإنكيزتور عل الحطب وأهله يتفرّجون. لم أجد سوى تلك الحيلة فغامرت بحياتي لألتحق بكم باحثا عن أهلي: أبي وأمي وزوجة عمّي، فأين هم يا قوم هل تعرفون مكانهم؟

علت همهمة في قاعة المسجد واختلطت الأصوات ثانية، واستدار كلّ واحد من الحاضرين نحو جاره يسأله إن كان لديه ما يردّ به على الفتى. ولّما طالَ انتظاره عاد يضيف إلى ما قال:

- عائلتنا من الحجر الأحمر... ألا تعرفون قوما جاءوا من تلـك الناحيـة؟ لابُدّ أنّ بعض أجوارنا جاءوا معكم، لقد رأيتهم يساقون في نفس وقـت خروجكم. أليس بينكم من يعرف الحجر الأحمر يا ناس؟

قام رجل غليظ الجثّة نفرت خصلات شعر أشقر من تحت عمامته وقال:

- نعم أنا أعرف بعض رجال الحجر الأحمر، فقد اشتريت منـهم العنـب والزبيب مرّات لما كنا بالأندلس، لكني لم أعثر على أحد من معارفي بعد قدومنا. هل يكونون ذهبوا إلى بنـزرت؟ هل يكونون صـعدوا ناحيـة راس الجبل أو رفراف؟ لا أدري.

قام عجوز محنيّ الظهر محاولا إعطاء بعض المعلومات وقال:

- لم يخرج من جُمعوا بوادي إشبيلية من طريق واحد، فمن لم تكـن لهـم أموال كثيرة رغبوا في الخروج إلى طنجة وسبته وركبوا إليهـا الأغربـة الصغيرة من قادش وطريف، أمّا الذين ساهموا في كراء العشرين سـفينة وهم الأغلبية فركبوا البحر إلى تونس من ألكانتس، واختـلط بعضـهم ببعض خلال الرحلة، ولم يتم الفرز إلاّ بعد الوصول وكانوا على أسـوإ حال، فهناك من مات في الطريق، ومن انكسر ونوافس ولدن في عـرض البحر أو في الطريق إلى هنا. لا فائدة الآن في تذكّر تلك الأيام السود، لا أعادها الله.

صاح جميع الحاضرين بصوت واحد كأنهم في الصلاة:

- آمين يا رب العالمين!

عاد الرجل الأشقر يقول:

- أغلبنا من لوشة وأنتقيرة واللّسّانة، وقد يكون جماعة الحجر الأحمر جاءوا معنا لكن حطّوا في مكان ثان، وإن شئت أخـذناك ناحيـة الشـطوط للبحث هناك.

لم ييأس بدر الدين، وأراد التأكّد قبل الارتحال إلى مكان آخر. قال:

- هل أنتم هنا كلّ سكان القرية؟ أليس من غائب لم يحضر؟.. ألا يوجـد مريض في فراشه أو مسافر؟

أجاب الرجل الأشقر بصوته الجبلي القوي:

- جميع الناس هنا... لم يغب أحد على حسب علمي.

قاطعه العجوز المحنيّ الظهر:

- بلى... هناك من لم يحضر. فإلى متى تهملون حساب ضعفاء الحال والأيتام؟

عاد الرجل الأشقر يقول:

- أنا لم أهمل أحدا.. الرجال جميعا هنا.

أدار بصره في الحاضرين من مدخل الجامع إلى المحراب، وهو يهمهم كأنّه يعدّ الموجودين، أو يستحضر أسماءهم، وأضاف:

- الجميع هنا... كلّ الرجال. لم أنس أحدا إلاّ الأطفال الصغار.

نطق رجل من الجالسين:

- وإلاّ النساء بالطبع.

واصل المتحدّث الأوّل:

- الرجال ينوبون نساءهم... نحن نحسب العائلات، وهنا يوجد عن كلّ عائلة رجلها... أي صاحب البيت.

قال الرجل العجوز:

- وإذا وجد بيت لا رجل فيه، هل ننساه؟ هل هذه هي المروءة، وهذا هو التعاون والتضامن الذي أقسمنا عليه اليمين من يوم وصلنا إلى هنا؟

حكّ المؤدّب رأسه محاولا تذكّر العائلة الغائبة عن الاجتماع فلم يستطع، والتفت الجماعة بعضهم إلى بعض يتناقشون، كأنّ المتكلّم أثار قضيّة مهمّة.

سارع بدر الدين يسأل:

- هناك غائبون إذن... اذكروا أسماءهم لعلّنا نستدلّ بها.

قال الرجل المسنّ:

- هناك عائلة رجلها غائب ولا نعرف أين هو... ولكنّنا نحن أولياؤها وعائلوها، والمدافعون عنها إذا اقتضى الأمر. والبيت عامر بثلاث نساء كلّنا نعتبرهنّ أخواتنا وبناتنا.

عند ذلك تذكّر المؤدّب ما كان ناسيا قال كمن عثر على شيء ضائع:

- بيت الغزل... تذكّرت الآن!

وعاد الفلاح الأشقر ليعتذر:

- لم أظنّ أنّ لدى هذه العائلة معلومات تضيفها إلى ما نعرفه، ولهذا لم أضعها في الحساب. على كلّ حال ابعثوا نساء من عندكم لإستجلاء ما عندهنّ من أخبار، أنا نفسي لا أعرف من أيّ الجهات قدمن.

قال الشيخ:

- قل قدمتا.. أي الأختان فقط، أمّا الفتاة فقد ولدت في العالية.

علت أصوات الكلاب النابحة وملأت جوّ القرية، فصعدت النساء فوق السطوح كالعادة لمراقبة الجهات الأربع واكتشاف ما يهيج الحيوانات، وتهيّأن للمقاومة بالحجارة. خرج الزمزمي من الجامع مسرعا وبيده المكحلة. وجرى ناحية السهل مستعدا للضرب عند الاشتباه في أيّ خطر. كانت هناك قافلة بأربعة رجال، ومعهم نساء وأطفال، تمشي خلف دابّتين محمّلتين بأثاث وأغطية وبعض أكياس المؤونة على ما يبدو. يصعد الجميع الهضبة الوعرة ببطء وعناء، يبكي بعض الأطفال ويجلس أحدثهم أرضا غير قادر على المواصلة، فيأخذه أحد الكهول على كتفه ويواصلون. راقبهم الحارس وهو مسدّد سلاحه ناحيتهم، حتى إذا وصلوا إلى مرمى السمع ناداهم بصوت عال:

- تسمّوا وقولوا من أين جئتم ولماذا؟

رفع الرجال أيديهم إلى أعلى وقالوا كلاما غير مسموع. أعاد الزمزمي سؤاله بصوت أعلى والجماعة مواصلون الصعود مرفوعي الأيدي دليلا على أنهم غير مسلّحين، قال أحدهم لاهثا:

- نحن أقارب وجيران!

عاد الحارس يحرّك سلاحه ويسأل بصرامة:

- تسمّوا واذكروا من أين أتيتم؟

- أندلس هاربون من بنزرت... سيعرفنا أهل القرية!

أنــزل الحارس سلاحه، وبقي ينتظر وصول القادمين وعيناه على كلّ حركة يأتونها، خوف أن يكون في الأمر خدعة. لم يسلّم عليهم لما بسطوا إليه أكفّهــم، ولكن أدخلهم إلى الجامع في انتظار قدوم رجال القرية، فهم وحــدهم يقــرّرون استضافة هذه القافلة أو طردها إذا شكّوا في أفرادها ونواياهم. وإذ اعتبر الجــامع مكانا محايدا، فإنّ الحارس قد أفسح لهم فيه مكانا ليستريحوا من إجهاد السفر.

راقبت عائلة أحمد الجيّار ما جرى من سور الجامع الذي تقضي فيه ثلاثة أيام ضيافتها على القرية. نظر الجميع إلى القادمين الجدد بفضول، و لم يتجرّأوا على غير ردّ التحيّة عندما دخلوا عليهم، وتهاووا على الحصير واحدا بعد آخــر، و لم يبــق منهم في الخارج سوى أحد الكهول ليفرغ حمولة الدابّتين.

جاء أوائل الأندلس إلى بنــزرت منذ سقوط غرناطة ولجوء آخر ملوكها إلى عدوة المغرب، فأنشأوا حيّهم المعروف خارج السور. ولما فكك الحسن الحفصــي تحصينات المدينة بأمر الإمبراطور الإسباني شارل كنت اختلط الحي بأرباض المدينة، واندمج اللاّجئون مع السكان القدامى، يحيون على طريقتهم باستغلال البحــر في الصيد أو الغزو ومواجهة النصارى. ولما كان أغلبهم ممن ألفوا ركوب البحر، فقد انضمّوا إلى أمراء البحر الأتراك مثل عرّوج وخير الــدين ودرغــوث وغيرهــم، وصاحبوهم للارتزاق، وفي نفس الوقت للانتقام من الإسبان.

وجاء مهاجرون آخرون فيما بعد توزعوا على هضاب الســاحل الشــرقي، واشتغلوا بالفلاحة لأنهم يحذقونها، ما عدا قليلا من شــبّانهم الأقويــاء، اختــاروا الالتحاق بمن سبقوهم إلى الغزو وقتال النصارى، فقصدوا بنــزرت واستوطنوها. لكن مقامهم لم يطل إذ داهم الإسبان المدينة واحتجزوا الأندلس رهائن لخدمتهم، وللتوسّط بينهم وبين قدماء الأهالي، لمعرفتهم بلغة الإسبان وعاداتهم. ولقد قاســى المساكين من تصرّفاتهم الويل والنكال، إذ سخّروهم لهدم الأسوار أثنــاء حملتــهم الأولى، ثم بعد ذلك بسنوات استخدموهم هم ودوابهم وأبناءهم لنقــل الحجــارة وبناء الحصن المشرف على المدينة، وكان قد بدأه قلج علي باشــا الجزائــر عنــد استيلائه على المدينة، ولكن الإسبان طردوه وأتموا الحصن واستعملوه بدل الأتراك منشئيه الأوائل. وفي مدّة احتلالهم للمدينة ضيّقوا على أولئك المساكين الذين فرّوا

من جحيمهم هناك، فلاحقوهم في الأرض الإفريقية وكأن لا مناص لهم منهم... إلى يوم القيامة.

حول هذا الموضوع، وما يتّصل به من تفاصيل، دار الحديث والسمر في صحن الجامع ليلة وصول القافلة الجديدة. تحاور سكان القرية مع الرجال بعد أن عرفوهم، وتذكّر بعضهم أنّ عائلة انفصلت عن المجموعة يوم انتقالهم من السهل إلى هذه المرتفعات، وذهب النساء والأطفال إلى دور بعض القرويّين لقضاء ليلتهم هناك. كانوا نادمين على اقترابهم من الساحل، إذ لم يخطر ببالهم أن يتعرّضوا لمثل ما حدث، وأن تبلغ بهم الشدّة ما بلغت، ولذلك فرّ بعضهم وتفرّقوا في حين اختارت هذه الأسرة أن تعود إلى مستقرّ إخوانهم الأوائل، فجاءوا خفية في قارب احتازوا به القنال، وفي طريقهم اشتروا بمالهم القليل دابّتين شقّوا بهما الحقول المزروعة طول الوقت متحاشين قوافل الجند وغارات الأعراب.

روى أبو العائلة الأحداث الجارية في أكبر مدن الجهة، وما عانته من غارات العملاقين المتنافسين عليها، ثم شرح أسباب مجيئهم بأن أبناءه من المجاهدين في البحر، شاركوا في غارات كثيرة، ولكن عندما دخل الإسبان من جديد مع دون خوان النمساوي، وبدأوا يبحثون عمّن جاهدوا في البحر خاف أن يقبضوا على أولاده، فجمع عائلته وما استطاع من أثاث وهرب ليلا. قال بصوت متأثّر:

- نصبوا عسسا على طرق المدينة، فلا يخرج أحد أو يدخل إلاّ بإذن القبطان. كلّ الأحياء تحت رقابة الجند. وصل بهم الخوف إلى مصادرة السكاكين وجميع ما في البيوت من آلات حادّة، فلا تستطيع امرأة استعمال سكّينها إلاّ باستئذان محدّد بالوقت، تعيد بعده الآلة إلى مركز الحراسة. وهم يحصون الذاهبين إلى العمل كلّ صباح، ثم يكرّرون العدّ في المساء عند رجوع الناس إلى مساكنهم، ويا ويح القوم إذا نقص فرد من المجموعة، فلا دخول إلى البيوت إلاّ إذا عثروا عن الفرد الناقص وأعادوه.

صاح أحد الحاضرين متوجّعا:

- هذا سجن كبير!

أكمل المتحدّث الشكوى:

- هذا بعض ما يجري، ولا أزيد ألمكم بذكر ما هو أكثر وأوجع، خاصّة معنا نحن الأندلس، إذ كانوا يأخذوننا إلى القبطان فيحاورنا بلطف مخاتل، مقارنا بين حالنا الآن وحالنا في الأندلس التي غادرناها بطيب خاطر، ولو تنصّرنا كما طُلب منّا لبقينا مكرّمين في بيوتنا، ولم يصبنا ما نحن فيه من عذاب وهوان. كان يقول: ها أنتم فررتم إلى دار الإسلام، فهل وجدتم فيها عُشر ما تركتموه.. ألم تكونوا في الجنّة فبطرتم وكفرتم بنعمة الرب عليكم؟ انظروا إلى ما أنتم فيه.. ألا يدعوكم إلى الندم؟ ها نحن جئناكم لتفقّد أحوالكم، وها نحن ندعوكم إلى مراجعة نفوسكم... فإن غيّرتم رأيكم وأحببتم العودة معنا أخذناكم في السفن العائدة، ولكن بالشروط التي نمليها نحن والتي تعرفون بعضها. ويسمع الجنود مقالة القبطان فيضحكون. والمؤلم أنهم استطاعوا التأثير على بعض المنافقين وضعاف النفوس من المشتغلين معهم للجوسسة والدّس وبثّ الإشاعات، لكن دون أن يعطوهم مواثيق مؤكّدة بالعودة معهم. ولقد عاملنا هؤلاء بحكم المرتدّين وتجنّبناهم، حتى أننا لم ندفن في مقابرنا من مات منهم. هذه حالنا المؤلمة وأرجو أن لا يكون أصابكم مثلها.

قال أحد القرويّين:

- مازلنا بعيدين عن ساحة المعارك، لكن إن استقرّ الحال للإسبان في تونس وبنزرت فلابُدّ أن نقع بين فكّيهما، إذ الطريق بين المدينتين تمرّ من هنا، ولا مناص..

ساهم أحمد الجيّار في الحديث:

- حاضرة تونس في حال شبيهة بما ذكرت أيّها الأخ، والإسبان فيها يظلمون ويقتلون وينهبون الأهالي بمباركة السلطان وموافقته. وقد صنعوا لهم دولة في حصن البستيون حيث كنائسهم ودكاكينهم ومراكز خاصّة لتنصير المسلمين بالإغراء وشراء الذمم، تجمّعت لديهم فرق كاملة من أراذل الناس والمهجرصين والجواسيس فاستعملوهم لتقويض مجتمع

المدينة، تم الإجهاز عليه بعد أن اهتزّت قواعده، وزلزلته المحن وقلّة الرزق بفعل الاضطرابات المتتالية.

عمّ المجلس صمت مليء بالحزن، فحالة اليأس ألجمت الألسن وأحنت الرؤوس. انتظر بدر الدين بعض الوقت ثم سأل القادم الجديد:

– هل يمكنك إرشادي يا أخي إلى جماعة من جهة الحجر الأحمر انتقلوا إلى بنزرت من حوالي سبعة عشر عاما، وهل عندك علم بمكان نزولهم؟

أجاب احد الشبان وقد تعجّب من احتفاظ الشاب بلكنته الاسبانية:

– نعم... جاءنا جماعة لا تذكر أسماءهم قالوا إنهم من تلك الجهة، لكنني لا أعرف أين نزلوا، ولربّما إذا هدأت الحال وأردت زيارتهم أدلّك على من يرشدك إليهم.

قام بدر الدين واقترب من مكان الرجل ليسأله ثانية:

– اذكر اسما واحدا أرجوك، فهم أهلي وأقاربي، وأنا أبحث عنهم منذ زمن ولا من يدلّني، حتى كدت أيأس.

– لا تيأس يا أخي! فإذا زالت الغمّة ربما ذهبت معك وبحثنا عنهم... اطلب من الله الرحمة وأمان الطريق أوّلا.

تكلم العجوز المحنيّ الظهر:

– لماذا أنت متعجّل يا بدر الدين؟ ألم نعدك بالمساعدة، وأن نقلب حجارة هذا الجبل حتى نعثر على أهلك، لعلّهم تحولوا إلى فصيلة نمل واختفوا في باطن الأرض؟

وضحك بعض الجالسين من كلام العجوز، وقد فهموا أنّه أراد ترفيه الجوّ قليلا بعد أن حامت الكآبة فوق الرؤوس.

ظهر في باب الجامع أطفال صغار من بينهم ابنا أحمد الجيّار. كانا في المقدّمة يلوّحان بأيديهما ناحية أحمد وبدر الدين، وكأنّ لديهما ما يقولانه. تبادل الرجلان النظرات ثم شقّ الجيّار الصفوف نحو الباب ليستطلع الأمر. كانت درعيّة متوتّرة، يتدافع الكلام في فمها وهي تلهث، لأنها تريد ان تقول كلّ ما لديها دفعة واحدة قبل أن يسبقها أخوها في الحديث.

- للاّ مرجانة في دار الغزل تقول لك وجدنا ثلاث نســاء وحــدهنّ، ولا يوجد رجل معهنّ.
- هذا نعرفه يا بنيّتي ولكن الرجل أين هو؟
- تقول النساء إنّه ضائع!
تدخل الفتى ليصلح مقالة أخته:
- لا... قلن إنّه مسافر.
علّق أحمد الجيّار:
- ضائع أو مسافر... معناه أنّه غائب الآن، إنّما أين؟
- تقول زوجته إنّه سافر إلى بنــزرت ليجاهد، ولكنّه لم يعد منذ سنتين.
ضرب أحمد الجيّار كفًّا بكفٍّ وعقّب:
- إذا لم يعد منذ سنتين فمعنى ذلك أن البحر أكله.
سألت البنت بعفويّة:
- هل الحوت الذي يأكل أم البحر؟
- كلاهما يأكل يا بنيّتي.. أقصد أنّه ربما مات في إحدى الغزوات البحريّــة. وهل عرفت مرجانة شيئا عن النساء، ومن أيّ جهة جئن؟
عادت البنيّة تقول بعفويّتها وسذاجتها:
- هنّ من سكان هذه القرية، ومن أين تريد أن يجئن؟
ضحك أحمد الجيّار وهو يمسك بكتف الصغيرة ليوضّح لها ما غمض:
- أولئك النسوة جئن، كما جاء سكان هذه القرية كلّهــم، مــن بــلاد الأندلس الواقعة وراء البحر، وهي من نفس البلاد التي جاء منــها بــدر الدين، وبما أنّ ذلك البلد كبير، وفيه جبال وسهول وشواطئ وضــفاف أنهار وغابات الى غير ذلك مثلما هو عندنا، بل أكــبر وأوســع، فــإنّ القادمين إلى بلادنا جاءوا من جهات مختلفة، وكلّ جهة لها اسم خاصّ.
وأضاف الطفل إلى كلام أبيه:
- وعمّك بدر الدين جاء من جهة اسمها الحجر الأحمر.
ضحك الأطفال، لأنهم ظنّوا الفتى يمزح، فنهرهم:

- هذا هو الاسم حقيقة، اسألوه إن شئتم! لقد حكى لي عنها حكايات كثيرة، وقال إنّ فيها نهرا صغيرا كان يسبح فيه عند اشتداد الحرّ، وينصب فخاخا على الضفاف لاصطياد العصافير، وقال إنّ بيتهم هناك كان كبيرا له ساحة تحتوي على حمام للاغتسال وفرن لصنع خبز الحنطة اللذيذ، وأحيانا أقراص الذرة المخلوطة بالسكر.

عاد الأطفال يضحكون، ظنًّا بأن الفتى يستعرض مشاهد من خياله، لأنهم لم يتصوّروا وجود مثل تلك الأشياء، ولا حتى بلدا اسمه الأندلس أو مدينة اسمها الحجر الأحمر. عاد أحمد الجيّار يسأل ابنته:

- هل وجدتم زوجة الرجل الغائب؟

أجابته ابنته بسرعة:

- النساء الثلاث هنّ زوجة الرجل الذي أكله البحر كما قلت، وزوجة أخيه وهو غائب أيضا، لكن لا أحد يعرف أين... ثم ابنتها وهي في عمر للاّ مرجانة.

أضافت البنيّة:

- اسمها ميمونة... وقد نسيت أن أقول هنّ لسن ثلاث نساء، ولكن امرأتين وفتاة تشبه للاّ مرجانة، ولها نفس الشعر والحواجب.

ضحك أحمد الجيّار من تفاصيل ابنته وسألها عن أختها، فقال له الأطفال إنّها منهمكة في الحديث مع نساء دار الغزل، وستعود بعد انصراف الرجال من الجامع.

تابع بدر الدين حركات أحمد الجيّار إلى حين عودته إلى مجلسه الأول بقربه، فما كاد يستقرّ حتى أمطره بالأسئلة عن حاجة الأطفال إليه، هل جاءوا برسالة معيّنة أو خبر جديد، وإلاّ فما دواعي مناداتهم له من باب الجامع إذا لم يكن ثمّة جديد؟ اقترب أحمد من أذن الشاب وحكى له خلاصة حواره مع الأولاد وختم كلامه قائلا:

- لابُدّ لنا من توضيح بعض الألغاز فيما يتعلّق بدار الغزل التي تسهر فيها مرجانة الليلة. هناك زوجان غائبان، عرفنا أنّ أحدهم سافر إلى بنزرت للجهاد في البحر ولم يعد... فهل مات؟ هل أسره الإسبان؟ لا أحد

يعرف. وزوج المرأة الثانية أين هو؟ والفتاة الوحيدة مع المرأتين هي بنت من فيهما؟ هل لها إخوة أو أخوات... أين هم إن وجدوا؟ لا أحد يعلم أيضا. لهذا قلت لك أنّنا أمام ألغاز قد تخفي وراءها مفاجآت، لكن من سيعيننا بالحلّ؟

قال بدر الدين هامسا في أذن رفيقه:

- سأذهب في صباح الغد مع ذلك العجوز لأتفرّج على حقله الصغير، سأجد الوقت الكافي لأستفسره وأستوضح بعض ما غمض.
- وأنا بدوري سآخذ أخبار مرجانة مفصّلة، ثم نقارن في المساء ما يتجمّع لدينا ونستنتج.

في طريق العودة إلى الجامع حكت مرجانة لأبيها تفاصيل حديثها مع نساء دار الغزل، واصفة حالة الحزن المخيّم على تلك الأسرة لضياع رجالها كلّهم.

قال أحمد:

- سمعنا عن رجل يجاهد في البحر، ولكن الثاني أين؟
- الثاني والثالث..
- وهل هناك ثالث؟
- المرأة الكبيرة فقدت رجلين زوجها واسمه محمد الغائب في الجهاد، ومن قبله ابنها الذي تركته في الأندلس عند الرحيل.
- وأختها فقدت من؟
- هي سلفتها وليست أختها، وقد بقي زوجها في الأندلس أيضا.
- وكيف ترك أسرته تهاجر بدونه؟
- كان في سفر عندما أرغمت العائلة على ركوب البحر.
- وابنة المرأة الثانية، وهي لم تر أباها ولم تعرفه، لان أمها خرجت وهي حامل بها، وولدت بعد الوصول بشهرين.
- مصير غريب مصير هذه العائلة، مع ذلك صبرت وجاهدت لتعيش.
- هنّ يرتزقن بغزل الصوف ونسجه، فكلّ أهل القرية يودعون أصوافهم بعد جزّ الغنم في دار الغزل، ويأخذونه وقد تحوّل إلى أردية وأغطية

وأثواب للنساء والرجال، في المقابل يأتيهن الرزق والمؤونة من الجميع صيفا وشتاء، فليس للنساء الثلاث احتياج أو شكوى إلاّ من غيبة رجالهنّ، حيث لا مؤشّر على كونهم أحياء يرزقون.

- ألم تذكر لك البنت أو أمّها اسم الأب وما مهنته؟
- قالتا إنّ اسمه أحمد، ولكنّه كثير السفر والتنقّل بحثا عن الكتب، لكنّهما الآن لا تعرفان مكانه، وهل هو على قيد الحياة.
- وهل ذكرت أمّ الولد شيئا عن ابنها الذي تركته في الأندلس؟
- قلت لك أنهم افتكّوه منها... هل توجد أمّ تترك ابنها باختيار منها يا سي أحمد الجيّار؟
- أعرف يا مرجانة! لقد سمعنا ما يشبه هذه القصّة من فم بدر الدين... ألا تتذكرين؟
- يُخيّل لي أنا أيضا أن ما حدث للمرأتين يشبه ما حدث لعائلة بدر الدين... ألم يقل أنّ الجند افتكّوه من بين ذراعي أمّه؟
- هل ذكرت المرأة أوصاف ابنها، أو عمره أو اسمه؟

كانت مرجانة تمشي متعجّلة لتتابع خطى أبيها وقد تلفّعت بغطاء صوفي ومشى بجانبها الصغيران ينفخان في أيديهما طردا لصقيع هذه الليلة الباردة، وقد فاتها أثناء روايتها للحديث وتركيز نظرها على حجارة الطريق في سواد الليل، أن تنتبه إلى إشارات والدها، وتحمّسه المفاجئ لمعرفة جواب مرجانة عن سؤال كرّره مرّات:

- قولي يا مرجانة... ما اسم الفتى وكم كان سنّه عند هجرتهم؟
- كان عمره ست سنوات أو سبعا.
- وما اسمه؟
- اسمه بالاسباني بدرو.
- قولي اسمه بدر الدين يا مرجانة! الآن عرفته، وعرفت أنّ تلك المرأة أمّه بلا شك... عجّلي نخبره بالنبإ السعيد حتى يذهب للقائها غدا عوض الذهاب إلى حقلِ ذلك العجوز الأحدب.

تحرّكت عجاجة الغبار بسرعة في السهل، وابتعدت عن أعين أهل القرية شيئا فشيئا، إلى أن احتواها أفق أخضر بانت في حواشيه كتل شجر كثيف، لعلّه الزيتون أو الصنوبر. كان الغبار يلفّ فارسين في عزّ الفتوّة، تحت كلّ منهما فرس نشيط يباري به رفيقه ركضا لا يتوانى وقد تسلّحا ببارودتين وارتديا زيّ الزمازمة. وكان أحدهما يدلّ على الاتجاه بإشارة من يده فيتبعه صاحبه، واثقا من معرفته للاتجاه الصحيح، عندما اشتدّت الظهيرة أشار هذا الفارس إلى شجرة مورقة لنيل استراحة قصيرة في ظلّها إلى أن تميل الشمس. ثم ترجّل الفارسان وأحدهما يقول لصاحبه:

- نعم الرأي يا يوسف، لأبدّ من استراحة، هذه الشمس تفجّر الرأس.
- أنت لا تعرف شيئا عن قوّة الشمس في هذا البلد، مع أنّنا بعيدون عن منطقة الصحراء. أمّا هناك فلا توشك فقط أو تكاد... بل تفجر الرؤوس فعلا كما يقول من زاروها، هذا مع قلّة المطر وانعدام العيون.
- لعلها تشبه جبال البشرّات في بلادنا أو منطقة سييرّامورينا؟
- كف عن التذكر يا بدر الدين وإلا فسوف تتألم كلّ دقيقة تعيشها في المستقبل. ولا تقل بلادنا.. لأنها لم تعد بلادنا.
- انتهيت من التألم يا يوسف، فالألم إذا اشتدّ ودام انتهى تأثيره، تماما مثل الخوف، إذا بلغ بك آخر حدّ وهبك شجاعة وبطولة لا تعرف من أين جاءت.
- ومع ذلك لا أنكر أنني في هذه البلاد أتنفس هواء مثل هواء المريّة وتحيط بي الخضرة ذاتها من كلّ جانب، ولقيت من حفاوة الناس وطيب عشرتهم كثيرا مما افتقدته أيامي الأخيرة في الأندلس، ولولا هذا النحس الذي لاحقنا بمجيء الإسبان في أعقابنا لمضت أحوالنا راضية مرضيّة.
- لكأنهم مكلّفون بمتابعتنا إلى آخر بقاع الأرض!... ماذا عساهم يفعلون لو ذهبنا إلى جزر واق واق؟

وضع يوسف قربة الماء وزوّادة الطعام على العشب وهو يجذب نفسا عميقا ليخفّف ما به من هموم، وبعد ان دعى رفيقه إلى الجلوس قال مجيبا:

- أتظنّهم يتابعون خطانا، وأنهم مهتمّون بأمرنا؟ إنّنا انتهينا بالنسبة إليهم يوم أركبونا السفن ودفعوها فوق الأمواج، وإنما الحرب القائمة اليوم ليست اسبانية في حقيقتها وإنما نصرانية، وليس الذي يقودها هو ملك إسبانية أو الإمبراطور وإنما الكنيسة وقساوستها، ومن فوق الجميع البابا الجالس في روما.
- أعرف ذلك بدليل أنّ الجيش الذي جئت فيه يشتمل على ثلاثة عشر ألف إيطالي وتسعة آلاف إسباني وخمسة آلاف ألماني، فهو جيش يمثّل دينا أكثر مما يمثل مقاطعة بعينها.
- ألم أقل لك أنها حرب دينيّة؟
- ومن بلاهتهم ظنّوا أهالي تونس سيناصرونهم ضدّ الأتراك، ويتّبعون سلطانا ذليلا لا يهمّه غير إنقاذ كرسيّه وثروته، ولا فرق إن قاتل من أجلهما النصارى أو المسلمين. أمّا سائر عباد الرحمان، فمهما اشتكوا في الظاهر من عنف الأتراك وقسوتهم، فإنّ قلوبهم معهم، وأفواههم تدعو لهم بالنصر.

مدّ بدر الدين يده إلى الزوّادة، فسحب منها رغيفا وحبّات زيتون، وشرع يقتات مثل صاحبه وهو يحرّك رأسه كمن تذكر شيئا:

- كأنّك تعيد ما قاله قساوسة الطليان الذين بعثهم البابا ليباركونا يوم رحيلنا من صقلّية.
- ولماذا كان رحيلكم من صقلّية... ألم تأتوا بأمر فيليب الاسباني؟
- هل نسيت ما كنت تقول من أنّ الحرب ليست إسبانيّة وإنما نصرانية؟ لذا كان ركوبنا من صقلّية محلّ التجمّع والتبرّك بدعاء البابا وجماعته.. لا شيء ينقص هذه الحملة من شعائر تلك الحروب التي هاجموا بها بيت المقدس وسموها حروبا صليبيّة. هذه الحرب لم تنل شرف الاسم، لكن صفاتها تجمّعت فيها. وليتك سمعت مواعظ القسس في السفينة أو في كنيسة البستيون. فنحن القادمون من بلاد الروم، والحاملون لصليب المسيح وتباريكه، جئنا إلى هنا لتخليص أهل إفريقية من همجيّة الذين

المحمدي، ولنعيدهم إلى دين أجدادهم الأوائل وتعاليم قدّيسهم العظيم أوغستينوس.

- ومن أجدادهم الأوائل؟
- الرومان والبيزنطيّون هم في رأيهم الأجداد الأوائل، وأمّا العرب والإسلام فدخلاء، وعليهم إخلاء المكان سريعا.

ضحك الشابان واستمرّا يأكلان، ومن حين لآخر يتبادلان الذكريات، وعندما تمدّد يوسف ليرتاح قليلا نبهّه بدر الدين بأن قال الوقت يمرّ سريعا فأجاب:

- لا تخش شيئا، المسافة التي تفصلنا عن بنزرت غير طويلة، ساعتان أو ثلاث ونكون هناك عند المغرب، كي ندخل متسترين بالظلام.
- إذا أقفلت المدينة أبوابها عند المغرب فما العمل؟

ضحك يوسف وربّت على كتف صاحبه:

- يرحمك الله يا أبواب ويا سور ويا أقفال! ألم يهدم أصحابك الإسبان في هجمتهم الأولى الأسوار ليحرموا قراصنة البحر من الاحتماء بها واللجوء إليها؟ فالمدينة عارية اليوم بلا غطاء.

أخذ بدر الدين يسوّي سرج فرسه ويتفقّده ويسأل رفيقه:

- وهل القوّات التي تحتلها الآن عارية؟ ألا تكون في هذه الحال أوّل ضحايا ما فعلته بالسور؟
- لا أظنّ... لأنهم تركوا المدينة لحالها، واحتموا بالحصن المنيع الذي شيّده الأتراك في أعلى نقطة، وهناك يمكنهم أن يحتموا ويدافعوا إن لزم الأمر.

كان الفارسان يواصلان الآن طريقهما من غير ركض، وقد ظهر ماء البحيرة من بعيد يلتمع تحت ضوء الشمس، فسأل بدر الدين:

- هل وصلنا إلى البحر، هكذا بسرعة؟
- لا يا صاحبي، هذه بحيرة متفرعة من البحر الكبير، وهو لا يرى من هذه الجهة وإنما يوجد على يميننا، وبيننا وبينه هضاب رمليّة وغابات، فلا يظهر إلاّ من مكان مرتفع وقريب من المدينة، سأدلّك عليه عند الوصول.

مالت الشمس كثيرا عند وصول الفارسين إلى الرمّادية، وهي موقع يطلّ على البحر من يمين، والبحيرة من شمال، وعلى ممرّ الماء الواصل بينهما وهو مدخل المدينة الجنوبي. كان يوسف العالم بأحوال الجهة ومسالكها هو الذي دلّ على المكان، وبادر عند الوصول إلى إخفاء الفرسين تحت الشجر، طالبا من رفيقه الانبطاح أرضا حتى لا ينكشفا لأعين الحراس. وزحف الاثنان على البطن وهما يدنوان شيئا فشيئا الى حافة جرف عميق له نتوء كرأس السهم، يسمح برؤية شاملة لا يحدّها حاجز. المدينة الصغيرة، بقبابها البيضاء ومآذنها ودورها المتراصّة، تقابل الناظر في حضن جبل أخضر، وعلى اليمين مدخل البحر والميناء، وعلى الشمال البحيرة باسطة صفحتها الفضّية لتبتلع قرص الشمس بهدوء.

انفتحت عينا بدر الدين، واتسعت حدقتاه انبهارا بجمال هذا الأفق المفتوح المتنوّع المناظر، وأراد أن يقول شيئا لصاحبه، ولكنّه خيّر التأمّل والسكوت. أمّا يوسف فقد تركز نظره على نقطة واحدة، وتعاقبت أنفاسه دهشة، وأراد بدوره أن يقول شيئا لصاحبه، ولكنّه خيّر التثبّت والتأكد قبل الجزم. وبعد صمت قصير أمسك بكتف رفيقه الحالم:

– انظر معي إلى هناك... وقل ماذا ترى؟

كان يشير بإصبعه إلى ناحية البحر، وإلى سفن تحيط بالمدينة من جهاتها الثلاث ولا يكاد يبين منها غير الألوية والصواري، خاصّة بعد أن طويت منها القلاع والأشرعة. كان النهار صحوا ومضيئا يسمح برؤية جيّدة ولو من بعيد، ولم تكن الشمس قد جمعت كامل أشعّتها بعد، فدقّق بدر الدين النظر في اتّجاه الإصبع الممدودة، وتأمّل فيما يرى ثم صاح:

– تلك ليست مراكبنا... ولا تلك الألوية لنا، أقصد ليست للإسبان!

– هذا ما حيّرني... فهي لمن تكون؟

– ألا تتذكر حملة علج علي منذ ثلاث سنوات... إنها نفس المراكب ونفس الألوية!

– هل هذا أسطول الأتراك إذن؟

صاح بدر الدين ناسيا دواعي الحذر الذي كان يلازمه، ووقف بقامته المديدة رافعا ذراعيه إلى أعلى:

- زال الكرب يا يوسف!... ارتحل الإسبان!... ألا تسمع؟
- أسمع ولكنّي غير متعجّل على الفرح... لقد رأيتهم يأتون ويذهبون عدة مرّات، فمن يدرك أنهم لن يعودوا؟
- تفاءل خيرا يا يوسف... هل تريد الإقامة في حزنك إلى يوم القيامة؟
- ملّت نفسي من كثرة ما تلاعبت بها المشاعر المتضاربة، فلم أعد أهتمّ إلاّ بالساعة التي أنا فيها. هؤلاء أتراك هيّا نقتبلهم إذن... وغدا الإسبان هيّا نستعد لاقتبالهم. علينا الاستعداد والتأقلم مع كلّ ظرف وحال.

فهذه إذن سفن الأتراك حسب ما تدلّ عليه الأعلام والبيارق. أتكون العجلة دارت في هذا الوقت القصير الذي التجأوا فيه إلى العالية، حيث لا يعبر عابر إلاّ نادرا، ولا تصل الأخبار الجديدة إلاّ بعد الأيام والأسابيع؟ بدأ يوسف يفكّر في دخول المدينة وكيف يكون؟ ركب الفرس وقال لرفيقه:

- نستطيع الآن دخول المدينة قبل حلول الظلام.
- ولكن الاحتياط واجب حتى مع الأتراك... فهم يقتلون لمجرد الشكّ كما علمت ممن عاشروهم.
- أنا أعرفهم وعملت معهم في بناء الحصن، حتى أنني انطق ببعض كلماتهم وأعرف رتب ضبّاطهم: وكيل حرجي، أغا باشي، عسكيولدك. هم غلاظ أشدّاء كما اشتهر عنهم، ولكنّهم محاربون من الطراز الأوّل. وهل نحن إلاّ في حرب يا أخي؟
- ذكّرتني بالفريق الألماني الذي صاحبنا في الحملة، أنهم يشبهون الترك في الغلظة والشدّة. وقد كان الإسبان والطليان من خبثهم يضعونهم في الصفوف الأولى عند كلّ صدام، ولكنّهم رجال مستقيمون ويحبّون العدل، فما رأيتهم يشاركون في نهب تونس أو تكسير البيوت بحثا عن المكنوز في الأرض والجدران.
- أهل الكفر ملّة واحدة!

- إنما الشرّ درجات. وقد رأيت في البستيون مسلمين يعينون على تعذيب أبناء دينهم ووطنهم، رأيت الوشاة والقوّادين والمهجرصين، وأنواعا من البشر أقرب إلى الطيور الجوارح، يفعلون ذلك دون أن يكونوا من أهل الكفر بل طمعا في منحة مال أو قوارير خمر. لذا لن أقبل منك إذا قلت إن الملائكة من أصل تركي.

ضحك الاثنان، وتابعا الطريق غير مسرعين، والمباني البيضاء تقترب منهم شيئا فشيئا، حتى إذا وصلا إلى الشاطئ تردّد يوسف: هل يمر فوق الجسر ويخضع إلى مراقبة الحراس الواقفين عند طرفه الآخر، أم يمرّ من ناحية اليمين حيث توجد فلائك صغيرة تكترى للعبور؟ وأخيرا دخل الرجلان المدينة عبر الجسر دون أن يعترضهم معترض، فالمدينة شبه خالية في تلك الناحية الجنوبية، لكن صوت المدافع والبارود آت من الشمال، حيث عساكر الإسبان معتصمين في الحصن، يحاصرهم الأتراك بالسفن ويضربوهم بالمدافع، لذا لم يجد يوسف ورفيقه من يعترض طريقهم، فالأهالي المذعورون احتموا بمنازلهم، والإسبان فرّوا إلى الحصن بلا أمل في الانتصار على عمارة ملأت البحر وسدّت الأفق، فليس إلاّ ضجيج السلاح يتردّد صداه في المدينة الخاوية.

قاد يوسف صديقه إلى مخزن يمتلكه بعض معارفه، فدفع الباب بقوّة وأدخل الفرسين بين أكوام تبن ودجاج تطاير كالمجانين إلى كلّ النواحي، ثم أخذ بيد صاحبه وقاده بين الأزقّة متلصّصا مستعدًّا لكلّ مفاجأة.

- إنّ لباسنا يا بدر الدين يشبه زيّ أعوان السلطان، فيجب خلعه في أقرب فرصة حتى لا نجلب الشكوك. فالله يعلم اليوم من يحارب مع من؟

أنهى يوسف كلامه وهو يمدّ يده إلى حلقة باب ويقرعها بقوّة مناديا بأعلى صوته:

- افتح يا بابا صمندل أنا يوسف بلانكو.

لم ينفتح الباب، وإنما أطلّ رأس من فوق السطح ثم اختفى بسرعة، ومرّت لحظة أحسّ يوسف أنها طويلة جدًّا، ثم قرقع الرتاج وفُتح الباب، ليظهر خلفه صاحب البيت ممتقع اللّون، ويدعو الزائرين الى الدخول بسرعة.

جلس الرجل الشيخ على دكّة قريبة ليستردّ أنفاسه، ذلك الطرق الشديد على الباب جمّد دمه في العروق. فمن عسى أن يأتي للزيارة في يوم كهذا؟ وبقي ينظر إلى الزائرين وهما يخلعان ثيابهما، دون أن يسعفه لسانه بسؤال واحد عمّا يفعلان، وفي هذا الوقت بالذات. أطلّ صبيّ صغير من باب الدريبة الموارب مدفوعا بفضول الصغار، فطلب منه الرجل آنية ماء ليشرب ويسقي زائريه. فعل ذلك بإشارة من يده دون أن يتكلّم.

شرب ومسح شاربيه و لم يتكلّم، ولكن اندهاشه يوحي بأسئلة مكتومه. نطق يوسف بأول جملة منذ دخل محاولا تهدئة الرجل من وقع المفاجأة:

- ستسألني عما جاء بي الآن؟ وعن الرجل الذي بصحبتي؟: وعن اللباس الذي خلعته عنّي؟ أليس هذا ما تريد؟ سأجيبك... لكن دع هذا الخوف الذي يكاد يقتلك.

حاول صاحب البيت تبديل سحنته، فحرّك عضلات وجهه في محاولة للابتسام لكن لم يفلح، فدارى خيبته بسؤال:

- هل آتيكما بأكل لعلّكما جائعان؟

طمأنه يوسف بأنهما أكلا وارتويا، وأنهما يحسّان بالأمان منذ وصلا إلى داره، وروى له بالتفصيل قصّة رحلتهما وأهدافها، ووقع المفاجأة المفرحة عند رؤيتهما للأسطول التركي يملأ البحر. أول ما قال صاحب البيت هو:

- لا أحد يعلم هل هي مفرحة أم محزنة... ومهما يكن أمرها فلابُدّ أن ندفع ثمنها من دمائنا وأموالنا وراحتنا، سواء ربح هؤلاء الحرب أم ربحها أولئك. على كلّ حال دعني أرحّب بصاحبك، وأسأله عن هواء غرناطة وماء واديها الكبير.

مرّت سحابة حزن على ملامح بدر الدين وأجاب سائله:

- الأحسن أن ننسى هواء غرناطة وماءها وإلا قتلنا الحزن يا عميّ. افعل كما فعل يوسف، عش بما بين يديك املأ قلبك به، فلا شيء يدوم غير وجه الله.

قال يوسف:

- بابا صمندل هو شيخ الأندلس في هذه المدينة كما كان أبوه من قبل.

سأل بدر الدين وفي عينيه رجاء وأمل:

- أيّها الشيخ الطيّب، هل أحد لديك شفائي فتدلّني على رجل من الحجر الأحمر جاء منذ سنتين ليخرج مجاهدا في البحر، ولم يعد إلى عائلته التي تنتظره في العالية على حال من القنوط لا توصف.

ظل صاحب البيت يستفسر عن اسم الرجل وأوصافه وحرفته وعلامات مميّزة فيه، لعلّه يعثر على بشر تتطابق أوصافه مع من عرف من رجال السفن الغازية المتردّدة على ميناء المدينة، ثم قال أخيرا:

- إنني يا بني بحكم عملي في دكانة القبّة، حيث تسجّل كلّ السفن ركابها وحمولاتها في الغدوّ والرواح، لا أحد من تنطبق عليه هذه الصفات، ثم إنّ عمليات الغزو-كما يعرف يوسف- توقّفت منذ الاحتلال الإسباني. لكنني أعدكم بمراجعة الدفاتر حالما تزول هذه الغمّة، لعلّنا نعثر على دليل لا يرد ببالي الآن. ومن جهة أخرى، يحدث أن لا ينفّذ الرجل ما نواه من غزو في البحر، إذ يرفض الريّاس أحيانا بعض المتطوّعين لضعف بنيتهم أو لتقدّم في السنّ أو لعدم حذق القتال أو إحدى الصناعات المتعلّقة بالحرب.

قال بدر الدين:

- والدي متقدم في العمر، وحدثني عمّي عن علّة لازمته أضعفت بصره منذ كان في بلاده، أقصد في الأندلس.

جزم بابا صمندل حينئذ:

- لا يقبل أيّ رايس رجلا في حالة أبيك، فهو إن قبله يغامر بحياته ويعجّل بموته. علينا إذن بالبحث في سبل أخرى غير البحر وسفن الغزو.

سأل بدر الدين:

- من أين نبدأ يا عميّ؟
- ادعوا الله ليخرج الإسبان بسرعة، أو أن ترحل سفن الأتراك إلى ميناء آخر كي تتنفس المدينة ونقدر على التحرّك. فماذا عسانا نصنع ونحن كالفئران في هذه الدربية؟

أحاطت سفن الأتراك بمدينة بنـــزرت كهلال ضخم مكوّن مـــن ثلاثمائـــة وستين شراعا، مائتان وثلاثون منها كالأبراج تطلّ منها مدافع العيـــار الثقيـــل، والباقيات لنقل المعدات والمؤن. أطلّت على بنـــزرت ذات صباح تتقدّم بهدوء غير متعجلة، بعد أن هددت الحامية الإسبانية المرابطة بالحصن، وأنذرتها بتـــدميره إن لم تستسلم، بدأ ضجيج المدافع، لكنّه لم يستمر طويلا، لأنّ عدد الجند المتحصّنين لم يكن كافيًا للدفاع عن المدينة، ففرّوا بالليل ليلتحقوا بتونس. وعندما طلع النـــهار صعد أعيان المدينة إلى سفينة علج علي قبودان يدعونه إلى استلام الحصن الـــذي بدأه و لم يكمله أثناء غارته الأولى على نفس المدينة.

وانتقل الأسطول في يومه الثاني إلى غار الملح ليؤدي المهمّـــة ذاتهـــا، قبـــل الالتحاق بتونس لخوض المعركة الأخيرة مع الإسبان المتجمّعين في حصـــن حلـــق الوادي العريق، وبستيون تونس المبنى حديثا.

هجعت بنـــزرت يومين، وسكنت فيها كلّ حركة، إلى أن شاع الخبر بخـــروج الإسبان واستيلاء الأتراك على البرج، حيث انتصب حاكم جديد وحاميـــة تركيـــة عوّضت الإسبان المنسحبين. عند ذلك خرج الشيخ صمندل وضيفاه وقصدوا المرسى، وهو قلب المدينة، فرأى الناس فتحوا الدكاكين يزاولـــون أشـــغالهم العاديـــة، ورأى الصيادين وأصحاب المراكب يتهيأون للخروج إلى البحر. ولما كان في نيـــة الشـــيخ الإكثار من التنقّل بين الأسواق وحلقات المعارف لاستقاء الأخبار، نصـــح يوســـف وبدر الدين بتفقّد الفرسين حتى لا يسرقا أو يموتا جوعا، على أن يلاقيهما بعد حين.

وهما في الانتظار على باب الاصطبل إذ جاء الشيخ صمندل مـــتعجّلا فأشـــار لهما باتّباعه. سارا وراءه دون سؤال عن الوجهة والقصد، لكن ما إن التحقا بالرجل المسرع في خطاه حتى أخبرهما دون أن يقف إنّ عليهما مقابلة ضابط تركي مكلّف بسجن القصبة، إذ بلغه وجود رجال من الأندلس تحت الحجـــز هنـــاك، لا يريـــد الأتراك البتّ في أمرهم إلاّ بعد التثبّت من خلوّ ذمّتهم من كلّ مطالبة.

أضاف الشيخ صمندل:

– مجرّد شكٍّ يُخامرني في وجود رجل يدعى محمد، وهـــو مـــن الأنـــدلس الجدد، يحذق الإسبانية واتخذه الغزاة مترجما ووسيطا في قضاء شؤونهم مع

أهل المدينة. ولأنّه لا يملك بيتا أو أسرة هنا فإنهم أسكنوه سجن القصبة يبيت فيه كلّ ليلة، بعد قضاء يومه في خدمتهم سواء بالحصن، أو متجوّلا مع الحراس في السوق. قيل لي أيضا أنّه رجل نحيل وضعيف البصر. ألم تقل أنّ لأبيك هذه الأوصاف يا بدر الدين؟

- بلى يا سيدي الشيخ... بلى، عسى الله يفتح بصيرتي وأعرفه.
- كيف أيّها الفتى... ألا تعرف أباك؟
- تفارقنا يا بابا صمندل منذ سبعة عشر عاما، وكنت عند ذلك صبيا ابن ست سنوات. ألا تظنّه قد تغير منذ ذلك الحين؟
- أعانك الله يا بني... قد يكون تغيّر... قد يكون!

وصلوا السجن وبدأ الحوار مع الضابط التركي، وبعد ساعة من النقاش العسير اتفق الجماعة على مناداة رجل غير مطلوب في قضيّة، وإنما احتجزه الإسبان على ذمّة الخدمة. فجاء متعثّرا، يتثبّت موضع قدميه عند كلّ خطوة، وقد ابيضّ شعره بالكامل، مما أعطاه سنًّا أعلي من سنّه الحقيقيّة. قال الرجل عند دخوله غرفة الحارس:

- ماذا تطلبون منّي أيّها الضباط؟

قفز بدر الدين من مكانه وأكبّ على يد الرجل يقبّلها، فقد تعرّف من أوّل وهلة على تلك البحّة الخفيفة يعرفها في صوت والده، وصاح بلهفة واهتياج:

- أنا بدر الدين كيف حالك يا أبي؟

تصلّب الرجل في وقفته، وبقي صامتا كأنّه غير مصدّق ما يسمع، وتبادل الجماعة النظرات غير مصدّقين بدورهم أن يكون الرجل هو بحقٍّ وصدق أبا بدر الدين، وأنّ الحظّ قد جمع الأب وابنه في النهاية. بدأ الصمت يمتدّ ويثقل، فشقّه صوت الرجل بالبحّة التي عرفه بها ابنه:

- ما الذي جاء بك يا بني؟ كيف تخرج من بلدك اختيارا؟

فوجئ الجميع بسؤاله و لم يفهموا مرماه. و لم يتكلّم أحد. أضاف الرجل سائلا وعضلات وجهه جامدة كأنّها قناع:

- وكيف حال عمّك أحمد.. ألا يزال غارقا في كتبه؟

عند هذا الحدّ تأكّدت هويّة الرجل، وعرف الجميع أنّه الأب الحقيقي لرفيقهم، فقاموا يسلّمون عليه ويهنّئونه. لم يقل الرجل شيئا آخر، وإنما بحث عن رأس ابنه فكشف العمامة التي تغطيه، ومرّر يده على الشعر الأسود الكثيف يمسحه بكفّه، وشفتاه تتحرّكان بصوت غير مسموع.

عندما التأمت الأسرة الصغيرة في دار الغزل، كان أفرادها موزّعين بين الفرح والحزن، فما زال هناك غائب عزيز تدمع العيون كلّما جاء ذكره، لكن لهجة بدر الدين كانت متفائلة مطمئنّة، فالمغامرات العجيبة التي أوصلته إلى أرض إفريقية سالما، والصدف التي جمعته بوالديه دلّته على أن لا مجال لليأس والقنوط، وأنّ عمّه أحمد سيعثر على طريقة يصل بها إليهم ولو طال الزمن.

وعندما جاء أحمد الجيّار يودّع الجميع، قبل عودته إلى تونس، استأذن بدر الدين من أبيه وأمّه في أن يذهب عوضا عنه، فمازال أمامه البحث عن عمّه إن كان وصل بعد، أو استنشاق أخباره من خلال التجّار المتردّدين على العاصمة، خاصّة وهي مقبلة على أيام هدوء في ظلّ الحكم العثماني الجديد، قال لأبيه:

- لم يعد هناك ما أخاف منه، فالطريق آمنة والسفن ستتدفّق على تونس، ومنها يمكنني معرفة أحوال المهاجرين والباقين في بلادنا، أقصد في الأندلس. ثم إن عمّ أحمد الجيّار قد ركب الأهوال من أجلي وأهمل تجارته ومصالحه، فمن رأيي أن أساعده على استعادة نشاطه التجاري.

لم يعترض الأبوان، ولكن أحمد الجيّار أصرّ على تفقّد محلّه بنفسه، مُعفيا بدر الدين من واجب ردّ الجميل. قال له الشابُّ:

- أحسن الأمور في رأيي أن تبقى مع عائلتك قرب والديك، فتؤانسهما بعد وحشة الأيام الماضية، على أن أسافر إلى تونس وفي رفقتي يوسف المخلص، فنقدّم الشكر إلى الشيخ القشاش على إعانته وإرشاده، ونعيد إليه الكريطة والحارس، ومن ثم نتفقّد أحوال المخزن والبيت، ونطمئنّ على ظروف العمل، وبعدها نعود إليكم.

وقال محمد الحجري:

- من الخير أن تبقوا معنا يا سي أحمد، فأولادك استأنسوا بنا، وأحسنا بدورنا أنهم جزء منّا. فابقوا جميعا هنا إلى أن يعود بدر الدين فتطمئنّ على بيتك ورزقك.
- جزاكم الله خيرا، وإن كنت أتصوّر في المهمة إرهاقا كبيرا لبدر الدين وصاحبه.
- بدر الدين صار ابنك كما هو ابني، وهو يطلب مصاهرتك وخطبة مرجانة منك، فلن يكون غريبا بعد اليوم.
- لا أرفض طلبا كهذا يا سي محمد، ومن أسباب سعادتي أن تضمنّا أسرة واحدة.
- دعه يذهب إذن في رعاية الله.
- حاذر يا ابني من الإسبان، فقد يتعرّفون عليك بواسطة الوشاة وتُحبس، وحاذر زمازمة السلطان وقُطّاع الطرق. لا تبتعد عن سلاحك طول الطريق.

أجاب بدر الدين وهو متأثر بالخطبة التي تمت بين الشيخين في لحظة عين:

- بارك الله فيكما وسأبذل جهدي حتى أعود لكم سالما.

قال الشيخ محمد:

- لقد علمت بنشأة مدينة جديدة قرب تونس، فيها بيت علم وحكمة ومتحف للأديان، صاروا حديثا للناس وقبلة للعلماء وروّاد المعرفة، فإذا رأيت أن تقصده لعلّ عمّك الشيخ أحمد انساق كعادته وراء الكتب والمكتبات، واستقطبته سمعة هذه المدينة وما شاع عنها أنها تكرم وفادة أمثاله وتوفّر لهم ما يطلبون.
- سأقصدها في أوّل فرصة تتاح، فأنا أيضا في شوق إلى الاطّلاع على ما توفّره هذه المدينة لسكانها من رخاء وطمأنينة وطيب مقام.

قال أحمد الجيّار محذرا:

- إيّاك إن ذهبت إليها وطاب لك المقام، أن تبقى هناك وتنسانا..!

وبين ضحك الجميع قام بدر الدين مودعا وغادر المكان.

وعادت الكريطة من حيث جاءت قبل أسبوع، ولكن بدون ركابها الأوائل، ووقفت الأسرة كاملة تودّعها، الرجال عند باب الدار والنساء فوق السطح، أما الطفلان فأخذا يجريان وراء العربة إلى أن دارت وراء منعطف ينحدر بشدّة نحو السهل. وعندما عادت درعيّة إلى البيت وجدت مرجانة انزوت في أحد الأركان تبكي، وقد غطت رأسها برداء فضفاض لئلا تنكشف دموعها.

كان يوسف الذي تطوّع بمرافقة بدر الدين إلى تونس شابًا قويّ البُنية، سمح الطباع لمن يحاول الاقتراب منه، لكنّه مشاكس عنيف إذا واجه تحدّيًا أو شكّ في غدر مُبيَّتٍ. وإضافة إلى طيبة قلبه التي تشبه السذاجة يمتلك نباهة فطريّة تجعله أقرب إلى غريزة الحيوان في التنبّه إلى الخطر والتحفّز للدفاع عن النفس، وأحيانا للهجوم والعدوان.

مشى الزمزمي حذو العربة بفرسه عيناه ترصدان الأفق، ورفيقاه على الكريطة يتبادلان حديثا لم يهتم به ولم يشارك فيه، لأنّه يحس بالتوتّر من جرّاء الأخبار الجديدة، فهي أخبار إن صحّت ستقلب معادلة القوى مرّة أخرى في حاضرة السلطنة. وقد تداولت في رأسه طول الطريق صور متضادّة متنافرة عمّن سيربح الحرب ومن سيخسرها، ومن السلطان الجديد الذي سيحكم البلاد: حامد أو محمد، أم أنّ الحسن الحفصي سيقوم ثانية من قبره ويطالب بالعرش؟ لكم اختلطت الأمور، وتعقّدت حتى لم يعد بسطاء الناس يفهمون إلى أين تسير بلادهم وأيّ مستقبل ينتظرها؟ ثم عنّ له فجأة أن يقطع حديث الرجلين:

- ألا تظنّان أنّ الله غضب على هذه البلاد فحكّم فيها أسوأ السلاطين، ثم زاد فأرسل إليها خصمين عنيفين ضاقت بهما أرض الله الواسعة كلّها فجاءا يتعاركان فوق رؤوسنا؟ ويا ليتها كانت رؤوسا ضخمة عليها عمائم بالياقوت! انظرا ها أنا أعرّي رأسي وهاكم قرعتي... فما الذي يُطمع الناس فينا؟ قل يا سي يوسف... قل يا سي بدر الدين!

كان الرجل قد نـزع عمامته بالفعل وعرّى صلعة ملساء التمعـت تحـت الشمس، فضحك الشابان من حركته، وَالْتَمسا له عذرا فيما حـدث ويحـدث بالبلاد والعباد في تلك الأيام.

سأل يوسف رفيقه عما إذا كان من السهل على الأتراك دخول تحصـينات الإسبان لأنّه يعرفها ويعرف مدى صمودها في وجه الغُزاة. أجابه بدر الدين:

- لا شكّ أن الترك سيبدأون بالمحاصرة، ثم التضييق والمناوشة، إلى أن يخرج إليهم النصارى، فإذا طال الانتظار و لم يخرجوا داهموهم... والأمر يتوقّف على مدى صبر المتحصّنين، وعلى قوّة المدافع التي جلبها الترك. وما أعرفه أنّ قائد النصارى قد احتاط وتزوّد بما يكفيه من الماء والمؤونة والـذخيرة ليصمد مدّة طويلة. ثم إنّ حصن حلق الوادي، كما تعلم، شديد مـتين، يمشي على سوره سبعة فرسان جنبا إلى جنب، فلا سبيل إلى هدمـه في وقت قصير. والأمر متوقّف في كلّ حال على مدافع الأتراك وعلى مهارة قوّادهم. إضافة إلى هذا كلّه نحن لا ندري نوايا السلطان الحفصـي وإلى من سينحاز.
- نحن مقبلون على مدينة الطلاسم إذن... وافرحتاه!

عقّب الحارس:

- منذ خمسين عاما، أي من أيام السلطان حسن، لم تعرف تـونس طعـم السعادة والهدوء.. حياتها هي الحروب والفـتن وغـزوات النصـارى وخصومات حسن مع العربان ومع أولاده، ثم أولاده فيمـا بينـهم، ثم أولاده مع الأتراك، ثم الإسبان مع الترك... سلسلة مستمرّة لا يعرف إلاّ الله متى تنتهي.

لما وصلت القافلة الصغيرة إلى أطراف العاصمة نصح الحارس بدخولها ساعة الغروب من جهة سيجوم إلى حدود مقبرة الزلاج، ومن ثم التسلّل إلى باب الجزيرة حيث دار أحمد الجيّار، مع الابتعاد عن القصبة لأنها غالبا ما تكون مليئة بالعسـس أو محاطة بالعيون.

وزيادة في الاحتياط تقدّم الفارس مسافة غير قليلة ليكتشف حال الطريق، وكيف تقاسمت الأطراف المتحاربة مناطق النفوذ. لكن الحال هادئ في تلك الأمسية، ولم يقابل الجماعة سوى بعض الأهالي يسرعون بقضاء مآرهم متعجّلين كالخائفين من أمر وشيك. ولم يكن هذا من الأحوال الغريبة عل أهل تونس، فالحرب ابتلتهم بالخوف الدائم. كان السور وهم يمرون خلفه من جهة الغرب هادئا لا يظهر فوقه أو بقربه أي أثر للحراس. تساءل بدر الدين متعجّبًا:

- أ لهذا الحدّ ساد الهدوء، رغم القوّات المتواجهة؟

أجاب الحارس:

- جمود مليان بارود... غدًا يأتيك الخبر!

باتوا ليلتهم الأولى في دار الجيّار منهكين من تعب الرحلة، لكنّهم لم ينعموا بالراحة ولم يطل انتظارهم إلى الغد، فقد قفزوا من عزّ نومهم واقفين، لأنّ ساعة القيامة دقّت عل ما ظنّوا، وهم يرون الأبواب والنوافذ وخشب السقف ترتجف من قصف المدافع في ضربات يتلو بعضها البعض دون توقّف.

قال يوسف وعيناه جاحظتان:

- كم عددهم يا ترى؟

أجاب بدر الدين: مائة.. مائة وخمسون... مائتان... الله أعلم.

ضربة البداية كانت قبل انقشاع الظلام، وتبعتها أخريات، فأحدثت زلزالا أيقظ يوسف وبدر الدين مفزوعين، وأعلمهما بوصول الأتراك وبداية اشتباكهم مع حامية حلق الوادي. فرك يوسف يديه بعد ما زالت دهشته الأولى وسأل:

- ابتدأت النهاية يا بدر الدين.. إذا استمرّ الضرب على هذه الوتيرة فسينهار الحصن العظيم في يومين.

ضحك منه بدر الدين:

- هل هو كدس حجارة يا غافل؟ إن كنت تقصد حصن حلق الوادي فلابُدّ من ضربه أسبوعا لإحداث بعض الضرر بالسور.

- فليكن... ننتظر أسبوعا!

- هذا أقلّ ما يمكن، فعرض الأسوار ما بين الخمس عشرة والعشرين قدما، كلّها من حجارة منحوتة رصّت وبُنِيت بإتقان وصنعة، فهل تظنّها ستنهار بسهولة؟ ثم إنّ الأتراك لن يقدروا على الاقتراب من الحصن، وسيكتفون في أوّل الأمر بالضرب عن بعد، لأنّ خندقا مزوّدا بماء البحر عرضه يسمح بمرور سفينة يحيط بالبناء من كلّ الجهات.
- وما الذي يمنع الأتراك من دفع سفنهم في ذلك المجرى؟
- تمنعهم الحامية المنتصبة على الأبراج، وهي أربعة داخلية وأربعة خارجية. وأتصوّرهم جميعا في حال استنفار، وقد تحصنوا وأغلقوا الأبواب، وردّوا على المهاجمين بضرب مماثل.
- ولكن إلى متى؟
- لقد زرت الحصن وأعرف ما فيه من أسلحة وذخائر... إنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم لمدّة طويلة دون أن يحتاجوا إلى نجدة خارجيّة.
- هذا من حيث الذخيرة والسلاح... بقيت المؤونة فمن أين؟
- اسمع يا يوسف... هؤلاء الإسبان شياطين، قد تفنّنوا في حيل الحروب فلا يفوتهم منها شارد ولا وارد، وهم يدّخرون في الحصون المعرضة للحصار كل ما يلزم ويغني عن انتظار العون الخارجي لمدّة طويلة. فإني رأيت نواحي من السور مجوّفة لاحتوائها على مواجل حفظ الماء، ورأيت مخازن كثيرة لحفظ المؤن، كما رأيت عندهم طاحونة كبيرة وفرنا لصنع الخبز.
- إنّه لأمر عجب!
- ولِمَ تتعجّب يا يوسف؟ هكذا تكون الحروب إذا أردت الانتصار فيها... والإسبان رتّبوا أمورهم على استيطان حلق الوادي، في الساعة الحاضرة على الأقل، للدفاع عن جنوب أروبا، والتحكم في حركة الدخول والخروج إلى تونس، واستعملوه بالمناسبة عشا لجواسيسهم وملجأ لعملائهم من السلاطين الخونة، أو التجار ذوي المصالح مع أروبا.
- وفي مرحلة ثانية يتسرّبون إلى بقيّة البلاد لاستعمارها.

- هذا غرض غير معلن إلى الأمس القريب. لكن بناء البستيون وما جرى يوم الاحتفال ببدء البناء جعلني أعتقد أنّ الإسبان ينوون السيطرة على البلد بكامله، وإنما هم يؤجّلون الأمر انتظارا للوقت المناسب.

قضى الشابان وقتهما في موازنة الأحداث واستقراء ما سيأتي به الغيب، إلى أن طلع النهار وتسلّلت أضواؤه إلى صحن الدار، عند ذلك صعدا السطح لاستطلاع الأفق من ناحية البحيرة حيث تدور المعركة. مدّ بدر الدين ذراعه إلى ناحية دخان يتصاعد نحو سماء زرقاء صافية وقال ليوسف:

- الدخان يستر أغلب السفن فلا تمكننا رؤيتها بوضوح إلاّ عندما تسكت المدافع، ولكن يمكننا تخيّلها وهي تحيط بالحصن من جهات ثلاث على الأقل، وتقذفه بالكور والبارود وبالسهام النارية وغيرها، فيردّ عليهم عساكر الحصن بالمثل... وهكذا.
- لا يبدو الحصن بعيدا جدا عن تونس.
- تراه بوضوح لأنّ الجوّ صاف، أمّا الذهاب إليه فكان يأخذ منا على الخيل أربع ساعات إذا سلكنا طريق قرطاج، وإذ قصدناه من ناحية رادس فلا تأخذ الطريق إلاّ ثلاث ساعات، لكن هذه غير مأهولة ولا آمنة مثل الأولى.
- وما ذلك البناء الذي يتوسّط البحيرة؟
- ذلك حصن جزيرة شيكلي أنشأه الإسبان منذ الاحتلال الأوّل، هو يبعد عن تونس ثلاثة أميال، وعن الشاطئ ميلا واحدا.
- وهو بلا قيمة إلى جانب حلق الوادي.
- لا يوجد حصن بلا قيمة... لكن لكلّ واحد دوره. وهذا جُعل وسط الماء ليصعب الاقتراب منه، واختصاصه هو منح النجاة لما يقارب الثلاثمائة جندي عند الضرورة، وفيه مخازن كبيرة للمؤونة والسلاح تصلح لنجدة المحاصرين.
- وهل تظنّ الحصار يطول يا بدر الدين؟
- أظنّه سيطول، وستصاحبه معارك كبيرة وخطيرة.

فيما كان الاقتتال متواصلا في حلق الوادي وصل لمحاصرة تونس حيدر باشا من القيروان، ومصطفى باشا من طرابلس ورمضان باشا من الجزائر، فأعالهم سنان باشا بالعسكر والمدافع، وأوصاهم بتطويق أهل البستيون من كلّ الجهات، وتلهيتهم بالمناوشات إلى أن ينتهي حصار حلق الوادي.

فلمّا رأى السلطان محمد الحفصي، ومن معه من النصارى، كثرة عساكر الترك، علموا أن لا طاقة لهم بقتالهم لأنّ أغلب تحصينات القصبة مخرّبة، ومثلها المدينة هُدمت وغادرها غالب أهلها. فخرج إلى الضواحي بمن معه من فلول حرسه ومرتزقة البدو، فعملوا لأنفسهم متاريس من الخشب حشوها بالرمل والتجأوا فيها مع سلاح وطعام كثير. في الأثناء اغتنم باشاوات الترك فراغ القصبة وخلوّ المدينة فدخلوها من كلّ جهة وحصّنوها. ولما جاء القائد سنان وشاهد تحصينات البستيون، أشار بتوزيع العسكر على كلّ جهاته، ورفع هضاب حجر وتراب تنصب فوقها المدافع لتصّب نارها في قلب المعسكر، وأن تحفر خنادق حول السور لحماية الجند، مع الاستمرار في الضرب والمناوشات، كما هو حادث في حلق الوادي، إلى أن يرهق المدافعون وتخور قواهم، عند ذلك تنصب السلالم، ليقفز منها الأتراك إلى داخل البستيون، ويجهزوا عل من بقي فيه.

دخل الأتراك حيّ باب الجزيرة لينصبوا فيه مدافعهم، وبذا صارت الحرب دائرة في قلب المدينة فلا مجال لأحد أن يلازم الحياد. عندها قفز الجواسيس والعملاء سريعا ليتحصّنوا مع أصحابهم الإسبان، وتبع السلطان الحفصي أنصاره إلى البادية، وأمّا الذين فرحوا بالنجدة التركية فتطوّعوا لرفع الجرحى ودفن الموتى وحفر الخنادق. ومن بين هؤلاء كان يوسف وبدر الدين، وقد جلبت شجاعتهما أنظار الضبّاط الأتراك، فكلفوهما برعاية التحصينات وتعهّدها. وهنا أظهر بدر الدين مهارته في البناء والهندسة الحربيّة مما أهّله لقيادة فريق الإسناد.

حُفرت الخنادق يتلو بعضها بعضا، واقتربت من سور البستيون ليلة بعد ليلة، وكلّما حفر خندق مُلئ بالجند مع سلالم طويلة أعدّت للهجوم الأخير. لكن هذا الموعد تأجل مرّات لأنّ الإسبان قاوموا بشدّة مؤملين وصول نجدة من أوروبا لكنّها لم تأت. ثم نالتهم الضربة القاصمة يوم سقط حلق الوادي، وكان يوما حزينا، سلب

منهم كلّ أمل وهيّأهم للهزيمة الوشيكة. لقد خضعوا للحصار أربعين يوما مستمدّين الصبر والشجاعة من صمود حلق الوادي مطمئنّين بدويّ المدافع من جهة البحر يخبرهم أنّ إخوانهم صامدون، رغم المعارك الدامية، وانقطاع المساعدات.

وذات يوم سكتت المدافع، مضى شوط من النهار في هدوء كامل، فظنّوها هدنة أو استراحة قصيرة، لكن الشمس غربت والمدافع على صمتها، عندئذ تخشبت عروق القائد سربلّوني، وتجمّدت دماء الجنود. و لم تطل بهم الحيرة إذ ارتفعت ألسنة النار وسُحب الدخان لتسدّ الأفق، ولتعلم الجميع بأن أخشاب المخازن ذهبت طعما للّهب وأن الفرقعة الهائلة التي يسمعونها هي صوت بارود تلك المخازن، ثم ها هو الحصن بكامله يتفجّر من جهات ثلاث بفعل الألغام التركية وتتناثر حجارته بددا في الفضاء.

نادى يوسف من أعلى السلم وهو يميل برأسه يمينا وشمالا تحاشيا للقذائف والسهام والحجارة المتهاطلة من الأسوار كالمطر، فجاء بدر الدين مسرعا ودفعه إلى داخل الخندق ونزل خلفه وهو يلومه:

- لا تطلع رأسك فوق الأرض شبرا واحدا في المستقبل إلاّ إذا قرّرت الموت. والآن قل بسرعة لماذا هي المخاطرة؟
- في أسفل الخندق كتيبة جديدة وصلت بعد سقوط حلق الوادي، وهي الان تستريح لتأخذ دورها في الضرب والحراسة ليلا.
- وما الجديد في ذلك؟ فكلّ يوم هناك كتائب تعوّض كتائب.
- الجديد أنّ فيها عساكر إسبان. لقد سمعت واحدا من أفرادها يخاطب زملاءه بلكنة إسبانية، وأحيانا عندما يعجزه التعبير ينساق في الكلام بالاسبانية. ثم إنّ الجميع ينادونه فالنتينو... ولهذا أردت منك مشاهدة هذا الرجل فلعلّه جاسوس يدبر غدرا.
- هذا شيء مريب، فهيّا بنا إلى تحت.

ونزلا في سُلّمين متجاورين، فشاهدا أفراد الكتيبة يتفقدون أسلحتهم، وفي أحد الأركان يجلس الشخص الذي قصده يوسف، فلما رآه بدر الدين صاح فيه بأعلى صوته:

- ريفاس... ما الذي أتى بك إلى هنا؟
- بدرو أيّها الملعون... هل بعثت من جديد؟ الجميع يظنّونك ميّتا، وها أنت واقف أمامي كالمارد.
- دعك من موتي، وأخبرني كيف أتيت إلى هنا؟

أمسك ريفاس مخاطبه من ذراعه وانتحى به جانبا من الممرّ الضيّق، فتوقّف أفراد الكتيبة عن الحركة ليتابعوا حوار الرجلين:

- لقد فعلت مثلك يا بدرو، فمصير البستيون معروف ولا فائدة من العناد، لكن قادته المترمّتين المتهوّرين عازمون على المقاومة إلى أن ينهدّ الحصن عليهم وعلى جنودهم... إنّه انتحار جماعي! لقد بعثوني في مهمّة تجسّس فتصنّعت الفرار كما فعل كثير من الجند وحرّاس الأبواب على أن أعود إليهم بأخبار جند الأتراك، لكنني بعد موازنة القوى خيّرت البقاء على العودة إلى هناك، حيث الحصار والعناء المتواصل، ثم الموت في أشنع صورة.
- ولكن الفرق بيني وبينك أنّني لم أهرب لأنّ مكاني الطبيعي هنا، فأنا أندلسي مسلم واسمي بدر الدين، وإنّما شاركت في الحملة متخفّيا في كتيبة القبطان أنسارت للّحاق بعائلتي اللاّجئة في تونس.
- أنا أيضا أسلمت، وها أنت تراني بزيّ الجيش العثماني أدافع عن المسلمين ضدّ النصارى.
- هذا ما يظهر للعين يا ريفاس، وما في قلبك يعلمه الله.
- لا تتحدّث عنّي بهذا الشكل، فهذا ظنٌّ سيّء وهو ضدّ الدين سواء هنا أو في البستيون. على كلّ الأحوال فالقادة الأتراك واثقون في إخلاصي، وقد كلفوني بأداء مهمة عسيرة في البستيون ولا أدري كيف سأقتبل هناك؟
- ما معنى هذا؟... هل ستكشف لهم عن نفسك وعن هروبك؟ إنّك ستقتل ولا شك.
- كلّفني سنان باشا بحمل رسالة إلى سربلّوني، والرسول لا يقتل عند الأمم المتحضّرة.

- لكنّك لست رسولا عاديًّا، فهم يعتبرونك هاربا وخائنا ومرتدًا إلى غير ذلك من الصفات، ولديهم بها قائمة أطول من قائمة الرتب العسكرية.
- حفظت دوري، وسأعرف كيف أخاطبهم لعلّني أنقذ أرواح الجند المحاصرين من تعنّت قادهم، فيؤخذوا للأسر عوض أن تتناهبهم السيوف.
- ومتى ستذهب؟
- قبل الغروب على ما أظنّ، فقد بعثت إلى هنا مع هذه الكتيبة المكلّفة بحراستي وتغطية عبوري خط النار إلى غاية البوّابة الكبيرة، وها أنا انتظر الفارس المكلّف بتسليمي الرسالة. هذا ما طلب منّي!
- وهل يمكنني باسم رفقتنا القديمة أن أطلب منك خدمة إضافيّة؟
- مهمّتي عسكرية ومحفوفة بالخطر، لذا أشكّ في قدرتي على قضاء أي شأن آخر غيرها.
- لما أطلبه منك علاقة وطيدة بمهمّتك العسكرية، لها نفس الأهداف، ثم هي لا تكلّفك مجهودا خاصًّا.
- اشرح ما هو مطلوب، وسأحكم وأعطي رأيي فيما بعد.
- يبدو عليك التوتّر والعصبيّة، لماذا أجد كلامك جافًّا وثقيلا؟
- لأنني قد أموت عند العبور ولا أصل إلى الباب. هل لديك فكرة عن كمّية القذائف المتبادلة بين الخصمين؟ تصوّر أنني سأمرّ من خلالها... أتظنّني أنجح في ذلك دون أن أفقد رأسي أو رجليّ؟
- أرجوا أن تصل سالما وتؤدّي مهمّتك وترجع.
- هات ما عندك الآن!
- يمكنك على ما أعتقد توجيه كلمتين إلى أنسارت قبطان كتيبة الحرف والصنائع التي كنت فيها، وأنت تعرفه جيّدا.
- ولماذا لا تكتب إليه الكلمتين وتعفيني من لقاء غير مجد؟
- قد يفتّشونك أيّها الذكيّ ويعثرون على الرسالة فيمنحونك شنقا إضافيًا. افهمني جيّدا... ستجد فرصة ولو صغيرة ليتكلّم الرجل على لساني، تظاهر بأنّك تسلّم عليه وأوصه بأن يحتمي في السجن مع من بقي من

كتيبته عند أول اقتحام للبستيون.

- ولماذا السجن؟
- نعم، عليه الاحتماء بالسجن وغلق أبوابه جيّدا، لأنّ تلك علامة اتفقت مع القيادة بشأنها، بعد أن أقنعتهم أنّ أنسارت وفرقته لم يحاربوا وإنّما قاموا بمهمّات صناعيّة، ولذا ليس من العدل قتلهم إذا لم يجرموا، وبأنّهم مهرة في صنع المدافع وسبك الحديد، في البناء ومدّ الجسور وغير ذلك، فلماذا لا يُنتفع بهم بعد نهاية الحرب لإصلاح ما فسد؟
- فأنت إذن مهتمّ جدًّا بإصلاح ما فسد في البلاد؟
- مهتمّ بالفعل لأنني سأقيم هنا بقيّة عمري، ثم لأن ذلك القبطان أعانني على تنفيذ خطّتي، و لم أر منه إلاّ سموّ الخلق وعلوّ الهمّة.
- سأحاول من أجلك الاقتراب منه وإبلاغه تحيّاتك.
- لا تذكر اسمي.. وإنّما أخبره بما قلت لك نقلا عن شخص يحترمه ويريد له الخير. هذا كلّ شيء وأرجو لك العودة سالما.

لم يعلم المتحصنون في البستيون بتفاصيل ما حدث في حلق الوادي إلاّ في رابع يوم عندما عاد إليهم جاسوسهم فالنتينو، وكانوا يتصيّدونه لأنّه تركهم دون أخبار مدّة فاقت العشرين يوما، ويوم قدم عليهم كان في زيّ عساكر الترك ولديه رسالة من سنان باشا إلى جنرال البستيون. لكنّه منذ أوّل لقاء برفاق الأمس رأى العداوة في وجوههم واستشعر الخطر، فأقسم بأغلظ الأيمان أنّه لم يكن حاضرا عند سقوط حلق الوادي، وأنّه لولا الفرصة التي سمحت بها هذه الرسالة لما أمكنه اجتياز الخنادق والتحصينات للوصول إليهم. وبدأ الاستنطاق لمعرفة كيف كُلّف بإبلاغ الرسالة، وكيف أنّ العراقيل زالت من وجهه هذه المرّة؟ فروى أنّه بقي في الخنادق أربعة أيّام ينتظر فرصة سانحة للاقتراب من البستيون، إلى أن أتى ذلك الصباح فارس تركيّ يسأل عساكر الخندق هل بينهم رجل شجاع يريد التضحية لخدمة السلطان، وأنّه اغتنم هذه الفرصة وتطوّع لأداء الرسالة مبتهج النفس، لأنها ستفتح أمامه الطريق إلى الحصن.

صمت الضبّاط المحيطون بريفاس مرتابين، ورأى ذلك واضحا في عيونهم فاحتجّ أنه لو لم يكن مسيحيًّا مخلصا يقبل الموت في سبيل عقيدته ما كان يتطوّع

لأداء المهمّة، فيجيء إلى الحصن بعد سقوط حلق الوادي، وظهور بوادر الهزيمة. وفي الختام ترك الخيار في يد القوّاد إن شاءوا أعادوه حيث كان ليؤدّي الواجب المطلوب منه، وإن شاءوا أن يقعد معهم في الحصن قعد.

كان يذرف الدمع غزيرا مع كلّ كلمة، ويقبّل الصليب من حين لآخر، إلى أن رقّت قلوب الحاضرين لهذا المسكين الذي لم يفعل سوى القيام بواجبه حسب ما تتيح له ظروفه الصعبة. واتّفق الجميع على حبسه إلى أن يقرأ القادة الرسالة ويبتّوا في الردّ المناسب.

كتب على غلاف الرسالة: «جناب السيد ڤبريو سربلّوني جنرال بستيون تونس، وإلى قائد عسكر السبنيول، وإلى بڤانو دوريا».

وهذا نصّ ما جاء فيها: «أيّها السادة العظام، أعلمكم أنّنا في 23 من هذا الشهر استولينا على حلق الوادي، وأنّنا أسرنا دون بياترو والسلطان، أمّا باقي الحامية التي لم تستجب للإنذار فقد أعملنا فيها السَّيف، لأنّه لم يكن بالإمكان شيء آخر للأسف. فلتأخذوا مما حدث عبرة، ولتعملوا عند علمكم بمحتوى رسالتنا على تسليم البستيون ومن فيه. فإذا استجبتم ووافقتم أعطيتكم عهدا بأنّكم تخرجون سالمين أحرارا أنتم الثلاثة، ومع كل منكم خمسة من رجاله يختارهم، وإذا أبيتم فسنفعل بالبستيون مثل ما فعلنا بحلق الوادي الذي طالما افتخرتم بمناعته وقوّته. كتب في 23 أوت الإمضاء: سنان باشا قائد جيش السلطان الأعظم».

رأى القوّاد جميعا أن يُرفض الاقتراح، لذا طووا الرسالة ولفّوها بقطعة رصاص ورموها في خندق الأتراك، واستمرّ الحصار شديدا، وتهدم جوانب القلعة متواصلا لمدّة عشرين يوما أخرى، إلى أن نزف الإسبان دماءهم وقواهم وبلغوا غاية الإنهاك، فخرجوا هاربين ناحية البحيرة، لكن لحق بهم الأتراك في الماء وأفنوهم بالسيوف والسّهام قبل أن يصلوا إلى حصن شيكلي الذي استسلم قائده أيضا وخرج طالبا الأمان، وبهذه الواقعة انتهت أطماع الإسبان وحلفائهم في الحصول على موضع قدم في تونس.

أسرع بدر الدين يوم اقتحام البستيون إلى ناحية السجن فوجده محكم الإغلاق. كان متّفقا مع قائد الكتيبة أن لا يصيب المحتمين بالسجن أيّ ضرر إذا أعلنوا الاستسلام، وأن لا يؤخذوا أسرى إلى سنان باشا. لكن الجميع فوجئوا عند وقوفهم على الباب بصوت ينادي من الداخل بلكنة إسبانية:

- يا بدر الدين!... أين أنت يا بدر الدين؟ تعال ولا تكذب عليّ... ألم تعدني بالإنقاذ والسراح أنا والقبطان أنسارت؟ هل تحايلت عليّ لتدخلني السجن؟
- اسكت يا باش كذّاب! ها آنا جئت ومعي قائد الكتيبة ليشنقك لأنّك فضّلت البقاء في البستيون عوض الرجوع بالردّ إلى القائد الذي أرسلك.

هذا ما أجاب به بدر الدين على استغاثة ريفاس وهو يضحك من هلعه وارتعاش صوته. وعندما كسر الجند الباب وأخرجوه في مقدمة المساجين، ارتمى المسكين على قدمي الضابط التركي يرجوه أخذه سالما إلى القائد سنان، ليشرح له كيف أدّى المهمّة، لكنّه لم يستطع العودة لأنّ الإسبان حبسوه وكادوا يقتلونه. كان يحلف بالله ويعدّد أسماءه الحسنى كمسلم شديد التقوى، ويذكر إخلاصه في خدمة الجيش العثماني، وكيف غامر بحياته لإيصال الرسالة، إلاّ أنّ الكفرة ضربوه وسجنوه. كان المسكين يتضرّع ويلتفت من حين لآخر ناحية بدر الدين مستجيرا ومذكّرا بما دار بينهما عشيّة ذهابه للمهمة. قال له وهو يشير بيده إلى داخل السجن الذي لم يخرج منه إلى ذلك الحين أحد غيره:

- انظر إلى الداخل يا بدرو... أقصد يا بدر الدين! تأمّل ستجد هناك الضابط أنسارت وجماعته، أو على الأقلّ من بقي منهم... تأمّل داخل السجن لتصدّقني، أخبر البلوكباشي أنني نفّذت الوصيّة تماما، ورسالة الباشا قائدنا قبل كلّ شيء، ولكن الإسبان هم الذين...

قاطعه الضابط منتهرا:

- سكوت... نظام!

ثم أخذ بدر الدين جانبا، وأوصاه بإخراج جميع المساجين تحت الحراسة، ومعهم ريفاس، للذهاب بهم إلى الباشا. فسأله إن كان سينفّذ وعده بالدفاع عنهم لدى القائد فأجاب بحزم:

- معلوم بدر الدين أفندي، عهود وثيق محترم!

وانصرف الضابط إلى المهام الكثيرة الموكولة إلى المنتصرين الجدد، فطمأن بدر الدين المساجين الخائفين، وطلب منهم مصاحبة حراسهم إلى خيمة الباشا حيث سيقرر مصيرهم. نظر أنسارت إلى بدر الدين و لم يفه بكلمة، لكن عينيه امتلأتا شكرا وعرفانا بالجميل.

كان يوسف في ربكة اقتحام البستيون قد سقط من احد السلالم، فتهشم جسده وغاب عن الوعي أياما وليالي. وقد هتف كثيرا باسم صديقه وهو على سرير المستشفى، ولما لم يستجب له، ألحّ في النداء، حتى صار لا ينام إلاّ واسم بدر الدين عل لسانه. وذات يوم وقد اشتدّت به الحمّى، رأى شفقا أحمر بين سماء وأرض خاليتين، وإذا بدر الدين يتجسّم شيئا فشيئا ويملأ ذلك الأفق، صورة غائمة أوّل الأمر، ثم كائنا كاملا يلبس ثيابا حريريّة بيضاء، ما أبعدها عن ثياب يوم الحادث المتّسخة فينظر إليه بحنوّ ويقول:

- ها أنا يا يوسف!

فيسأله صاحبه بعتاب:

- الم تتألّم لمصابي أيّها الصديق؟ ألم تعلم بأنّ جسمي كلّه تحطّم عند ارتطامه بأرض الخندق فلم يبق لي عضو أعتمد عليه. أين رجلاي؟ أين ذراعاي القويّان؟ بل أين رأسي؟ إنّي أنزف من كلّ مكان... وقد ناديتك أيّاما وليالي. فمالك لم تأت لنجدتي؟

- ها أنا جئت يا يوسف، لا تخش شيئا ستعود أعضاؤك إلى عافيتها الأولى، لا تحزن، سأخرجك عمّا قريب من هذا المكان، وأذهب بك بعيدا عن موقع الحرب لتسترد صحتك في هدوء.

- كيف تأخذني وأنا رُكام زجاج مهشم؟ لا بُدّ أن أشفى قبل ذلك.

- ستشفى عندي وفي بيتي، ألم تطلب منّي المساعدة؟ ها آنا جئت لآخذك إلى حيث الراحة والسلام، إلى مكان اهتديت إليه بعيدا عن الحرب والخصام، والمدن المبقورة المفتّتة، والجثث المتفحّمة من نار المدافع.

- وأيّ مدينة سلمت في أيامنا من كلّ هذا؟ إنّك تتحدّث عن حلم لا عن مكان موجود فعلا.
- هي مدينة لا تعرف روائح البارود ولا دخان الحرائق. لم تسمع أنين الجرحى ولا صياح الثكالى. لم يعرف الألم طريقه إليها أبدا، وليس إلاّ السرور الدائم وراحة النفس منذ أن تدخل أبوابها.
- هي مدينة ماذا... هذه؟
- مدينة للسلام وللأحلام، كما تصوّرها فلاسفة العرب واليونان دون أن يحقّقوها.
- خذني إليها يا بدر الدين... فأنا ما استطعت في حياتي كلّها أن أحقّق حلما، مهما كان بسيطا.
- سأحقّق أحلامك عندما تذهب معي إلى المدينة.
- وكيف أذهب معك؟ ألا ترى حالي وما أنا فيه؟
- يوم أو يومان وتستعيد عافيتك. فتذهب إلى العالية وتأتي بأهلي وأهلك.
- وأين أجدك عندما أعود بهم؟
- سأنتظرك في المدينة حيث سنستقرّ جميعا.
- ذلك ما أتمنّى يا صاحبي! ولكن...

وبدأت صورة بدر الدين تغيب عن ناظري يوسف وسط ضباب خفيف، حاول تجليته برموشه ويديه ليبقى يقظا ويواصل الحوار مع صاحبه.

- أتدري أنّ جماعة من الحجيج المغاربة كانوا عندي منذ قليل ومعهم جريح أندلسي الأصل؟
- هل شاركوا في المعارك؟
- لا... وإنّما نهبهم قطّاع الطرق وضربوهم، وقد مرّت بهم محلّة رمضان باشا فخلّصهم وأتى بهم للتداوي، وبقي يزورهم ويتفقّدهم كلّ يوم.
- هل عرفت اسم الأندلسي، ومن أين هو؟
- قدم من الحجر الأحمر اسمه احمد، أظنّه عمّك الذي تبحث عنه.

في هذه المرّة غاب بدر الدين، و لم يظهر لصاحبه من خلال الضباب. ناداه يوسف مرّة أو مرتين ثم غلبه الإغماء، في نفس الوقت انتقل بدر الدين باحثا عن المغاربة إلى أن بانت له جلابيبهم وعمائمهم الكبيرة، فنادى:

- يا فلّش بيجارانو... يا أحمد الحجري!

رفع رجل يلفّ رأسه بضمّادات كثيرة يده البارزة العروق، وسأل عمّن يناديه، فردّ بدر الدين:

- تعال يا شيخ أحمد... أنا بدر الدين الحجري ابن أخيك محمد.

قفز الشيخ من مكانه بحركة فجئيّة حتى انفصمت الضمّادة ونزلت إلى عنقه. حدّق مليًّا في وجه الفتى وحرّك شفتيه بصعوبة:

- بدرو.. بدر الدين؟! أنا عمّك أحمد، لكم كبرت أيّها الصغير! ها أنت عجوز مثلي مع ذلك سأضمّك إلى صدري فقد اشتقت إليك كثيرا.
- تعال معي يا شيخ أحمد سآخذك إلى مدينة تبرئ جراحك وتنسيك ما قاسيت في أيّامك الماضية. تعال معي إلى مدينة السلام الدائم والعيش الهانئ الذي لا نكد فيه.
- معي أصدقاء من المغرب، رافقوني وأصابهم ما أصابني.
- ودّعهم، فأهلك أولى بك، وأشدّ اشتياقا إلى لقائك.
- لكن كيف نمرق بين المتحاربين وبارودهم يملأ الأرض والسماء؟
- سنعلو فوقهم بالجسد والروح. سنتركهم في قتالهم وننتقل إلى مدينة لا تعرف البارود ولا الحرب. بنيت للحبّ والألفة بين الناس مهما كانت أجناسهم وفئاتهم.
- أين تكون هذه المدينة يا ابن أخي؟ كن بارًّا بعمّك العجوز ودلّه عليها، فقد ملّت نفسه الخصام والجدال، و لم تعد ترى فيه نفعا لا للأرض ولا لمن عليها.
- قم معي أيّها الشيخ واتبعني إلى حيث نُعلّم الناس المحبّة والعيش في تعاون وسلام.
- حبذا يا ابن أخي... حبّذا.

اختفى يوسف من المستشفى، واختفى الشيخ الحجري أيضا، وجد الممرضون فراشيهما فارغين تتناثر عليهما الضمّادات والثياب الملطّخة بالدم. وبعد أن بحثوا في كلّ مكان، شغلتهم طلبات بقيّة الجرحى، وكانوا بلا عدد، كما اهتمّوا بدفن من لم ينفع معهم علاج فغادروا الدنيا. وآلت الحال كما هي العادة عند انتهاء الحروب وسكوت المدافع إلى تنظيف الأمكنة، رأب الصّدوع، مواساة من نكب في بدنه أو ماله، ثم إعداد العدّة لما قد يستجدّ من فتن وحروب.

وعلى هذا غادر الأسطول التركي مياه تونس، وشرع الباشاوات المشاركون في حصار البستيون يعودون إلى أقاليمهم، وكان أوّل الخارجين حيدر باشا القيروان. وقفت طوابير شرف طويلة عند باب الجزيرة لتوديعه بالطبل والزرنة وإطلاق البارود في الهواء، فانتفخت أوداج الرجل، وهمز حصانه ليقفز أمام العسكر مبرزا عضلات قوائمه، ومشى خلفه الجنود صفوفا طويلة فيها الممزّق الثياب والمعصوب الرأس والمعلّق الذراع، وجرّ بعضهم خيولا منهكة وعربات مدافع منكسرة، فضريبة الحرب قاسية حتى في حالات الانتصار.

ساروا على ارض رملية محاذية للشاطئ، واجتازوا الحمامات متّجهين جنوبا، إلى أن كانت ساعة الظهيرة وقد أحالت الشمس كلّ شيء رجراجا زئبقيًّا، حينها جاءهم نسائم معطرة بالياسمين تحمل أنغاما رقيقة كأنّها أناشيد حوريات الجزر. توقّف الركب كلّه، ورفعت الخيل آذانها تتنصت، وبانت عند الأفق الشرقي أسوار جديدة تتلألأ، يشرق طلاؤها الحديث في ضوء النهار، وتفتح محارسها الأنيقة عيونا واسعة على كلّ الجهات. أمّا الأبواب فهي من الزخرف والفخامة كأبواب القصور. والبحر من خلف ذلك يشبه لطخة زرقاء في لوحة فنان، ترسم حدود الأفق وتهيئ لأبراج المدينة خلفية داكنة تبرز البهاء في كلّيته. اختفى من المشهد كل شيء ما عدا البحر والمدينة، وكتلة الجنود المنبهرين الباحثين عن أوصاف مناسبة لما يرون. أشار مساعد القائد ناحية السور بتعجّب ولم يقل شيئا، نظر إليه حيدر باشا مبتسما:

- إنها المدينة، مدينة السلام، مدينة الأحلام، هي ليست لكم، أنتم أهل حرب فأين منكم السلام والأحلام؟ لا تلتفت ناحيتها ما دمت جنديًّا تقتتل وتحمل السلاح!

أدار الضابط وجهه. حوّله عن البحر والمدينة تبعا لأوامر الباشا، وتحوّل بين الجنود يبثّ التعليمات:

- لا تلتفتوا شرقا، انظروا أمامكم فقط. والآن انضباط سر!

ضحك حيدر باشا من مساعده، وألقي نظرة رقيقة ناحية الأسوار من حيث أتت الأنسام والأنغام، وتساءل فيما بينه وبين نفسه إن كان قد رأى ذلك البناء في سفره الأوّل؟ ولما لم يجد جوابا قاطعا نسب عجز ذاكرته إلى الحَرّ وإلى شدّة ما أرهقته الحرب.

في اليوم الموالي مرّت محلّة مصطفى باشا عائدة إلى طرابلس. توقّف الركب أيضا، ورفعت الخيل آذانها، وأشرقت أسوار المدينة على خلفية من زرقة البحر، اختفى من المشهد كل ما عدى ذلك بقي القائد وجنوده منبهرين. وكان في الركب ثلاثة رجال بجلابيات مغربية وعمائم كبيرة، وهم الحجاج الذين أنقذهم رمضان باشا وائتمنه عليهم، وهؤلاء لما شاهدوا ارتفاع السور ونقش الأبواب ملكتهم النخوة، وقال أحدهم:

- ما اسم هذه المدينة يا باشا؟ إنها تشبه إحدى قلاعنا بالمغرب.

ردّ عليه صاحب له:

- هي أشبه بقلعة آسفي في المتانة وكثرة المحارس.
- أبدا... آسفي بناها البرتغال فهي كالحة مكفهرّة كوجوههم. أمّا هذه فأبوابها تبتسم. انظر النقش والترخيم والتعريق ومسامير التصفيح... ما شاء الله كأنّنا داخلون أحد أبواب مراكش. هل سنزورها يا باشا؟
- هذه مدينة لا يدخلها إلاّ طالب الهناء والراحة، أمّا نحن فكما ترى مقبلون على سفر طويل ومهمّات جسام. عسى أن تكتب لنا السلامة ويمتدّ بنا العمر فنعود يوما لزيارة مدينة السلام.

في ذلك الحين التمعت أنوار ساطعة من شرفات السور، وظهرت خلفها قامة رجل على رأسه عمامة حرير مطرّز، ونادى بصوت عال يخاطب المغاربة الثلاثة:

- يا صحبة الخير... يا أصحاب البركة... رافقتكم السلامة ووقيتم من كلّ شرّ. سأشتاق لحضوركم وطيب مجلسكم، لكن هذه سنّة الحياة وأحوال

الدنيا، لقاء وفراق يتلوهما لقاء وفراق، إلى أن يأتي يوم التلاق. اجعلوا مولاي سلطان المغرب يقبل عذري على التخلّف عن خدمته والبقاء عند أحبابي، فقد عثرت أخيرا على بقيّة أهلي وجمعت شتات عائلتي.

تبادل الحجاج نظرات التعجّب، وقال أحدهم:

- هي إذن مدينة رفيقنا وصاحبنا. أنعم الله عليه وأثابه في الدنيا والآخرة.

وقال آخر:

- ألا نزوره للتوديع والاطمئنان على حاله.

قال مصطفى باشا بلهجة حازمة:

- حاله خير من حالنا. ألم أقل إنّ الطريق أمامنا طويل، والخطر كثير؟

همس في أذن مساعده أن يأمر العساكر بالسير دون الالتفات شرقا. فتحوّل بينهم يبثّ التعليمات:

- لا تلتفتوا شرقا... انظروا أمامكم فقط... والآن انضباط سر!

ارتفعت سحائب الغبار ثانية حين تحرّك العسكر، وبقي الشيخ الحجري يرقبهم فوق السور ويذرو في الهواء زهرات فلّ وياسمين وشفتاه تردّدان بصوت خافت الأماني بسلامة الوصول.

نظر إليه بدر الدين مبتسما:

- هل اشتاقت نفسك إلى السفر ثانية يا عمّي؟

- أيّ سفر يا ابني وقد بلغنا هذا المقام، وجمع الله شملنا بمن نحب؟

وهكذا استقرّ بدر الدين وعمّه أحمد في المدينة الجديدة، وصارا من وُجهائها لأنّ كليهما تمحضا لخدمة أهلها ومصالحهم، فصار بدر الدين متفقّدا للمرافق العامّة، وتطوّع الشيخ أحمد، من حبّه للعلم والبحث، لإدارة متحف الأديان، فاعتنى بمكتبته، ونظّم حلقات للبحث والتدارس في شؤون العقائد، وتقريب بعضها من بعض، بتقديم معلومات عما يجمع بين الناس عوض ما يشتّت، أو يستعدي طرفا على آخر. وكان يقول في بعض حلقاته:

- إن التمزّقات التي شاهدناها، في الأندلس أو في إفريقية، سببها لجوء بعض الأقوام والملل إلى إسماع صوتها بالعنف والقوّة، أو فرض آرائها على

الطرف الآخر بالغزو والتهجير، أو المطاردة ومحاكم التفتيش. إنّه لا أساس للكونيّة إلاّ بالانتماء إلى الإنسانية، ولا وضوح لمعانيها إلاّ بالتنوّع واختلاف الروافد. لذا ليس من حقّ قوم أن يفرضوا آراءهم أو أسلوب حياتهم على الجميع، فلا سيادة مطلقا لحضارة على أخرى.

وقد سأله أحد الزوّار متعجّبا من آرائه الجريئة:

- كيف تقول أيّها الشيخ أن لا سيادة لحضارة على أخرى وأنت تعلم أنّ الديانات لا تعيش إلاّ باستعداء أتباعها على أتباع غيرها. إنّ أشدّ أولئك الأتباع تعصّبا هم أميلهم إلى القهر والاضطهاد، والأشدّ تنافسا وتقاتلا من أجل المعتقد، كأنّهم الموكّلون عليه وحدهم دون شريك؟

أجاب الشيخ مبتسما:

- لو يطيعني أهل المدينة سأسمي كافة أبوابها باسم واحد هو «أبواب المحبّة»، فالناس لن يظفروا بالسّلم الدائمة والعيش الهانئ إلاّ إذا خرجوا من باب الخوف ودخلوا من باب المحبّة، إنّ خوفهم يفسد عليهم حياتهم.

- خوفهم من ماذا؟

- خوفهم من المصير، من بعضهم البعض، ممن لا يشبههم... من كل شيء. لقد سحت في بلاد الله، وناقشت أتباع كلّ الديانات، فما وجدتهم يعلمون سوى الخوف، سماؤهم رعود وصواعق لا سبيل تحتها إلى الهدوء وراحة البال. يدافعون عن عقائدهم بحماس فيّاض متصوّرين أن دفاعهم عن هذه العقيدة ضدّ تلك سيضاعف من حرارة الشمس، أو يزيد من ضياء القمر، أو ربّما يغيّر طعم الخبز، أو لعلّه ينقص من الظلم ذرّة ويزيد في كمّ الفضيلة ذرّة. إنّه تفاؤل أبله وأمل لن يتحقّق حتى ولو ظلّ قساوسة العالم يسبّحون ليل نهار. الدخول وحده من باب المحبّة يصنع المعجزات.

خرج بدر الدين وعمه من نهج الباي في طريقهما إلى السقيفة الكحلة ليلتقيا عند باب زويلة وهو هنا «باب المدينة» بالقرصان أندريا دوريا القادم في زيارة استطلاع لمعالم المدينة، بعد أن سمع أخبارها في موانئ البحر المتوسّط. خاطبه بدر الدين ومازالت بينهما خطوات:

- حسنا فعلت أيّها القائد لما تركت سفنك وأسلحتك بعيدا عن مياهنا، فنحن لا نقبل هنا إلاّ من جاء مسالما ومسامحا، فإن كانت هذه نيّتك الحقيقيّة تركناك تزور مدينتنا، وإن كنت باقيا على سيرتك القديمة، فلا مجال لك بيننا.. ولتعد من حيث جئت!
- لا أرى مدينتكم على صفة ما عرفت من المدن القديمة... تنبعث البهجة منها وأنت تراها من بعيد، فتنجذب نحوها كما انجذب أوليس نحو حوريات الجزيرة.

قال أحمد الحجري:

- وهل تريد دخول مدينتنا دون تكفير عن أفعالك السيّئة، وغاراتك على أرض مسالمة نالها من عدوانك الكثير؟ وغير بعيد يوم هجمت على الحمامات ساعة الضحى والرجال جميعا في الحقول، فأخذت النساء والصبيان وتركت المدينة خاوية، لم يجد فيها المزارعون حين عادوا غير القطط والكلاب.

ضحك القرصان وأجاب:

- لا تحزن كثيرا أيّها الشيخ، فقد أخذ أهل الحمامات بثأرهم... وزارونا في مالطة حين كانت سفننا غائبة، وأخذوا من النساء والأطفال بعدد ما فقدوه.

تدخّل بدر الدين:

- لا تعودوا إلى مثل هذا الحوار فلا فائدة فيه. فإذا جاء الرجل متسامحا متخلّصا من البغضاء ومن أسلحة العدوان فأهلا به في مدينتنا ضيفا وزائرا.

ثم التفت إلى الشيخ الحجري قائلا:

- لا أظنّك ستحاسب الإسبان الوافدين للفرجة على «حي البستان» المطابق لقصر غرناطة الشهير!... أعرف أنّ لديك ما تسترجعه من ماضيك ببلادهم، كما أنني لم أنس بدوري ما صنعوا بي. ذلك هو التاريخ وقد طوته صفحات الكتب، وأمّا ما بقي اليوم فهو إنسانية الانسان، وواجبها أن تتغلّب على عواطف الكراهية، ومعاداة الغير، والتكالب على السلطة والقوّة وكثرة المكاسب.

كان بدر الدين وعمّه قد وصلا مجمّع البستان، ووقفا على حافة بركته الضخمة يتأمّلان نافورة الماء تبذر منه حبيبات لترطب النسيم المضمّخ بعطر الياسمين والفلّ. وتقع النافورة وسط فناء واسع، تحيط به أقواس ترفعها أعمدة جميلة النحت، ذات تيجان يزينها تعزيق وتزويق قوامه الأغصان والأزهار. وخلف الأقواس أروقة يغطيها قرمود أزرق لامع يُماشي الحواشي ويدور مع كل الزوايا. أمّا من الداخل فسقوف مزيّنة بالجصّ المخرّم ونقش الحديد، تشكّل جميعها تموّجات وتعاريج نباتيّة محوّرة عن الطبيعة، هندسات وتشكيلات فيها من الألوان مثل ما في الزهور والفراشات الحائمة حولها، وهي تختلط حتى تتمازج، أو تتباعد حتى يكاد يغيب بعضها في آخر المطاف فلا نعثر له على أثر. وتكون رافعا رأسك تتأمّل تفاصيل كلّ ذلك وأنت تعبر من رواق إلى آخر، فتلتقي عند المنعرج بقبّة قاعدتها نقش وتخاريم، وأعلاها فصوص زجاج بكلّ أنواع التلوين، تفسح للضوء الهادئ كي يقوم بدوره، وتلطف من أشعة الشمس فتمنحها ألوانا من ذاتها بين وردية وزرقاء وصفراء ليمونيّة، ومن الجميع تتكون داخل القبة هالة شبيهة بقوس قزح. بذخ وثراء وجمال ورونق تؤلّفه الصور والمشاهد الماثلة عند كلّ زاوية ومدخل ونافذة، مما لا يمكن استيعابه وتخزينه في الذاكرة، فلا يبقى للناظر إلاّ المشاهدة والانبهار، ولا شيء سواهما.

كان زُوّار أجانب ينتظرون قرب النافورة العظيمة فعرف الشيخ الحجري من بينهم المركيز دي سانتا كروز الذي طالما غزا جزر قرقنة وأفرغها من أهلها

ودوابّها. وأراد تذكيره بما فعل في غزواته، فنبّهه بدر الدين إلى أنّ الرجل قد يذكّره أيضا بأفعال مراد رايس وما أنزله به من هزائم، وأضاف:

- الأولى بنا يا عمّي التذكير بما يجمع لا بما يفرّق، ولأن قائمة الحروب طويلة فلنحاول نسيانها وتعويضها بقائمة فترات السلم وأحواله، وبما يمكن أن نقوم به خلاله من ايجابي الأفعال. وهذا القبطان أنسارت قائد الصنايعية اسأله كم أعان على إعادة البناء، وإصلاح ما انعطب من الأسوار والحصون في تونس، وكم ساعد في سبك الحديد والمعادن لجنود السلطان.

نادى علج علي قبودان من خلف الصفوف محتجًّا:

- هؤلاء الذين يدعون البناء اليوم هم الذين أحرقوا سفني في بحيرة تونس حين جاءت لنصرتكم، ها هو ألنسو بيمنتال واقف يشاهدني. اسألوه إن لم يكن أحرق سفني جميعا، وكانت أفخم عمارة بحريّة شهدها المتوسط.

أجابه سربلّوني قائد البستيون:

- تتكلّم عن خشب تافه أكلته النار وتصاعد دخانا في الهواء... ولماذا لا نتكلّم عن البستيون وحلق الوادي..؟ عن الأربعين عاما من الجهد البشري والبناء المتواصل الذي سوّيتموه بالأرض في أربعين يوما. بالبارود والديناميت وتركتموه حجارة وغبارا مخلوطا بالدماء؟

تدخّل بدر الدين ليُهدّئ من عاصفة توشك أن تندلع بين أعداء أمس، بينما جميعهم ضيوف على مدينة لا مكان فيها لغير السلام، لا مجال لغير بناء العلاقات الجديدة:

- ما رأيكم لو نمرّ من السقيفة الكحلة إلى السقيفة البيضاء مرورا بنهج الباي ومتحف الأديان وساحة شهرزاد الزاهية؟

فهم العمّ ما يلمّح إليه بدر الدين فوافق على رأيه وذهب يرافق مجموعة الزوّار إلى باقي الساحات، ولبعضها اسم وليّ صالح كسيدي بوسعيد أو سلطان المدينة، ولبعضها اسم زهر مشهور كالفلّ والياسمين، وبعض منها يحمل أسماء متفائلة مثل ساحة الهناء أو النجاح أو السّعد، وعلى كلّ زائر أن يتوجّه نحو العنوان المثير لاهتمامه.

اختار القبطان أنسارت «نهج البايات» ليتجوّل بين دكاكينه الحافلة بإبداع الفنّانين وصنّاع الفضّة والجلد والخشب والنحّاتين والنقّاشين، وبقي يسأل من دكان إلى آخر عن مصدر المواد الأوّلية وعن الآلات المستخدمة، وما هو قديم منها وما هو مستحدث، ثم التفت إلى بدر الدين في نهاية الجولة ليسأله هل بإمكانه اكتراء دكان في ذلك السوق إذا عنّ له الاستقرار نهائيًا في المدينة.

ضحك بدر الدين ولامس كتف أنسارت قائلا:

- ويمكنني أن أشاركك إذا رضيت، ففضلك عليّ لا يُنسى... أنت الذي يسّرت لي الوصول إلى أهلي وأحبابي.
- وأنا أيضا لا أنسى فضلك عليّ يوم سقوط البستيون، فوساطتك لدى الأتراك هي التي أنقذت حياتي وحياة كلّ الصنّاع والحرفيّين المرافقين لي.

وحين خرج الجماعة من باب البحر متوجّهين نحو الشاطئ القريب لإتمام فسحتهم شاهدوا عمارة بحريّة تقطع الأفق، قوامها سفن عديدة حاملة رايات أجنبية، فصعد الشيخ الحجري مكانا مرتفعا ونادى القبطان بأعلى صوته:

- عرفناك يا شبريّان فبرغم تظاهرك بالبراءة كنت تؤدّي مهمّة مدسوسة.

أجاب شبريّان من فوق الصاري:

- أنا عابر سبيل، أمرّ ببلدكم سريعا وسوف لا أنزل إلى البرّ.
- عرفناك وعرفنا أن مهمّتك لا تتوقّف على نزولك إلى البرّ، وإنما أمرت بإنزال صنيعتكم حامد الحفصي ليثير الأعراب ويعيد الفتن إلى مثل ما كانت عليه أيام أبيه وجدّه. أصدقنا الخبر... في أيّ الجهات زرعتموه؟ في الساحل أم في الجنوب؟
- تركناه قرب جرجيس، ولم نفعل سوى نجدة أمير مسكين وإعادته إلى أرض أجداده كما رغب.
- أنت لم تنجده يا شبريّان وإنما أذنبت في حقّه وفي حقّ هذه البلاد. والآن إن شئت العودة إلينا ضيفا فأهلا بك على شرط أن تخلع من رأسك الدسائس وتترك السلاح.

وهتف الجميع من وراء الحجري:

- افعل مثلنا يا شبرّيان... اطرح في البحر ما حشاه في رأسك فرسان مالطة، وتعال بغير دسيسة أو سلاح، فهذه مدينة لا مكان فيها لغير الحبّ والسلام.

من ساحة شهرزاد تعالت أنغام روحانيّة لا يمكن أن تصدر من صنوج أو دفوف أو أوتار، وإنّما يأتي بها النسيم من اللاّمكان واللاّزمان. انعطف الضيوف نحوها ليجدوا أنفسهم في حيٍّ أنيق، هو قطعة بغدادية من حيّ الرصافة أو سُرَّ من رأى، أروقة ظليلة ذات أقواس مقطوعة الوسط أو مذنّبة الحواشي، وحجارة نُحتت فيها أبيات شعر بالخطّ الكوفي من خمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية، وفي الساحة بنات لهنّ عمر الورد يُحطن بشهرزاد وقد لبست من الحلل أبهاها ومن الحُليِّ أغلاها، وتماوجت هي وصاحباتها مع لحن يعمر المكان ويرتفع به حتّى يغيّبه عن الحاضر. رقص معجب من حوريات في رقّة النسيم على وقع لحن مطرب من زرياب كبير المغنّين في زمانه.

يا ساحر العشاق	بلحظك الأغنج
ومُحرق المشتاق	بخدّك الاضرج
ارو صدى الأشواق	من ثغرك الأفلج
يا قاتلي بالله	دعني نزد عشقا
إذا نموت بالله	حُسنك لمن يبقى

التفت بدر الدين إلى عمّه وسأله:

- هل صحيح أنّكم في الأندلس كنتم تقضون وقتكم كلّه في حلقات طرب كهذه... لا يهمّكم من أمر الدنيا وما يحدث فيها شيء؟

ردّ محمد الحجري على ابن أخيه محتجًّا:

- محض اختلاق... كانت الموسيقى أحد أوجه الحضارة التي تعيشها بلادنا، لا تأخذ من جهد الناس ووقتهم أكثر مما يأخذه تدريس العلوم، أو بحوث

الزراعة أو زخرفة المباني وإجراء مياه السواقي، إقرأ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، واقرأ كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة وسترى أنّ كمّ العلماء والفلاسفة والمهندسين أكبر وأضخم من كمٍّ المغنّين والملحّنين.

وما كاد العم ينهي كلامه حتى توسّطت الساحة فرقة فلامنكو وملأت المكان بشقشقة الصّنوج وعزف القيتارة ودقّات أقدام الرّاقصين والرّاقصات تشجّعها صيحات المتفرّجين:

- هولي... هولي!

من بعض الجهات

- الله... الله!

من بعض الصفوف الأخرى، وفي النهاية اختلطت الأصوات جميعا في انسجام وحماس ملتحم لا يميّز السامع مصدره أو مأتاه.

من ساحة سيدي بوسعيد القريبة من نفس المكان علت أصوات المنشدين مردّدة المالوف العتيق، وهو غناء اشتهرت به هذه المدينة يقضي به الساهرون أطيب الأوقات في المقهى العالية يردّدون مع شيوخ الطرب رقيق الشعر المتوارث:

بامن بسيف الأشفار مزّق صميم فُؤادي

قل لي يا زين الأقمار على آش رضيت بعادي

وكان اللّحن يتسرّب رقيقا هادئا شبه حالم، مصحوبا بالنقر الخفيف على النغرات والطار والأوتار. ولقد انتشر هذا النوع من الأناشيد منذ انعقدت أولى حلقات الششتري والمجرّد في زاوية القشّاش، ومعها انتقلت إلى تستور وبنزرت، وتفرّعت من قصائد التصوّف إلى أشعار الحنين ووصف الرياض والشوق إلى الأحباب. كما أنّ الألحان تنوّعت وتطوّرت، وتقلّبت بين أنماط وأساليب فيها قديم كثير وجديد أكثر. ومازال أهل تونس يعتبرون هذا النوع من الغناء لونهم الأصيل المميّز حتى لا يكاد الواحد منهم يجهله أو لا يحفظ البعض منه. وليس أشهر لدى المغنّين أو المستمعين من ناعورة الطبوع يحبّونها وينشدونها في كلّ

مناسبة. ويفكّر بدر الدين في تخصيص ركن من هذه الساحة لنصب تماثيل لموسيقيّين عباقرة حذقوا الفن وأغرموا به، ثم أشاعوه فيمن حولهم فحفظه الكبار والصغار. ويكون هذا الركن شبيها بما خصص لجماعة تحت السور.

اختار بعض الضيوف الجلوس في هذه الساحة لسماع الألحان الهادئة الحالمة، فخصّصت لهم أرائك من ديباج، وقدّمت لهم القهوة المعطّرة بماء الزهر: الفنجان بيد ومشموم الفلّ باليد الأخرى، والمطرب قد زاغ من لحن إلى لحن.

ثم شاهد محمد الحجري زنوجا يتراقصون في قيافة غريبة، تبدأ بطرطور هرميّ يغطّي الرأس، وعليه رياش طيور ملوّنة وقطع زجاج وأصداف محّار من كلّ الأحجام. وينزل جزء من الطرطور قناعا يُغطّي الوجه فلا يُبرز غير العينين. باقي الجسم مكسوّ بثياب صارخة الألوان خارج من المعروف المألوف، تنتهي عند الحزام لتتدلى فيما بعد شرائط جلد أو فرو حيوانات، وفي الرجلين أخفاف مشدودة بخيوط جلد، علّقت بها جلاجل تهتزّ في جنون مع اهتزاز الرجلين وتوقيعهما القويّ عند الرقص.

لما شاهد الحجري ذلك تذكّر أهل قناوة الذين كلّما اجتمعوا ارتفع تصفيقهم ورقصهم الإيقاعي المتسارع على نقر الشقاشق النحاسية وأوتار القمبري وقرع الطبل. وقد شاهد مثل ذلك عند خدمته لسلطان مرّاكش واقترابه أكثر من أراضي إفريقية السوداء. فقد كان خدّام القصر وحرّاس السلطان يعقدون حلقات تشبه مثل هذه ويراهم يشتدون في الحركة ويجذبهم اللّحن حتى يغيبوا عن حاضرهم ويتيهوا في ملكوت بعيد، الدليل على ذلك حدقاتهم المنقلبة إلى أعلى، ورؤوسهم التي لا تتوقّف عن الدوران يمينا ويسارا، مع ألسنة تتدلّى وصياح غير مفهوم.

وقد اقترب من بدر الدين ووصف له مشاهداته من أحوالهم في مراكش فقال له:

– شبيه بذلك رأيته كثيرا في تونس، يخرج جمع الزنوج ليطوف في المدينة يتقدّمهم شخص بمثل تلك الزينة يسمّونه بوسعديّة، يرقص خلال التجوال مصحوبا بعازفين لمثل تلك الألآت ومعهم تيس ضخم القرنين عليه زينة وشرائط ملوّنة يقال له «عتروس سيدي سعد»، ويكون منذورًا

في النهاية للذبح وإطعام الفقراء من مريدي سيدي سعد شيخ الطائفة، والذي باسمه طاف الجماعة بالأسواق والأحياء وجمعوا الصدقات.

في ساحة البطحاء تجمّعت طائفة أخرى أغلب لباسها عمائم كبيرة على الرؤوس و«بدن» من الصوف خشنة، وهم «المتصوّفة» المتسبون إلى طرق وزوايا صوفيّة اشتهر أصحابها بالتقوى والكرامات، واعتقد فيهم العامّة الصلاح. ومن أشهر هؤلاء سيدي بوسعيد الباجي وسيدي بلحسن الشاذلي وسيدي علي عزوز وسيدي أحمد التيجاني وسيدي عبد القادر الجيلاني وغيرهم. ولكلّ زاوية سناجق يرفعها المريدون، وأناشيد وأذكار تمدح خصالهم ويستجارون بها للغوث وإصلاح الحال. التأم الجمع عند الساحة يضجون منشدين مدائحهم تصاحبهم الدفوف، تدعوهم إلى الرقص جماعة في صفوف متلاحمة، قد تنجذب في الوجد إلى حدّ الانجذاب والغيبوبة.

تقدّمت جماعة الطريقة القادريّة بإشراف وتوجيه جماعة الديوان، وتلتهم جماعة سيدي مدين يقودهم الحاج مختار الكسراوي، بعدهم جماعة باب الأقواس وقائدهم الشاعر عمر ابن أبي بكر، يتلو جميعهم البردة أو الهمزية مع تشطيرات وتخميسات تفنن فيها القوم نظما وإنشادا.

في ساحة المركنتي لمح بدر الدين دون خوان النمساوي يهمّ بدخول أحد ملاهي المكان، فقصده راغبا أن يسأله عما صنع بعرصات الرخام الوردي التي أخذها من جامع الزيتونة، وهل صحيح أنّه يزين بها بيتا أنيقا بناه في أوقستا بصقلّية؟ فأجابه القائد بهدوء:

- هي أربع عرصات لا أكثر... أعجبني لونها النادر فنقلتها إلى سفينتي خوفا عليها من التلف.
- كيف خفت عليها من التلف... هل كان الجامع متداعيا للسقوط؟
- لا... وإنما أعمال التخريب التي بدأها الجند لا تنبئ بخير... ألم تسمع بما فعلوا في باقي الأحياء والمنازل؟ لقد خرجوا عن السيطرة عندما وجدوا المدينة خلت من أهلها، وأعماهم الطمع فيما خلفه الناس قبل هروبهم.
- وتريد إقناعي أنّك أنقذت تلك القطع الفنّية من التحطيم؟

- هي في الحقيقة عمليّة إنقاذ وعمليّة استرجاع... اسمع هذه القصّة: لقد حمل حنبعل رخاما كثيرا من صقلّية لبناء المعابد والقصور في قرطاج. ولمّا استحوذ سيبيون عل قرطاج هدمها وحمل رخامها إلى صقلّية. ثم لما فتح بنو الأغلب صقلّية أعادوا الرخام إلى تونس... فما العيب في أن أستعيد بعضه اليوم وأزيّن به داري على سبيل التذكار... أو لنقل على سبيل التبرّك. إنّنا أيّها الشاب في هذا البحر كبدو الصحراء الرّحل لا حدود تمنعهم عن التنقل من مكان إلى مكان، بعضهم يرتزق من بعض بالتجارة أو الإغارة، فهم في تحرّك دائم، واتصال مستمرّ حتى لكأنهم شعب واحد لولا الماء الذي يفصل بينهم من تحت، والديانات التي تفصل بينهم من فوق.

تدخّل الشيخ الحجري ليوقف الحوار قبل أن يتطوّر ويتوسّع إلى محاور أخرى تنبش في التاريخ والحروب. ودعا دون خوان إلى إكمال سهرته مع رفاقه. شاكرا له هدوءه في النقاش وقدومه هذه المرّة ضيفا سائحا ينشد الراحة والمتعة في أرض صديقة مسالمة، و لم يأت غازيا يروم النهب كما فعل أوّل مرّة.

أعلن عن قدوم يوسف إلى المدينة بصورة فاجأت الجميع، ما عدا بدر الدين الذي كان في انتظاره، بل كان يعدّ الأيام، حتى أنّ في المدّة الأخيرة أبدى قلقا وحيرة انتبه إليها عمّه، وسأله عن السبب، فتردّد في الإجابة أوّلا، ثم قال له:

- أما وقد شملتنا النعمة بالإقامة في مدينة الأحلام، فلا أقلّ من أن تتحقّق أحبّ أحلامنا إلينا، وهي جمع شملنا ببقيّة أحبابنا، فتلاقي أهلك وابنتك، وألاقي أهلي وحبيبتي مرجانة، فكل يوم يمرّ علينا في انتظارهم يزيد الشوق ونار اللهفة.

وذات صباح جاء الخبر بوصول قافلة جديدة إلى باب الديوان، وفيها أناس كثيرون ينتظرون الإذن بالدخول. ولما علم بدر الدين إنهم أهله وأهل مرجانة طلب الأدلاّء أن يذهبوا بهم إلى إقامة الرياض ليأخذوا راحتهم ويتهيّأوا لأفراح العرس المقرّر أن يحتفل به للشابين معا، بعد أن وافق الشيخ الحجري على تزويج ابنته من يوسف.

أخذت النساء مرجانة وميمونة إلى حمام التشليلة ومعهما فوج من بنات عذارى للصحبة والمؤانسة، فجعلن من الغرف والأحواض والمقاصير الساخنة مسرحا للتعابث واللعب، والتراشق بالماء الحار أو البارد، وأوراق العطرشاء وزهر الليمون. وامتلأ هذا الجوّ الأنثوي الخالص بالضحكات القصيرة الرنّانة، وبالهمسات المليئة بالنكت والحكايات الطريفة، يغلّف الجميع بخار شفاف كشرنقة خفيفة تحفظ بها الطبيعة أسرار هذه الكائنات الأنثويّة الرقيقة بينما ارتفعت أصوات الموسيقى والغناء، وتمايلت الراقصات.

مدّدت العروسان على دكة الرخام، وسكبت البنات عليهما الماء الدافئ، فبدأ عمل الحوارز في التدليك والتنظيف، ودهن الشعر وسائر الجسم بالطفل المعطر بالورد، وسط زغردة النساء، وتراقص ضوء الشموع، بينما ملأت الأجواء نغمات الموسيقى وإيقاعات الراقصات.

دفقت المياه بلا حساب على سبائك ومدوّرات تلك الأجساد الغضّة الشابة، فازدادت توهّجا، ومشطت جدائل الشعر فالتمعت وظهر لها بريق، ثم غطيت العروسان حتى لا تنال منهما أعين الحسّاد، وأخرجتا إلى القاعة الكبرى فألبستا الحليّ والحلل، وأكملت زينتهما فصارتا من حور الجنّة.

وفي نفس اليوم ذهب بدر الدين مع يوسف إلى حمام الرجال، ومعهما شبان ساعدوهما في الدلك وتنظيف الجسم، في جوّ مرح مليء بالتفكه والمداعبة. وفي القاعة الخارجية كان الحلاق ينتظر، حتى إذا نشف عرق العريسين وارتديا حلّة الزفاف الحريريّة، تناولهما بالتعطير وتزيين الشعر والوجه، فازدادت وسامتهما وتألّق شبابهما، ومن هناك خرج موكب بهيج تحيط به الفوانيس، وتتقدّمه فرق الصوفية لمرافقة العريسين إلى ساحة «الرحبة»، حيث يلتقيان بعروسيهما وتبدأ المواسم واحتفالات الزواج.

وكان أن أحضر أهل المدينة الحلاّقات والمزيّنات، وجهزوا العروسين بنفيس الذخائر وثمين الجواهر، ثم صنعوا عربة مزدانة بالورد والزهور تجرّها خيول بيضاء كأنها إحدى مقاصير الجنان تحمل اثنين من الحور الحسان. وأمر حرّاس الشرف أن يخرجوا في موكب عظيم لملاقاة العروسين ومن معهما بالتكريم، وأن يكونوا في

أحسن البهجات، ناشرين على رؤوسهم الفوانيس الملوّنة والرايات. ونادى مناد في المدينة أن لا تبقى بنت مخدّرة، ولا حرّة موقّرة، ولا عجوز مكسّرة إلاّ وتخرج إلى لقاء العروسين. فخرجن إلى لقائهما، وسعى كبراء العائلات إلى خدمتهما. واتّفق أهل المدينة على تزيين الطريق والوقوف على حافّتيه حتى يمرّ الموكب مُحاطا بجوقة الشرف ذات اليمين وذات الشمال.

ولم تزل العربة سائرة بالعروسين، والكلّ قد خرج ليتفرّج عليهما، ومعها الطبول ضاربة، وفرق الرقص لاعبة، والأبواق صائحة، وروائح الطيب فائحة، والرايات خافقة، والخيل متسابقة، حتى وصلوا إلى ساحة البطحاء المترامية الأطراف حيث ينتظر العريسان. ومن هناك أخذ كلّ واحد منهما عروسه، وتوجّه عبر ساحة شهرزاد نحو قبّة آخر الزمان التي تتحرّر فيها الطاقات، وتنعتق الممارسات، ويسود جوّ الانطلاق وإرضاء الشهوات بعد الكبت والغربة والعذاب مدّة سنوات.

سألت مرجانة حبيبها:

- هل صحيح أنّنا نلنا كلّ المنى يا حبيبي؟ هل نحن في آخر الزمان يا بدر الدين؟

مرّر يده على شعرها بحنان:

- أطيب الأماني تؤخذ في جُرعات وتُنال على دفعات، وإلا ما أحسسنا لذّة العيش يا حبيبتي. وصلت بنا الأحزان آخر أيامها، وانقضى بلقائنا آخر زمانها فتعالي نحتفل بتوديعها ونقتبل أوّل أيام الزمان الجديد.

وتعانقا أطيب ما يكون العناق إلى أن تمازجا، وتبادلا الذوبان حتى صارت هي هو، وصار هو هي. وكانت نافورة صغيرة تحت قبّة الماء تراقبهما فنظمت أغنية من حبيباتها المتناثرة، وأرسلتها إلى العاشقين مع نسائم قبّة الهواء، فذبذبتها ورشرشتها على الجهات الأربع، تحيّة رقيقة شفّافة، فهمها العروسان، ولكن من انشغالهما لم يردّا عليها.

إسبانيا

حاضنة الأندلس

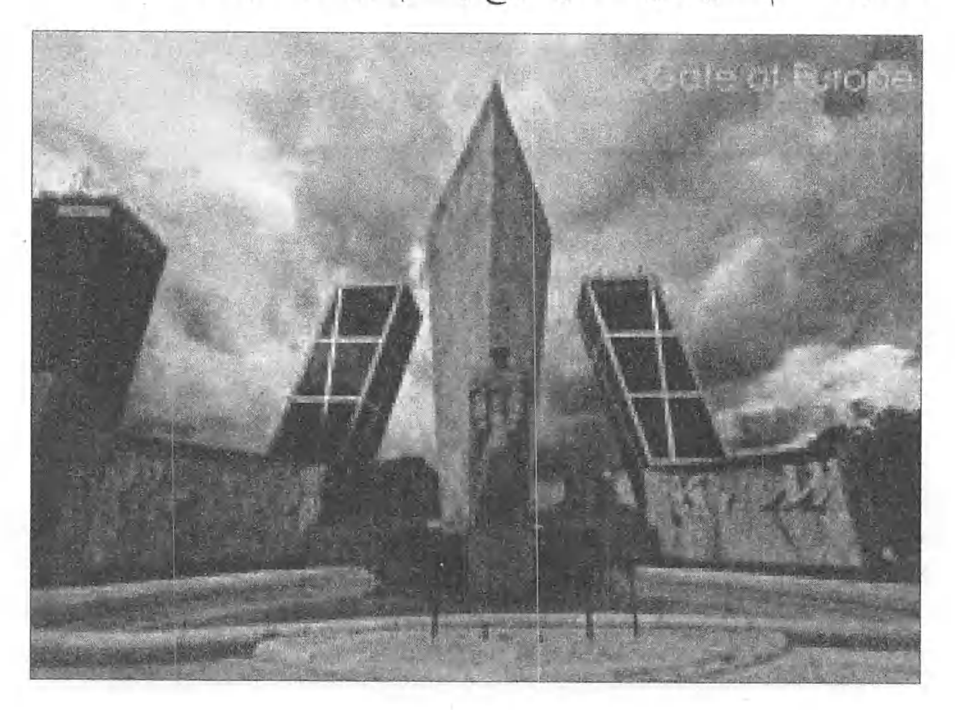
(رحلة)

إسبانيا من أنت؟

عند ما تكون في مدريد، وتغادر ساحة كاستيليا (قشتالة) مُتّجهًا ناحية الشمال في طريقك إلى محطّة شامرتين (أكبر محطات المدينة)، وقبل أن تدخل النّفق المؤدي إلى طريق المطار، ستمرق حتما تحت بناء معماريّ عجيب، لأبُدّ أن يلفت انتباهك بضخامته وارتفاعه في جناحين قائمين بطريقة مائلة كحنايا الضلوع على جانبي الشارع العريض، أو كأنّهما قوادم طائر عملاق يتأهّب للإقلاع، أو ربّما طرفا جسر متحرّك قد انفرجا لتعبُر من تحته السفن. هذا البناء المتفرّد الذي يُسمّونه رسميًّا «بوّابة أوروبا» أنجز بتمويلات هامّة (كويتيّة كما قيل لنا)، ودخل حيز الاستغلال في مشاريع إداريّة واقتصاديّة. إلاّ أنّ له دورا رمزيًّا يعتبره الإسبان أكثر أهمّية من الناحيتين السياسيّة والإعلاميّة. فهذه البوّابة تعلن بصوت عالٍ لمن يريد أن يسمع عن دخول إسبانيا لأوروبا القرن الواحد والعشرين من الباب الكبير، نابذة عهود العزلة والانطواء التي فرضتها عليها أوروبا، أو التي اختارتها هي لنفسها، ومسفّهة بنفس المناسبة مقولة نابليون الشهيرة: «إنّ أوروبا تنتهي عند جبال البيريني». أربعون عاما في شبه عزلة عن العالم، وخمسة أعوام أخرى من الانطواء على النفس وعلاج المغص الدّاخلي... هذا ليس بالأمر الهيّن ولا بالعيش الرغيد، لذا أوجبت إسبانيا على نفسها كسر الحواجز التي منعتها من احتلال مقعدها وسط المجموعة الدوليّة، والأوروبيّة منها بالخصوص، بعد أن أُقصِيَت عنه لأسباب مختلفة، منها وجوب أن تتمتّع بنظام ديمقراطيّ قبل ذلك.

ولقد حدث في أيّام الانفتاح الديمقراطي الأولى. وفي لهفة البحث عن الانتساب والهويّة. أن درجت عادة الحكم على سياسة إسبانيا الخارجية عبر قرارها بشأن الدخول في الحلف الأطلسي، حتى أنّ بعض الملاحظين اعتبر أنّ كلّ

المناورات الحزبيّة التي دارت في تلك الحقبة ارتكزت على محـــور الانضـــمام إلى الحلف من عدمه. إلى أن جاء عام 1985 الذي أمضـــت فيـــه إســـبانيا معاهـــدة عضويتها في المجموعة الأوروبّية بعد مفاوضات مضنية. بهذا الانتساب وبقائها في الحلف الأطلسي. رغم ما نشأ حوله من خلاف. أخذت إسبانيا مكانها بين أخواتها الأوروبيات، وشرعت تنسج علاقات دبلوماسيّة واقتصاديّة مع معظم بلدان العالم بمُعسكرَيْه الشرقي والغربـــي، محاولة الحفاظ على سياسة معتدلة محايـــدة، رغـــم انتمائها. بحكم الجغرافيا والثقافة والتاريخ والنظام. إلى الغرب ومدنيّته.



بوّابة أوروبا

إنّ إسبانيا ذات الماضي الثريّ العريق صارت تلهث اليـــوم عســـاها تلحـــق بركب الحضارة الذي سلكته أخواتها الأوروبيات، لأنّها شغلت نفســـها بـــأمور هامشيّة كثيرة أفقدتها الهالة الذهبيّة التي صنعها لها عهد إيزابيلا وفرديناند، ومـــن بعدهما الإمبراطور شارلكان وفيما بين الجميع عصر الاكتشافات الكبرى الـــذي دشّنه كريستوف كولومب. ويلخص أحد المؤرّخين الإسبان أحـــداث القـــرنين

الثامن عشر والتاسع عشر في سطرين داميين: «130 حكومة، 9 دساتير، 3 ملوك مخلوعين، 5 حروب أهليّة، عشرات الأنظمة المؤقّتة، وعدد من الثورات يمكن حصرها في 2000 ثورة». كما يتحدّث مؤرّخ آخر عن القرن التاسع عشر. عصر الفرص الضائعة. فيصفه بأنّه «قرن التغيير والفوضى... بدأ بكارثة وانتهى بكارثة». وهو يشير هنا إلى ما مُنِيَ به بلده من هزائم في مستعمراته القديمة.

ثمّ كان آخر الأحداث مجيء الجنرال فرانكو إلى السلطة بانقلاب عسكريّ تلته حرب أهليّة شرسة قلّ نظيرها في الشدّة والتعقيد، وفيما خلّفته وراءها من موتى وجرحى وسجناء ولاجئين. وحتى بعد أن مات فرانكو وعادت الحياة الحزبيّة والبرلمانيّة إلى الانتعاش حدث في بداية عام 1981 أن هاجم البرلمان قرابة المائتي جندي وحجزوا أعضا ء الحكومة وممثّلي الشعب داخله ثماني عشرة ساعة، في نفس الوقت أخرجت حامية بلنسية دبّاباتها إلى الشوارع فيما يشبه الاستعداد للانقلاب.

وإلى حدّ اليوم ما زالت منظّمات الباسك الانفصاليين تفخّخ السيارات وتزرع القنابل في مغازات مدريد الكبرى. من أجل هذا، وكلّما أعلنت إسبانيا لأخواتها الأوروبيات أنّها قادمة، تأخذ العواصم الأوروبية في التساؤل: «أما حان الوقت لهذا المارد الإسباني أن يهدأ؟».

يصف الأوروبيون الإسبان بشيء من التعميم والمبالغة، بأنّ العنف والقساوة ميزة في طبعهم، كما يعترف أحد الكتاب الإسبان قائلا: «صحيح ما يقال... إنّنا شعب ذو مزاج صعب، فيه نار كثيرة وماء قليل». إلاّ أنّ مدوّني التاريخ الإسباني وجدوا أعذارا كثيرة لذلك العنف في صميم هذا التاريخ نفسه: لأنّه ضمّ في أكنافه تعذيب محاكم التفتيش، والقمع في نيدرلند، وتقتيل هنود أمريكا، وحربين أهليّتين خلال القرن التاسع عشر، وحربا أخرى أعق وأشمل في القرن العشرين، إلى جانب ذلك التعصّب الدّيني الذي شحذه الصراع الكاثوليكي لإخراج عرب الأندلس، والنعرة الصليبيّة عند استعمار أمريكا، وصلابة انتماء الكارليّين إلى تقاليد التاج والكنيسة، وحركة الكتائب لتحرير إسبانيا من خطر الشيوعية أثناء الحرب الأهليّة الأخيرة. وهذه جميعها أحداث لابدّ أن تترك مؤثّرات ورواسب يصعب أن تزول بسرعة.

إسبانيا حاضنة الأندلس

إنّ تصميم إسبانيا على دخول أوروبا الموحّدة لا يساويه إلاّ تصميمها على عدم الخروج من جلدها والتنكّر لماضيها. هي تريد ولوج العصر الحديث لكن محمّلة بما ورثته عن الماضي، وعازمة في نفس الوقت على تجسيد انعكاسات ذلك الماضي على المستقبل. لذلك نجد في كُتيّب صادر عن «لجنة الاحتفال بالأندلس سنة 92» فقرة تصرّح بهذه المعاني قائلة: «لا يمكن فهم النهضة الأوروبية، ولا حقبة الاكتشافات الكبرى دون الاطلاع على العلوم الفلكية للزرقالي، أو رياضيّات مسلمة المجريطي، أو فلسفة ابن رشد، أو تطوّر فنون الزراعة في بساتين بلنسية الباقية إلى اليوم على تقاليدها العربيّة». فماذا يعني كلام اللّجنة هذا؟

إن اللّجنة أرادت أن تذكّر باختصار ببعض الحقائق، التي هي:

- أنّ إسبانيا هي التي قادت الأوروبيّين إلى اكتشاف العالم الجديد منذ خمسمائة عام.
- أنّ العرب هم أصحاب الدور الهامّ في اكتشاف أمريكا، وأنّ تأثيراتهم انتقلت بواسطة الفاتحين الإسبان إلى القارة الأميركية.
- أنّ إسبانيا اليوم هي ثمرة سنوات طويلة من التعايش الثقافي العربي الإسلامي المسيحي.
- أنّ الأندلس كانت خلال زمن طويل النافذة المضيئة التي استمدّت منها أوروبا القرون الوسطى معارفها، وأنّ قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية كانت مراكز جامعية حقيقيّة يتردّد عليها العلماء والباحثون من كافة أوروبا.

ويشير الأستاذ محمد عبد الكافي في كتابه الثّري الممتاز: «إسبانيا من الدكتاتورية إلى الديمقراطية» إلى أنّ الذين يقولون «إسبانيا شأن آخر وشيء

مختلف» لا يقصدون مميّزات الشعب الإسباني وطباعه، وإنما تلك الثروة الكبرى من الثقافات وآثارها المزروعة في كلّ مكان وفي كلّ نفس بشبه الجزيرة، حتى بدت علامة مميّزة في شكلها وملامحها ومعالمها، وبالطبع في مظاهر حياة أهلها ونشاطهم ذات الشكل المختلف عن الدارج في أوروبا. ويؤيّد الكاتب رأيه بالقول: «فأيّ من الأقطار الأوروبّية له مثل إسبانيا ثروة تمتدّ معماريًا من العهد الرومانيّ إلى العربي مرورا بالرومانيكي والقوطي، دون نسيان الموثارابي (المستعرب) والمدخر (المدجّن)، وهو ذلك المزيج الفريد من نوعه في الفنّ المعماري، والذي تنفرد به إسبانيا دون غيرها، لا بين بلدان أوروبا وحدها، بل بين بلدان العالم كلها». ويتساءل مؤلّف الكتاب: «أين هو البلد الذي له جوهرة من الآجر والجبس مثل إسبانيا بقصرَيْ الحمراء وجنّة العريف، أو ثروة هندسية مائية تمتاز بالبساطة والنّجاعة كنظام السواقي بمنطقة بلنسية، أو مجموعة المدن والقرى النظيفة البيضاء المنتشرة في أنحاء الجنوب، أو هذا العدد الذي يصعب حصره من الفنون والصناعات الشعبيّة الجميلة المحافظة إلى اليوم على دورها الاقتصادي، أو هذه الأنواع المتعدّدة والمختلفة من المنتجات الزراعيّة بما فيها من حبوب وفواكه عرفت أوروبا الكثير منها عن طريق العرب والمدنيّة الإسلامية؟».

تحدّثنا فيما تقدّم عن «لجنة الأندلس 92»، ونضيف بأنّها لجنة أنشأتها الحكومة الإسبانية في سياق التحضير للاحتفال بمرور خمسمائة عام على اكتشاف القارّة الأميركية، ووضعتها تحت إشراف أكبر الكفاءات العلميّة والسياسيّة، فعملت ستّ سنوات دون انقطاع لحشد كلّ ما يمكنه جعل إسبانيا قبلة الأنظار طيلة السنوات التي تفصلها عن عام 1992 الذي تقرّر أن يشهد أحداثا عديدة منها: السوق الأوروبية الموحّدة، تظاهرة أوروبا بلا حدود، إعلان مدريد عاصمة أوروبا الثقافية، إعلان غرناطة عاصمة للثقافة العربية، ألعاب برشلونة الأولمبية، معرض إشبيلية العالمي «إكسبو 92»، الاحتفال بمرور 500 سنة على اكتشاف أمريكا.

ونودّ التذكير هُنا بأنّ سقوط غرناطة وتسليم أبي عبد الله محمد الصغير مفاتيح «الحمراء» إلى الملوك الكاثوليك المحاصرين له كان يوم 2 جانفي 1492، بينما كان اكتشاف أمريكا من طرف كريستوف كولمبوس يوم 2 أكتوبر 1492،

بعد أن كان أبحر من ميناء بالوس يوم 8 أوت 1492. وهكذا تمّ الحدثان في سنة واحدة، وقد يكون هذا هو سبب جمعهما في احتفال واحد.

كما نودّ إيراد ما صرّحت به ناطقة باسم وزارة الخارجية الإسبانية تعليقًا على الاحتفالات المذكورة، وما ثار حولها من جدل، حيث قالت: «لقد رفض الأميركيّون الجنوبيّون عبارة «اكتشاف أميركا» وشعروا بالحساسيّة نحوها، وهذا من حقّهم، ولذا اتّفقنا على تحويرها ليصير عنوانها: «اللّقاء الثقافي بين العالمين القديم والحديث»، ممّا كان له دور في إثراء ثقافة الطرفين. لذا فاحتفالاتنا بعام 92 ليست محاولة لإحياء الصدامات وإذكاء الخلافات، بل للتأكيد على أوجه الالتقاء الإيجابي، وهذا ما ينسحب على سقوط غرناطة. يجب أن لا ننظر إلى ذلك الحدث على أنّه ضياع لشيء مُحدّد، بل من الواجب النظر دائما إلى أنّ الثقافات تمتدّ الواحدة بعد الأخرى، وقد حصل لإسبانيا نفس الشيء مع مستعمراتها. العرب تعايشوا مع بقيّة السكان في إسبانيا، وتفاعلت الثقافات الأصليّة ذات الجذور الرومانية والإغريقيّة مع الثقافة العربية الإسلامية، وتولّدت من جرّاء ذلك نهضة جديدة تمكّنت من الوصول بإسبانيا إلى عصرها الذهبي اللاّمع. فسنة 92 لن تكون فرصة لإحياء انتصارات على أحد، لا على العرب ولا على سكان أمريكا، بل للاعتزاز بما حقّقناه معًا على درب الحضارة».



تمثال ابن رشد

قرطبة سيّدة المدن

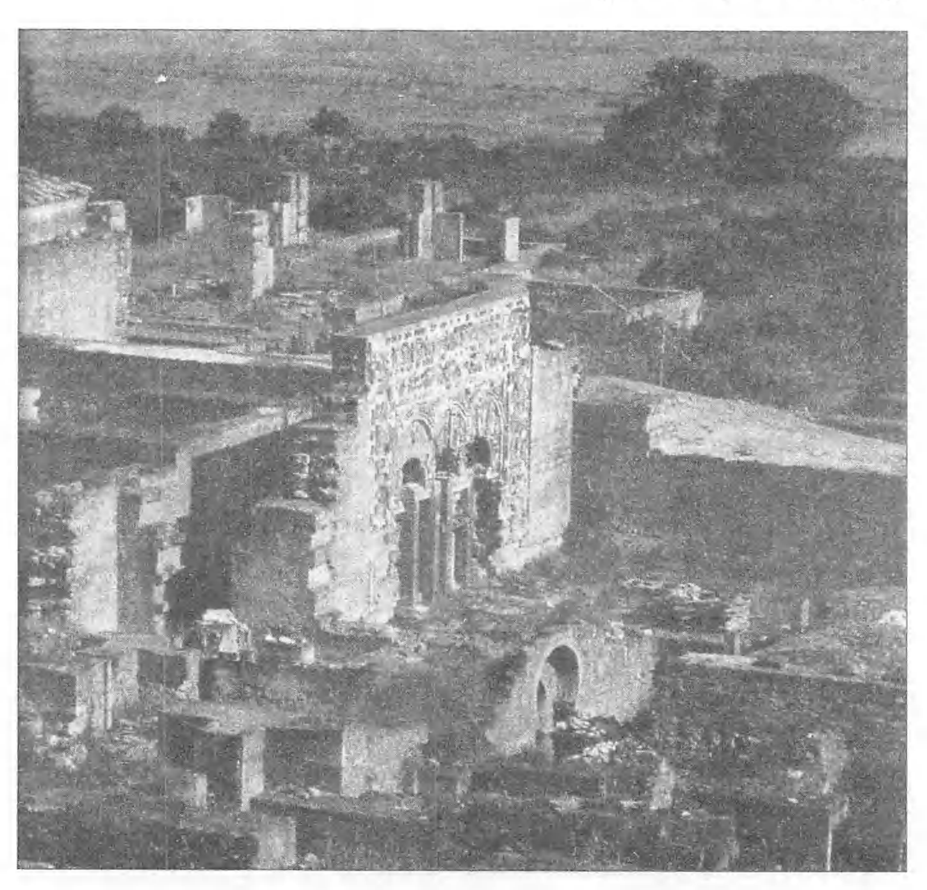
وصلنا قرطبة ليلا.

في غرفة الفندق حمّام «جاكوزي». استسلمت لفقاقيعه تدلّكني، مكتشفا لأوّل مرّة لذائذ هذا المغطس الحنون وفضائله في تليين ما يبّسه السفر. هكذا نظّمت الصدف لقائي الأوّل مع هذا الاختراع العصري والحديث في أكثر المدن عبقا بالتاريخ.

هل أنا في التاريخ حقًّا؟ نعم ولا. فالوقائع القديمة لم تعد هنا، لم نعد نراها. غابت مع زمانها وانطوت بين دفّات الكتب. أين الفتوحات والفتن والحروب؟ أين شهامة الفرسان ونذالة الجواسيس؟ سجّل التاريخ منها ما شاء وعفا عن الباقي، ولم يعد لها أثر سوى في المباني والمعالم. وحتّى هذه لا تملك إلاّ قيمة رمزيّة، يعلي من شأنها من يراها تخدم قيمه وماضيه، ويحطّ من شأنها من يراها تبخس قيمه وتذمّ ماضيه. بهذه المقاييس يُسمّي المسلمون دخول إسبانيا فتحا وخروجهم منها طردا وتهجيرا، بينما يُسمّي الإسبان ذلك احتلالا واستردادا. من الغاصب ومن المغصوب؟ لم يعد في الآثار القائمة ولا في خبايا الكتب ما يزيد المنتصر تباهيًا بانتصاراته، ولا ما يزيد المنهزم اشتهاء للتأوّه والوقوف على الأطلال. تأتي الحضارات وتروح، آخذ بعضها برقاب بعض، ما صلح منها يبقى وما فسد يزول.

كانت قرطبة سيّدة المدن، كما كانت سيدة الفتن. هل نفعها أن كانت أكبر مدن أوروبا كلّها في القرن العاشر؟ (13.000 دار، 600 مسجد، 300 حمام، 80 مدرسة، 17 معهدا عاليا، 20 مكتبة، أغناها مكتبة الخليفة الحَكَم وفيها 400.000 كتاب) بما أنّها انقلبت في القرن الحادي عشر إلى أكثر المدن فتنا ودسائس، ويقول التاريخ أنّه تعاقب على حكمها 16 خليفة في 22 سنة فقط (خلع الخليفة هشام بن

الحَكَم، ونصّب مكانه محمد المهدي، الذي خلع ونصّب بعده سليمان بن الحكم، ثمّ عاد المهدي ثانية وأعيد هشام، وبعد ثلاث سنوات خلع هشام ونصّب سليمان بن الحكم مرّة ثانية. وبعد أن سالت الدماء أنهارا في قرطبة قتل هشام وبقي سليمان في الخلافة ثلاث سنوات... وهكذا). صورة قاتمة لا يمكننا مسحها إلاّ باستذكار البريق الذي كان لعهد عبد الرحمان الناصر، ولمآثر المنصور بن أبي عامر، ولفلسفة ابن رشد، وأشعار ابن زيدون وولادة بنت المستكفي. بقي من ذكر هؤلاء في المدينة تماثيل صغيرة تفترض أنّهم كانوا أجساما حيّة، وروايات مديدة في كتب المقّري وابن الخطيب، وحظيرة بناء مقامة اليوم لاستعادة مدينة الزهراء بعد اندثار شبه كامل.



ترميمات مدينة الزهراء

المدينة المعاصرة لا تبدو في حجم سمعتها التاريخية، إذ استأثرت جارتها إشبيلية بالأنشطة الاقتصادية الهامّة، و لم تترك لها سوى بعض الصناعات الغذائية والمعامل المتوسطة والصغرى. إنّما الاستثمار الأهمّ في قرطبة تنجزه الحرف والصناعات التقليديّة المتّصلة بالسياحة أو الموضة. وأكثر ما تتجلّى مظاهر ذلك في محيط الجامع الكبير، حيث يقبل السيّاح بكثرة على دكاكين الهدايا والتذكار ذات الطابع التجاري. وقد يذهب الباحثون عن القطع الفنّية الممتازة من الخزف والحليّ المنقوش والحجارة الثمينة ليجدوها عند صنّاعها المهرة في أماكن مثل الجودرية وسوق الأقواس أو الكوريديرا.

وأكثر ما اشتهرت به قرطبة صناعة الجلد، ورثتها عن عهود الشغف بالخيل وما يتبعه من عناية بالسروج والركائب والتفنن فيها، وتدرّج ذلك إلى زخرفة أشياء أخرى ممّا يعلّق بالجدران أو يجلس عليه أو صناديق الخزن والحفظ، ومنها إلى ملحقات الموضة النسائيّة من ثياب وأحزمة وحقائب يد وأحذية وغيرها. وتدور حول تكييف الجلد صناعات مختلفة مثل الدباغة ثمّ النقش والحشو والتسمير والبشمرة والتلوين والتذهيب والخياطة، وقد تُضاف إلى الجلد موادّ أخرى كالحجارة الثمينة والأصداف والنسيج، ممّا يعلي من قيمة المصنوعات القرطبية ويجعل دور الأزياء تتهافت عليها.

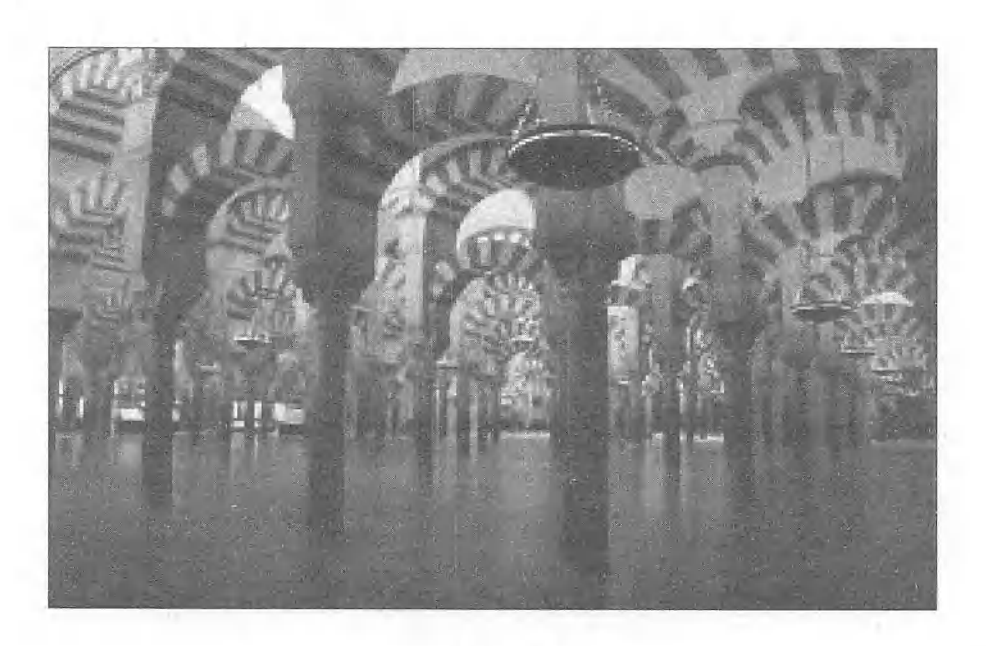
ونحن نتجوّل في الشوارع الصغيرة المُحيطة بالجامع نقف مندهشين من حين لآخر أمام منازل مفتوحة الأبواب، تبدي ردهاتها وأفنيتها وصحونها حدائق مصغّرة مكوّنة من أصص الأزهار ونباتات الزينة، تطلّ عليها غرف المنزل وتدور فيها حركة أهله جميعا، وإذا الصدور تنشرح بما نرى، والشعور بطراوة الجوّ في ذلك المنزل وسعادة أهله يتأكّد. إنّها عادة أندلسيّة متوارثة يحرص القراطبة على تواصلها بدافع تصوّرهم التقليدي لحميمية البيت. يفعلون ذلك إما من تلقاء أنفسهم، أو بتشجيع بلديتهم التي تنظم مباراة سنوية لأحسن جنان بيتي، وهي تحث السكان على ترك الأبواب مفتوحة لمتعة السياح ولتقييم لجنة المباراة لمهاراتهم.

وتكتمل متعة النظر وفسحة العين بزيارة قصر فيانا نسبة إلى عائلة وجيهة توارث أحفادها المبنى منذ القرن الرابع عشر إلى سنة 1980، وأضافوا إليه، حتى

صار متحفًا حقيقيًّا بهندسته وبما احتواه من أثاث عتيق، ثمّ أهداه آخر الورثة إلى مؤسّسة بنكيّة وائتمنها عليه ليصير مزارا ومظهرا حضاريا وفنّيا للمدينة. لهذا القصر اثنا عشر صحنا، أو حديقة داخليّة، لكلٍّ منها امتياز وخصوصيّة، سواء في هندسة البناء أو التنسيق النباتي. فصحن السيّدة تتوسطه نافورة مُحاطة بأشجار السّرو المشذّب على شكل الأكاليل، وبأصص أزهار معلّقة على حيطان بيضاء ناصعة. وفي صحن البرتقال أشجار حوامض معمّرة، تراها رغم سنّها متسلّقة قضبان الحديد كشجر اللبلاب، مدلّية ثمارها الصفراء للزينة. وفي صحن آخر ياسمين أزرق اللّون وأنواع نادرة من الطقسوس والنسرين والنبات المتسلّق، وبين الجميع أرضية مبلّطة بالزليج الملوّن البديع.

الجامع الكبير

إنّه درّة قرطبة وواسطة عقدها، وهو في الأصل مسجدها الجامع الكبير الذي طالما أمّه المصلّون بالآلاف، وطالما حظي بعناية فائقة من الخلفاء الأمويّين، حيث ظلّ ينمو ويتّسع ويزاد على زينته مدّة جاوزت الخمسة قرون، أي منذ وضع عبد الرحمان الداخل حجره الأول سنة 711 إلى سقوط قرطبة بيد الإسبان عام 1236. من يومئذ توقّفت الصلاة فيه، وتوقّفت عناية الخلفاء. أخذ المهمّة عنهم قساوسة النصارى والمهندسون القوط. وضعوا محاريبهم الأولى في بيت الصلاة، ثمّ توسّعوا بعد أن وجدوا في المكان فسحة كافية. ربّما تهيّبوا في الأوّل من إزالة الجامع بكلّيته، ممّا كان يتسبّب في خسارة عظمى للإنسانية. ولكنّهم بعد رسوخ دولتهم شرعوا في التحويل الكلّي للمبنى إلى كاتدرائيّة كبرى، فهدموا حائط القبلة الذي بناه عبد الرحمان الثالث لتعويضه ببناء قوطي يتنافر بالتأكيد مع ما هو موجود، وهنا تدخّلت الملكة إيزابيل لتنتقد هذا العمل وتوقف حركة الهدم. ويحفظ لها التاريخ قولا حكيما خاطبت به القساوسة: «إنّ ما أنجزتموه هنا نجده في كلّ مكان، وما هدمتموه ليس له نظير في العالم». قالت ذلك بعد أن فقد المسجد جزءا هامًّا من فضائه، وسدّت أبواب جداره الغربي الخمسة ليسند عليها في الداخل مذبح الكنيسة. أحد تلك الأبواب المفقودة كان يدعى باب القصر لأنّه مخصّص لدخول الخليفة، يأتيه من قصر السكن بواسطة جسر قصير تحاشيا للزحام.



الجامع الكبير

لقد أنهى أسقف قرطبة في القرن السادس عشر كلّ جدال حين أصرّ على إتمام بناء الكاتدرائيّة في صميم بيت الصلاة، وهي ظاهرة اليوم يراها الزائر لنفس المكان، عظيمة وفخمة، لكنّها لم تبلغ مساحة بيت الصلاة، بل وأفسدت وحدة المعلم الإسلامي وتناسق أجنحته. لذا يعسر على صاحب الذوق السليم قبولها مندمجة في المعمار العام للمسجد، أو أن يقارن بينها وبين ما أنجز في العهد الإسلامي، بل الأفضل له أن يتأمّلها منفردة، أو جناحا فجناحا، لمعرفة ما أنجزه الإسبان بعد دخولهم قرطبة، كالمصلّى الملكي الذي بناه ألفونسو العاشر عام 1260، وفيه تظهر آثار من الفنّ المدجّن، ثم الكاتدرائية التي بنيت بعد ذلك بثلاثمائة عام، وفي آخر القرن السابع عشر أنشئت مدافن بعض القساوسة على يسار المحراب.

لقد توالت على هذا الجامع منذ بناه عبد الرحمان الداخل على أنقاض كنيسة قديمة تغييرات وإضافات كثيرة، فهشام الأوّل بنى له مئذنة، وزاد عبد الرحمان الثاني عدد أروقته، وشيّد عبد الرحمان الثالث المئذنة الكبرى، أمّا الحكم الثاني فهو صاحب المحراب الرائع الموجود إلى اليوم وزاد في امتداد الأروقة الإثني عشر، وفي

أيّام المنصور بن أبـــي عامر تمّت آخر التوسعات فبلغت الأروقة تسعة عشـــر، وفي كلّ رواق 35 عمودا.

بيت الصلاة وأنت تتأمّلها قادما من الصحن تشبه غابة بثمانمائـــة وخمســـين عرصة، تراها مصطفّة بنظام واستقامة، وهي إمّا من رخام أو كـــذّال أو صـــوّان، فيها الأملس والمخرّم. والمقصّب، وبينها أروقة طوليّة عددها تسع عشرة تتقاطع مع ثلاثة وثلاثين رواقا عرضيًّا. أمّا المحراب فآية بديعة تجسّم قمّة ما وصل إليه الفـــنّ الإسلامي بالأندلس، وقد أنشئ في خطّة التحوير الذي أنجزه الحكم الثاني، وهـــو مختلف عن شكل المحاريب المعتادة في سائر المساجد، إذ هو عبارة عن غرفة تعلوها قبّة منحوتة من قطعة رخام واحدة. يقول الشريف الإدريســـي: «وفي عضـــادتي المحراب أربعة أعمدة، إثنان أخضران وإثنان زرزوريّان لا تقوّم بمال. وعلـــى رأس المحراب خصّة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمّقة بأبـــدع التنميـــق، مـــن الذهب واللآزورد وسائر الألوان. وعلى وجه المحراب ممّا اســـتدار بـــه حظـــيرة خشب، بها من أنواع النقش كل غريبة». ويذكر هذا الرحّالة أيضا أن مصـــحفًا نادرا كان مخزونا قرب المحراب في مقصورة مؤطّرة بحاجز، ومؤشّر عليهـــا منـــذ وسطيّة الجامع بقوس مثلّث منقوش بذهب بموازاة القبلة، وهذا المكـــان مخصّـــص للخليفة وحاشيته. ويضيف الإدريسي واصفًا المصحف بأنّه «... يرفعه رجـــلان لثقله، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفّان، وهو المصحف الذي خطّـــه يمينه، وفيه نقط من دمه. وهذا المصحف يخرج في صبيحة كلّ يوم جمعة، ويتولّى إخراجه رجلان من قَوَمة المسجد، وأمامهم رجل ثالث بشمعة. وللمصحف غشاء بديع الصّنعة، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقّه وأعجبه، ولـــه بموضـــع المصلى كرسي يوضع عليه، ويتولّى الإمام قراءة نصف حزب منـــه، ثمّ يـــردُّ إلى موضعه».

واجهة المقصورة اشتباك فسيفسائيّ بين اللونين الذهبـــي والأزرق محتـــواه اثنان وثلاثون طنّا من مكعّبات الزجاج الملوّن غرست في الرخام المنحوت بفـــنّ، وكوّنت إطارا وقواعد مزدانة بزخارف نباتية وزهرية تحيط بالباب وتنمّقه. وعلى الجانبين عرصتان من الجزع الأخضر والأحمر، وكتابات كوفيّة الخطّ في شريطين،

أحدهما أُفقي مكتوب بحروف زرقاء على أرض ذهبيّة، والثاني مرسوم في الإطار المستطيل الشكل ومكتوب بحروف ذهبيّة على أرضية زرقاء، ومحتواها أدعية بالحمد لله، والنصر للخليفة.

هذه أهمّ ملامح مسجد قرطبة الشهير الذي بقيت روعته كاملة، رغم ما لحقه من تشويه، وحافظت دقائقه الفنّية الموزّعة بين العرصات والسقف والمحراب على بهائها واشراقها، رغم مرّ الأحداث وتعاقب السنين.

قصر الزهراء

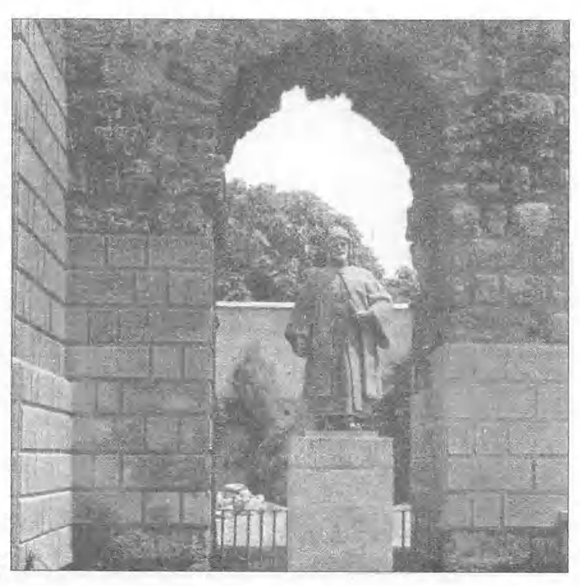
خرجنا من مدينة قرطبة مسافة ثمانية كيلومترات غربا، ووقفنا أمام مرتفع يُدعى جبل العروس ويسمّيه الإسبان «سييرا موربنا» الذي تأوي إلى حضنه أطلال مدينة الزهراء. أشير علينا بالدوران مع المرتفع لندخل من الأعلى، أي من «باب الجبل»، وإذا بنا في حظيرة حفريات عظيمة، نازلة بمدرّجاتها الثلاثة من فوق نحو سفح ممتدّ، لا نرى فيه حيثما التفتنا سوى أكوام الحجارة، وبينها عمّال وعلماء آثار يتجولّون، فاحصين هُنا، حافرين هناك، بحثا عن كنوز المدينة الغابرة، التي إمّا دمّرتها ونهبتها أيدي البشر، أو طمرتها سيول المطر، حتى لم يبق لها من شهود في غير الكتب والأشعار.

يبيّن التدرّج الثلاثي للموقع المثال الذي خُطّطت به المدينة. فالجزء الأعلى هو مكان قصر الخليفة، ودار الوزراء التي يقابل فيها أعوانه ومستشاريه، وفيه أيضا مجلس عبد الرحمان المخصّص لاستقبال كبار الضيوف، ويفترض من نماذج ما وجد فيها أنّها كانت أكثر الأجنحة زينة وأناقة. أمّا مسكن الخليفة أو «دار الملك» كما تُسمّى، فتنفتح على قاعة كبرى ذات غرف عديدة بها مخادع وحمّامات يغطّي أرضها وجدرانها الرخام الثمين. المدرج الأوسط خصّص لمصالح الإدارة وجند الحراسة، وفي المدرج الأخير بني الجامع والأسواق والمساكن، والجميع مُحاط بالجنائن الخضراء المنسّقة المرويّة بحذق عرف به أهل الأندلس واشتهروا.

اخترت مكانا ظليلا في الأعلى لاشتداد حرارة ذلك اليوم، ومنه بقيت أجيل النظر في أكداس التراب والأطلال فانقبضت نفسي لتخيّلي ما كانت عليه آمال مُنشئيها وطموحاتهم، ولتصوّري ما صرف فيها من أموال، وما أخذت من همم الرجال وجهدهم، لتبرز في مثل ذلك البهاء الذي عجز الشعراء والمؤرّخون عن وصفه بما يفيه حقّه. كنت أنظر إلى الحجارة المنثورة، والأعمدة المنتصفة، وأفواه

النافورات الجافّة محاولا استعادة الصور التي رواها جرجي زيدان في كتابه عن عبد الرحمان الناصر نقلا عن مؤرّخي ذلك العصر، فيعجز خيالي، ويغشى على بصيرتي. ولولا هذه الأطلال أمامي لما صدقت شيئا ممّا قرأت.

يصف جرجي زيدان هذه المدينة - القصر بأنّه «... عظيم الاتساع كأنّه بلد كبير، طوله من الشرق إلى الغرب 2700 ذراع، وعرضه 1500 ذراع، وعدد أعمدته 4300 بعضها حمل إلى قرطبة من رومة وإفريقية وتونس، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينيّة إلى الناصر، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والورديّ والمجزّع. وكان في الزهراء مسجد فخم وحدائق عدّة ومجالس، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها، وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتّى بين مذهّب وغير مذهّب، وفي جملتها حوض منقوش بتماثيل إنسيّة، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه 12 تمثالا من الذهب الأحمر مرصّعة بالدرّ النفيس الغالي، صنعت بدار الصناعة في قرطبة على صورة أسد بين غزال وتمساح، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكلّها من ذهب مرصّع بالجواهر يجري الماء من أفواهها. وقد أنفق في بناء هذا القصر ما يزيد على عشرين مليون دينار».



تمثال ابن حزم في قرطبة

لا أدري كم يساوي هذا المبلغ بصرف اليوم، وإنّما ركبني هـمّ بـالغ لّما علمت من الكتب أيضا أنّ هذه المعالم، التي هـي أشـلاء تحـت نظـري الآن. استنفدت ثلث مداخيل الدولة، وجهد عشرة آلاف رجل، لمدّة سنوات. والأكثر إيلاما أنّ الزهراء، مع ذلك، لم تعمّر طويلا و لم تدم أكثر من سبعين سنة، إذ بعـد وفاة مُنشئها بدأت تفقد قيمتها، فالخليفة الصغير هشـام الثـاني (976-1037) لم يكن في مثل قدرة أبيه على التنظيم وحسن الإدارة، زيادة على وقوعه تحت وصاية حاجبه المنصور ابن أبـي عامر، وهو رجل حازم ولكنّه قضى عهـده كلّـه في مقارعة النصارى وإخماد الفتن الداخليّة. وشيئا فشيئا فرغت الزهراء من سُـكّانها، حتى لم يعد فيها سوى بعض أقارب الخليفة جنـد الحراسـة. و لم يمـض وقـت طويل حتى نالها النهب أثناء الفتن المتعاقبة على قرطبة، وأقساها عليها كانت فتنـة عام 1010.

جاء في كتاب الذخيرة لابن بسّام أن رجلا كان مكلّفًا بهدم قصور الأمويّين أيام فتنة قرطبة «قدّمه ابن السقّا، مدبّر قرطبة لجمع آلات ما تهدّم مـن القصـور المعطّلة، فاغتدى عليها أعظم آفة يبيع أشياء جليلة القدر، رفيعة القيمة في طريـق الأمانة... فعاث فيها عياث النار في يبيس العرفج، وباع آلاتها من رفيـع المرمـر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافي الحديد والرصـاص بيـع الأدبار».

لقد بلغت قرطبة في نظر شعرائها الغاية في الحسن والجمال، ثمّ تدحرجت إلى عكس ذلك فجأة فبكوها بشعر أغزر من الدمع نذكر منه هذه الأبيات المعبّرة:

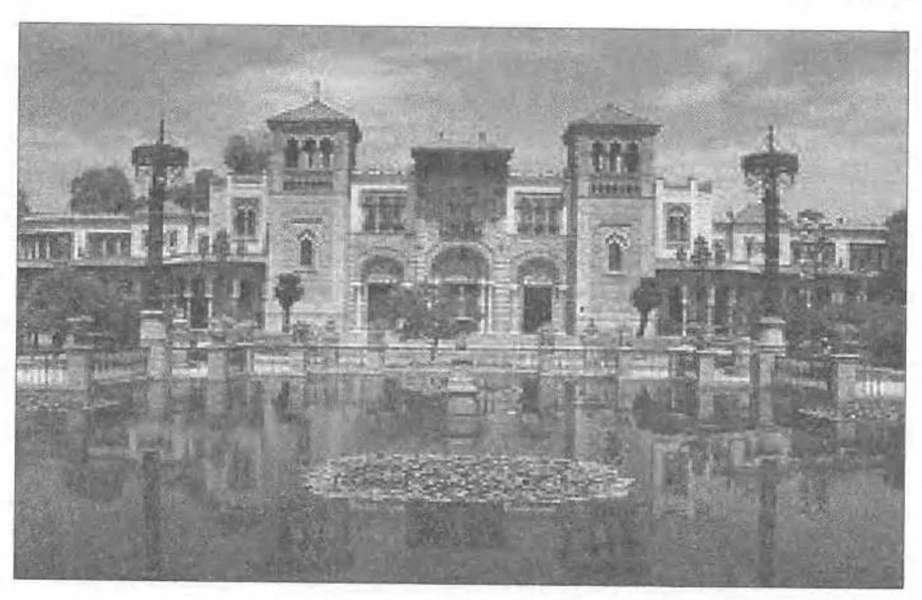
وقفت بالزهراء مستعبرا، معتبرا أندب أشتاتا.

فقلت: يا زهرا ألا فارجعي.

قالت: وهل يرجع من ماتا؟

إشبيلية عاصمة الأندلس

منذ شجّع الملكان الكاثوليكيان كريستوف كولومب عام 1492 على بدء اكتشافاته، ومنذ أبحر بعده ماجلان عام 1519 ليقوم بالطواف الأوّل حول العالم انطلاقا من إشبيلية، بدأت ترتفع مكانة تلك المدينة، وينتعش اقتصادها، لأنّها صارت بوّابة جزر الهند الغربيّة - كما كانت تسمّى أمريكا حينئذ - تزوّد السفن الغادية إليها بمنتوجات ريفها الواسع والثريّ، وتستقبل ما تجلبه إليها السفن العائدة من معادن ثمينة، وخاصّة الذهب الذي كانت الغرفة التجارية تستخلص ضريبة بخمس قيمته، ممّا كان سبب ثراء الدولة والمدينة في نفس الوقت، ومن ثمر وغلال وأفاويه القارّة الجديدة.



قصر إشبيلية

ويقال أنّ المدّة التي استغرقها ذلك العهد الذهبي كانت ما بين حكم شارلكان وفيليب الرابع. امتلأت شوارع إشبيلية في ذلك العهد بالبحّارة والمغامرين والعائدين من رحلات الاستكشاف، والنازحين الطامعين في الرزق والعمل. وقد أحدثت الطفرة الاقتصادية من جهة، وتضخيم عدد السكّان الفجئي من جهة أخرى، انعدام توازن تمثّلَ في ظاهرتي الثراء الفاحش لدى طبقة جديدة من التجّار، والفقر المدقع الذي تفشّى بين النازحين الذين تكدسوا في الأحياء الفقيرة.

إشبيلية التي هي عاصمة الأندلس اليوم بمقتضى قرار التقسيم الإداري لعام 1982 سبق أن كانت عاصمة في العهد الإسلامي لإحدى دول الطوائف، ومن أمرائها المعتمد بن عبّاد الشاعر الطريد الذي ملأ مدينته بجنائن الورد، ورثاها فيما بعد كما رثى نفسه بقصائد خالدة. ثمّ بلغت في دولة الموحّدين أوج ازدهارها، وإلى عهدهم ينسب أهمّ المعالم الإسلامية الباقية إلى اليوم، من بينها الجامع الذي حُوّل إلى كنيسة، ومئذنته الشهيرة باسم «الخيرالدا». لكنّ فترة ركود شهدتها المدينة إثر تكاثر الرمال في مدخل الوادي الكبير، وعلوّ شأن ميناء «قادش» في المبادلات مع العالم الجديد، جعلاها تدخل فترة سبات لم تستفق منه إلاّ بعد انتهاء الحرب الأهليّة وعودة الاستقرار إلى الحياة السياسية.

نزلنا فندقا يحتلّ مركز جزيرة نهريّة بالوادي الكبير، فرأينا حوله بنايات شتى أغلبها خالٍ من كلّ نشاط، وقيل لنا في الفندق إنّها منشآت «إكسبو 92» التي أقيمت على أرض الجزيرة خصّيصا للمعرض، وستتحول في القريب إلى مركز للبحوث التقنية «كارتوخا 93»، وإنّ هناك هيئات مثل مركز التجارة العالمي وشركات كبرى مثل: سيمنس، إ ب م، رانك زيروكس، ألكاتيل وغيرها تريد البقاء على أرض الجزيرة وإنشاء فروع لها هناك. وتنهّدَ مدير الفندق الذي كان في تلك الأيّام يعمل بنصف طاقته قائلا: نحن في انتظار أن تحدث المعجزة بسرعة وتعود إلى الجزيرة نصف الحيويّة التي شاهدتها أيّام المعرض العالمي. أتعلمون أنّ كريستوف كولومب جهّز رحلته في هذا المكان، ولذا اختارته الدولة للمعرض العالمي؟ لقد غطّاه النسيان بعد ذلك زمنا طويلا، وأخشى أن يعود إليه ثانية.

صادف وصولنا إلى إشبيلية بداية «الأسبوع المقدّس» وهو مجموع احتفالات تتزامن مع عيد الفصح وتتمحور خلالها حياة المدينة واهتمامات سكّانها على وقعه ومظاهره، حتى أنّ المدارس والجامعات تتعطّل، والمعامل والمصالح تتوقّف، ولا تدور الأحاديث لدى الكبار والصغار إلاّ حول ماذا نأكل في العيد ماذا سنلبس في العيد؟ إلى أين سنذهب... من سيخرج مع من؟ مع من نتلاقى في المقهى؟ أين يكون عشاء ليلة السبت؟ إلى آخر المشاغل. أمّا أصحاب الهمّ الأكبر فهم فئتان: رجال الشرطة والبلديّة من جهة، وهاجسهم النظام والنظافة والسير والأمن، لأنّ كافّة الأهالي يتركون ديارهم ليعيشوا في الأماكن العامّة أو للتزاور، وأغلب الأوقات في التفرّج على مواكب الطواف بالعربات المقدّسة ومواكب التائبين. ثمّ القساوسة وأتباعهم من جهة ثانية وهمّهم الأكبر إعداد موكبهم الإعداد الأمثل ليوم الخروج.

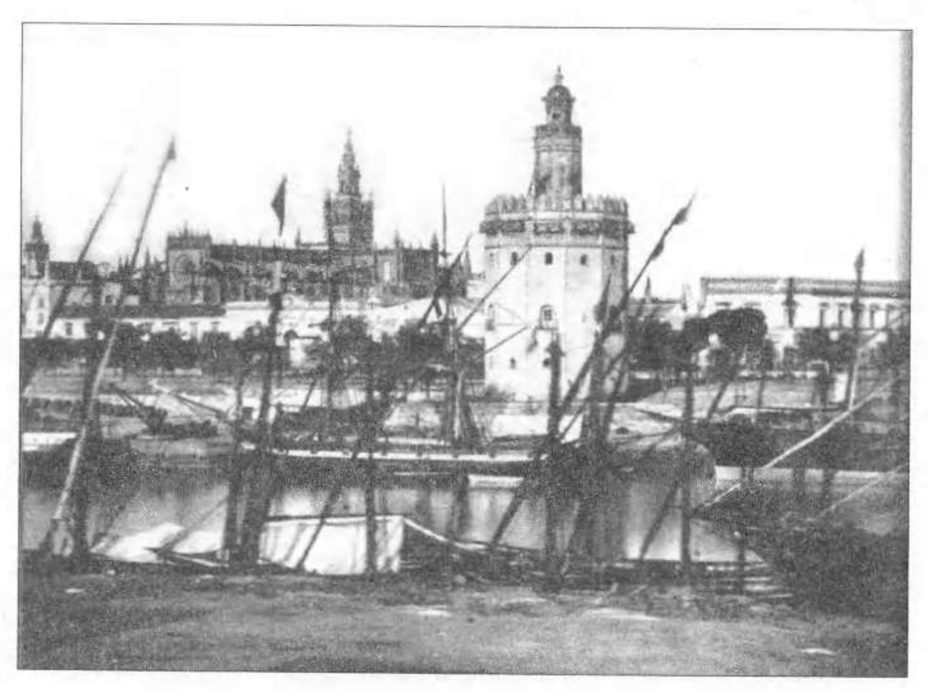
يملأ الجمهور الذي يُعدُّ بمئات الآلاف الشوارع، ويتراصّ الناس كتلا على حافتيها ليشاهدوا مواكب كنائسهم، وفرق الموسيقى النحاسيّة المصاحبة لها، فتهتف حناجرهم بالضراعة والدعاء والتأوّه والتراتيل الدينية، وتسيل دموعهم جداول حزنا على ما جرى للمسيح، فيسود الاحتفال جوٌّ مأسويّ يحار الزائر الغريب مثلي أمامه، وينقبض من حرارته الضاغطة. تلك المواكب الدينية تسير حسب نظام دقيق متّفق عليه بين كنائس الأحياء وأتباعها، فتخرج كلّ واحدة منها حسب نظام دقيق محدّد الوقت والمسار. فيسير حامل الصليب في المقدّمة يليه الأتباع التائبون لتلك السنة وعلى رؤوسهم طراطير مدبّبة لا تظهر منها سوى العيون، ومن بعدهم أهل الحيّ، وفي الوسط «الباسوس» أو المحمل وعليه تمثال العذراء وابنها، وعليهما مسوح مذهّبة وألبسة مطرّزة ثمينة، وحولهما الزهور والأكاليل.

وتسير المركبة، وهي عبارة عن ركح متنقّل محمول على كواهل متطوّعين أشدّاء يخفيهم الستار المسدل حول المحمل لإعطاء الانطباع أنّه يتحرّك بمفرده. وللمرء أن يتخيّل عذاب حاملي الهودج، خصوصا وهو يتنقّل بخطى متمهّلة على وقع نقرات يضربها قائد الرحلة على خشبة المحمل.

هذه الاحتفالات فرصة للتعرّف على طبائع أهل إشبيلية الذين ترى أحـــدهم ينتقل في ظرف ساعة واحدة من الخشوع المتبتّل وبكاء التوبة وطلب الغفران وهو يشاهد موكب العذراء، إلى عربيد يعبّ النبيذ عبًّا في مقهى «التّابـــاس» المقابـــل، ويقهقه معليا صوته بألفاظ تخجل منها عذراوات بني آدم، فما بالـــك بالعـــذراء الإلـــــهيّة.

الخيرالدا

«الخيرالدا» هو اسم دوّارة الهواء التي يعرف بها اتّجاه الريح في أعالي البنـــاء. وتسمّى «جيروات» بالفرنسية. وليس إطلاق هذا الاسم على مئذنة إشبيلية إلاّ من باب تسمية الكلّ باسم البعض، وهو ليس سوى تمثال برونـــزي نصبه المسيحيّون أعلى المئذنة بعد استيلائهم على المدينة، مثل النواقيس التي أضـــافوها في برجهـــا الأعلى.



صومعة الخيرالدا بإشبيلية

أمّا ما كان موجودا بأعلى المئذنة أيّام حكم المسلمين فهو ما ذكره المؤرّخ ابن صاحب الصلاة في كتابه «المنّ بالإمامة» عند وصفه حفل تدشين الأمير الموحّدي للمئذنة: أمر في مدّة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة، العظيمة الرّفعة، الكبيرة الجرم، المذهّبة الرّسم... وكان عدد الذّهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقال كيار يعقوبية... ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتّان لئلاّ ينالها الدّنس من الأيدي والغبار... ورفعت بالهندسة حتىّ إلى أعلى صومعة الصومعة». وهكذا كان الحماس الديني والحرارة الإيمانيّة متفشّيان بالسّويّة بين أهالي إشبيلية مسلمين كانوا أم نصارى. أمّا تاريخ المبنى نفسه فيجده الزائر مختزلا في بضعة سطور على لوحة رخامية كتب بها: «أمر الخليفة أبو يوسف يعقوب عريفه أحمد بن باسّه بتشييد هذه الصومعة في 13 صفر من عام 580هـ/26 ماي 1184م، فأتمّ بناءها علي الغماري في عقب ربيع الآخر من عام 593هـ/19 مارس 1197م خلال خلافة أبي يوسف المنصور، ومن بعد ذلك جدّد المهندس فرنان رويث هذه الصومعة، وزاد في أعلاها قبّة الأجراس في عام 1568، ثمّ نقشت هذه الكتابة عام 1984 تمجيدا للذكرى المئويّة الثامنة لإنشاء هذا المنار العجيب».

أما إنّه مبنى عجيب فهذا صحيح بشهادة جميع من زاروه، والأعجب أن يعمّر ثمانمائة عام محافظا على كلّ متانته، مباهيا بارتفاعه الذي يتجاوز97 مترا، فهو أوّل ما يرى القادم إلى إشبيلية وآخر معلم تودّعه العين عند المغادرة.

بداخل المبنى طريق عرضه متران، جعل للدّواب والناس والسدنة حسب أحد المؤرّخين، يصعده الزائر من أسفل إلى أعلى في أرض سهلة بلا درج، ويدور صعوده حول نواة مربّعة مركزية تشغلها غرف متراكبة تعلو الواحدة الأخرى، وفيها النوافذ المفتوحة على المدينة تبدي لك واديها الكبير ومبانيها المنسّقة البديعة ومزارعها الممتدّة نحو الأفق. وتنقسم المسافة الصاعدة تلك إلى 35 منعطفا في كلّ واحد منها سطيحة، وبعد كلّ سبعة منها تجد إحدى تلك الغرف، ثمّ ينتهي بك الطواف إلى الشرفة الباقية من أيّام الموحّدين، والتي كانت التفاحات الذهبيّة التي ذكرناها منتصبة فوقها قبل أن يعوّضها النصارى بقبّة الجرس.

من المعالم الجديرة بالزيارة أيضا «قصر إشبيلية»، وهو تراث إسلامي مــازال يحتفظ بسماته الأصليّة، وجنائنه الأندلسيّة، بل حتّى إضافات ملوك النصارى ظلّت ممثلة للفنّ المدجّن الذي بقي حيًّا زمنا مديدا بعد مغادرة المسلمين للأندلس، وثبت أنّ أولئك الملوك شجّعوا عليه لرغبتهم في التشبّه بخلفاء قرطبة وأمراء غرناطــة في طرق البناء والزينة ورفاهة العيش، ويقال إنّ ملك قشتالة الذي أعاد بنــاء هــذا القصر علم 1354 كان على علاقة وطيدة بأمير غرناطة النصري محمد الخــامس، ومنه استعار بعض صنّاع الخشب، ونقّاشي الجبس، فقلّده في ذلك كثير من أثرياء إشبيلية محافظين على نمط البناء وزينة البيوت والحدائق بالأسلوب الأندلسي، حتى شرلكان نفسه أمر ببناء جناح خاص في حديقة قصره القوطيّ الطراز على الــنمط ذاته.

وعلى الرغم من الإضافات التي زادها من توارثوا المعلم من الملوك – قاصدين ترك أثر من عهودهم – فإنّ تجلّيات الفنون الإسلامية ظلّت باقية بــارزة، حــتى كأنّك، وأنت تنتقل من جناح إلى آخر، تظنّ أنّك تزور أحد قصور غرناطة، لولا أن ينبّهك وجود شعار قشتالة، أو تمثال أحد ملوكها، أوكتابة لاتينيّة في مكانٍ ما، فتدرك أنّك في قصر أحد مالكي إسبانيا الجدد. يتميّز مع ذلك الجــزء المعــروف بقصر «دون بدرو» بكونه أهمّ مباني هذا المعلم وأكثرها تجلية للفنون الإسلامية.

النموذج الوحيد الخارج عن النمط السائد هو قصر قوطي الهندســة بنــاه الإمبراطور شارلكان، وليس فيه من الزينة والزخارف ما يجلــب الانتبــاه، إلاّ أنّ مفاجأة تنتظر زائر قاعة السجاد الشهيرة، لأنّ فيها مجموعة زرابـــي ضخمة أمــر بصنعها الإمبراطور نفسه في معمل أنشأه لهذا الغرض، نسجت في صوفها صــور حملته على تونس عام 1553 لمقارعة خير الدين بربروس، نفّذ الرسوم فنّان كان مع الحملة، ونقل مشاهدها بتجديد في الألوان وتجسيم لحركات الأشخاص رغبــة في تجسيد الحدث كما هو في الواقع، اسم هذا الرسّام جان كرنيليس فرميّان، ويظهر أنّه غير إسباني. وفي قاعة ثانية زرابـــي أخرى، لكنّها أقلّ من الأولى جمالا وقيمة تاريخيّة.

حبّات الرمّانة

حفّت بالطريق الذّاهب بنا جنوبًا أشجار الزيتون فكأنّنا نخوض بحرا أخضر لا يبين له أفق عن يمين أو شمال، ومن حين لآخر يطلّ من إحدى الهضاب مجسّم كبير لثور نطّاح أسود كأنّما يشير إلى وجود ضيعة هناك لتربية تلك الحيوانات العنيفة المعدّة للمصارعة.

كنت قادما من زيارة إشبيلية وقرطبة، وفي كلتيهما شاهدت رسوما كثيرة لمشهد تسليم آخر ملوك غرناطة المسلمين مفتاح مدينته لفرديناند وإيزابيل، رأيتها مرسومة على لوحة زليج في الجناح الذي شغلته غرناطة أثناء معرض إشبيلية، رأيتها في صحون الخزف، على خشب منحوت، مطرّزة في منديل. صيغها كانت مختلفة، فمرّة كان الملكان راكبين وكذلك أبو عبد الله ممتطيًا حصانه، وفي أخرى أمير غرناطة يمدّ يده بالمفتاح وهو مترجّل بينما الملكان على فرسيهما، وثمّة أخرى واضحة فيها الإهانة تظهر الأمير المسلم على إحدى ركبتيه رافعا المفتاح إلى الملكة إيزابيل. جميع تلك الصور لا تقصد تسجيل الموقف التاريخي الحاسم بقدر ما تعبّر عن روح انتصاريّة مبتذلة، عبث فيها الخيال الشعبي وشكّل الحدث كما اشتهى. والحقيقة أنّ مفتاح قصر الحمراء (وليس مفاتيح المدينة وهي كثيرة بعدد أبوابها) وقع تسليمه إلى قائد الحملة الإسباني «دون غريناري»، وليس إلى الملكين.

وسواء أكانت غرناطة هي آخر حبّات المسبحة كما قال أحد الكتّاب العرب، أو «الرمّانة» التي التقطت حبّة بعد أخرى كما قال فاتحها فرديناند، فقد حان أجلها، وجاء دورها بعد أن سقطت قرطبة عام 1236 وإشبيلية عام 1248، وسقطت أغلب مدن الأندلس الجنوبي مثل حبّات الرمّان، ثم سقطت الرمّانة ذاتها. ولم تكن العوامل الحاسمة في تلك الانتصارات المتتالية انعداما في توازن القوى

بين الفريقين، وإنّما هو الإيمان والصبر والمثابرة والسعي المتواصل لتوحيد الصفوف، عند الجانب المسيحي، يقابله عند الجانب الإسلامي عدم الالتزام بقضيّة الوطن وحمايته وانشغال الجميع بالدفاع عن إقطاعاتهم ومصالحهم الذاتية.

يتحدث المؤرّخ جمعة شيخة في كتابه «الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي» عن انحلال المجتمع الأندلسي قائلا: «لقد أصبح هذا المجتمع كجسم هرم، هدّه المرض، وداهمته الأدواء من كلّ صوب، وهو يترقّب في كلّ لحظة أن يلفظ أنفاسه الأخيرة». ويمضي بعد ذلك في تعداد الأسباب، ومنها الصراع على العرش، والتكالب على اللّذّة، وانحلال الأخلاق، وخور العزيمة، والجبن في مواجهة العدوّ.

إنّ السنوات التي تفصل بين سقوط قرطبة وسقوط غرناطة يبلغ 256 سنة لم يفتر فيها عزم المسيحيّين الإسبان ولا خارت قواهم في مقارعة الملوك المسلمين، فظلّوا يقضمون وطن الأندلس كقطعة الجبن، أو يلتقطون حبّاته التي ما ازدادت مع الأعوام إلاّ تناثرا وشتاتا. في الأثناء واصل أمراء غرناطة عيشهم طيلة تلك السنوات، يسالمون أعداءهم مرّة، يتظاهرون بمحاربتهم أخرى، يؤدّون الجزية إذا خافوا الأقوياء، يعينون بعضهم على محاربة البعض، وليس هذا كلّه سوى رقصات مذبوح ينتظر خروج النفس الأخير، إلى أن أحسّ فرديناند وإيزابيل بعد اتحادهما بأنّ «تفريك الرمانة» حان وقته، فحاصروها بضعة شهور وأحرقوا ما حولها وقطعوا عنها الماء، فاستسلمت.

هاجر من أهلها من هاجر، وقبل الباقون التنصّر والاندماج في الواقع الجديد، قابلين أن تهدم مساجدهم وحمّاماتهم، وأن يبدلوا لباسهم وكلامهم وطرق عيشهم، وصاروا إسبانا مسيحيّين مخلصين للملك والكنيسة، وفيهم من غدا قسّيسا أو من كبار الموظّفين مثل «كردناش» حافظ الخزينة الذي فرّ أحفاده فيما بعد سرا لاجئين إلى تونس.

لكن المصيبة التي حلّت بمن بقوا وتنصّروا – أو بالأحرى أصابت أحفادهم – هي أن يشكّ الحكّام الجدد في إخلاصهم وصدق تنصّرهم، وأن تضيّق محاكم التفتيش الخناق عليهم، ثمّ أن يتقرّر في النهاية عام 1609 التقاطهم مثل حبوب

الرمّان، حسب عبارة فرديناند، وطردهم دفعة واحدة خارج الحدود، إلى جنوب فرنسا وجزر البحر المتوسّط أو إلى بلدان المغرب. ألزموهم بالمغادرة فورا لتتطهّر الأرض الإسبانية من كلّ عربي، حتى ولو تنصّر، حتى ولو اختلطت ثلاثة أرباع دمه بالدّم الإسباني. ولسائل أن يسأل كيف أن أولئك المطرودين لم يندمجوا منذ سقوط غرناطة عام 1492، أي بعد مرور 117 عاما عليهم تحت الاحتلال والضغط؟ لقد تكوّن منهم أربعة أجيال، إذا اعتبرنا مدّة الجيل ثلاثين عاما، فالجدّ وابنه لابُدّ أنّهما ماتا، وربّما بقي من السلسلة حفيد كهل وابنه الشاب، وهم كأمثالهم ربّما نسوا أصولهم وديانتهم ولغتهم، إذ لا بُدّ من انكسار الخط بعد انقضاء المدّة وانعدام التواصل بين سلف غبر ذكره وخلف لم ينشأ حسب تقاليد أهله. لقد رأى الناس في تونس كيف جاءهم هؤلاء لاجئين لا ينطقون بالعربية ولا يتذكّرون قواعد الإسلام.

كان استرجاع النصارى لغرناطة رمزا لنهاية الوجود الإسلامي في إسبانيا، وأوحى لهم الحماس الديني بتبديل جوامعها إلى كنائس وأديرة، وأوصى الملكان الكاثوليكيّان بأن يدفنا فيها، وعندما تولّى شارلكان الحكم بنى قصرا في صلب الحمراء شوّه بخشونته رقّة معمارها. ثمّ هدأت الحميّة بعد سنوات وتنوسيت غرناطة، بل وأهملت قصورها وحدائقها. ولعلّ حسن حظّ الإنسانية جعلها تنسى لتفلت من أيدي العبث والهدم أو التشويه التي ربّما كانت تطالها على مرّ السنين.

بهجة الحدائق والقصور

كم هي الكتب الصادرة حول غرناطة وقصرها وجنائنها؟ وكم هي الصور التي طافت العالم مبرزة جمال صحن الأسود وروعة نوافيره، وبراويز ومقرنصات الأروقة المزخرفة المنمّقة والموشّاة؟ بل ماذا تكون غرناطة لولا «قصر الحمراء»، درّة هذه المدينة وقمّة ما وصل إليه فنّ العمارة والزخرفة ببلاد الأندلس؟ اشتهرت هذه المعالم أيّما شهرة، لكن ما شاهدناه فيها لا يخضع بسهولة للوصف، ولا تقدر على إجلاء معانيه ودقائق تكوينه إلاّ المشاهدة الحيّة، فمتعة الحضور هناك لا يعوّضها معوّض.

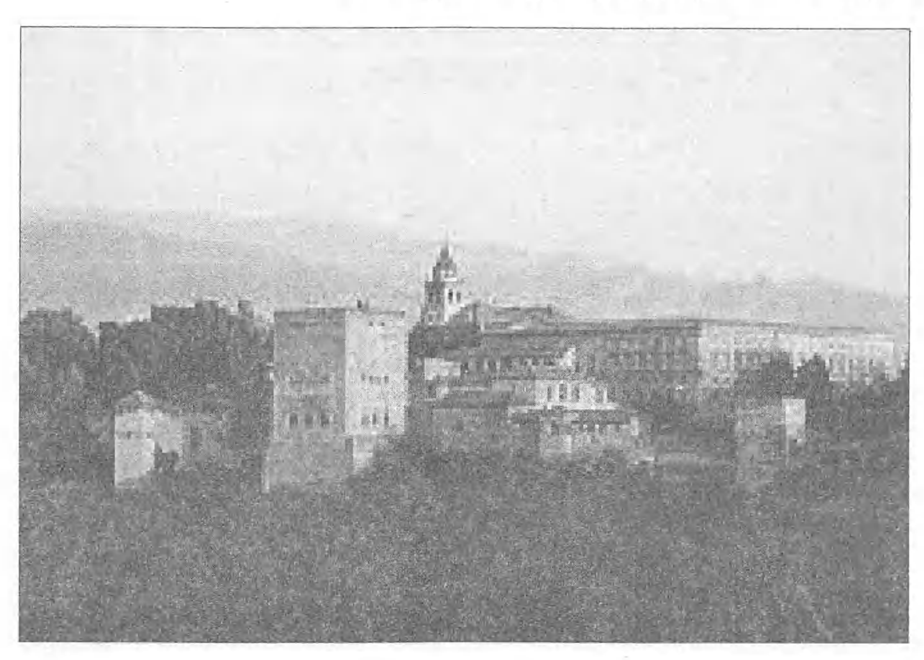
وقد جرى على ألسنة الناس اسم «قصر الحمراء»، وهو في الحقيقة ثلاثة قصور، بل هو قلعة ذات أربعة أجزاء:

أوّلها القصبة، وهي التحصينات المبنية منذ القرن السادس عشر، تطلّ عليها من فوق نوافذ القصر، وخصّصت لإقامة الجند والخيل والأسلحة، وكان لها في الأصل 24 مرصدا للحراسة يصل بينها سور واستحكامات دفاعيّة، تهدّم أغلبها ثم رمّم في العهود الأخيرة. ويكتشف المتحوّل بينها منظرا شاملا للمدينة وهضابها المحيطة بها كعقد بجيد حسناء.

ثانيها قصر الإمارة، وبه مركز الحكم وسكنى الأمراء النصريّين، وهو في الحقيقة قصران: أوّلهما من إنشاء يوسف الأول (مدّة حكمه: 1333-1353)، وقاعاته تحيط بصحن الريحان، وثانيهما بناه محمد الخامس (مدّة حكمه: فترة أولى 1354-1359 خلع ثمّ عاد لفترة ثانية 1362-1391)، وقاعاته تحيط بصحن الأسود الشهير. ويتشابه القصران في هندستهما المطابقة للأنموذج العربي الإسلامي في تكوّنهما من جزأين: أحدهما منفتح على الداخل للحياة الخاصّة،

والثاني منفتح على الخارج، وأغلبه موظّف لممارسة الحكم وإدارة الدولة. قاعـات القصرين مستطيلة الشكل، يصل بعضها ببعض ردهات وممـرّات وأروقـة ذات أقواس وأعمدة منحوتة زاخرة بعناصر الفنّ الإسلامي الثلاثـة وهـي: الخـط، والزخرفة النباتية، والعربسات الدقيقة الصنعة، وفي كلّ ما ترى العين منها تناسـق وتناسب وتآلف هو سرّ بهجتها. لقد كانت رغبة الملوك الكاثوليك شديدة في إزالة كلّ أثر للمسلمين في الأندلس، لكن عزّ عليهم هدم قصر الحمراء.

ثالث الأقسام هو جنّة العريف، وكلّها شجر منوّع منسّق، وسـواقي مـاء، ونوافير بديعة. وهي مقسّمة إلى أجزاء تفصل بينها مماشي حصى وشجر سرو أنيق مشذّب، وفي كلّ جزء مبنى صغير أو جوسق لاستراحة المتنـزه. استأثرت «جنّة العريف» بموقع مرتفع يمتّع زائره بالهواء المنعش وروائح الزهر والشـجر، وبـريح بصره بالتأمّل في الهضاب والسهول المحيطة. وهي بنظامها تعتبر الأنموذج المكتمـل للحدائق المعروفة في سائر البلاد الإسلامية كالشام والعراق وبلاد فارس والمغرب، ممّا روى لنا عنها المؤرّخون والشعراء تفاصيل كثيرة.



قصر الحمراء وجنّة العريف

القسم الرابع هو قصر شارلكان، وهو مبنى ضخم واضح الغلظة، متنافر مع مباني الحمراء الرقيقة، أراده صاحبه على نمط المباني الرومانية: حجارة محدّبة بارزة، وخطوط مستقيمة، وشعارات الإمبراطورية بين فتحات النوافذ والأبواب، قصد بها التباهي بما بلغته الإمبراطورية الإسبانية من عظمة وسلطان. أمّا الصحن الداخلي فهو أقلّ صرامة إذ يأخذ شكلا دائريًّا، يعلوه طابقان عامران بغرف مختلفة الهيئة، لكنّها لا تخلو من أناقة وجمال.

من معالم غرناطة الشهيرة «ربض البياسين»، وهو حيّ أنشأه لاجئون من مدينة بيّاسه الواقعة شمال غرناطة، بعد سقوط مدينتهم بيد الإسبان عام 1227، وهذه علامته التاريخية الأولى. العلامة الثانية هي اندلاع ثورة عارمة من بيوته وشوارعه أشعلها الموريسكيّون لما نالهم من ضغط القساوسة النصارى ومحاولات تنصيرهم بالقهر والقوّة، ولنقض السلط الإسبانية عهودا أخذتها على نفسها تجاه الرعايا المسلمين. وقد انتهت الأحداث بكثير من القتل والتدمير، وبتهجير أهالي ذلك الحيّ ليذهبوا أشتاتا بين القرى، أو ليأخذ بعضهم طريق جبل البشرات ويواصل العصيان. هذا الحيّ الجميل النازل من هضبته في شوارع ضيّقة أرضها رصف غليظ، ودورها بيضاء متلاصقة تخفي بين حناياها جنائن وخمائل، كم يذكّرني بقرية سيدي بوسعيد في تونس. إنه هنا، كما هو هناك مقصد السيّاح وزائري غرناطة، ومثابة للفنّانين من موسيقيّين ورسّامين أو من أصحاب الذوق الرفيع عمومًا.

أنهينا جولتنا في «البياسين» عند حافة مشرفة على غور يجري فيه نهر الدّارو على مقاعد مظلّلة بالشجر، لكن نساء الغجر تكاثروا علينا، عارضين مصوغاتهم اليدويّة، ومهاراتهم في استقراء الحظّ وقراءة الكف. إنّ مساكنهم القريبة من هناك الأشبه بمغاوير حفروها بجبل «سكرمنتو» تجعلهم يرصدون كلّ من يغشى الحي الشهير، فيأتونه فرادى وبتجاذبونه لأنّ هذا هو مرتزقهم الوحيد، ولا يرضون بشغل غيره. أمّا أفضل هواياتهم وسبب اشتهارهم فهو الغناء والرقص المميّز المدعو «زمبرا»، ويقال إنّه الأصل الذي انطلقت منه موسيقى «الفلامنكو» ورقصاتها الشهيرة.

عند منعطف التاج

تقع مدينة طليطلة عند منعطف نهر التاج، بل بين منعطفاته المحيطة بها من جهات ثلاث كأنّه يحضنها، وتعتلي هي الهضبة الأشبه بجزيرة محاطة بالماء، وتحتها أغوار وأجرف. إنّها مدينة مكتظّة بالمباني العتيقة والمعالم التاريخيّة، يبرز من بينها جميعا الكاتدرائيّة الضخمة والقصر الشامخ فوق أعلى قممها، يلوح لك من كلّ جهة نظرت، ويعرف هنا باسم «ألكازار» أي القصر. فهو يلوّح للقادمين إلى طليطلة من أيّ الجهات الأربع جاءوا، ولا يصل إلى مستوى ارتفاعه إلاّ برج الكاتدرائية. كان مبنيًّا من عهد الرومان، ثمّ حلّ به القوط، وبعدهم العرب. ويقول المقّري في «نفح الطيب» إنّ أمير المدينة في القرن الحادي عشر المأمون بن ذي النّون هو الذي شيّده، والأصحّ هو أنّه أصلحه، ووضع فيه أعاجيب هندسيّة من بينها قبّة زجاج ملوّن «... ينزل الماء من أعلاها على جوانبها محيطا بها، ويتّصل بعضه ببعض، فكانت قبّة الزجاج في غلالة من ماء، وتوقد فيه الشموع، فيرى لذلك منظر عجيب».

يروي التاريخ أنّ المبنى الأصلي للقصر هدم مرّات، واحترق مرّتين، وشهد أحداثا كثيرة، ومرّ من يد قائد أو أمير إلى يد آخر ثمّ إلى غيره. آخر ما حلّ به أيام الحرب الأهليّة، بعد أن صار أكاديميّة عسكريّة، حصار ضربه عليه الجنرال فرانكو دام شهرين تلقى خلالها من ضرب المدافع وتفجيرات الألغام ما هدم أبراجه الأربع، واحدا بعد آخر، حتى لم يبق إلاّ الوسط مليئا بالركام والحجارة. لكن أعيد بناؤه بالكامل بالحجر الصوّان، فجزء منه اليوم مخصّص للشؤون العسكريّة، وجزء منه لاحتواء متحف حربي.

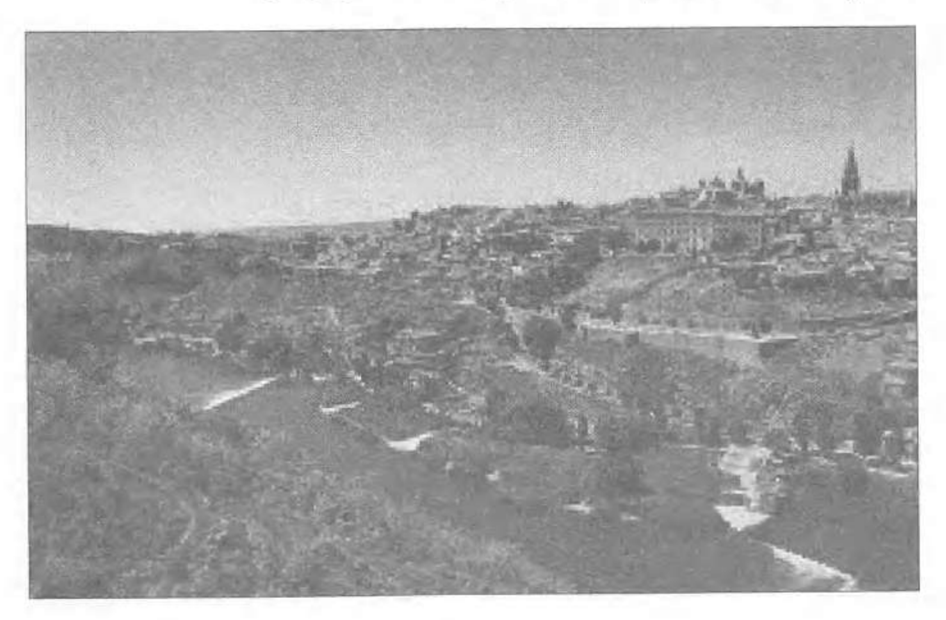
لن أقول إن طليطلة هي أعرق المدن الإسبانية، فكلّ مدن إسبانيا عريقة، وإنما هي أكثر مدينة أوروبية يتجمع فيها قدر هائل من المعالم الأثريّة، إذ يقال إن بُناتها

الأوائل هم الإغريق، ثمّ طورها الرومان وجعلوها قلعة لا تغلب، وهـذا سـبب تسميتها «تو ليدو» أي المدينة المحصّنة، حتى أنّك لا تدخلها اليوم إلاّ مـن أحـد أبواب تسعة هي كلّ الفتحات التي يسمح بها السور المحيط بعمارتها وأحيائها. أمّا المسلمون الأوائل فقد بنوا فيها مساجد وقصورا وجسورا على نهر التاج أحـدها يعرف باسم «القنطرة»، وهو إنجاز معماري عربـي باق إلى اليوم، لكن لم يبـق من آثارهم شيء يذكر، لأنّ المدينة سقطت بأيدي الإسبان في وقت مبكّـر، أي منذ سنة 1085، قرابة المائة وخمسين سنة قبل سقوط قرطبة، وقرابة الأربعمائة سنة قبل سقوط غرناطة.

إذا عزمت على التسوّق فابدأ بساحة «زوكودوفر» المأخوذ اسمها من عبارة «سوق الدوابّ»، ، فهي مزدحمة بالسيّاح وحولها متاجر الهدايا التي قد لا تعثـر على مثلها في أسواق الأندلس، فطليطلة معروفة بصنع أنواع فاخرة من السـجّاد والسيوف الفولاذية الرفيعة، والمنقوشات الخشبية وغيرها. أمّا إذا أردت اكتشاف معالم المدينة فابتعد عن زحام ذلك السوق، واترك خطاك تقـودك بـين الطـرق الضيّقة، والمدارج الصاعدة النازلة، وسيفاجئك عند كلّ منعطف معلم قديم، قـد يكون من أيّام الرومان أو القوط أو العرب المدجّنين (الذين تنصّروا وبقوا تحـت حكم الإسبان)، بل إن حيًّا ما زال آهلا إلى اليوم يحمل طابع المعمـار المـدجّن. أكثر من هذا فإنّ كنيسة سانتو تومي بُنيت كلّها بهذا الأسلوب، وحتى الكاتدرائيّة المبنية في القرن السابع عشر بها أثر منه.

لقد أرادت الجغرافيا أن يكون مكان طليطلة في قلب الوطن الإسباني، وأراد لها التاريخ أن تكون عاصمة لقشتالة، من القرن الثاني عشر إلى القـرن السـادس عشر، وأن تكون مركز إمبراطورية شارلكان إلى أن كان عهد فيليب الثاني الذي استبدلها بمدريد، وأراد لها تنوّع العنصر البشري للبلد أن تكون بوتقة تمتزج فيهـا ثقافات الديانات السماوية الثلاث: المسيحية، واليهودية، والإسلامية، وأن تزدهر فيها الترجمة على أيدي أتباع تلك الديانات، ويتبادل فيها علماؤها معارفهم، وأن يخصبوها. وقد برز من رجالها أيّام حكم المسلمين صاعد الطليطلي صاحب كتاب «طبقات الأمم»، والزرقالي الفلكي الذي ترجم جيرار الكريموني أعماله الفلكيّـة

إلى اللّغة اللاّتينيّة، والقاضي الشاعر ابن العسّال. ومن رجالها بعد الاستيلاء الإسباني الملك العالم والفلكي ألفونسو العاشر، والكاتب المسرحي والشاعر لوبي دي بيغا، والرسّام الشهير الذي تبنّته المدينة لوغريكو.



نهر التاج يشقّ طليطلة

سأقول في النهاية أنّ في زيارة طليطلة متعة لطالب النزهة كما لطالب الاستفادة، وقد كانت إقامتنا بها في أحد تلك المباني الأثريّة قد حوّلت إلى نزل مريح به كلّ المرافق العصريّة، وهذه إحدى مهارات الإسبان، تظهر تفوّقهم في استغلال المعالم القديمة لخدمة السياحة، إذ حوّلوا أكثرها إلى فنادق من درجة راقية تديرها مؤسّسة حكومية. فليس غريبا أن تجد نفسك في إحدى قلاع القرون الوسطى وبغرفتك الكهرباء والهاتف والتدفئة المركزيّة، وهم بهذا قد أصابوا عصفورين بحجر واحد: المحافظة على المعالم واستثمارها في نفس الوقت.

على ذكر طليطلة

عندما كتبت روايتي «تغريبة أحمد الحجري» تخيّلت أنّ بطلها الذي احترف الترجمة لدى أساقفة غرناطة كان طالبا في طليطلة، وأودّ هنا بمناسبة الحديث عن زيارتي لهذه المدينة إيراد انطباعات أحمد الحجري عنها، عندما أخذه أبوه إليها ليسجّله في أحد معاهدها وهو شابّ في أواخر القرن السادس عشر، وقد جاء على لسانه في الرواية:

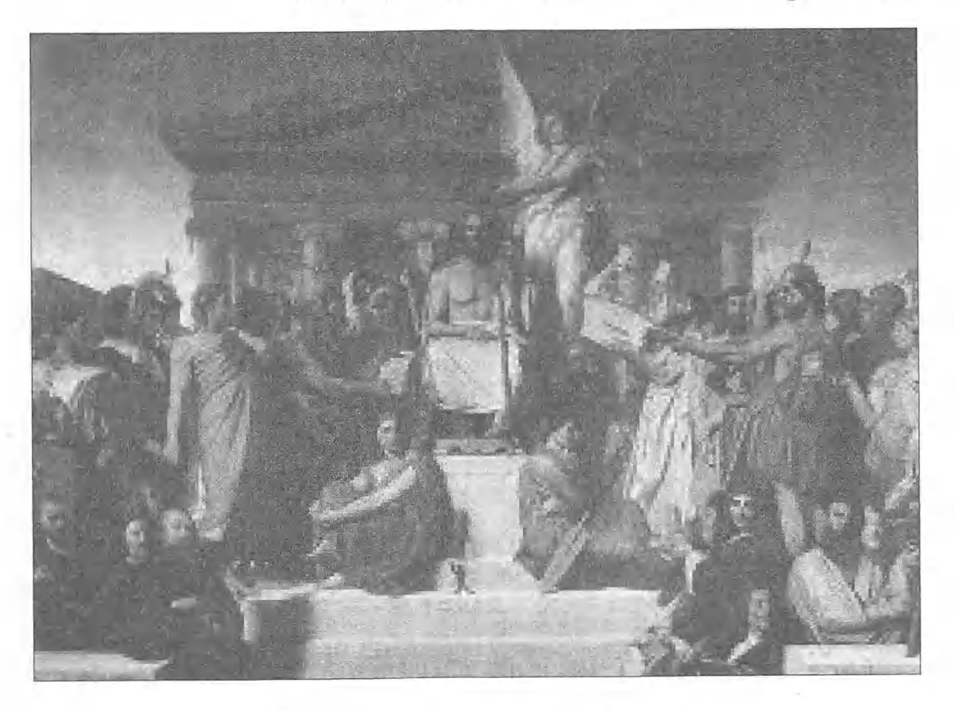
«بقينا أيّاما في طليطلة نزور معالمها القائمة والدارسة، دليلنا في ذلك «الكوردليرو». أخذنا أوّلا إلى دير سان خوان دل ريس الذي بناه فرديناند وإيزابيل منذ مائة سنة تخليدا لانتصارهما في معركة التورو. ثمّ زار بنا الجزء المنتهي من كاتدرائية عظيمة تجري الأشغال بها حثيثة من طرف جيش عُمّال وبنّائين لا يحصر عددهم ولا يحصى.

قال مرافقنا: هنا عمّال يرفعون الحجارة، وثمّة عمّال لا ترونهم هم الرسّامون والنحّاتون وناقشو النحاس والمعدن الذين جلبهم الملك من روما وغيرها، وأشهر هؤلاء جميعا، على ما سمعت، رسّام يوناني يدعى إلقريكو، يحترمه رجال الكنيسة كأنّه أسقف كبير، وإن شئتم طلبت إذنًا لزيارة مرسمه.

أبديت شوقا للاطّلاع على أعمال الرسام الشهير لكن أبي اعترض متعلّلا بضيق الوقت. زرنا بعد ذلك قلاعا قديمة ما زالت صالحة للدفاع، يعمّرها جند يظهرون بالعشرات على شرفاتها، تلتمع خوذاتهم في نور الشمس، فكنّا نقترب قليلا من أبوابها ثمّ نتقهقر مسرعين إذا رمقنا أحد الحرّاس بنظرة شكٍّ وريبة.

قال الكورديليرو: أغلب القلاع بناها أمراء دنّون لما حكموا طليطلة قبل ألفونسو ستة.

تذكرت هذه الجملة بعد مرور سنوات طويلة وأنا في المغرب أطالع كتاب «نفح الطيب». فقد ذكر المقّري قصّة ألفونشو السادس هذا مع طليطلة وحكّامها بني ذي النّون. إذ لمّا جاءها هاربا من أخيه الذي سجنه في دير «ساهاجون»، طالبا اللّجوء عند أميرها يحيى بن إسماعيل بن ذي النّون، رحّب به هذا غاية الترحاب وبالغ في إكرامه، حتى إنّه أنزله دارًا مجاورة لقصره، وجعل له دارًا أخرى خارج المدينة ذات حدائق يتنزّه فيها هو ومرافقوه.



إحدى لوحات الرسام اليوناني إلقريكو

قضى ألفونشو في منفاه بطليطلة تسعة أشهر درس فيها أحوال المدينة وحكّامها تمهيدا للاستيلاء عليها، جزاء المعاملة الحسنة المبالغ فيها أحيانا حتّى صارت نوعا من الغفلة. وعندما رحل عن المدينة مكرّما كما جاء لم يطلب منه يحيى إلاّ الصداقة، فقطع له ألفونشو من العهود ما شاء، لكنّه لم يف بواحد منها، بل إنّه بعد التغلّب على أخيه عاد فحاصر طليطلة سبع سنين إلى أن تمكّن منها وضمّها إلى مملكة النصارى في الشمال.

آخر المطاف مررنا أثناء عودتنا بمعبد خرب مهمل، على بابه كتابة بالعبرية لا تخطئها العين، فلمّا حاولت التوقّف للتأمّل في داخل المبنى جرّني الدليل من يدي محذّرا: إنّها بيعة اليهود، أهملت منذ طردوا من المدينة، وبقيت كما ترى مسكنا للغربان، إلاّ أنّ النصارى استولوا عليها، وسوف يحوّلونها إلى كنيسة في القريب. هم فقط ينتظرون الانتهاء من بناء الكاتدرائية.

قال أبي متحسّرا: نفس المصير الذي لقيته مساجدنا. استحواذ كامل على الله وعلى بيوته، وعلى حق عبادته».

في مكان آخر من الرواية جعلت الحجري يتذكّر مع أحد زملائه القُدامى أيّام مقامه بتلك المدينة، وافتتانهما بالمسرح: «وتذاكرنا أيّام الشباب في طليطلة، وسهرات الفرقة المسرحيّة التي اشتركنا في إنشائها إلى أن منعها ديوان التفتيش. في أيّامها كُنّا مجموعة شبّان ستّة أُصبنا بهوس المسرح فلا نتخلّف عن أيّ عرض يقدّم في المدينة، وقد نشاهد المسرحية الواحدة مرّتين أو ثلاثا حتى نحفظ أناشيدها وأشعارها. وأكثر المؤلّفين شهرة عصرئذٍ هو لوبّي دي بيغا الذي كان يكتب بيدين في وقت واحد. لكثرة إنتاجه وخصوبة أفكاره.

ذكّرني إبراهيم بزيارتنا العجيبة إلى لوبّي دي بيغا حين كان في خدمة الدوق أنطونيو ألفاريث، وقد جاء به معه إلى طليطلة. بسرعة اِلتأمت مجموعة الستّة كما العادة عندما نقصد المسرح، وحاولنا دخول مقرّ الدّوق، لكن الحرّاس صدّونا بعجرفة، فازداد إصرارنا على الدخول شارحين لهم أنّنا لسنا متطفّلين أو طالبي صدقة، وإنّما نحن طلبة لا همّ لنا إلاّ التثقّف ومعرفة مشاهير الرجال. لما طال النّقاش ووصلت أصواتنا إلى داخل القصر خرج رجل طويل القامة لا يحمل سلاحا، وحاول مساعدة الحرّاس على صدّنا بالنّقاش والإقناع، لكن ما إن سمع كلمة الشعر والمسرح على لسان أحدنا حتّى أشار علينا بالهدوء، وسأل: إن أنتم من هواة الشعر والمسرح فالدّوق أنطونيو ألفاريث لا يهتمّ بهما كثيرا، وإن جئتم لطلب آخر فاكتبوه في عريضة وسأقدّمها له في أوّل فرصة وأردّ عليكم.

صرخنا بصوت واحد: لا حاجة لنا عند الدّوق... نريد رؤية لوبّي دي بيغا.

ضحك الرجل عندئذ حتى لوى عنقه إلى الوراء وقال للحرّاس بعد أن لعنهم ولعننا: ابتعدوا... هؤلاء ضيوفي. أنا لوبّي دي بيغا. أحطنا بـه فأدخلنـا غرفتـه الخاصّة وقضى معنا العشيّة كلّها يحاورنا وينشدنا شعرا».

مدريد أو مجريط

أشرفت عام 1991 على جناح تونس في المعرض الدولي للكتاب بمدريد. كان جناحا صغيرا لا يكاد يُرى إلى جانب الأجنحة الفخمة لدور النشر الإسبانية والجنوب أميركيّة، و لم يكن مؤثثا سوى بأعلام وصور سياحيّة تفضّلت بها السفارة التونسية، أمّا الكتب فلم تكن من الكثرة والتنوّع بحيث تستوقف العابر. فكنت أقضي اليوم أنتظر زوّارًا لا يأتون، وأشاهد من حولي حركة لا تنقطع في بقيّة الأجنحة، ومواكب توقيع الكتب الجديدة، وحفلات تكريم المؤلّفين تكاد تقلب أجنحة الناشرين إلى مطاعم ومشارب خمس نجوم، لا تنقطع منها طقطقة الصّحون وقرع الكؤوس.

وذات يوم دخل عليّ مغترب تونسي يعمل في التدريس والصحافة بإسبانيا منذ ثلاثين سنة، أعلن لي عن اسمه وصفته بدون مقدّمات، ورغب منّي عرض كتاب من تأليفه في الجناح التونسي.

قلت: وما فائدتك؟ فلن ينتبه إليه أحد. ها أنت ترى الناس لا يزدحمون إلاّ على الأجنحة المزدهية المحتفلة.

قال: ما بالكم لا تفعلون فعلهم وتحتفلون مثلهم؟ فمن عادة الإسبان أن لا يهتمّوا بما تعرضه إلاّ إذا كان بقربه طعام أو شراب، ولا أن يفتحوا الحديث معك إلاّ حول مأكل ومشرب. هل لديك لباس تونسي؟

قلت: جلبت معي شاشية وجبّة.

قال: ألبسهما غدا، وسيأتي معي طالب يعزف العود جيدا، ولنتدبّر بعض الحلويّات التونسية.

قالت زميلة كانت معي: معي بعض مقروض القيروان.

فرح صاحبنا بكلّ هذا وهتف: رائع... هذا كلّ ما يلزم. وأقمنا يوم الغد حفلا في الجناح التونسي، فاكتظّ حوله الناس وتدافعوا بالمناكب ليسمعوا عزف العود ويذوقوا المقروض، أو ليتفرّجوا على جبّتي القمراية وساق البنطلون تحاول البروز من تحتها حينا بعد حين. وبنفس المناسبة تصفّحوا كتبنا وسألوا عن المؤلّفين، وتقدّم بعض الكتّاب خطوة فسأل عن إمكانية تبادل الترجمة، أو النشر المشترك.

تلك كانت أولى زياراتي إلى مدريد عاصمة إسبانيا قضيت أغلب أيّامها محجوزا في المعرض، ثمّ كانت لي زيارة ثانية وأنا أعبرها قاصدا الأندلس، ولم أتمكّن في كلتا المرّتين، من معرفة هذه المدينة الضخمة إلاّ جزئيًّا، وبصورة عابرة. إلاّ أنّ صديقي الجديد المقيم في مدريد عرّفني ببعض أحيائها حسب ما تيسّر لنا من الوقت. وأفضل مكان اكتشفته هو «لاتينا» الكائن في قلب الحيّ التاريخي بشوارعه الضيّقة ومبانيه اللّطيفة، أعجبني الجوّ الحميمي الذي تشعرك به بارات التاباس المنتشرة فيه، يتنقل بينها الشبّان والطلبة فتيانا وفتيات ضاحكين صاخبين، كأنّهم يتنقلون بين حجرات منزل واحد.. وأعجبتني حركة يوم الأحد التي تشتدّ فيها حيويّة المكان وتكثر حركته، إذ يملأه الباعة والفضوليّون بمناسبة انعقاد «سوق كل شيء» الذي ينتصب كعادته منذ قرون مالئا الأرصفة والساحة، جاذبا إليه السيّاح والباحثين عن تحفة نادرة أو شيء فريد، وآخرين ممّن لا حاجة لهم وإنما جاءوا للفرجة والتسلية.

إنّ مدريد هي أكثر مدن إسبانيا اتّساعا، وأوفرها سكّانا بملايينها الثلاثة ونصف. ولا تكاد تختلف كثيرا عن كلّ مدن العالم الكبرى بحداثتها وضوضائها وازدهارها الاقتصادي. صحيح هي كانت مجرّد بلدة يقال إنّها تبعد عن طليطلة سبعين كيلومترا، وصحيح أنّ طليطلة الآن هي التي يقال بأنّها تبعد عن مدريد بذات المسافة، وهكذا قضى التاريخ بقلب الترتيب، دافعا مدريد إلى مركز الصدارة، متناسيا الدور الهام والخطير الذي أدّته طليطلة منذ القدم.

قد نظلم مدريد إن قلنا أنّها خلو من كلّ خصوصيّة تاريخيّة، فلها منها نصيب وافر لكنّه غير بارز للعيان كما هو في المدن الإسبانيّة الأخرى، إذ غلبت عليه فيها مظاهر العمران العصري ومتطلّبات الحداثة، وما شهدته أحياؤها من توسّع بدافع الضغط السكّاني الشديد.

لكن الباحث المدقّق لا بُدّ أن يعثر في بعض أركانها على دلائل من فنّ أو معمار أو تقاليد، عبرت القرون ولا تزال باقية. ولنبدأ باسم المدينة العربيّ الأصل «مجـــريط» المأخوذ من كلمة تعني مجرى الماء، سمّاها به مُنشئها أمير قرطبـــة محمـــد الأوّل (852-886) الذي بناها في أواخر القرن التاسع خلال حملة بناء الثغور، لتكون قلعة حاميـــة لطليطلة القريبة منها، لكنّها لم تدم تحت رايته طويلا إذ امتلكها عام 1047 فردينانـــد الأوّل ملك قشتالة، ثمّ تنازل عنها لملك طليطلة. وفي عام 1109 هاجمها أمير المرابطين ابن تاشفين وهدمها لكيلا يتحصّن بها القشتاليون. وبعد انتهاء حـــروب الاســـترداد، ووفاة شارلكان، قرّر فيليب الثاني (1527-1598) جعل مدريد عاصمة لإسبانيا.

روى لنا التاريخ أيضا أنّ ممّن انتسب إلى هذه المدينة في أيام المسلمين عـــالم كبير يدعى مسلمة بن أحمد المجريطي (توفي عام 1007)، ذكرت كتب الأعلام أنّه كان إمام الرياضيّين بالأندلس، وأنّه أستاذ عدد من النوابغ مثل: الزهراوي وابـــن الصفّار والكرماني وابن خلدون. وفي أيّام دخولها تحت الإسبان ظهـــر في مدريـــد رجال ذكرهم التاريخ أيضا، منهم الشاعر لوبّي دي بيغا وثربانتس الذي طبع فيها كتابه الشهير دون كيشوت أوّل مرّة، وتوفّي بها عام 1616.



مدريد